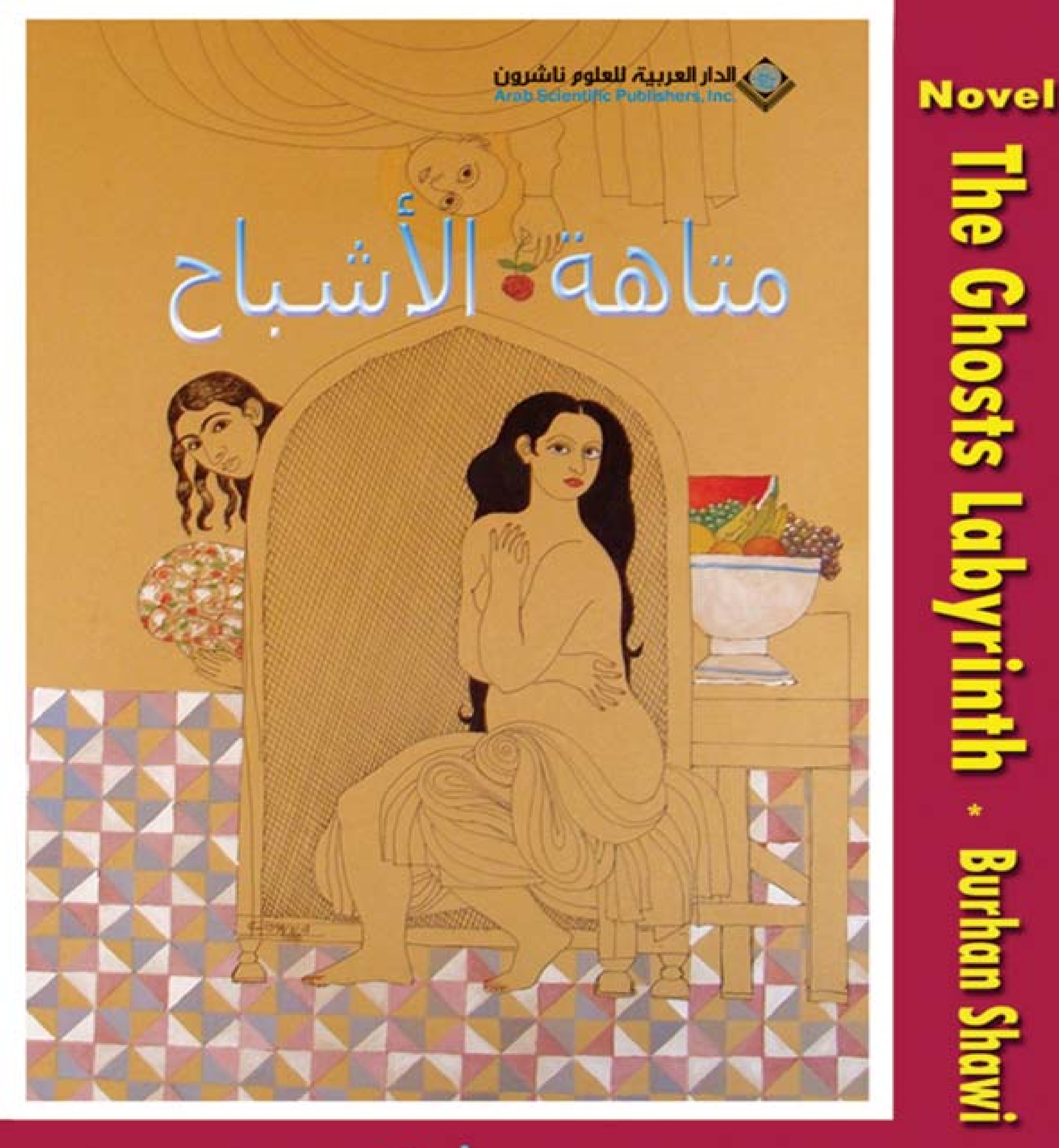


رواية

بُرهان شاوي

متاهة الأشباح

THE GHOSTS LABYRINTH

رواية

Novel

بُرهان شاوي

Burhan Shawi



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc.SAL



الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ISBN: 978-614-02-2162-8



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

أنا لستُ أنا
إنني هو
الذي يمشي بجانبي دون أن أراه
والذي أكاد - أحيانا - أراه
والذي أنساه مرات عديدة
والذي يصمتُ عندما أتكلم
والذي يغفر، عندما أكره
والذي يمشي عندما أتوقف
والذي سوف يظل واقفًا
عندما أموت..
خوان رامون خيمنيث

الفصل الأول: السومبي على جسور لندن

كان المطر ينهمر بشدة في الساعات الأولى من ذلك الفجر الحزين، الذي كان ظلامه كثيفا في سماء مدينة لندن. حواء صحراوي كانت ترتجف من البرد، بالرغم من أنها قد فتحت جهاز التدفئة في سيارتها. أخذت تستعيد المشهد الذي مرت به قبل قليل حينما دخلت الشقة التي يسكنها الكاتب آدم التائه، وهي الشقة التي خصصتها له صديقتها الممثلة إيفا ليسنج عندما وصل لندن قادماً من ألمانيا قبل ثلاثة أسابيع، حيث شاهدته مشدوداً إلى كرسيه وهو مقتول.

انتبهت الآن، وهي في سيارتها، إلى أنها كانت باردة الأعصاب حينما رأت باب الشقة مفتوحاً، بل وحتى حينما دخلت ووجدته مقتولاً وسط الشقة، تذكر أنها كانت مندهشة ومصدومة لكنها كانت باردة الأعصاب. أخذت تستعيد ذلك الشعور الغامض الذي راودها، وذلك الإحساس بالخطر، حينما كانت تتحدث معه تليفونيا، لمّا توقف عن الكلام فجأة، ليخبرها بأن هناك من يقرع جرس الباب الخارجي، ثم أطبق سماعة الهاتف على وعد منه بأنه سيتصل بها بعد قليل. لكنه لم يتصل.

تتذكر الآن بأن أول فكرة راودتها هي أن طارق باب الشقة ربما كانت صديقتها إيفا ليسنج، التي جاءت لتقضي ليلتها معه، بل وتتذكر كيف ظلت للحظات وهي تشتعل من الغيرة غير الواعية، لكن فجأة انقبض قلبها، إذ برقت في ذهنها فكرة مرعبة، فربما سيحدث مع آدم التائه مثلما حدث مع حبيبها هابيل الياسري، الذي قتله زوجها السابق، قابيل الموسى، الغيور بشكل مرضي والذي لا يتردد عن قتل أي شخص يشك بأن لديه علاقة معها..!!.

حاولتْ حينها أن تستبعد هذا الفكرة وما رافقها من قلق، إذ أخذت تهدّئ من روعها بأنها لم تلتق بالكاتب آدم التائه على انفراد قط، ولم تأت لشقته إلا عندما كانت إيفا ليسنج معهما.. كما أنها التقته بشكل علني مرة واحدة في المطعم الصيني..! صحيح أنها تتحدث معه عبر الهاتف ليلياً لساعات، لكن من أين يمكن لزوجها السابق أن يعرف ذلك؟ وصحيح أيضاً بأنه يتتبع حركاتها ويكلف المخبرين السريين المجهولين بالنسبة لها لتتبعها، فهي لا تشك في ذلك، لكن كيف له أن يخمن ما دار بينهما من أحاديث عبر الهاتف، حتى يمكنه أن يخمن وجود علاقة ما نشأت بينهما..؟.. ورغم ذلك أحست بإنقباض في قلبها.. مما دفعها إلى المجيء

لتتأكد من ذلك. حينها فكرت مع نفسها بأنها لو رأت سيارة صديقتها إيفا ليسنج عند مدخل البناية أو في مرآبها فستعود أدراجها إلى بيتها.. وإلا فأن ذلك يعني حدوث شيء ما له.. نعم.. إنها تستذكر كل تلك التفاصيل الآن وهي في سيارتها التي أوقفتها في زاوية شارع بعيد نوعا ما عن المبنى الذي يسكنه آدم التائه.

* * *

بعد أن غادرت حواء صحراوي المكان بسيارتها، وابتعدت قليلاً عن المنطقة التي تقع الشقة فيها، والتي حدثت فيها الجريمة، توقفت قليلاً عند منعطف ما، وأشعلت ضوء السيارة الداخلي، وأخذتْ تتصفح المخطوطة الغريبة التي أخذتها من طاولة كتابة آدم التائه.

أدركتْ بأن القاتل، أياً كان، لم يعرف هوية القتيل آدم التائه بشكل حقيقي، ولم يقتله لأنه كاتب، فهو لم يمس مخطوطته التي كانت على طاولة الكتابة القريبة، كما أنه لم يكن لصاً، لأنه لم يعبث بأي شيء في الشقة، حيث كانت الأشياء في مكانها، وهذا يعني، كما أعتقدتْ، بأن القاتل أراد القضاء على آدم التائه لشخصه، وهو أقرب إلى أن تكون الجريمة، كما خمنتْ، بدافع الغيرة.. وهي تعرف القاتل!!.

أحست بالغضب الممزوج بخوف خفي، إذ أدركت أنها في دائرة شيطانية، في متاهة لا منفذ لها، فهي محاصرة من أشباح غير مرئيين، أشباح يعملون لحساب طليقها، يرصدونها بشكل غير مرئي أو محسوس. أحست وكأن ثمة كاميرات مخفية تراقبها، أنى اتجهت وحلت.

نظرت إلى المخطوطة التي كانت إلى جانبها على المقعد المجاور. توقفت عند منعطف. كان صوت المطر المنهمر يُسمع بشكل واضح، وصوت ماسحات الزجاج الأمامي والخلفي الرتيب يمنحها شعوراً بأنها حية، وموجودة، وان ما يجري هو حقيقة وليس حلماً أو كابوساً.

تركت أضواء السيارة مضيئة، وضغطت على زر أحمر أمامها، فأخذت إشارات التنبيه تضيء من جميع جوانب السيارة. في تلك اللحظة مرت من الجهة المعاكسة لها ثلاث سيارات مسرعة، إثنتان منهما معتمتان، والأخرى سيارة أشبه بسيارات حمل الجثث في المراسيم. استدارت السيارات الثلاث نحو الجهة التي أقبلت هي منها، إلا أنها لم تلحظ ذلك أبداً، فقد كانت تنظر إلى المخطوطة. كانت مترددة في أن تتصفحها الآن أو تذهب إلى بيتها. ظلت للحظات على هذه الحالة، لكنها لم تستطع أن تقاوم رغبتها الشديدة بمعرفة ما فيها. مدت يدها إلى المخطوطة، وبارتباك قرأتْ العنوان:

متاهة الأشباح ، ثم أخذت تقلب صفحاتها الأولى، وبدأت تقرأ:

متاهة الأشباح

رواية للكاتب آدم التائه

وتكونُ بابلُ كُوماً ومـأوى بنـات آوى ودَهَشـاً وصـفيراً بِلا سـاكـن.

سِـفر إرْمـيـا - الإصحاح 51 - 37

ما يشبه المقدمة....

قبل أيام، دعتني صديقة عربية، هي صديقة حميمة لصديقتي النجمة العالمية الممثلة (إيفا سميث)، فوجدت في مكتبتها مجموعة من الكتب العربية الجديدة. روايات وكتب في الفلسفة وعلم النفس، والباراسايكولوجي والسحر، كانت قد اشترتها مؤخراً من مكتبة لبيع الكتب العربية في لندن. بين هذه الكتب أثارت انتباهي رواية لكاتب عراقي كنت قد تعرفت عليه قبل سنتين تقريباً في ألمانيا، فرجوت مضيفتي بأن تعيرني إياها للقراءة.

ما دفعني إلى ذلك سببان، الأول هو أني أعرف هذا الكاتب، إذ كنتُ قد التقيته في مدينتي ركلنك هاوزن بألمانيا، حينما جاء لغرض العلاج من سرطان الدم في إحدى مستشفياتها!..

وثانياً، هو أني شعرت بالإثارة وأنا أتصفح الكتاب الذي كان عنوانه (متاهة آدم)، إذ أني قرأت على غلافه الخارجي موجزاً عن مضمون الرواية، والذي أحسست من خلاله بأن الرواية تتحدث عني، إذ ورد اسم بطلها آدم التائه، وهو اسمي، إلى جانب ذكر اسم زوجتي السابقة حواء المؤمن أيضا.. فاستعرتها دونما توضيح للأسباب، وكانت مضيفتي (حواء البدوي) قد أثنت عليها، إذ أنها قرأتها بشوق خلال ليلة واحدة، وأبدت إعجابها الشديد بها .

طبعاً لم أقل لها بأني أعرف كاتبها، وربّما تتحدّث الرواية عني، لكنني بعد أيام، وحينما توطدت علاقتي بها، وحكيت لها قصة حياتي وظروفي، وسبب مجيئي إلى ألمانيا ثم لندن، أدركتْ هي الكثير من التشابه بيني وبين أحداث الرواية.. فأوضحتُ لها بأن الكاتب آدم البغدادي، لا أعرفه جيداً، لكني التقيته قبل سنتين صدفة في محطة القطار الكبرى في مدينتي بألمانيا.. وكان قد جاء من بغداد لغرض العلاج من مرض سرطان الدم.. حينها كان يبحث عن مساعدة، فهو لا يتحدث الألمانية ولغته الإنكليزية لم تكن بالمستوى الجيد، أو لأن الألمان لا يفضلون الحديث بغير لغتهم.. المهم.. رأيته عند مكتب الاستعلامات في المحطة فساعدته في توضيح بعض الأمور، ثم التقيته مرتين، لقاءين طويلين نسبياً.. تحدثنا فيهما عن البلاد والأدب.. وعن حياتنا الشخصية بشكل عابر.. حدثني عن نفسه، وحدثته عن نفسي.. هذا كل ما في الأمر.. ولم أكن أعرف أنه استخدم كل التفاصيل التي رويتها له في روايته .

قرأتُ الرواية بشغف، فقد وجدت فيها تفاصيل عن حياتي كلها، أو

معظمها، وكأنه أنا... لا.. لا.. لم يكتب عني بشكل مباشر فقط، بل وصل الأمر بمخيلته بحيث كتب في روايته عن رواية كتبتها أنا حقاً، لكنه تدخل في تفاصيل ما كتبته!!..

أتذكر أنه سألني حينما التقيته عما أكتب، فأخبرته بأني انتهيت من كتابة رواية أسميتها (المرأة المجهولة) وتحدثت له عن تفاصيلها، وطريقة تداخل سردها، وتناسل شخصياتها، إلا أنه عند كتابته لروايته عني، تدخل في تفاصيل روايتي التي أنجزتها (المرأة المجهولة)، وكأنه هو كاتبها..!! مع بعض الإختلاف طبعاً.. فبطل روايتي مهندس معماري لكنه كاتب أيضاً، اسمه آدم المطرود، عشق امرأة باهرة الجمال اسمها حواء الصايغ، وهي امرأة متزوجة من رجل ثري جداً اسمه آدم الولهان، وقد التقيا ببعضهما صدفة في تركيا، ثم تواصلت لقاءاتهما في بغداد، إلى أن إستدعاه محقق اسمه آدم التكريتي للتحقيق معه في جريمة قتل السيدة حواء الصايغ، وتطور التحقيق إلى الإتهام بخيانة الدولة والنظام، وتم تعذيبه بهمجية، إلى أن انتهت رحلته في هذه الحياة، ذات فجر بغدادي كئيب، بإعدامه مع أصدقائه بطريقة عبثية قاسية .

لكن في رواية آدم البغدادي، كان ثمة اختلاف في سرد روايتي التي كتبتها، وأقصد رواية (المرأة المجهولة)، إذ وجدت أنه أضاف إليها فصولاً جديدة، فبينما تنتهي روايتي عند إعدام المهندس والكاتب آدم المطرود، فإذا بالكاتب آدم البغدادي يستمر في كشف تفاصيل جديدة، لم أدونها أنا ولم أفكر فيها قط، لكنني سأرويها لاحقا!!..

* * *

منذ وصولي إلى لندن أعيش حالة غريبة جداً، فأنا كنت قد تعرفت على النجمة العالمية الممثلة الإنكليزية المعروفة (إيفا سميث) في ألمانيا. التقيتها في المطار، وتصاحبنا طوال الطريق إلى ميونخ في القطار، واقتربنا بشكل حميمي جداً، إلى أن واجهت بعض الصعوبات مع زوجها، فطلبت مني مساعدتها، فجئت إلى لندن، وأنا الآن أعيش في شقتها.. لا.. ليس معها.. وإنما في شقة أخرى تملكها، وهنا في لندن التقيتُ بصديقتها السيدة حواء البدوي، التي كانت قد حدثتني عنها سابقاً في ألمانيا، وهي امرأة هائلة الجمال.. هي التي أعارتني رواية الكاتب آدم البغدادي كما أوضحت سابقاً .

خلال فترة وجودي هنا في لندن.. ومنذ لقائي بالسيدة (حواء البدوي)، ثم بعد قراءتي لرواية الكاتب آدم البغدادي قررت أن أدون أنا بدوري

قصته التي سمعتها منه أثناء اللقاء به.. فمثلما كتب هو عني.. وددتُ أنا أيضا أن أكتب عنه، بل وأروي لكم ما أضافه إلى روايتي (المرأة المجهولة).

لا أدري كيف أبدأ، لكن هنا ستجدون ما كتبته.. هنا ستكتشفون دروب المتاهة التي وجدت نفسي فيها.. متاهة الوجود.. والعزلة.. والحب المستحيل.. بالتأكيد لن أعيد إليكم كل تفاصيل روايتي (المرأة المجهولة) فهي مدونة في كتاب منفصل، لكنني سأتوقف عند تفاصيل جديدة أضافها آدم البغدادي إلى روايتي، لكنما ستجدون حكاية أخرى بالكامل !..

* * *

حينما قرأت حواء صحراوي الإشارة إليها وإلى صديقتها إيفا ليسنج. أحست برعشة تسري في أوصالها. كانت تشعر بفضول أن تواصل القراءة كي تعرف ماذا كتب عنهما، لكنها في الوقت نفسه كانت تشعر بالرهبة والخوف من أن تواصل القراءة، فربما تناول بحدسه الروائي ما كان بينهما، أو ما نشر من شائعات حول علاقتهما.

لكنها قبل أن تواصل قراءة فصول المخطوطة الروائية سألت نفسها عن السبب الذي دفع آدم التائه إلى أن يغير لقبها من (صحراوي) إلى (البدوي)، ولقب صديقتها الممثلة الإنكليزية من (ليسنج) إلى (سميث)..؟ هل فعل ذلك من أجل أن لا يتعرف أحد عليهما..؟

لم تشغل نفسها كثيرا بالبحث عن الإجابة، وإنما كانت متلهفة لمعرفة ما كتب، فهي تعرف الآن بأنها المقصودة به بحواء البدوي، وكذا ما يخص صديقتها إيفا ليسنج، لذا واصلت القراءة في رواية (متاهة الأشباح) لآدم التائه.

متاهة الأشباح

1

آدم البغدادي.. من أوراق السيرة

اسمي آدم.. لقبي البغدادي.. أجلس الآن حول طاولة الكتابة، في شقتي المتواضعة، في بيت قديم شبه متداع يطل على دجلة، على جانب من شارع أبي نؤاس يلتف على زقاق في منطقة الأورفلي. أجلس أمام نافذتي، أنظر إلى نهر دجلة الذي يبعث الحزن والوحشة في النفس، وألقي بين فترة وأخرى نظرة إلى ما يبدو لي من جسر الجمهورية، أرى أمامي جانباً كبيراً من منطقة كرادة مريم. أجلس منهمكاً بالكتابة إليكَ.. إليكَ أنتَ يا قارئي.. يا قارئ هذه السطور والصفحات الآن .

سأروي لك عن نفسي أشياء كثيرة، ربما تفاجئك، أو تغضبك، أو تثير استياءك.. وربما ستعجبك.. لا أعرف بالضبط، لكني سأكون صادقاً في كل ما سأرويه، وربما هذا ما سيمنحني بعض الراحة، بغض النظر عن ردود فعلك .

لن أتملقك، ولا أحابيك، ولا أكتب شيئاً كي أرضيك، لأني لا أعرفك أصلاً.. لا أعرف من أنت؟ هل أنت رجل أو امرأة؟ هل أنت عجوز أو شاب؟ هل أنت موظف أو أستاذ أو طالب.. ولا أعتقد أنك سياسي كبير أو مسؤول في الدولة أو عضو برلمان، فهؤلاء لا يقرؤون أبدا..! هل أنت أديبٌ أو ناقدٌ أو قاريء عادي..؟ لا أعرف ذلك.. بل ولا أعرف إذا ما كنت امرأة، فهل أنت طالبة أو معلمة، أستاذة أو ربة بيت، موظفة أو إعلامية..؟ على أية حال، بما أنك قد رضيت أن تقرأ ما أكتبه، فهذا يفسر لي أنك تحب الأدب وقراءة الروايات.. فربما تريد أن تهرب من عالمك المزري وحياتك البائسة إلى عالم أكثر رحابة وحرية..! لا أسميك عدوي كما نادى الشاعر الفرنسي بودلير قارئه.. أعتقد أني أثرثر كثيراً!..

قبل كل شيء أود أن أقول لك، بأني أشعر وكأني على مشارف الرحيل من هذه الحياة الكئيبة، أو لأكن أكثر وضوحاً ودقة، أنا لا أكاد أشعر بوجودي الجسدي والمعنوي، ولا بلذة الحياة والعيش فيها، فالزمن، الأيام، والأسابيع، والشهور والسنون، تمر بلا طعم، ولا لون، ولا رائحة.. مثل الماء.. لا.. لا.. الماء لغز جميل، ونقي.. لكن الإحساس الذي يراودني هو لغز أيضا.!

يراودني إحساس مبهم، غامض، يقبع هناك، في القاع العميق من النفس، لا يمكنني تبينه بوضوح، مثل بئر عميقة لا يمكن رؤية قاعها، إحساس أتبينه من خلال فقداني الرغبة في كل شيء، كل شيء.. هل رأيت يا قارئي شخصاً مثلي؟ أو هل جربت أن تكون لاشيء، بلا أية رغبات، إنساناً أجوف..؟ إذا كنت كذلك، أو مررت بهذه الحالة ستفهمني بلا شك..!

لا طموح لدي، لا طموح لإرتقاء مكانة وظيفية، أو إجتماعية، أو سياسية، أو أدبية، ولا للحصول على المال، والجاه، والشهرة، والمجد، فكل آمالي مطفأة، مثل شموع ذائبة ومنسية في مغارة معزولة. لا فرح يبهج روحي، ولا ألم أو حزن يهزها ويضعفها. لا.. ربما الموسيقى وحدها التي تلامس روحي وتمنحني لحظات من الإحساس بأنني موجود، وكذلك الكتب. فهي حياتي الحقيقية. فالكتب هي أصدقائي، فعلاقتي بعالم الكتب أكثر حقيقية وواقعية من الحياة التي هي بالنسبة للآخرين الواقع الذي يعيشونه .

لا يذهب بك الظن بأن هذا الإحساس متأت من كبر سني وهرمي وشيخوختي أو عجزي أو مرضي، فأنا لستُ عجوزاً طاعناً في السن، بل ما زلت في منتصف العقد الخامس من عمري، ووضعي الصحي جيد، لكني، كما قلت، أحس وكأني سأودع هذا العالم.

تغمرني رغبة عارمة في أن أتحول، أن أتلاشى في النور الأبيض الحليبي، في السكون المطلق، في النيرفانا التي تحدث عنها السيد بوذا.. أعود إلى روح الله. نعم أعود إلى روح الله.. أقول ذلك بالرغم من أني لستُ متديناً، لكني لستُ ملحداً أيضاً.. لستُ ملتزماً بأية أحكام دينية، ولا أقيم لها أي إعتبار، لكن لا يذهب بك الظن، بأني أقوم بأشياء مخالفة للدين وأحكامه أيضاً، فأنا لا أقوم بأي شيء مخالف له حقاً، وبالتالي فأنا لستُ في حاجة لتحريماته، ولا لنواهيه، ولا لقيوده وفرائضه، لأني أساساً، كما قلت، لا أقوم بأي شيء. أنا أعيش عزلتي الداخلية، وعلاقتي بهذا الذي يسميه الناس (الله) هي علاقة خاصة.. علاقة شخصية، وفردية، فهو المجهول الذي خلق هذا الكون العظيم، وبالتالي فعلاقتي به وحده، لكنها ليست علاقة دينية أبداً .

ربما تنتظر مني أن أقدم نفسي بشكل أكثر وضوحاً وتفصيلاً! طيب، ليكن، سأكون أمينا معك، لكني سأوجز كلامي:

اسمي الكامل، كما قلت، آدم آدم آدم البغدادي. وبالرغم من أني، وهذا طبيعي جداً، ولدت في بلد يسمى العراق، لعائلة ما، من أم وأب، إلا أني لا أحس بأي انتماء لأي بلد، ولا لأية عائلة، وكأني جئت الدنيا بلا أم ولا أب.. هكذا جئت ببساطة.. وجدت نفسي موجوداً في هذا العالم.. هذا لا يعني أني لا أعرف والديّ، أو عشت يتيماً، لا.. أبداً.. فقد ماتت أمي وأنا في الأربعين من عمري، أي في عام دخولنا إلى القرن الحادي والعشرين، أي قبل حوالي تسع سنوات، كما أن أبي مات بعد وفاتها بسنة ونصف. لكني كنت بارد الأحاسيس تجاههما..!

فكرت طويلا عن سر أحاسيسي الباردة نحوهما، ولم أجد تفسيراً مقنعاً لذلك.. حاولت أن أفسر الأمر بالطريقة الفرويدية، لكني لم أجد هناك أية مقومات للتعكز على عقدة أوديب مثلاً.. فأنا لا أغار من الرجل الذي هو أبي، وليس لدى أي مشاعر خاصة أو حتى تعلق طفولي بأمي. فكرت، ربما أن سبب برودة مشاعري تجاههما يعود لأنهما لم يكونا على وفاق دائماً، أو لأن أبي كان طاغية، جباراً، صموتاً، ظالماً في تعامله مع المرأة التي ولدتني، والتي هي أمي طبعاً، والتي كنت أحياناً أشفق عليها، لذا فقد

تجنبت أن أكون قريبا من أبي، وددت أن لا أراه أو أن ألتقيه دائماً، وربما لا يعجبك يا قارئي إذا ما قلت لك بأني كنت أقتنص أحاسيسي أحيانا، فأحس بأني أكرهه، أو في أحسن الأحوال لم أحبه، ولم أشعر نحوه بأية مشاعر طيبة إلا ليلة موته حيث أشفقت عليه وأحسست نحوه بمودة لم أعرفها سابقاً، أما في ما يخص أمي فأحاسيسي الباردة نحوها ربما مصدرها بأن أمي كانت، بالرغم مما يفعله أبي بها، وبالرغم من إهاناته المستمرة لها، وإهماله لها، كانت تعبده.. إذ كانت الأرض لا تستطيع أن تلم فرحتها كما يقال بالعامية، إذا ما ابتسم عرضاً، وهو ينظر للحظة إليها، لحظة ربما كان ابتسامته خلالها نتيجة نشوة، أو لإستذكار لحظة بهيجة من لحظاته العديدة خارج المنزل، فتظن هي حينها أنه يبتسم لها!!

كذلك أعتقد أن سر إحساسي هذا نحوها له علاقة ببعض المواقف خلال طفولتي.. حينما سمعت لهاثها الشبق أثناء النوم مع أبي، وهي تتوسله، وتطلق كلمات الشوق والمحبة، والتضحية، متوسلة حبه ورضاه!!. أحسست حينها بالغيظ منها، والغضب من ضعفها وضآلة شخصيتها ولتلذذها بالعبودية.

كنت حينها صغيراً في السادسة من عمري، وكنت أنام معهما في غرفتهما. نعم.. كنت أنام معهما في غرفتهما، وكنت أرى بعض المشاهد التي أدركتها في ما بعد، لكني ومنذ السابعة من عمري أخذت أنام وحدي في غرفة منعزلة . كنتُ ابنهما الوحيد، لذلك كنت أحظى بشيء من الإهتمام.

كانت أمي ضيئلة الحجم، ناعمة الملامح، ليس لديها أي حضور أنثوي، ولأنها تعيش مع رجل ضخم الجثة، طويل القامة، شرس الطباع، بذيء اللسان، فقد كانتْ وكأنها غير موجودة أمامه، زوجة بلا شخصية، أقل من خادمة مطيعة، شبحاً غير مؤذ لكنه لا يُرى، ولأنها كانت امرأة لا تعرف القراءة والكتابة، فقد كانت تنظر إلي حينما كنت أقرأ دروسي وأراجعها بصوت عال، نظرة مليئة بالإفتخار، بل صارت تهابني، إذا لم أقل صارت تخاف مني .

قد يبدو حديثي عن برودة أحاسيسي نحو والديّ غير مريح لك يا قارئي، لا سيما قد مات وشبع موتاً، والحديث عن الأموات يفترض ذكر محاسنهم فقط، لكني وعدتك بأن أتحدث بصراحة شديدة.. طبعاً كان بإمكاني أن أتحدث عن الجنة التي تحت أقدام الأمهات أيضاً.. لكن لم أشعر يوماً بذلك.. بودي أن أؤكد لك هنا بأني لن أكتب أشياء لا أريد كتابتها، ولن أقول أية أشياء من أجل أن أثير إعجابك.. لا تهمني أن كان

ما سأكتبه منافياً للأخلاق السائدة، أو للرأي العام..! المهم.. كان البيت الذي ترعرعت فيه أشبه بجحيم مطفأ، أو خمدت نيرانه ولم يبق منه سوى سموم الدخان الخانقة.

بودي أن أقول لك يا قارئي بأني لن أكتب أشياء لا أريد كتابتها، ولن أقول أشياء لكي أعجبك. سأكتب ما أعتقد أنه حقيقي وأجد نفسي مأخوذاً للبوح به إليك يا قارئي.

حياتي ليست سوى قدر أعمى طائش ورغبات غريزية جامحة. أنا متأكد أني جئت إلى هذا العالم بالصدفة، في واحدة من تلك المضاجعات الغريزية الحيوانية التي حاصرت الرجل الذي هو أبي، فقذفني في لحظة شبق أهوج في رحم امرأة كانت لحظتها محتارة بلذتها التي كانت تنتظرها، وتتحمل من أجل الحصول عليها كل هذه الإهانات وهذا العنف والإحتقار. وها أنا لستُ سوى كتلة من الرغبات الجامحة، التي أربكت تفكيري.. وها هو القدر يعصف برغباتي ويسحقها تحت عقبه الحديدية الجارحة. ولم يكن هذا القدر يسحق رغباتي نكاية ولا ليجرب قوة صمودي وتحملي وصبري، كما اختبر الرب أيوب، وإنما هو قدر أعمى، يسحق كل شيء أمامه عن عمىٍ وجهل بالطريق الذي يسير بلا مبالاةٍ فيه..!

* * *

الغريب أنه لم يكن لدينا أقارب، وكأننا هبطنا من كوكب آخر. لا أتذكر أنني سافرت إلى مكان ما. ولا زارنا شخص ما، لا قريب ولا غريب. لم يدخل علينا أحد خلال سنوات عديدة، بالرغم من أننا نسكن في منطقة شعبية في جانب الكرخ، تسمى الوشاش، حيث تختلط الطبقات الاجتماعية تداخلا عجيبا، فيعيش المعدمون إلى جانب العوائل الميسورة الحال مثل عائلتي. لا أعرف سر هذه العزلة التي كنا نعيشها كعائلة، ربما بسبب أبي الذي منع أمي من الخروج من البيت. لا أدري.. المهم لم يزرنا أحد سوى إحدى جاراتنا التي كانت تأتي لزيارة أمي أحيانا، بل دائماَ.

حواء الترابي، هكذا تسميها أمي، كانت تأتي حينما لا يكون أبي في البيت، لتشكو لأمي همومها، وكثيرا ما كنت أراهما تبكيان معاً .

جارتنا هذه شابة أصغر من أمي بسنوات عديدة. وبالرغم من أنها من مدينة البصرة التي يتسم معظم سكانها بالسمرة، إلا أنها كانت شقراء، نحيلة، طويلة القامة، وكأنها إحدى نجمات السينما الأوربية. كان زوجها شرطياً، مفتول العضلات، أسمر اللون، حجري الوجه، بارد النظرات، لئيماً، خبيثاً، ومكروهاً من جميع الجيران.

كنت أسترق السمع لأحاديثهما، فعرفت مأساتها، التي تنحصر في أن زوجها عاجز عن إنجاب الأطفال، بل وإنه برغم عضلاته المفتولة وخشونته الواضحة، إلا أنه كان عاجزاً عن القيام بواجباته الزوجية أيضاً، ولكي يحتفظ بمنصبه دون أن يُرسل إلى الأماكن الحرجة والحساسة والتي تشكل خطورة على سلامته، أخذ يقدمها إلى مسؤوليه من الضباط.

كانت هي تستنكر الأمر في البداية، بل أرادت أن تنتحر، بحيث أنها سكبت النفط على جسدها وثيابها لتشعل النار في جسدها، وأقدمت على ذلك فعلا، لكنها ارتعبتْ حينما شبت النار في ثوبها، فركضت مسرعة إلى الحمام، ونزعته، بحيث لم يتعرض جسدها إلا لحروق بسيطة جداً. بعد ذلك تقبلت مسألة أن تكون مع رجال آخرين بعلم زوجها، بل صارت تستعذب ذلك، فعلى الأقل صارت ترتوي جنسيا، وتمارسه مع رجال أعلى رتبة من زوجها بكثير، بل هو أمامهم ليس أكثر من خادم مطيع، وهم في كل الأحوال أجمل منه، وأنظف منه، كما أن ملابسهم وأجسادهم معطرة دوماً. زوجها صار يخاف منها، لأنه يعرف أن بعض الضباط قد تعلق بها، ويمكن لزوجته إذا ما ضايقها، أو أساء إليها بكلمة أو تصرف ما، أن ترسله إلى جهنم وبئس المصير بإشارة منها.

لكن حواء الترابي بالرغم من ذلك، حينما تأتي إلى بيتنا تشكو لأمي هذه الحياة الفاسقة التي تعيشها، وهي برغم حبها الشديد للأطفال فهي تخاف أن تحبل من أحد هؤلاء الزناة الذين يأتي زوجها بهم إليها، أو على الأصح يذهب بها إليهم، وهي لا تريد طفلاً حراماً . كما لا تريد أن تنتقم من زوجها، فهي تشفق عليه أحياناً. وهكذا مرت فترة طفولتي وصباي. إلى أن دخلتُ المدرسة المتوسطة، وكنت في بداية مراهقتي .

* * *

أعود إليك يا قارئي، بعد أن جررتك معي إلى هذه الإستطرادات المملة عن طفولتي، لكن هذا من طبائع الكتّاب، مهما حاولوا الإختصار في ما يكتبونه. بالمناسبة.. ربما ستسأل كيف صرتُ كاتباً..؟ الحقيقة أنا لم أتوجه للكتابة طواعية، ولم تأت الكتابة إليّ طواعية أيضاً..! لا أعرف كيف جرى ذلك بالضبط..!.

أحيانا أحس أن الأمر كان لغزاً، كان أمراً قدرياً، شخصياً. أعتقد أنه لكل إنسان في هذه الحياة مهنة يمارسها، مهنة تتناسب مع مزاجه النفسي، وتكوينه الجسدي، وكأنه قد قدرت له، أو أنه خُلق لها، وتمت تهيئته لها!!.

أفكر أحيانا ببعض المهن، وأحس أني لو مت من الجوع لما مارستها،

بل هناك مهن لا أستطيع حتى تخيل نفسي وأنا أمارسها..! وبالتالي فأن تركيزي على الكتابة كمهنة أساسية، أو لأقل كهوية لوجودي، لم يكن سهلاً لكنه كان قدراً محتوماً، لأني بالأساس أعيش من خلال عملي كموظف، مسؤول شعبة الصادرة والواردة، في إدارة إحدى الهيئات المهمة في البلاد، على الرغم من أني خريج كلية الآداب.

كثيراً ما سألت نفسي عن سر تعلقي بالكتابة، وعن السبب الذي دفعني لكي أصير كاتباً، لاسيما وأنا لا أعيش من خلالها أبداً، فوجدتُ أسباباً عديدة، منها، ربما أني توجهت إلى الكتابة خلال عملية القراءة نفسها..! أي ربما بسبب إعجابي بما كنتُ أقرأ، فأردت في اللاوعي أن أكون كاتباً مثل هؤلاء الكتّاب الذين أقرأ لهم، أو نتيجة لعدم تقبلي لما أقرأ، فأردت أن أعبر عن اعتراضي وعدم رغبتي بما أقرأ فتوجهت لكتابة ما أريد، وربما لا هذا ولا ذاك، وإنما هي محاولة مني لإقتحام عالم النسيان، أي الهجوم على النسيان وتسجيل ما أستطيع كي لا أنسى.. أو ليس هذه الأسباب كلها وإنما للهرب من الذات، والتحول إلى شبح.. نعم إلى شبح.. فكما قال الكاتب الأميركي (بول أوستر) في رواية له اسمها (الأشباح) بأن (الأشباح) في كل مكان من حولنا. وإن الكتابة عمل انعزالي يستولي على حياتك. وبمعنى من المعاني فأنه ليس للكاتب حياة خاصة به، وحتى حينما يكون هناك فأنه ليس هناك حقاً..! لا أعرف بالضبط..!

ربما ستسأل عن دراستي، ووظيفتي، وحياتي الشخصية..؟ أو ربما لا يهمك شيء من ذلك أبداً، لأنك تود معرفة تجربتي الأدبية والفكرية.. لكن لا تستعجل.. سأحدثك عن كل شيء.. سأحدثك عما يجري في الواقع، وكيف يتشكل هذا الواقع من جديد عند كتابتي له في عمل روائي..! ستستغرب المسافة بين الواقع والفن.. وسأثبت لك بأن حادثة معينة يمكنني أن أرويها بأشكال مختلفة.

مهلاً.. أحس أني بدأت بكتابة أشياء لم أكن أود الكتابة عنها، أو لأقل، بدقة أكبر، كنت في لحظة كتابتها أشعر بأنها أشياء عميقة لكني لا أجدها الآن كذلك..؟. أشعر الآن بأني قد فقدت حماستي في الكتابة، لا أعرف، فأحيانا أتوقف بحماس أو بتأثر كبير عند أشياء لا تستحق التوقف عندها، بينما أهمل أشياء ربما ستكون مهمة لو تحدثت عنها.. لكن من يقرر أهمية الأشياء من عدمها..؟ على أية حال.. إن القارئ.. أي قارئ.. لا يعرف الأشياء التي كانت في ذهن الكاتب لحظة الكتابة، لكنه لم يدونها،

فالقارئ يتعامل مع ما هو مكتوب فقط ولا يعنيه ما كان يمكن أن يُكتب، وبالتالي فالقارئ لا يستطيع أن يحكم على أهميتها إطلاقاً.

أحيانا أفكر بهؤلاء الكتّاب الذين يتوجهون إلى الكتابة عن أبطال وهميين، غير واقعيين، أبطال نبلاء، معصومين عن الخطأ، أبطال مترعين بأحلام إنسانية كبيرة إلى حد الثمالة، عن أبطال يمكن اعتبارهم منقذين للمعذبين في الأرض، ويعتقد هؤلاء الكتّاب بأن أمثال هؤلاء الأبطال الإيجابيين هم خير ما يمكن للأدب أن يقدمه للناس، وكأني بهم يقومون بتخدير مشاعر القارئ بأفيون جديد هو أفيون البطل المنقذ، الرومانسي، الثوري، المضحي، المُنزّه عن النزوات والأخطاء والغرائز.. بل ويتحول الكاتب الفنان إلى واعظ.. مزيف.. وكل ذلك تحت شعار خدمة المجتمع ومسؤولية الكاتب.. والإلتزام..! نعم.. يتحدثون عن مسؤولية الكلمة وعن إلتزام الكاتب.. بينما أنا غير ملتزم.. أنا لا أفكر بالمجتمع والناس بتاتاً حينما أجلس للكتابة.. وربما كان بول أوستر دقيقا في قوله عن حياة الكاتب.. أتحول إلى شبح.. أي أكون هناك وفي نفس الوقت لا أكون هناك..!

شخصيا، كما قلت لك يا قارئي بأني بارد الأحاسيس، ولا أثقل على نفسي بهموم وأحزان أكثر من ثقل عزلتي نفسها.. وبودي أن أقول لهؤلاء الكتاب، بل وحتى القراء الذين يبحثون عن بطل نبيل، ورومانسي: انظروا إلى أعماق أنفسكم، لتروا كم من الوحل يتراكم فيها!!

* * *

أنا إنسان أعزل، وكاتب أعزل، والعزلة تمنحني الحرية، لكني محكوم بأن أعيش وسط المكائد، وأتخبط في الوحل، والأكاذيب، والدسائس المستترة، الخفية والمعلنة، والعفونة الخانقة.. فأنا أعيش، من خلال وظيفتي، وسط هذا المستنقع النتن.. هذه ليست بلاداً وإنما هي مستنقع كبير عفن.. مقبرة كبيرة مترامية الأطراف.. مشرحة كبيرة مليئة بالجثث المجهولة.. اسطبل كبير يزدحم بالبهائم والجياد العمياء.

لستُ متشائماً، لا تفكر يا قارئي بذلك.. كما لستُ معادياً للنظام نتيجة موقف فكري أو سياسي.. فأنا لا أهتم بالسياسة، ولا أنتمي إلى جهة سياسية، بل وكنتُ أتعاطف سابقاً مع الأحزاب التي تحكم اليوم، مع جميع الأحزاب، التي كانت تعارض النظام الذي أسقطه الأميركان.. لكني ومن خلال يوميات عملي مسؤولاً لشعبة الصادرة والواردة، رأيت العجب من هؤلاء المسؤولين الجدد على إدارة هذه المؤسسة، وهم نموذج مصغر لمسؤولي هذه البلاد.. والواقع أنهم أسوأ من سلفهم بكثير.

لا.. لا تفهمني خطأ فأنا لا أتعاطف مع النظام السابق.. ومن حقي أن أبرر ذلك من حيث أن كل من ينتقد الوضع الحالي صار يتهم بموالاة النظام السابق، وكثير من الناس اتهموا بالإرهاب لمجرد انتقادهم الحاد للنظام الجديد.. لا.. لا.. أنا لا أتعاطف مع النظام السابق أبداً أبداً.. فلقد كنت أعيش كالفأر، مذعوراً، في تلك السنوات، لكن تفاهة الموجودين حالياً، ودناءاتهم، وإنحطاطهم الأخلاقي، ولصوصيتهم التي يجدون لها ألف صيغة قانونية رسمية، ودسائسهم القذرة، دفعتني إلى النفور من هؤلاء.. هذه ليست مؤسسات دولة وإنما مباغٍ كبيرة.. كيف..؟ ستسألني كيف..؟

ربما سأروي لك عن أشخاص يقودون هذه المؤسسة التي أعمل فيها، وأكشف لك عما قاموا به من دسائس، وممارسات لا أخلاقية تكشف عن مدى إنحطاطهم، مدعومين من قبل شخصيات سياسية وأمنية وبرلمانية معروفة ومتنفذة في البلاد، بحيث أخذت أقارن بينهم وبين ممارسات النظام السابق، فوجدت وللحق يقال، أن النظام السابق كان عنيفاً جداً، دموياً، والدولة كانت تعاني من الإنحلال الإداري والفساد، لكن لم يكن بهذا الشكل أو بهذه الدرجة كما هي اليوم.. كان الجميع مرعوباً آنذاك.. أما اليوم، فهؤلاء القادة الجدد، وأتباعهم، ومنتسبو أحزابهم، لا يهابون أحداً، لأن الجميع فاسدون، وكل يخاف أن يُفضح فيسكت عن الآخر..!

يبدو أني لم ألتزم بوعدي، فقد تحدثت كثيراً في السياسة التي أكرهها، ولا أدري، فربما أنت يا قارئي من المنتفعين من هذا النظام الحالي، أو من المتعاطفين معه، أو من المنتمين لأحد أحزابه!!.. إذاً لنترك الحديث في السياسة، فهذا أفضل لي ولك..! لكنني أقول بإختصار، كي لا أعود للحديث في السياسة، بأني مثل عطيل الذي قتل حبيبته وزوجته ديزدمونة،لا عن غيرة، كما يفسر البعض، وإنما لأنه رأى سقوط مثله الأعلى في المستنقع.. مستنقع الخيانة.. نعم.. أنا رأيت سقوط كل القيم الأخلاقية التي آمنت بها سابقاً تسقط في المستنقع.. كما وجدت نفسي أعيش في مستنقع نتن.. فكرهتُ الناس.. نعم.. فالإنسان حيوان دنيء.. حيوان زاحف، لزج، أخطر أنواع الزواحف النتنة، حيوان شره إلى السلطة..!

شخصياً، أعتقد بأن للنفوس البشرية ألواناً، فالبعض نفسه بيضاء، والبعض الآخر نفسه وردية، وبعض ثالث نفسه خضراء، وثمة جموع كبيرة نفوسها، سود، معتمة، مظلمة، وما أكثر هؤلاء..!

* * *

لا أريد الحديث عن الأوغاد الذين يديرون المؤسسة التي أعمل فيها،

لأن مثل هذا الحديث يتعبني، لأني يوميا لا أدري كيف تنتهي ساعات الدوام، كي أهرب من ذلك المكان الخانق، المليء بالمؤامرات والدسائس.. والصراعات القذرة.. والمشكلة أن هناك بعض البشر لديه قدرة هائلة على تحمل العفونة والنتانة، بل بعضهم يستعذبها، حتى صار وجود إنسان نظيف يضايقه، ويدفع به إلى العصبية، ليست النظافة هنا بالمعنى الأخلاقي فقط، وإنما من ناحية الشكل والملابس أيضاً.. أيعقل ذلك..؟؟ نعم يعقل.. لقد رأيت ذلك بنفسي. ربما تشك في قولي يا قارئي.. لكني كنت أنا نفسي أشك مثلك، لكني وصلت إلى اليقين.. والشك قبل الوصول إلى اليقين يختلف عن اليقين الذي يسبق الشك، ثم لا يصمد أمامه..!

ها أنا أستطرد هنا وهناك مرة أخرى.. لكني أعدك ياقارئي بأني سأتحدث لك عن كتاباتي ورواياتي التي كتبتها.. لكني مرة أخرى أعيش حالة الشك بعد اليقين..! فقد كنت قد كتبت رواية سمّيتها (متاهة آدم).. تحدثت فيها عن شخص اسمه آدم التائه، كنت قد التقيتُ به خلال سفرتي اليتيمة إلى ألمانيا لغرض العلاج، فروى لي تفاصيل كثيرة عن نفسه وعن وضعه العائلي، فرويت قصة حياته، وكيفية وصوله إلى ألمانيا، مع زوجته، التي خانته مع جار لهما، ثم انفصلا عن بعضهما، وكان بطلي الروائي هذا، كاتباً روائياً، وكان قد كتبَ رواية اسمها (المرأة المجهولة)، يعني أنا كتبت رواية عن كاتب كتب رواية أيضاً!! هل رأيت مثل هذه الغرابة..؟.

الغريب انني صدفة كنت ذات يوم جمعة الماضية في شارع المتنبي، فوجدت رواية قد صدرت حديثاً في بيروت، تحمل اسم نفس الكاتب الذي التقيته قبل أكثر من سنتين في ألمانيا، وكتبت عنه روايتي، فاشتريت الكتاب مباشرة، ورجعت إلى البيت مسرعاً من أجل قراءتها، والعجيب الغريب أن هذه الرواية تتحدث عني، وهذا يعني أنني في الوقت الذي كنت قد أكتب عنه رواية، كان هو أيضا قد بدأ بكتابة رواية عني، واستعرض فيها ما يشبه تفاصيل عن حياتي!!

من المؤكد أنك تريد أن تعرف ماذا كتب عني أو ماذا كتبت عنه؟؟ سأفصل لك كل ذلك في ما بعد..

آدم التائـه: شخصية بطلي آدم البغـدادي في روايتي هذه، هي قريبة من شخصية بطل دستويفسكي في قصته (في قبوي) في بعض جوانبها، وأسلوب سردها.. لا أدري.. أعتقد ذلك.. لكن دستويفسكي أراد أن يقدم

أنموذجاً لبطل ساد في أعماله وأعمال غيره من الكتّاب الروس في القرن التاسع عشر ألا وهي شخصية الإنسان الضئيل، الصغير، المهزوز، المسكين، الذي رسم أبرز ملامحه الكاتب الروسي نيقولاي غوغول في قصته الشهيرة (المعطف).. ومن هنا أطلق فيودور دوستويوفسكي جملته الشهيرة عن الأدب الروسي والكتاب الروسي حينما قال: كلنا خرجنا من معطف غوغول... بيد أن بطلي آدم البغدادي كاتب.. ومن خلاله ربما سأكشف عن نبوءاتي المأساوية وكوابيسي، فهو ليس قميئا وضئيلا إلى الدرجة التي فيها أبطال غوغول ودستويفسكي وتشيخوف..!

* * *

حين انتهت حواء صحراوي من قراءة هذا الفصل، أحست أن آدم التائه يخلط الأوراق، فهو هنا ليس قريباً من شخصيات دستويفسكي إلا من خلال اعترافات بطل روايته آدم البغدادي، الذي لا يهاب أن ينظر إلى أعماقه الآسنة، إلاّ أنه قريب من جورج أوريل حينما كتب روايته 1984 ، والتي أراد ان يتنبأ فيها بما سيجري في العالم، وإنكلترا بعد عقود، أو كما فسرها بعض النقاد بأنه أراد انتقاد الشيوعيين في الاتحاد السوفيتي من خلال رواية تتحدث عن إنكلترا في المستقبل، وبالتحديد في العام 1984 ، لذا فقد فهمت أن آدم التائه إما كان يريد أن ينتقد النظام الحالي في العراق، وإما ما سيحصل في المستقبل في بلاده، فهو لم يحدد ذلك لكنه يتحدث عن إسلاميين سيحكمون البلاد. أعجبتها طريقة سرد البطل لشخصيته وعالمه الداخلي، لذا واصلت القراءة:

متاهة الأشباح

2

الرواية الناقصة عن الأعزل البغدادي

أحياناً أندهش من بعض الكتّاب، لاسيما كتّاب الروايات، وأنا أعّد نفسي واحدا منهم، فهم يتخيلون أشياء قريبة جداً من الواقع، بل يرون أحياناً أشياء تكاد تتطابق مع حياة الناس وما يجري معهم في الواقع، حتى تجد بعض الحوارات والتفاصيل تكاد تتطابق مع ما جرى ويجري في بعض الوقائع، وكأنهم كانوا حاضرين أثناء ذلك الموقف.. وهذا ما رأيته في رواية الكاتب آدم التائه عني، فهو طبعاً يتحدث عن فترة الصبا والشباب لبطله آدم البغدادي، الذي هو أنا، فيروي أشياء صحيحة، جرت معي بالفعل، مع بعض التغيير في التفاصيل، لكني أستغرب كيف عرفها، فأنا في لقائي معه لم

أذكر له هذه التفاصيل قط..؟ ومع أني كتبت عنه أشياء متطابقة مع حياته أيضاً، معتمداً على ما رواه لي، إلا أني لستُ متأكداً إن كنتُ قد اقتربت من عالمه حقاً..؟ لكن هل على أحداث الرواية أن تتطابق مع الواقع بالكامل.. وسيرة البطل تتطابق مع السيرة الواقعية للشخصية، إذا ما كانت حقيقية، أو أن الرواية تملك منطقها الخاص بها حتى ولو اختلفت وبدت غير واقعية..؟ عموماً هذه قضية جمالية ونقدية لا أريد أن أزعجك بها يا قارئي.. وصديقي ..

حينما قرأت تلك الصفحات لم أشعر بالإهانة أبداً، بالرغم من أنه يتحدث عن تفاصيل حياتي الجنسية في فترة المراهقة، علما أني أحياناً أشعر بالإهانة لأسباب تافهة لا تستحق التوقف عندها، بينما أتجاوز أحياناً إهانات صريحة وكأنها لم تكن، مثل ما كتبه آدم التائه في روايته عني، أقصد عن بطله آدم البغدادي، الذي هو أنا ..

تعالوا معي لنقرأ هذا المشهد الذي كتبه عني حينما كنتُ صبياً في الثانية عشرة من عمري، يروي فيه إحدى تجاربي مع ابنة جيراننا.. (في ظهيرة أحد أيام تموز الملتهبة. صعد الفتى آدم البغدادي إلى سطح دارهم بعد أن تأكد من أن أهله ناموا القيلولة منحشرين في تلك الغرفة المظلمة الرطبة غالقين الباب كي لا يهرب منها الهواء البارد الذي تمنحه لهم المروحة الهوائية الصغيرة الخضراء اليابانية الصنع .

حين صار على سطح الدار نظر إلى بقية السطوح المجاورة الوطيئة. لم يجد أثراً لإنسان، لكنه، فجأة، لمح على أحد السطوح القريبة إحدى الجارات جالسة في ظل سياج سطح دارهم كاشفة عن ساقين سمراوين مليئتين، منشغلة بنتف الزغب الخفيف عن ساقيها بواسطة مادة لزجة .

أخذ آدم يتلصص عليها دون أن تراه. شعر بالاختناق في أنفاسه، قلبه بالخفقان السريع وبالإنتعاظ بين ساقيه. لم يعد يشعر بحرارة الجو. بل أحس برطوبة بارة تسري في ساقيه وعرق بارد أخذ ينزل من ظهره كخيط رفيع. أخذ يحدق بلهفة إلى المرأة السمراء الغافلة عنه. حدق جيدا، ماذا.. إنها بلا سروال داخلي. أخذ يمعن التحديق بهذه البقعة السوداء بين فخذيها، وبحركة عفوية رفع دشداشته وأدخل كفه في سرواله الداخلي .

بغتة، هبطت حمامة لتستقر على السياج الذي تجلس تحته المرأة ففزت وجلة. جرّت الثوب لتستر به فخذيها، ثم هبت واقفة لتنزل مسرعة، بيد أن الحمامة طارت أيضا وجلة من حركة المرأة، أما هو فقد بقي مشتعلا بلهيب يسري في دمه .

فكر لحظة منتقدا نفسه، يا له من غبي، لماذا مرت هذه الفرصة من أمامه ولم يفعل شيئا. لماذا لم يقفز إليها متحججا بمختلف الحجج، فربما رضت به. انهمرت عليه شلالات من الصور، كيف أنها ستبتسم له، وستأخذه من يديه، وستداعبه، وستجلسه بين فخذيها، وكيف ستقوم هي بكل شيء، فهو لا يعرف شيئا عن عالم المرأة الخفي هذا، إذ أنه لم يمر بهذه التجربة بعد ....).

أقسم لك أيها القارئ أني لم أرو له أي شيء عن تلك الفترة من عمري. ربما هو استمدها من تجربته الشخصية، لكن هل تتطابق تجربته مع ما جرى لي حقا..؟ هل تتطابق تجارب الناس إلى هذا الحد..؟ أنا فعلا عشت مثل هذه التجربة أكثر من مرة، وليس عند الظهيرة فقط!..

لقد تحدثت عن جارتنا حواء الترابي قليلاً، لكني لم استرسل في أنها أول من علمني معنى الجنس، وقد أخبرتك ياقارئي بأنها الوحيدة التي كانت تدخل دارنا، لتتحدث مع أمي عن همومنا.. لكن هذا الكاتب المدعو آدم التائه تخيل مشهداً في روايته يكاد يتطابق مع ما جرى بيننا، والاختلاف في بعض التفاصيل، فهو يكتب التالي:

(حينما كان آدم في الرابعة عشرة من عمره، عاش أولى تجاربه الجنسية الحقيقية، فذات مساء صيفي، كان مستلقياً فوق سطح الدار على سريره المصنوع من أقفاص الخيزران سمع صوت أمه تناديه من باحة الدار:

- آدم.. آدم..

فأطل برأسه على الباحة مجيبا:

- ماذا تريدين؟

- جارتنا حواء تريد أن تكتب لها رسالة إلى أهلها في البصرة..

لم يجب، شلت المفاجأة لسانه، أحس بالعرق على جبينه، نزل متباطئا، لا يدري لماذا أبطأ في النزول، برغم لهفته الحارقة لرؤية حواء الترابي، ربما لعدم ثقته بنفسه. وحينما نزل رآها في عباءتها السوداء، لكنه لاحظ أنها ما زالت بنفس الثوب الأزرق الشفاف. ابتسمت له ابتسامة مليئة بالإغراء وقالت :

- عيني آدم، الله يخليك، أريد أبعث رسالة إلى أهلي ولا أعرف من يكتبها لي... زوجي مشغول.. الليلة هو خفير.. وحتى لو كان في البيت فهو لا يعرف القراءة والكتابة ..

- بسيطة

قال ذلك وهو يخفض بصره إلى الأرض بارتباك، ثم أردف :

- الآن تريدين كتابة الرسالة... عندك ورقة وقلم؟
- عندي كل شيء، لكن في البيت، تفضل عندنا، نحن أهل.. لا تستحِ.

فتدخلت أمه بسذاجة قائلة له:

- اذهب معها يا آدم، وأكتب لها الرسالة..

لم ينتظر أمه كي تنهي كلامها، فقد خرج مسرعا من الباب، وخرجت حواء الترابي خلفه بعد أن شكرت أمه.

هل ما يجري معه حقيقة أو خيال..؟ فقد فتحت له الباب ودخلت. دخل خلفها مرتبكاً، فقالت له بدلال وهي تنزع العباءة:

- لا تستحِ.. أنت صرت رجال.. والرجال لا يستحون.

هذه هي المرة الأولى التي يصفه فيها أحدهم بالرجولة، فهو لحد الآن ليس لديه سوى بعض الزغب الذي يعلو شفته العليا.. أجابها مرتبكا:

- هذه أول مرة أدخل فيها داركم..

فسحبته من يده وأغلقت الباب وهي تقول بمرح ماكر :

- لا يهم.. ستتعود..

ومباشرة أخذته إلى غرفة مضاءة. حين دخلها عرف أنها غرفة النوم، فهذا السرير العريض لشخصين وهنا أدوات الزينة أمام المرآة الكبيرة .

- اجلس..

أجلسته على السرير الواطئ، وجلست جنبه.. أخذت تتأمله. لعن نفسه لارتباكه الشديد، فليتحرك مثل أبطال السينما، لكنه أحس بأنه مكبل، فبادر.. قائلا:

- أين الورقة والقلم؟

فنظرت إليه مبتسمة وشعرت بارتباكه وانفعالاته:

- لا عليك.. لنتعشَ الآن ثم نكتب الرسالة..
- لقد تعشيت.. شكرا..
- طيب.. سنشرب البيبسي..

خرجت من الغرفة. انتهز هو الفرصة واسترد أنفاسه، لاعنا نفسه على ارتباكه. تأخرت قليلا، عادت بعدها وبيدها قنينتان من البيبسي. كان هو في وضع أهدأ من السابق، وشيئا فشيئا زال عنه ارتباكه، سألته وهي تبتسم:

- إذا أنهيت الدراسة المتوسطة فأين ستذهب..؟

فأجابها بحرارة متناسيا ارتباكه:

- سأدخل إلى معهد الفنون الجميلة..
- وماذا ستدرس؟
- لا أدري.. ربما المسرح أو السينما..

فهتفت بفرح طفولي:

- يعني ستصير ممثلاً مثل شامي كابور وحسن يوسف..؟
- نعم..

فأخذت كفه بين يديها وأسندتها على فخذها بحركة سريعة وهي تقول بمرح :

- وستظهر في السينما..؟

شعر بحرارة فخذها تمس كفه، فأحس بالعرق في باطن كفه

- نعم..

أحس بارتباك في تنفسه وبحرارة بدأت تدب في جسده، وبطنين في أذنيه، بينما استمرت واضعة كفها على كفه:

- ستصبح مشهورا جداً.. أليس كذلك..؟

ثم قفزت فجأة، وأضاءت لمبة قريبة من السرير وأطفأت ضوء المصباح القوي. رجعت إليه مرة أخرى، وقفت أمامه مباشرة، أخذت تداعب شعره ووجهه المنخفض إلى الأرض، وفجأة، أخذت كفه وأدخلتها تحت ثوبها. أحس أنها لا ترتدي شيئا تحت الثوب، ما هذه الطراوة.. أحس بمادة لزجة بين أصابعه.. وحواء.. ماذا بها..؟ أنها ترتجف.. وتطلق لهاثا غريبا.. حاول أن يسحب يده.. فقبضت عليها بشدة.. وفجأة.. دفعته على ظهره فاستلقى على الفراش لا يدري ماذا يفعل.. وظل ساكنا.. رفعت دشداشته إلى الأعلى ونزعت عنه سرواله.. ماذا تفعل.. أحس بشفتيها تلقمه.. أحس بالخدر وهي تنزع عنه كل شيء.. ثم صرخت بأنين:

- تعال.. أعصرني.. انظر إلى الأسفل. ألم تره من قبل..؟ انظر..

وأحاطته بذراعيها بقوة، ثم أدخلت حلمتها في فمه قائلة وهي تتأوه:

- أرضع.. مص صدري.. مص...

أخذ حلمتها في فمه، ولكنه فجأة توقف قائلا بخوف:

- وزوجك..؟
- اسكت.. لعنة الله والشيطان عليه وعلى اليوم الذي رأيته فيه..

وضمته بحرارة وهي تلهث، ثم مدت يدها إلى أسفله وأولجته فيها، وأحس بالغشاوة واللذة.. أحس أنه يوشك يغمى عليه.. وأن هناك براكين

وعيون ماء تتفجر في الأسفل فيها.. ثم هدأ كل شيء ..

كان العرق قد بللهما، فمسحت عن جبينه العرق بكفها وقالت له بحنان:

- ألم أقل لك أنك صرت رجلا.. الآن أرتدِ ثوبك.. واذهب.. وغدا ظهرا تعال.. سأترك الباب مفتوحا حتى لا يشك الجيران ..

ارتدى ملابسه على عجل، بينما كانت هي عارية على السرير مثل لوحة فنية رآها لرسام لا يعرف أسمه.. ولما هم بالخروج نادته:

- آدم.. عندك فلوس؟

فلم يجبها..

- على الطاولة ربع دينار.. خذه ولا تقل لأحد..
- لا أريد..

فقالت له بلهجة آمرة:

- قلت لك خذها..

أخذ قطعة النقد الورقية الخضراء وهو يشعر بخجل وخرج بسرعة، وحينما صار في الشارع أحس بأن الليل لم يعد ليلا، وبأنه خفيف مثل ريشة، وأنه أسعد إنسان في الدنيا، أراد أن يركض في الزقاق، ولكن إلى أين..؟ وحينما دخل الدار سألته أمه وهي في مكانها السابق تواصل عملها:

- هل كتبت لها الرسالة يا بني..؟
- نعم..

وأسرع بالصعود إلى السطح ملقيا نفسه كطائر نشوان على السرير غامرا الوسادة بقبل صامتة كي لا يراه أحد من العائلة التي كانت مستمرة في أحاديثها الشيقة..).

أقسم أن هذا ما جرى معي حقا مع تلك الجارة البصرية، مع تغيير بسيط في التفاصيل.. فقد كانت حواء الترابي في ثوب أخضر فسفوري، شفيف جداً، وليس ثوباً أزرق.. كما أنها أعطتني مائة فلس وليس ربع دينار.. وأن هناك حوارات أخرى كانت بيننا وليس هذا الحوار.. لكني استغرب لحد الآن كيف عرف أنها تحب شامي كابور وحسن يوسف.. بل هي أضافت لهما رشدي أباظه أيضاً!..

ثم يكتب عني تفاصيل أخرى وكأنه يعرفني حقاً، علما أني حينما كتبت عنه، ذكرت التفاصيل ذاتها لكني نسبتها له..! حتى أني وأنا أقرأ ما

كتبه بدأت أشك بأني قد كتبت ذلك عنه أيضاً، وإنما ربما نقلتها عنه، أو هو نقلها عني.. من تُرى يكتب عمّن..؟ لا.. هذا هو أسلوبه في الكتابة.. سأقرأ لك ما كتبه: (بدأت امتحانات نصف السنة.. وقد مرت ثلاثة أيام على امتحان اللغة العربية.. وفي اليوم الرابع دخل معاون المدرسة الأستاذ قابيل إلى قاعة الامتحانات متفقدا سير الامتحانات وليسجل أسماء الطلبة الغائبين عن الامتحان، وما أن رآه حتى قال بصوت مرتفع:

- يا آدم.. يا بغدادي.. لماذا غششت في امتحان اللغة العربية؟

ارتبك آدم واصفر وجهه وتصاعدت نبضات قلبه. التفت التلاميذ إليه، بل إن المدرس المشرف على القاعة الأستاذ هابيل أبو الصوف نظر إليه بتساؤل. احتار آدم.. فلم يجد ما يقول.. وما أن رآه الأستاذ المعاون على هذه الحال من الارتباك حتى أشفق عليه، وقال مداريا الموقف وكأنه يعتذر عن هذه المزحة الثقيلة:

- أمزح معك يا آدم... أحسنت..

ثم التفت إلى المدرس المشرف موضحا وهو يبتسم:

- لقد كتب في امتحان اللغة العربية، وفي مادة الإنشاء بالتحديد شيئاً رائعا، تصور أنني أعطيته أعلى درجة على المادة التي كتبها ..

استرد آدم شيئا من لونه. سرت همهمة بين التلاميذ. اقترب المعاون قابيل منه ومرر يده على رأسه برفق مشجعا، ملتفتا للمدرس المشرف:

- وأنا أقرأ ما كتبه آدم تذكرت جبران خليل جبران والمنفلوطي.. تصور كان موضوع الإنشاء هو العمل أساس النجاح في الحياة... وهذا النحيل الجالس أمامك كتب كما يكتب فيلسوف.. أنه يحفظ جملا بكاملها من كتاب (النبي) لجبران.. بالمناسبة هل قرأت لجبران أستاذ هابيل؟

ارتبك الأستاذ المشرف هابيل أبو الصوف على القاعة من هذا السؤال المفاجئ والموضوع غير المتوقع، فقال وكأنما يستذكر شيئا:

- جبران..؟ نعم قرأت له كتاب النظرات..

فقال المعاون قابيل برزانة وسخرية خفية:

- هذا الكتاب للمنفلوطي وليس لجبران..

ثم التفت إلى آدم قائلا كي لا يربك المدرس أو يراه خجلا :

- أليس كذلك يا آدم؟

- نعم أستاذ.. كتاب النظرات للمنفلوطي وهو في ثلاثة أجزاء.. ولديه أيضا العبرات ..

ارتبك الأستاذ هابيل أبوالصوف أكثر واحمر خجلا، أما التلاميذ فأخذوا

يتبادلون النظرات والابتسامات الخفية فقال:

- عفوا.. لم أقصد كتاب النظرات وإنما الأجنحة المتكسرة..

فقاطعه المعاون محاولا إنقاذه من هذا الارتباك:

- على كل حال أستاذ هابيل، مدرس الكيمياء لا يجد الوقت لقراءة الأدب...

- على العكس أستاذ قابيل.. أنا أقرأ الأدب باستمرار...

لم يرد المعاون الأستاذ قابيل حينها أن يستمر بالحديث في هذا الموضوع فغادر الصف بعد أن نصح التلاميذ أن لا يسلموا الإجابات قبل أن يعيدوا قراءتها ويتأكدوا من صحتها)...

هذا ما جرى معي فعلاً حينما كنت في المرحلة المتوسطة.. وهي الخطوة الأولى، ربما، التي وضعتني دون إرادة مني، على عتبة عالم الكتابة، حينما اكتشفت، وباعتراف الأستاذ قابيل، الذي كان معاونا لمدير المدرسة، وأستاذا للغة العربية أيضا..! لكن لم تكن هذه أسماءهم.. لقد اختار لهم آدم التائه أسماء أسطورية.. قابيل وهابيل.. وكأنما أراد أن يصور الصراع الأسطوري من خلالهما..! علما أنا أيضا أميل إلى مثل هذا الأمر.. عجيب... كلما أتوغل في القراءة أكتشف التشابه الذي يصل أحيانا إلى حدود التطابق في ما بيني وبين الكاتب آدم التائه.. لقد كتبت أنا عنه في روايتي.. محاولاً تصوير بواكير وعيه السياسي، لكني اكتشفت أنه كتب عني ما يلي:

(صعد آدم إلى الطابق الثاني من بناية المدرسة، وقطع الممر المؤدي إلى تلك الفسحة في زاوية الممر حيث يتجمع التلاميذ للتدخين عند الفرص القصيرة بين الدروس. وهناك رأى مجموعة من التلاميذ الذين لا تربطه بهم علاقة سوى كونهم يدرسون معه في نفس المدرسة، وفجأة لمح هابيل العطا وهو يسحق عقب السيجارة بنعله، وكان من طبيعة هابيل العطا أن يأتي المدرسة بالنعال، فهو يكره الأحذية، مما يسبب له العقاب من قبل المدرسين، بل إنه يأتي إلى المدرسة بالنعال حتى في الأيام الممطرة، كأنما هو بذلك يعبر عن استخفافه بالدراسة وبالمدرسين الذين كان لا يهابهم أبدا .

اقترب آدم منه مصافحا، ورحب هابيل العطا به بشدة. هابيل عطا فتى في الثامنة عشرة من عمره. رسب لعدة سنوات، وهذه هي فرصته الأخيرة، فإذا لم ينجح هذا العام فسيفصل من المدرسة وعليه مواصلة التعليم المسائي، وهو ينتمي لعائلة ينتمي بعض أفرادها إلى الحزب الشيوعي. برغم أن هابيل لا ينتمي لأي منظمة، إلا أنه كان يعد نفسه

شيوعياً كما هي سمعة العائلة، ولكونه يعرف أن آدم ليس بعثياً ولا ينتمي إلى المنظمة الطلابية التابعة للسلطة لذلك فهو يتحدث أمامه بلا خوف وكأنما مسألة مشاركته مشاعره وأفكاره من قبل آدم هي بحكم المنتهية. قال هابيل العطا وهو يسحب آدم بعيدا عن بقية الطلبة:

- أتدري كيف سيمر هذا العام علينا؟
- لا..
- سيكون عاماً مريحاً..
- مريحاً؟ كيف..؟
- ستكون عندنا ثلاثة دروس شاغرة..
- لماذا؟

فأجابه هابيل العطا وكأنه يكشف له عن أسرار خطيرة لا يعرفها سواه، بلهجة يكشف فيها عن أهميته الشخصية:

- لأن الأساتذة قابيل الشبيبي، وآدم أبو جيشي، وآدم الشيخ تم اعتقالهم، وهم الآن في دائرة الأمن العامة، وهذا يعني دروس الجغرافيا والرياضة واللغة العربية ستظل شاغرة .

شعر آدم بالرهبة فسأل :

- هل هذا صحيح؟ متى تم اعتقالهم؟

فأخذ هابيل العطا يشرح له باندفاع، بعد أن لاحظ تأثره من سماع الخبر :

- قبل أسبوع، في الساعة الثانية صباحا راحت سيارة الأمن إلى بيت الأستاذ قابيل الشبيبي وأيقظوه وزوجته من النوم، بحجة وجود مناشير وجرائد الحزب الشيوعي، وفتشوا زوايا البيت جميعها.. ثم أخذوا بتفتيش الأستاذ قابيل وزوجته وهما في ملابس النوم، وأخذوا يمررون أياديهم على جسد زوجته أمامه بحجة التفتيش عن المناشير، ويقال إنها ضربت أحدهم بمنفضة السجائر على رأسه فشجته، أما الأستاذ آدم أبو جيشي فقد أخذوه من نادي المعلمين حيث كان مع بعض المدرسين في حديقة النادي، ويقال إنه أخذ يسخر منهم أمام الجميع ويفضحهم، ولكن لم يستطع أي منهم أن يمسه في النادي، أنت تعرف أستاذ آدم فهو رياضي وإذا مسه أحدهم فأنه سيدفنه حيا في الحديقة. أما الأستاذ آدم الشيخ فقد اعتقلوه في المستشفى حيث كان مع أبيه أمام غرفة العمليات،إذ كانوا يجرون عملية استئصال الزائدة الدودية لأمه. أنت تعرف أن أبا الأستاذ آدم هو شيخ معمم لذا اقترب رجال الأمن منه وطلبوا منه عدم إثارة أية ضجة، وأنهم

سيأخذون الأستاذ آدم معهم لإجراء بعض الاستفسارات الشكلية، أما الأستاذ آدم فقد طلب منهم الخروج من المستشفى دون إثارة الرعب لأبيه، وأنه سيأتي معهم.. وهكذا..

شعر آدم البغدادي بأهميته الشخصية أيضا، كما شعر برهبة تقبض على نفسه، لقد بدأت الأشياء تتكشف أمامه، وما أكثر ما تكشفت له من أسرار وأمور وخفايا خلال هذه الدقائق فشعر بحب كبير تجاه هابيل العطا، وأراد هو بدوره أيضا أن يزود عطا بما يعرف فقال له :

- أتعرف هابيل بن مطير..؟

فأجاب هابيل العطا سادا عليه مواصلة الحديث:

- نعم أعرفه.. لقد اعتقلوه منذ فترة بتهمة التهريب...

شعر آدم البغدادي بخيبة من معرفة هابيل العطا لأخبار هابيل بن مطير، ولكنه قطع عليه مشاعر الخيبة هذه بمواصلة الحديث :

- لقد اعتقلوا آدم الجيلاوي وآدم الغريب من اتحاد الطلبة العام أيضا...

لم يفهم آدم البغدادي ماذا يقصد بإتحاد الطلبة العام فهو يعرف الحزب الشيوعي فقط، لكنه خجل من أن يعلن ذلك فقال بانكسار :

- صحيح؟

فجأة لكزه هابيل العطا قائلا بهمس :

- اقلب صفحة عن الموضوع جاء قابيل مريوش...

التفت آدم البغدادي فرأى قابيل مريوش يقترب منهما مبتسما، وما أن وصل إليهما حتى احتضن آدم قائلا باللهجة المصرية :

- خلاص.. خلاص...

فقال له آدم بتعجب وهو يشاركه الابتسام، بينما ظل هابيل العطا صامتا بلا مبالاة :

- ماذا هناك..؟ تكلم..

أخذ قابيل مريوش يدور به قبل أن يجيبه ثم تركه وقال بجد مفاجئ :

- سأترك الدراسة، لقد تم فتح دورة لنواب الضباط من خريجي الدراسة المتوسطة أو من في الصف المنتهي منها، وسأتقدم إليها.. وداعا أيتها المدرسة والكتب والتحضيرات والواجبات اليومية.. وداعا أيتها الحياة الطلابية .

لم يشارك هابيل العطا في الحديث ولم يعر الموضوع اهتماما بالرغم

من إنصاته للخبر، ولم يكن هابيل العطا يحب قابيل مريوش أبدا لسبب بسيط هو أن أباه نائب ضابط درجة سابعة، وهذا يعني بالنسبة إليه أنه من رجال السلطة.. شعر بحقد خفي على قابيل مريوش، ولم يدر ماذا يفعل فانسحب بسرعة معتذرا بالذهاب للتبول قبل أن يعلن جرس الدخول لقاعات الدرس. وما أن استدار هابيل العطا وابتعد بضع خطوات حتى قال له قابيل مريوش :

- أرأيت كيف أنه لم يفرح للخبر.. إنني أكرهه.. وأنصحك يا آدم أن لا تمشي معه.. فهو شيوعي ابن شيوعي، وسيسبب لك المشاكل.. أنت من عائلة طيبة.. ما لك وهذه المشاكل..؟ .

أحس آدم البغدادي بوخزة موجعة في صدره من كلام قابيل مريوش، وشعر بأنه بعيد جدا عن هذا الشخص الذي يحادثه، وبالرغم من أن قابيل مريوش من أصدقائه المقربين، إذ كان يهرب معه من المدرسة في العام الماضي ويتجولان معاً في شارع النهر، إلا أن كرهه لهابيل العطا أبعده عنه، لم يستطع أن يجد ما يرد به قابيل مريوش فقال له متمتما :

- لكن هابيل العطا.. شاب طيب.. ولا أعتقد عنده مثل هذه الأمور..

فهز قابيل مريوش يده كأنما هو الخبير بمعرفة شؤون غامضة :

- أنت الطيب.. أنت النائم ورجلاك في الشمس.. كل شخص يسلم عليك ويضحك معك تعتبره صديقا لك.. أنت لا تعرف هابيل العطا.. أنه يريد أن يكسبك...

ذهل آدم من كلمة يكسبك، فهو لم يسمع بها، لكنه ظن أن قابيل مريوش يردد كعادته كلمات يسمعها من الراديو.. انتبه آدم لقابيل وهو يتحدث معه :

- في اجتماع اللجنة الاتحادية تحدثوا عن هذا الموضوع ودافعت عنك بشدة وأرادوا أن يستدعوك إلى غرفة اللجنة الإتحادية للاستفسار عن علاقتك به، لكنني رفضت ووعدتهم بأني وبنفسي سأحدثك بالموضوع وأبعدك عنه .

شحب وجه آدم وشعر بالارتعاش يسري في جسده، فلقد شعر لأول مرة بالخطر المباشر الداهم، بتهمة كهذه.. فبادر للدفاع المستميت عن نفسه، نادما للحظات لعلاقته بهابيل العطا :

- ماذا تقول..!! غير معقول يا قابيل.. هل ما تقول حقيقة..؟ ما لي ومثل هذه الأمور.. ثم أن هابيل العطا لم يحدثني قط بمثل هذه

الأمور.. وحتى لو أراد فأنا شخصيا لا أقبل.. أنا لستُ طفلا يا قابيل... ثم أنت تعرفني أنا بعيد عن مثل هذه الأمور ..

فقاطعه قابيل مؤكدا :

- أخي آدم أنا أعرف ذلك ومتأكد منه، ولكنك لا تعرف هابيل العطا.. أنه مثل الحية يلدغ ويخفي رأسه.. يورطك في المشاكل وينسحب.. احذره.. وأفضل أن تقطع علاقتك به .

أحس آدم البغدادي أنه حوصر، فهو لا يريد أن يبتعد عن هابيل العطا بل على العكس أن يبتعد عن قابيل مريوش بالذات، ولكن وضعه شديد الخطورة الآن.. فقال بذكاء :

- أنت يا قابيل تعرف أنني لا أريد أن أخلق لنفسي أعداء.. ثم أني إذا تركت هابيل العطا فجأة، ماذا سيتصور..؟ فأنت تعرف أننا في صف واحد ونلتقي يوميا في المدرسة وفي الطريق ..

دق الجرس مؤذنا الطلبة للدخول إلى الصفوف، فقال قابيل مريوش وهو يهم بالانسحاب :

- على أية حال.. لا تهتم يا آدم.. أنا معك.. ولكن إذا حدثك هابيل العطا بأمور غريبة قل لي ولا تخف.. وأنا سأتفاهم مع اللجنة الإتحادية .

قال ذلك وركض باتجاه الدرج، فظل آدم البغدادي للحظات واقفا شاحب الوجه، لا يعرف ماذا يفعل، إلى أن لمح هابيل العطا وهو يدخل الصف فأسرع بالدخول إلى الصف أيضا .

كان كل من في الصف جالسين بالرغم من عدم حضور الجميع، وما أن دخل حتى نظر إلى هابيل العطا الذي بدوره كان يحدق إلى وجهه بتركيز كأنما يحاول أن يقرأ ما جرى.. لمح آدم البغدادي ابتسامة دافئة عريضة ومشجعة ترتسم على وجه هابيل العطا، فابتسم بدوره شاعرا بأهميته فبادره هابيل العطا بمرح :

- ها.. لقد حذرّك من التواصل معي.. أليس كذلك..؟

بهت آدم البغدادي وسأله :

- كيف عرفت..؟

- ها.. بسيطة.. لقد كرر ذلك مع آخرين أيضا ..

وهنا صاح التلميذ المراقب الذي يقف عند الباب :

- الكل قيام..

ودخل مدرس الكيمياء الذي لم يقرأ جبران، ووقف عند الباب محدقا

بالجميع ثم قال بعد لحظات :

- جلوس..

فجلس الجميع وهم يتنفسون الصعداء وكأنما أنهوا مهمة شاقة..).

* * *

غريب.. هل تصدق يا قارئي بأن هذه التفاصيل حقيقية، جرت في الواقع، وليس في رواية، لكن من أين جاء بها هذا المدعو آدم التائه..؟ أعتقد أن مخيلته لم تسعفه للحديث عن بقية الأصدقاء، ونمو الموهبة الأدبية، وتشكل الوعي السياسي البدائي لدي ولدى أصدقائي.. لقد كان لدي صديق أسمه آدم الذهبي، وكان ذهبيا حقاً، فقد كان أشقر الشعر، أخضر العينين، وكان يقرأ لي قصصه الأولى التي كان قد بدأ بكتابتها، وكان يحمل لي دواوين شاعر معروف بالغزل.. معه تشكلت اهتماماتي الأدبية بشكل أكثر وضوحا.. لكن دروب الحياة أخذتنا إلى أزقتها المعتمة. عموماً.. ربما لم يشأ آدم التائه أن يتوقف طويلا عند هذه المرحلة من عمري، لأنه إنتقل في فصل لاحق إلى ما بعد سنوات من ذلك.. إلى فترة حياتي الجامعية، حينما استأجرت غرفة في فندق (رضوان) الذي يقع في رأس شارع المتنبي، في الزاوية التي تلتف على شارع الرشيد، على الرغم من أني من سكنة بغداد، وبيتنا كما أسلفت في منطقة الوشاش، لكنني وبعد أن أنهيت الجامعة، عشت فترة بلا عمل، ومرت بي أحداث عاصفة سأرويها لاحقاً، لذلك أجرت تلك الغرفة في الفندق التي كنت أسكنها بعض الأيام لأعود إلى بيتنا في الوشاش لبضعة أيام ثم أعود إلى فندقي.

لا أعرف كيف أفسّر الأمر..؟ لقد فكرت ذات يوم أن أكتب سيرة حياتي.. وما كتبه آدم التائه في روايته كنت قد فكرت أنا شخصيا بتدوينه!! ما الذي يجري بيننا؟! تصور أنه يكتب عن لساني بما يشبه تداعي الذكريات، أو المذكرات، أو ما يشبه السيرة الروائية، التالي :

(أيقظني الفتى القروي صباحا حينما طرق بابي طرقتين، لقد أوصيته البارحة أن يوقظني في الساعة السابعة، لكنه وكما يبدو قد نسي لأن الساعة الآن هي التاسعة. لا يهم فاليوم هو الجمعة، لكنني أردت الاستيقاظ مبكرا. الأجواء متوترة في البلاد .

أحيانا أفكر بشاعرية وحزن مع نفسي، متى تتحقق أحلامنا الجميلة عن الحياة والمجتمع الإنساني الذي لا نجد فيه الفقر والحرمان، وإنما الحياة بكل تدفقها البهيج.. أحيانا أحلم بالبحر.. بالبحر الأزرق العميق.. الهادئ.. ثم أحلم بالسفن ذات الأشرعة البيض.. أنا لم أر في حياتي سوى النهر.. سوى

دجلة.. والفرات.. لكني أتخيل نفسي ألم القواقع الفارغة، وأرسم أشياء على الرمل، يأتي الموج ليمحوها بنزق.. وأحيانا أحلم بأنني على صهوة جواد أشهب أنطلق به على ساحل البحر ثم أطير به إلى السماء.. وأحيانا أشعر وكأني قارب سكران يغفو عند جرف رملي فتلطمه الأمواج برفق ونعومة، ولكن كثيراً ما تحاصرني الكوابيس أيضا، فأتخيل نفسي في مديرية الأمن وفي جلسة تحقيق.. وأتخيل أحيانا بأنهم عرفوني وجاءوا لغرفتي وفتشوها، فأجدني دون إرادة مني ألقي نظرات فاحصة ومرتابة إلى كل زوايا الغرفة، علما أني أعرف أن هذه ليست إلا كوابيس .

مساء أمس كدت أقع في مأزق لولا حذري وحيطتي التي أصبحت جزءاً من سلوكي اليومي؛ فقد عدتُ إلى الفندق الساعة التاسعة ليلا، وما أن صعدتُ درجات السلم المظلم ودخلت باحة الفندق حتى فوجئت بثلاثة رجال غرباء وامرأة بالعباءة وفتى في الثامنة عشرة وصاحب الفندق والفتى القروي، وبعض النزلاء الذين أعرفهم .

لم أقترب منهم، بل حتى لم أسلم على أحد لأنهم كانوا منشغلين بالحديث مع المرأة، فدلفت إلى غرفتي التي تقع على بعد أمتار من مكتب الإستقبال على يسار الباحة، ثم أغلقت الباب بهدوء ووقفت أنصت للحديث الذي كان يصلني واضحا .

لستُ ممن يحبون الإنصات لأحاديث الآخرين فهذه من عادات الشرطة والمخبرين، ولكن عليّ الانتباه والحذر، فلقد طرق سمعي صوت أحد النزلاء يتحدث بافتخار عن نفسه ومن ثم بدأ بطرح بعض الأسئلة على المرأة مستفسرا عن سكنها وأهلها وعلاقاتها بشخص ذكر اسمه، ثم تداخلت الأصوات والأسئلة فتصورت شجارا قد حصل، لم أعد أميز شيئا، فاستلقيت على سريري، وبقيت هكذا إلى أن خفّت الأصوات وسكن الفندق من الضجيج فانسللت خارجا بعد أن تأكدت من ذهاب الرجال الغرباء، فوجدت صاحب الفندق يدخن النرجيلة والفتى القروي يحضّر الشاي من إبريق قديم، فأردتُ الاستفسار عما رأيت فقلت لصاحب الفندق :

- خير أن شاء الله يا حاج..؟

فقال بعد أن سحب رشفة من الدخان :

- ليس هناك إلا الخير يا آدم، ولكن الدنيا عاهرة لا تستحي، والناس صاروا أسوأ منها.. تصور امرأة عمرها خمسة وأربعين عاما وعندها ابن يدرس في الجامعة وابنة في الخامسة عشرة وزوج يعمل سمكريا، تهرب مع صبي عمره ثمانية عشرة عاما من مدينة إلى مدينة تاركة خلفها كل

شيء متحملة الفضيحة والعار والموت حتى .

أحسست براحة داخلية فلقد اتضح لي كل شيء، ولكنني وددتُ أن استفسر أكثر فسألته :

- لم أفهم بشكل جيد.. أنت تقصد المرأة التي ...

فقاطعني وهو يحرك يده وينفث الدخان من فمه :

- نعم.. نعم.. المرأة التي كانت واقفة قبل ساعة هنا في هذا المكان حينما دخلت أنت.. لكن الحمد لله الذي أنقذنا منها ومن شرها وبليتها، والفضل يرجع لصاحبنا آدم العيساوي، فلولا اتصاله برجال الأمن الذين جاءوا ليحققوا معهما فربما كنا قد وقعنا في ورطة .

مرة أخرى اختلطت عليّ الأمور، وانكمش قلبي، إذا فالرجال الغرباء كانوا من رجال الأمن، ثم أن آدم العيساوي نزيل الفندق قد اتصل بهم.. ما علاقته بهم.. فبادرته بسؤال طرحته بطريقة غير مبالية :

- وكيف عرفتم كل ذلك عنها؟

إستعدل صاحب الفندق في جلسته واتجه إليّ بكامل جسده، ثم نفخ الجمر الموشك على الانطفاء في أعلى النرجيلة فتوهج باللهب، وقال :

- يا سيدي.. القصة وما فيها، هو أن صاحبنا آدم العيساوي اتضح أنه عريف في الاستخبارات ونحن لا ندري به. كنت أظنه فراشا أو كاتبا في الحفظ في إحدى الدوائر الحكومية، المهم، اليوم صباحا جاءت المرأة وصاحبها الشاب. أنا لم أكن في الفندق، فقط صاحبنا الغشيم، وطلبوا منه غرفة فأعطاهم الغرفة المجاورة لغرفتك، تلك التي فيها سرير عريض، وأثناء ذلك نزل آدم العيساوي من غرفته فرآهما فشك في أمرهما، لأنه يسكن عندنا منذ فترة طويلة وهو يعرف أن النساء لا يترددن على الفنادق، خاصة فندقنا إلا نادرا، وعادة ما تكون عائلة، وحتى ذلك يكاد يكون مرة في السنة، المهم، بعد ذلك بفترة قرأ السجلات فعرف أنهما قادمان من مدينة الكوت، وأن الأسماء والألقاب غير متشابهة، ثم استفسر من الصبي عنهما، فعرف أنهما ما أن دخلا الغرفة حتى أغلقا الباب خلفهما، ولم يفتحاها إلا ظهرا عندما ذهب الشاب لساعة من الزمن وعاد محملا بالكباب والخضروات والطرشي، وأغلقا الباب مرة أخرى ولم يخرجا إلا مساء حينما جئت أنا، وأرسلت الصبي للاستفسار منهما عن عدد الأيام التي يرغبان البقاء فيها، فاحتارا وقالا بأنهما لا يعرفان بالضبط كم سيبقيان لأن لديهما معاملة في إحدى الدوائر ولا يعرفان كم سيستغرق ذلك.. وبالصدفة كان آدم العيساوي قد صعد إلى الفندق، وقبل أن تأتي أنت بساعة أو

أكثر فوجئنا بدخول ثلاثة رجال غرباء، استقبلهم آدم العيساوي بالترحاب، وسرعان ما أبرزوا هوياتهم قائلين بأنهم من الأمن، وأنهم جاءوا بطلب من عريف الاستخبارات آدم العيساوي لغرض التحقيق.. والحقيقة يا ابني يا آدم، أنا خفت على نفسي وفندقي، أنت تعرف أن الوضع الآن غير مريح، وليس هناك أمان في البلاد كلها، وهذه الدنيا مثل صندوق العجائب، كل شيء ممكن أن يحدث، وأنت تعرف أنا لا أحب المشاكل في فندقي خاصة مع الحكومة، رزقي على هذا الفندق، المهم.. لا أريد أن أطيل عليك القصة، قالوا أنهم جاءوا ليحققوا مع المرأة والشاب اللذين استأجرا غرفة عندي، فلم أنكر، وأعطيتهم رقم الغرفة أيضا، وحينما أرسلت الصبي لاستدعائهما، استوقفه أحدهم وذهب بمكانه، وبقي لأكثر من دقيقة يتنصت لما يجري في الغرفة قبل أن يطرق الباب بعنف، ففتح له الشاب الباب مندهشا، فطلب منه بلهجة آمرة أن يأتي مع المرأة إلى إدارة الفندق للتحقيق معهم.. لا أدري كيف انهار كلاهما بهذه السرعة، فخلال دقيقة، صدقني خلال دقيقة، انكمشا مثل القنفذ، واعترفا بسرعة، آه لو كنت رأيت المرأة كيف كانت تبكي، خاصة بعد أن أخبروها بأنهم سيستدعون زوجها وابنها الذي يدرس هنا في الجامعة ببغداد، لكنها توسلت بأن لا يخبروا ابنها.. و. و. (ثم اقترب الحاج مني وهمس) بيني وبينك أشاروا لها بما معناه ننام معك وننقذك، المهم، أنا شخصيا رفضت أن يبقيا في الفندق، ورجال الأمن أخذوهما معهم ليواصلوا التحقيق في المديرية.. إيه يا دنيا.. عشنا وشفنا ..

لم أعلق على حديثه. لم أكن أعرف بأن تلك المرأة وعشيقها الصبي المراهق، لأن الأمر بدا لي وكأنني أعرف هذه القصة جيداً، أو أني عشتها أو سمعت بها في زمن مضى.. نعم.. نعم.. إنها قصة صديقي آدم الواسطي الذي لا بد وأن أتحدث لك عنه يا قارئي في ما بعد..!!.

انسحبتُ بصورة لبقة من المشاركة في الحديث عن هذه الفضيحة بعد أن شربت كأسا من الشاي، ومازحت الصبي عن غرامياته في القرية. لكني انتبهت بأن عليّ أن أتقرب أكثر منه لأعرف ما يدور حولي، فلقد حكى لي أمس بعد أن ذهب الحاج، صاحب الفندق،إلى بيته، بأنه لم يرد العمل في الفندق ولكن الحاج يمت بقرابة قوية لأبيه وهو الذي اقترح على أبيه إرساله إلى المدينة لأنه سيجعل منه أفنديا يلبس البنطلون مثل رجال الحكومة، وها هو لحد الآن في دشداشته الكالحة التي جاء فيها من

القرية قبل أربعة أشهر.. ناهيك عن المعاملة التي يتلقاها منه وكأنما هو خادم لديه، أما عن مرتبه فهو يستلم ربع دينار كل أسبوع، ثم عبر لي عن استيائه من حياة المدينة وأنه يريد العودة إلى القرية، فهو يشعر بالاختناق في هذا الفندق الذي يشبه القبر على حد قوله، وقال إنه يريد العمل في البناء كي يجمع شيئا من المال ليساعد عائلته، ثم تحدث عن ديون أبيه وعن مظالم القرية بعفوية وصدق نادر .

* * *

أحيانا تراودني أفكار نزقة وبسيطة، ومن شدة بساطتها تبدو معقدة جدا وساذجة في الوقت نفسه.. أحيانا أسأل نفسي ما معنى الحياة؟ ما جدواها؟ ولماذا نولد ونعيش ثم نموت؟ ما سر هذه اللعبة؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت تلح عليّ منذ كنتُ صبيا في الحادية عشرة، ربما لن تصدقوا إذا عرفتم أنني قرأت كل ما يمكن أن يسمى فلسفة العصر، وأعرف الإجابة عن ظهر القلب على كل هذه الأسئلة، وأستطيع أن أفصل لكم كل ما قاله الماديون والمثاليون بهذا الصدد، وأصنف لكم الكتب التي تناولت هذه الأسئلة، لكن برغم ذلك أحس أنها جميعا لم تمنحني الإجابة الشافية، بل إن دراستي الجامعية بكلية الآداب، قسم اللغات، وتمكني من لغتين أوربيتين أخريين إلى جانب الانكليزية لم تساعدني كثيراً، إذا لم أقل أن قراءتي بتلك اللغات زادت من حيرتي. ليست للمسألة علاقة بالمعرفة أو بالشك، وربما كان السأم وفقدان الصبر والحياة الحقيرة التي نعيشها وراء مثل هذه الهواجس، لا أدري .

أذكر مرة، ومنذ سنوات، أنني التقيت صديقاً شيوعياً مسنا، قضى فترة طويلة من عمره في السجون والبيوت السرية، لكنه ترك العمل السياسي بعد أن وقع على تعهد بعدم ممارسة العمل السياسي، ولم يكن توقيعه انهيارا وضعفا، لأنه حدثني بأنه وجد تقاريرَ مكتوبة عن تفاصيل حدثت بين شخصيات مناضلة محصورة جداً، فأحس لحظتها بالخديعة، وتعهد بترك العمل السياسي، لكنه ظل وفيا لنفسه وأفكاره. المهم، هذا المناضل الذي اعتزل السياسة سألني بعد نقاش طويل بيننا سؤالا مباغتا ذات مرة ونحن نجلس في مقهى البرلمان بشارع الرشيد :

- بماذا تحلم في هذه اللحظة يا أيها الكاتب الأعزل..؟

حينها لم أفكر طويلا في الإجابة فقلت له مباشرة :

- أحلم أن أكون مستلقيا على فراشي في البيت وأنا أقرأ رواية..

فحدق في وجهي برهة متأملا وعلى شفتيه ابتسامة أبوية وقال بطيبة،

وكأنه يطلق حكما :

- برجوازي صغير.. إنها أحلام البرجوازي الصغير..

فاجأني التعليق لاسيما وأنا أكن لهذا المناضل احتراما كبيرا ويعنيني رأيه، وبرغم ذلك لم أشعر بالإساءة، ربما لطريقته الأبوية في التعليق ولانعدام سوء النية، فسألته بمشاكسة وتحدي :

- وأنت بماذا تحلم؟

فقال مباشرة وبشموخ وكأنه كان ينتظر سؤالي :

- بالثورة... بالثورة البروليتارية.. يقول لينين يجب أن نحلم لكن حلمنا يجب أن يكون من حلم الطبقة العاملة ..

- لكنك تركت السياسة..؟

- هذا لا يمنعني من أن أحلم..

فاجأتني إجابته أكثر، وشعرت للحظة بالخجل من حلمي المتواضع الأناني، رغم أنني كنت صادقا في إجابتي، وفي حلمي، تلك اللحظة .

الساعة الآن هي الحادية عشرة ليلا. همدت المدينة منذ ساعات كما تهمد الجثة. ليس هناك في شارع المتنبي الآن غير أصوات القطط. وثمة هدير ربما لفرن الحمام الرجالي القريب..).

هذا ما كتبه عن فترة من فترات حياتي.. صحيح انه اقترب من أفكاري التي كانت تراودني، لكنه من أين عرف حكاية المرأة التي هربت مع المراهق من مدينة النعمانية..؟. لكن بالرغم من ذلك فقد فاته أن يعرف عني أشياء كثيرة، ليدونها في روايته، فقد كنت قد بدأت كتابة رواية لكني مزقتها.. لكني، ما زلت مندهشاً، كيف أمكنه معرفة كل هذه التفاصيل الأخرى..؟

* * *

لقد مضى أكثر من عقدين على هذه الأحداث.. احتل الأميركان بغداد، وأسقطوا النظام الدموي الذي كان يهيمن على البلاد، وجاءوا بطائفة معينة إلى الحكم، لتحكم البلاد بعد مرور أكثر من ألف وأربعمائه عام من التهميش، إلا من فترات قليلة حكمت خلالها.. لكن ممثليهم والمنتمين إليها بدوا الآن مثل مجانين هربوا من مصح للأمراض النفسية.. لقد دمروا البلاد، التي كانت مدمرة أساساً نتيجة الحروب المجنونة والحصار الجائر، بمعنى أنهم لم يغيروا شيئا، ولم يبنوا شيئا، بل أتوا بالأميين، والجهلة، والمزورين، وعملاء الدول المجاورة ووضعوهم في المناصب الرفيعة في الدولة، كما في

المؤسسة التي أعمل فيها!..

مرة أخرى أجد نفسي مذنباً أمامك يا قارئي.. فقد جررتك إلى استطرادات أنت في غنى عنها.. فما يهمك أنت وما كتبه آدم التائه عني في روايته.. أنت تريد روايتي أنا عنه.. أو بدقة أكبر تريد أن تعرف ماذا أكتب أنا.. وما هي روايتي التي تشتاق لقراءتها.. أليس كذلك؟ ستأتيك إذن ..

آدم التائه: ما الذي أقوم به..؟ لقد توجهت لكتابة رواية عن بطل اسمه آدم البغدادي، الذي عرفت أنه كتب رواية عني.. لكنني أقحمت نفسي الآن داخل النص وباسمي الصريح..؟ هل أنا أحاول استخدام عناصر المسرح الملحمي والتغريبي بكسر حاجز الإيهام وخلخلة عملية التقمص..؟ أم أنه تأثر لا واع بأسلوب الكاتب الأميركي بول أوستر الذي يداخل الشخصيات، ويجعل للشخصية الواحدة أكثر من مرآة، يتعدد وجهه فيها وبأشكال مختلفة..؟ لا أدري..

* * *

استغرقت حواء صحراوي في القراءة. كانت قد قرأت فصلين من المخطوطة، ولم تجد أي شبح يظهر في الرواية لحد الآن، ففكرت ربما ستظهر في ما بعد، لذا طوت المخطوطة على أن تواصل القراءة في البيت بهدوء . فكرت بما جرى من أحداث خلال هذه الليلة الغامضة. شعرت بخوف مجهول. قررت مع نفسها أن تبتعد عن المكان، وأن لا تثير أية شبهات حول نفسها، أن تحترس جداً، وتنتظر ماذا ستكشف عنه الأحداث غداً، فربما ستكتشف إيفا ليبسنج الجريمة بنفسها، لأنها عادة ما تكون عنده صباحاً!

في تلك اللحظة أخذت تسترجع مع نفسها كل تفاصيل دخولها إلى الشقة وخروجها منها، فربما كانت قد تركت خلفها أي أثر يشي بوجودها هناك..؟ استرجعت كل التفاصيل، فاطمأنت إلى أنها لم تمس أي شيء، إذ كان باب الشقة مفتوحاً حينما وصلت، لذا لم تضغط على جرس الباب ولم تمسك الباب بتاتاً، كما أنها حينما واجهت الموقف ذهبت إلى طاولة الكتابة فأخذت المخطوطة فقط، ولم تمس أي شيء .

* * *

كان المطر الأسود ينهمر بشدة في تلك الساعة من الفجر. تحركت حواء صحراوي بسيارتها مجدداً. فوجئت بأن الشارع الذي هي فيه ليس

خالياً من المارة، وإنما هناك أعداد من البشر يمشون في وسطه، لكنها استغربتْ طريقة مشيتهم الآلية. انتبهت إلى أن هؤلاء المارة لا ينظرون للطريق وكأنهم يسيرون في النوم، وجوههم بيض، وأحداقهم حمر، ونظراتهم جامدة، وحركاتهم آلية .

حين صارت بمواجهة إثنين منهم انتبهت إلى أنهما أشبه بالسومبي الذين رأتهم في أفلام الرعب، أي أنهم جثث تمشي، جثث حية، لكنها آلية ومقيدة في حركتها وكأنها معاقة. كانت أعدادهم تتكاثر .

أحست برعب شديد. أوقفت سيارتها فجأة، ثم حركتها إلى الخلف راجعة بسرعة إلى بداية الشارع العام الذي انعطفت منه، وانطلقت باتجاه طريق آخر يوازي نهر التايمز. أحست بشيء من الراحة، وكأنها كانت في كابوس وتخلصت منه لأن هذا الشارع خال من تلك الجثث الحية، إلا أن ذلك لم يستمر سوى لحظات، لأنها لاحظت أن جموعاً من هؤلاء السومبي أخذوا يتوافدون إلى الشارع الرئيسي من أزقة وشوارع جانبية .

إنطلقت بسرعة أكبر في ذلك الطريق المحاذي لنهر التيمز، وكلما توغلت في الشارع، كانت ترى جموع السومبي تزحف على المدينة. حانت منها إلتفاته إلى جسر صارت قريبة من أن تمر تحته، فهالها أن رأت حشوداً من السومبي تقطع الجسر..! ما الذي يجري؟ هل هي تحلم أو أنها صاحية حقاً، وأن ما تراه هو حقيقي؟ لم تكن واثقة من أن تجد إجابة على السؤال الذي طرحته للتو على نفسها .

* * *

لم تعرف حواء صحراوي كيف وصلت إلى منطقتها، التي استغربت حينما انتبهت إلى انها خالية من السومبي. أوقفت سيارتها عند الباب الخارجي، لكنها حينما التفتت رأت بعض الجثث الحية قد انعطفت إلى زقاقهم، فقفزت إلى بيتها قفزاً، ودخلت مسرعة إلى البيت .

حين فتحت الباب مرعوبة، كاد قلبها يتوقف من هول الصدمة الأخرى التي كانت تنتظرها خلف الباب .

كانت مديرة المنزل العربية تجلس على مقعد في الباحة المواجهة للباب الخارجي. شل الرعب حواء صحراوي أول الأمر، إذ رأت كتلة سوداء بعينين متقدتين تجلس مقابل الباب من الداخل. ظنت حواء صحراوي أنها إحدى الجثث الحية المتحركة، أحد السومبي، وحينما عرفت أنها مديرة المنزل، وهي تجلس ملتفة ببطانية كحلية بدت سوداء لعينيها أول الأمر، شعرت بالحرج، وبالخوف أيضا، فهي تعرف أن هذا الأمر سيصل إلى

والديها غداً، فهذه المرأة هي عينهم على كل حركاتها وما يجري معها في المنزل. إنها تدرك أنه بالرغم من كونها امرأة في منتصف الثلاثينات من عمرها، لكنها مطلقة، وهذا ما يدفع أهلها المحافظين إلى تتبع خطواتها وحركتها، ولكونهم لا يعيشون معها في البيت نفسه، لذا أرسلوا هذه الخادمة لتدير منزلها ولتكون عينهم في بيتها، تنقل لهم كل ما يحدث فيه.

أحست حواء صحراوي بشيء من الأمان حينما صارت في منزلها، لذلك حاولت أن تبرر خروجها في مثل هذا الوقت المتأخر من المنزل، فقالت دون أن تسألها الأخرى بأنها تلقت إتصالاً من إيفا ليسنج، طلبت منها مساعدتها لأنها في وضع نفسي صعب فذهبت إليها. نظرت مديرة المنزل إليها نظرة فاحصة، ثم نهضت متجهة إلى غرفة نومها دون أن تقول شيئا .

الـفـصـل الثـاني: الجثة المسافرة

بينما كانت حواء صحراوي تصعد السلم إلى الطابق الأعلى حيث غرفة نومها، فكرتْ بأن خبر خروجها فجراً سيصل إلى أهلها صباحاً وهم على مائدة الفطور، فمديرة المنزل لن تفوت فرصة مثل هذه كي تثبت لهم الولاء والطاعة، لكن راودها إحساس بالعبث وعدم الإهتمام لكل ما سيجري .

حين وصلت غرفة نومها التي هي أشبه بصالون كبير، أنيق، ينم عن ذوق، داهمها إحساس بفراغ هائل في أعماقها، أحست بأن ثمة غموضاً يلف كل شيء، فما معنى وجود الجثث الحية، السومبي، التي كانت تسير في شوارع لندن وعلى جسور العالية..؟ ثم من أين جاءها ذلك الإحساس الغامض بأن ثمة جريمة ستقع..؟. صحيح أن مشاعر الغيرة راودتها في البداية، لكنها لم تكن تنوي الذهاب إلى الشقة إلا بعد أن راودها الإحساس الغامض بإمكانية وقوع جريمة ما في تلك الشقة، وأن الكاتب آدم التائه معرّض للخطر القاتل..؟

أضاءت الغرفة، ثم مشت إلى سرير نومها، ألقت بمخطوطة الرواية عليه. أخذت تنزع ملابسها وتلقي بها إلى الأرض المفروشة بالسجاد الثمين.. تعرت بالكامل وهي تتوجه إلى غرفة الحمام.. دخلت إلى كابينة الدش وفتحت صنبور الماء الدافئ الذي أخذ ينهمر على جسدها المثير المكتظ بالرغبات المقموعة .

ظلت تحت الماء المتدفق صامتة، وكأنها لا تشعر بإنهمار الماء الدافئ أو كأن الجسد الذي يقف تحت دش الماء ليس جسدها. فجأة، أغلقت الصنبور، فتوقف جريان الماء. مررت يديها على جسدها وكأنها تريد أن تنزع عنه البلل.. خرجت من الكابينة. أخذت منشفة كبيرة وردية اللون كانت مع كمية أخرى من المناشف البيض والملونة موجودة على رف جانبي، ولفت جسدها بها.. كانت تقوم بكل هذه الحركات بشكل آلي، حيث أن ذهنها كان مرهقاً ومستفزا من أحداث تلك الليلة الغريبة. ارتدت بيجاما حريرية فضية اللون، وخرجت إلى غرفتها ثانية، لكنها قبل أن تندس في فراشها الوثير توجهت إلى جهاز الموسيقى.. أخذت قرصاً مدمجاً.. قرأت فهرس محتويات أغانيه.. وضعت القرص في الجهاز.. برمجته على أغنية ما، ثم توجهت إلى سريرها. أخذت المخطوطة. تصفحتها. أحست بعدم الرغبة في القراءة. وضعت المخطوطة على الكنبة الصغيرة المجاورة للسرير. اندست في

الفراش. أطفأت النور في الغرفة من زر قرب رأسها. أخذت الريموت كونترول وضغطت زر التشغيل.. فتسرب صوت فيروز هادئا في ذلك السكون الغامض :

شو بيبقى من الروايه
شو بيبقى من الشجر
شو بيبقى من الشوارع
شو بيبقى من السهر
شو بيبقى من الليل.. من الحب.. من الحكي
من الضحك.. من البكي
شو بيبقى.. شو بيبقى.. شو بيبقى يا حبيبي
بيبقى قصص صغيري عم بتشردها الريح

ظلت تستمع لهذه الأغنية مرات عديدة، وكلما انتهت ضغطت على الريموت كونترول لتكرارها. ظلت تفكر بكلمات الأغنية التي كانت تحس وكأنها تعيد صياغة أفكارها ونفسيتها، أمام هذه الأسئلة الوجودية والعبثية. ظلت تكرر الإستماع للأغنية، ولم تعرف متى تسرب النوم إلى عينيها المليئتين بالغموض .

* * *

حينما آفاقتْ وفتحتْ عينيها، كان جهاز الهاتف الأرضي يرن في غرفتها، وكان نور النهار قد تسرب من النافذة إلى الغرفة فأضاء وسطها والجانب الآخر من الغرفة المقابل لسريرها. نظرت إلى الساعة الكبيرة على الجدار الجانبي فرأت أنها تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً. ظلت لثوان لا تستطيع أن تفكر بأي شيء، وكأن ضباباً أبيضَ كثيفاً، يغلف فضاء جمجمتها، وبرغم أنها كانت تسمع رنين الهاتف لكنها لم تفكر قط بالنهوض لكي تجيب على المتصل، وفجأة، قفزت متلهفة ومتوترة من سريرها، وكأنها تذكرت كل كوابيس الليلة الفائتة، إذ كانت متأكدة من أن المتصل هو صديقتها إيفا ليسنج .

حينما أخذتْ سماعة الهاتف جاء صوت والدتها من الطرف الآخر. أحست بخيبة غامضة من أن المتصل هي أمها وليس صديقتها. لم تسمع تحية الصباح المعتادة منها، وإنما جاء صوت أمها مرتبكاً ومتوتراً ليخبرها بأن أباها منزعج جداً من خروجها بعد منتصف الليل وبقائها إلى ساعات

الفجر الأولى خارج البيت، وأن عليها أن تفكر جيداً بالإجابة، لأن والدها سيتصل بها مستفسراً عن ذلك .

لم تغضب من كلام أمها، بل إنها نفسها استغربت من موجة الهدوء واللامبالاة التي غمرتها وهي تستمع لأمها المتوترة، والتي تحاول حمايتها من غضب الأب، فقالت، بصوت هادئ ومحايد دونما أية محاولة للتبرير، بأنها كانت عند صديقتها إيفا ليسنج، ثم عليهم أن يكفوا عن مراقبتها مثل أي فتاة صغيرة أو مراهقة، فهي على مشارف الأربعين.. وهي بالتالي متزوجة ومطلقة.. وهي، حسب القانون امرأة بالغة مسؤولة عن نفسها وتتحمل كل التبعات القانونية التي تنتج عن تصرفاتها، وأن عليهم أخذ البومة العمياء التي وظفوها كمديرة لمنزلها، والتي ليس لها من مهمة سوى التجسس على أنفاسها وحركتها.. وأضافت القول لأمها بأن يمكنها أن تخبر الأب بكل ما قالته الآن لها.. ومن الآن فصاعداً سوف تتصرف هي بما تراه مناسباً لها.. وعليهم أن يتركوها وشأنها.. أما يكفيهم أن لديهم ابناً معقّداً.. مصاباً بالتوحد.. أيريدونها أن تحاول الانتحار مرة أخرى..؟ .

صُدمت الأم عند سماع احتجاج ابنتها الجريء والصريح، الذي قالته بهدوء واثق لم تعهده منها، وبالرغم من أنها كانت في أعماقها متفقة مع كل كلمة قالتها الابنة لها، فأنها لم تشأ أن تبدي اتفاقها معها بشكل واضح، فأخذت تؤنبها بأن هذا الكلام غير مقبول منها، لأنهما، هي والأب، حريصان على مستقبلها ووضعها وسمعتها.. وهما يتمنيان لها السعادة، فأجابتها الإبنة بأن سعادتها الحقيقية بأن يتركوها وشأنها. لم تشأ الأم أن تستسلم، وتصمت وكأنها توافق على ما تقوله ابنتها، لاغية بذلك سلطة الأب، لذلك استمرت في نصح ابنتها بأن تتعقل وألا تغضب والدها بتصرفاتها، وأنها لن تنقل لأبيها ما قالته الآن، فأجابتها الإبنة بأنها ترجوها بأن تخبره بما قالته، فردتها الأم بكلمات أمومية رقيقة بأن تتعقل. انتهت المكالمة بسيل من النصائح التي كان بعضها بصيغة الأوامر .

ظلت حواء هادئة، فهي تحب أمها، وتعرف أنها في أعماقها متفقة معها وتتمنى لها السعادة، لكنها في الوقت نفسه تريد أن تحافظ على هيبة العائلة وتكبح جماح تمرد الإبنة الذي ربما سيقود لجرّ العائلة إلى موضع الإحراج العشائري .

حينما وضعت حواء صحراوي سماعة الهاتف أحست بإنقباض في قلبها، وتضايقت نفسياً لأنها تحدثت مع والدتها بهذه النبرة الحازمة، بالرغم من أنها كانت في الوقت نفسه تشعر بالراحة لأنها استطاعت أخيراً أن تقول:

لا، ودونما انهيارات عصبية، وثقة مهزوزة .

* * *

لم تكن حواء صحراوي تعرف ماذا تفعل. كانت تنتظر إتصالاً هاتفيا من صديقتها إيفا ليسنج لتخبرها عن مقتل آدم التائه، لأنها تعرف بأن صديقتها تزوره كل صباح تقريباً، ولم ترغب بأن تبادر هي بالإتصال بها. كانت متأكدة بأن هذا الإتصال من صديقتها حتمي ولا بد أن يتم، لكن حتى ذلك الوقت لم يتصل أحد .

أحست بدفقات من التوتر أخذت تتراكم في أعماقها، ولم تجد سوى أن تأخذ المخطوطة وتتوجه إلى الصوفا الموضوعة في الطرف الآخر من الغرفة مقابل السرير. لكنها كانت في حالة نفسية متوترة، وثمة كآبة سوداء بدأت تغيم على عالمها الداخلي، فلم تشعر برغبة حقيقية في القراءة، بالرغم من أنها تود أن تعرف ماذا كتب آدم التائه عنها وعن صديقتها. جلست هناك، وضغطت على جرس كان على طاولة أمام الصوفا فرن في الطابق الأرضي. ولم تمض سوى لحظات قليلة حتى دخلت مديرة المنزل وخلفها فتاة هندية تحمل صينية كبيرة فيها فطور الصباح .

نظرت حواء صحراوي إلى المرأة العربية التي تدير المنزل نظرة فاحصة فيها الكثير من الغضب المكتوم وعدم الرضى، فأدركت الأخرى بأن حواء عرفتْ ما قامتْ به من إخبار أهلها بخروجها بعد منتصف الليل، لذلك تجنبتْ الحديث معها كي لا تُسمعها ما لا تحب، بل أرادت أن تغادر الغرفة بأسرع ما يمكن، فألقت عليها تحية الصباح، ثم أشارت إلى الفتاة الهندية بإصبعها نحو المكان الذي عليها أن تضع الصينية عليه .

ظلت مديرة المنزل للحظات واقفة عند الباب وكأنها كانت تود أن تقول لها شيئا، بأن تعتذر بطريقة ليس فيها إعتذار واضح من خلال تبيان بأن الأهل يريدون مصلحتها وهم أكبر منها، ومن حقهم أن يعرفوا عنها ما يدور حولها، إلا أنها أدركت بأن حواء غاضبة وأن مزاجها سيىء جداً، وفسرت ذلك بأنها تلقت تعنيفاً من والدها، الذي اتصل قبل قليل، ولم تكن تدرك بأن المتصل كانت أمها. فخرجت مؤجلة ما نوت عليه إلى وقت آخر .

كانت مديرة المنزل العربية تعرف بأن حواء تدرك بأن وجودها في هذا البيت هو كي تكون عين أهلها في البيت، لأنها أساساً كانت تخدم في بيت الأهل، لكن بعد طلاق حواء من زوجها قابيل الموسى، أرسلوها لتعيش في بيتها الذي حصلت عليه بعد الطلاق، كي تنقل لهم كل ما يدور في

منزل ابنتهم المطلقة. وكثيراً ما كانت تتعرض حواء لتقريع والدها، بعد أن تكون مديرة المنزل قد نقلت له أشياء عنها وعن خروجها ليلاً مع صديقتها الإنكليزية الممثلة إيفا ليسنج، لكن كانت حواء تبقى منكسرة النفس لأيام، غاضبة من مديرة المنزل، بل كانت مديرة المنزل تشعر أحيانا بأن حواء تهابها وتخاف منها، لكن كل ذلك كان ينتهي بعد أيام، لتعود إلى علاقتها الإعتيادية والمتسامحة معها. إلا في هذه المرة، إذ أحست مديرة المنزل بأن نظرات حواء تشع غضباً مكتوماً، لكنه غضب ممزوج بتحدٍ، وكأنها قد خاضت معركة مع والدها، لذا شعرتْ بخوف غامض من حواء هذه المرة، وأحست بأنها تعجلتْ قليلاً بالذهاب إلى بيت الأهل لتخبرهم عن خروج ابنتهم بعد منتصف الليل وعودتها في الساعات الأولى من الفجر .

انتبهت حواء صحراوي للحالة التي وجدت نفسها فيها. أحست بأن تغييراً كبيراً ومفاجئاً حدث لها، فمنذ اللحظة التي أفاقت فيها أحست وكأنها إنسان آخر، وليس حواء صحراوي السابقة، حواء الشجاعة مع نفسها لكنها المترددة عند الإقدام على أي فعل، الجريئة في أفكارها وفي تخيلها لنفسها في بعض المواقف، والحوارات، والجدل، لكنها المترددة، الخجولة، عندما يحين وقت الكلام، فلا تعبر عما كانت تفكر فيه أو تنوي قوله، لكن منذ أن فتحت عينيها هذا الصباح أحست وكأن قوة غريبة، غامضة، مشاكسة، تستقر في أعماقها، ولم تفهم ماذا جرى لها بالضبط، وكيف جرى، ومن أين أتت هذه القوة والرغبة بالمشاكسة؟.. فما بين لحظة دخولها إلى الشقة في منطقة ريتشموند، ورؤية الكاتب آدم التائه مقتولاً، وأخذها لمخطوطة روايته، ثم رؤيتها للجثث الماشية في شوارع لندن، وعلى الجسور، وأغنية فيروز الفلسفية عن معنى الحياة البشرية، لم تمض سوى ساعات قليلة معدودة.. فكيف جرى هذا التحول في شخصيتها وكيانها خلال هذه الفترة القصيرة جداً، بينما هي تعرف بأن أي تحول يطرأ على الشخصية، عادة ما يكون بطيئاً، يأخذ فترة طويلة، ويكون مؤلماً ومستفزّاً في أغلب الأحيان، يرافقه إحساس غامض بالتجدد والتغيير، لكنها لم تشعر بأنها مرت بعملية التحول هذه وأعراضها المعروفة، فقد جرى ذلك بشكل مفاجئ، لأنها حينما توجهت إلى سريرها، نامت وهي تقريباً في حالتها الطبيعية، بإستثناء ما رأته في الشقة وما بعدها، وما ملأته الأغنية في نفسها من مشاعر عبثية .

إنها تتذكر الآن جيداً بأنها كانت أثناء حديثها التليفوني مع آدم التائه طبيعية جداً، مكتفية بأقنعتها المتعددة التي كانت ترتديها أثناء حوارها

معه، بكل ما تمتلكه تلك الأقنعة من قدرات وكفاءة على استحضار الأكاذيب المختلفة، وتقمص الحالات النفسية المختلفة. لقد كانت هي نفسها حواء صحراوي، وأيضا في الوقت نفسه ليست هي، وإنما امرأة أخرى، امرأة لعوب، ممثلة، مقنعة، متقلبة، بحيث لا يمكنها أحيانا أن تعرف وجهها الحقيقي من وجوهها الأخرى، بل ولا يمكنها أن تجد وجهها الحقيقي بين تلك الأقنعة التي ترتديها يومياً..! لكنها أفاقت اليوم، مثلما يفيق المرء من غيبوبة طويلة، لتجد نفسها شخصية أخرى تقريباً.. أترى هذا ممكن..؟ أين كانت كل تلك السنوات..؟ ما هو سر هذا التحول..؟ أيمكن أن تكون للأغنية كل هذا التأثير عليها..؟ لا.. هذا مستحيل.. لكن لماذا مستحيل..؟ لم تستطع أن تجد الجواب.. كانت تحس في أعمق أعماقها بخوف فطري من هذا التحول..؟

* * *

حاولت حواء أن تهرب من حالتها التي وجدت نفسها فيها، وأن تتخلص من الأسئلة التي أخذت تتدفق إلى ذهنها منبثقة من العدم، فتوجهت لتناول الفطور. جلست على الطاولة القريبة من النافذة والتي وضعت صينية الطعام عليها. تناولت لقيمات من القشطة والعسل مع قطع من الخبز المحمص، وصبت لنفسها شاياً في الكوب، لكن ما إن أخذت رشفة منه حتى أحست بألم شديد في سن من أسنانها العليا. لم يكن الشاي ساخناً جداً، وبالرغم من ذلك كانت وخزة الألم كثيفة ومفاجئة بالنسبة لها، مثل برق خاطف، ومثل صدمة كهربائية أهتز لها كل كيانها .

انتظرت للحظات، ثم ارتشفت شيئا من الشاي مرة أخرى، فأحست بوخزة الألم مرة أخرى، بل استمر الألم للحظات أطول، أحست خلال ذلك أنه يشق جمجمتها. قررت مع نفسها أن تراجع طبيب الأسنان. ظل الألم في فمها باقياً، ثم امتد لفكها كله، ومن ثم أحست بتسرب الصداع إلى رأسها .

كثافة ألم الأسنان سد شهيتها عن الطعام، فتركت الفطور. ظلت جالسة حول المائدة القريبة من الشرفة المطلة على الحديقة. فكرت أنها ربما تعرضت لإلتهاب في لثتها أو أن إحدى أسنانها تعرضت لتآكل ما، لكن كيف حدث هذا الأمر وبشكل مفاجئ..؟ .

أرادت أن تتأكد بالكامل من أن ثمة إلتهاباً في أسنانها فارتشفت شيئا من الشاي مرة أخرى، فلم تشعر بتلك الوخزة، لكنها أحست بشيء من الألم في فكها. فكرت مع نفسها بأنه إذا استمر الألم لبعض الوقت فأنها

ستراجع الطبيب هذا اليوم، وقد ضايقها ذلك جداً لأنها تكره الذهاب إلى طبيب الأسنان، بل حتى حينما تذهب لتنظيف لثتها وأسنانها بشكل دوري كل ستة أشهر فأنها تستعد نفسيا لذلك قبل أيام من الموعد، وتعيش خلال تلك الأيام حالة نفسية صعبة، وكأنها ذاهبة إلى إجراء عملية جراحية وليس لتنظيف الأسنان واللثة، بل إنها حينما تستذكر عيادة طبيب الأسنان تشعر بقشعريرة تسري في جسدها، فهي لا تنسى حينما يقوم الطبيب بتنظيف أسنانها من خلال رفع التكلس ما بينهما بواسطة ضغط الهواء، فأنها تحس وكأن هناك من يحفر بمثقاب جارح في جمجمتها. كانت تكره الذهاب إلى عيادة طبيب الأسنان.

* * *

لم تستطع مواصلة الفطور. ضغطت على زر الجرس المرتبط بالطابق الأسفل. بعد لحظات دخلت الفتاة الهندية التي ظنت بأنها انتهت من فطورها. طلبت حواء منها أن تأتيها بحبوب مسكنة للآلام، خاصة لوجع الأسنان، فخرجت الفتاة على عجل، وبعد لحظات عادت وبيدها أشرطة عدة، كل شريط يحتوي على مجموعة من الحبوب، إذ كانت جميعها مسكنة للآلام .

صبت لنفسها شيئا من الماء، وابتلعت حبة، فأحست بوخزة الألم عند شرب الماء. أشارت للفتاة بأن تحمل صينية الطعام، إنحنت الفتاة بإرتباك، وحملت صينية الفطور، مسرعة في مشيتها لمغادرة الغرفة، وكأنها تهاب شيئا ما، أو تخشى من أن تستوقفها للسؤال عن شيء ما .

نهضت حواء صحراوي من مكانها. كانت تحس بدوامة من المشاعر المختلفة، مشاعر لا مبالاة، وإحساس بالعبث، وبالضياع، وبتفاهة عيشها، بل راودها إحساس وكأنها ملقاة في مكان مجهول لا تعرف أين هو، في قاع سحيق ومنسي، وكأن يداً وحشية، قاسية، تقبض على مصيرها، لكنها أيضاً، تحس بقوة خفية تدفعها لمواجهة حياتها الحالية بشراسة، بالرغم من أنها تجهل مصدر هذه القوة وسر هذا الإندفاع في مواجهة واقعها .

استغرقت في أفكارها وهي جالسة على الصوفا التي تتوسط الغرفة. أحست بزحمة الأفكار في ذهنها. فكرت أن تتوجه لسريرها وتستلقي عليه ولا تشغل ذهنها بأي شيء بتاتاً، لكنّ ثمة قلقاً داخلياً اجتاحها. أحست بأنها تحتاج إلى اطمئنان داخلي .

فوجئت بإحساس الخوف من الوحدة، والعزلة، والنسيان. فكرت مع نفسها بأن يكون المرء معزولاً لكنه يعرف بأن هناك من يفكر فيه، ويهتم

لأمره، لأهون بكثير من أن يرى المرء نفسه معزولاً ومهملاً وهو وسط الآخرين، وفي الزحام. وأن مقولة حشر مع الناس عيد غير دقيقة أبداً، وهي معزولة وليس هناك من يفكر فيها ويهتم لأمرها .

نظرت إلى السرير. ومع تلك النظرة تدفقت التأملات في إيقاع حياتها اليومية. السرير، قراءة الكتب في السرير، وأحيانا الفطور في السرير، النهوض يومياً في وقت متأخر. النزول إلى الطابق الأرضي، ومعاينة الخدم والطباخين وهم يعدون طعام فترة الظهيرة، الجلوس هناك لبعض الوقت، تبادل بعض الجمل مع الخدم، ومديرة المنزل. التنزه قليلا في الحديقة. الإتصال الهاتفي اليومي بالأم، الإتصال اليومي، وربما لعدة مرات يوميا مع إيفا ليسنج، الخروج إلى أحد المطاعم ظهراً، ومعظم الأحيان مساءً، العودة إلى البيت. الإلتقاء أحيانا بإيفا في البيت، وفي هذه الغرفة بالذات، أو الذهاب عندها، والسباحة معها في حوض السباحة البيتي، العودة إلى البيت، القراءة.. القراءة بالعربية، القراءة بالإنكليزية، مشاهدة الأفلام المسجلة على الأقراص المدمجة، سماع الموسيقى، ومرة أخرى السرير.. السرير.. السرير .

السرير هو مركبتها الفضائية التي تتجول فيها بين المجرات والعوالم الغامضة، بين عوالم جسدها الغامضة، بين القارات والبلدان، بين أحياء لندن وأزقتها وشققها المعتمة، بين جوقة الأصوات والوجوه الغامضة التي لا تعرف منها سوى أصواتها، وشهقاتها، وكلماتها المتقطعة. السرير حياتها الحقيقية. السرير والهاتف. في السرير تأخذ هاتفها وتطلب أي رقم عشوائي مرتدية قناعاً محدداً لها، تحدّث شخصاً لا على التعيين، وكثيرا ما ترتدي قناع اللعوب الداعرة. لكنها بعد أية مغامرة داعرة لها عبر الهاتف، تنتقد نفسها، وتشعر بالذنب، فتقوم لتغتسل، وتصلي ركعتين طلباً للمغفرة، وتكفيراً عما بدر منها .

في السرير تحس بالأمان، تشعر أنها ثابتة في مركز الكون والأشياء حولها تدور. في السرير تسوق قطعان الأسئلة وتجد لها، الأجوبة، أحياناً. من السرير تنطلق في مغامراتها السرية التي لا يعرفها أحد، ولا حتى صديقتها إيفا ليسنج. في السرير ترتدي أقنعتها المختلفة، وفي السرير تكون عارية على حقيقتها، جسديا وروحياً، وحينها لا تعرف أبداً أين وجهها وأين قناعها؟ وهل هي إنسانة طيبة أو خبيثة وشريرة؟ هل هي هي أو أنها إنسانة مزدوجة الشخصية، ضائعة، لا تعرف هويتها الحقيقية؟.

* * *

كانت حواء صحراوي جالسة بهدوء، مستغرقة في تيار أفكارها الصاخبة

تلك، حينما انتبهت، فجأة، إلى أن الوقت قد تجاوز العاشرة والربع صباحاً، ولم تتصل بها صديقتها إيفا ليسنج. داهمها قلق واضح انعكس على ملامح وجهها الفاتن. أرادت أن تتصل بصديقتها في بيتها، ثم فكرت أنها الآن ربما، بل من المؤكد، في شقتها الثانية حيث كان آدم التائه يسكن بمنطقة ريتشموند، وهي بلا شك قد اكتشفتْ، الآن، الجريمة، لكن لماذا لم تتصل بها..؟ بل هي لم تتصل بها منذ ليلة أمس، وعادة ما تتصل بها في مثل هذا الوقت خلال الأيام الإعتيادية، فلماذا لم تتصل بها في مثل هذا اليوم الإستثنائي..؟ .

تملكتها رغبة عارمة في أن تبادر هي بالإتصال. ترددت قليلاً، لكنها لم تستطع أن تسيطر على رغبتها في معرفة ما يدور، فنهضت من مكانها، ذهبت إلى حيث جهاز الهاتف. أخذته، وعادت إلى موضعها. بدأت تضغط على أزرار الأرقام، متصلة بهاتف الشقة التي يسكنها آدم التائه. كانت متوترة الأعصاب، وفي داخلها تتداخل مشاعر متضاربة، وتتدفق صور مختلفة، تمرق سريعاً، بشكل خاطف، بحيث لم تستطع هي أن تستقر على شيء محدد من كل تلك المشاعر والصور .

ظل جرس الهاتف يرن في الشقة التي كان يسكنها آدم التائه لدقائق دون أن يستجيب أحد لإتصالها. وضعت سماعة الهاتف في موضعها. ظلت تفكر للحظات في الأمر، ثم وجدت نفسها تعاود الإتصال. ومرة أخرى لم يجبها أحد. سألت نفسها: أيمكن أن صديقتها إيفا لم تذهب إلى هناك هذا اليوم، وأنها إنشغلت عن ذلك بشيء ما..؟ ربما.. أجابت نفسها، وأخذت تضغط على أرقام هاتف إيفا ليسنج البيتي في منطقة كينزينغتون، وهناك ظل جرس الهاتف يرن دونما إستجابة من أحد أيضا، حتى ممن يقومون بالخدمة في البيت، الذين عادة ما يجيبون إذا ما كانت إيفا خارج البيت .

ما أن وضعت سماعة الهاتف في موضعها حتى رن الهاتف، فأخذت السماعة فوراً. وجاءها صوت إيفا ليسنج هادئاً، مع نبرة استغراب ممزوج بشيء من الإحباط :

- صباح الخير حبيبتي حواء ..
- صباح النور ..

أجابتها حواء صحراوي متوترة، وكأنها تنتظر من صديقتها أن تخبرها بشيء ما مهم تتوقعه هي، إلا أنها استغربت من هدوء نبرة إيفا ليسنج الخالية من أي توتر أو خوف أو أي رعب يشي بحدوث جريمة أو أي شيء غير عادي، فظلت صامتة للحظات، وقبل أن تسأل أو تقول أي شيء،

بادرت إيفا ليسنج بالحديث :

- أتعرفين يا حواء ما الذي جرى..؟

توترت حواء صحراوي وهي تعد نفسها لكي تؤدي دور المتفاجئة، وتخفي أية معرفة لها بحدوث الجريمة في الشقة، فقد كانت متأكدة بأن الخبر يخص الجريمة، فقالت بلهفة :

- لا.. ما الذي جرى..؟
- آدم التائه..؟
- آدم التائه..؟ ما به..؟ هل جرى له شيء ما..؟
- لا ..

فوجئت حواء صحراوي من الإجابة، فأجابت بشيء أشبه بالصرخة :

- لا.. ألم يحدث له شيء..؟

فوجئت إيفا ليسنج من رد فعل صديقتها، فقالت .

- لا.. ما الذي يمكن أن يحدث له.. أكنت تتوقعين شيئا ما سيحدث له؟

ارتبكت حواء صحراوي، وأحست أنها كادت تكشف نفسها بمعرفتها تفاصيل الجريمة التي حدث في الشقة، فأمسكت نفسها، بالرغم من حيرتها لما أخبرتها به إيفا.. فكرت للحظة بأن إيفا ربما ليست في شقة ريتشموند، وما زالت في شقتها، فألقت نظرة سريعة على شاشة الأرقام فوجدت أنه رقم الشقة التي يسكنها آدم التائه، فاحتارت أكثر، وقالت مبررة رد فعلها :

- لا أدري ماذا يمكن أن يجري معه.. لكني ظننت أنه حدث له شيء، لأنك ذكرت اسمه وكأن شيئا ما حدث له.. هل جرى له شيء ما..؟
- لا.. لم يجر له أي شيء.. لكني جئت قبل قليل إلى الشقة.. فلم أجده ..

فقاطعتها حواء صحراوي متلهفة، وهي تحاول أن تكتم صدمتها مما تقوله لها صديقتها :

- لم تجديه في الشقة..؟ كيف..؟
- لقد رحل ..
- رحل..؟
- نعم.. رحل ..
- ماذا تقصدين بكلمة « رحل ». .؟
- أقصد أنني جئت قبل قليل إلى الشقة فلم أجده.. وإنما رأيت أنه قد ترك رسالة ..

فقاطعهتا حواء صحراوي بلهفة وتعجب :

- لم تجديه.. وإنما رأيت رسالة منه..؟

- نعم.. رأيت رسالة منه.. يقول فيها: بأنه آسف على إتخاذ هذا الموقف.. وإنه راجع إلى ألمانيا ..

- ماذا تقولين..؟

- هذا ما حصل ..

- غير معقول ..!

- ما هو غير المعقول..؟ أن يسافر هكذا فجأة ويترك رسالة..؟ أم ماذا..؟

انتبهت حواء صحراوي لنفسها، وشعرت وكأنها ضُربت على رأسها بقوة، بحيث أحست بنفسها غير قادرة على التفكير السليم، وأن كل شيء قد تشوش أمام ناظريها، فقالت محاولة أن تتماسك أكثر وأن لا تفضح نفسها :

- أقصد من غير المعقول أن يتصرف هكذا.. أن يسافر دون أن يقول شيئاً.. أو أن يودعنا على الأقل ..!

- نعم.. أنت محقة.. لا أعرف ما الذي دفعه إلى أن يتصرف هكذا..؟ ربما أضطر للسفر..؟

- ربما ..

في هذه اللحظات، أحست حواء صحراوي وكأنها تكتشف وجهاً آخر لصديقتها، إذ فكرت بأن إيفا ليسنج، قد أخفت جثة آدم التائه بطريقة ما، كي تجنب نفسها المشاكل القانونية، والفضائح الإعلامية، لذلك اختلقت قصة سفره المفاجئة، بل واختلقت قصة الرسالة أيضا. نعم.. نعم.. إنها متأكدة من أن صديقتها قد أخفت الجثة، وهي تحاول الآن أن تستغفلها بقصة السفر المفاجئ، كي لا تثير شكها .

راود حواء صحراوي إحساس غامض انبثق من أعماقها السحيقة بأنها الآن في موضع قوي إزاء موقف وضع صديقتها، وكأنها مسكت شيئا ما يدين صاحبتها، وصارت الأخرى في قبضتها، فسألتها :

- ومتى اكتشفتِ ذلك..؟

فأجابت إيفا لسنج بهدوء شديد ودونما أية نبرة للتوتر :

- الآن.. قبل قليل.. لقد وصلت قبل دقائق قليلة إلى الشقة فلم أجده.. صعدت إلى غرفة النوم في الطابق الأعلى فوجدتها غير مرتبة.. ظننته في الحمام.. ناديته فلم يجب.. كان كل شيء هادئاً.. وحينما طرقت باب غرفة الحمام لم يجبني أحد.. بل كان الباب مفتوحاً.. دخلت.. لم أجد أحداً..

نزلت إلى الطابق الأرضي.. وجدت آثار فطور لم ينته بعد.. وأخيرا لمحت الرسالة ..

- آثار فطور لم ينته بعد..؟ ماذا تقصدين..؟

- أقصد أنه قد أعد لنفسه فطورا.. لكنه لم ينته منه.. ربما لأن سيارة التاكسي التي حجزها كي توصله إلى المطار قد وصلت وهو يتناول طعامه، فترك الطعام وخرج.. لا أدري..؟

- غريب ..!

- نعم.. غريب.. بالمناسبة.. هناك رسالة بالعربية أيضاً.. أعتقد إنها موجهة لك ..

- رسالة بالعربية..؟ موجهة لي..؟

- أعتقد ذلك.. فلمن يا تُرى يكتب بالعربية.. ليس لي طبعاً، فقد كتب لي رسالة بالإنكليزية، لكن ثمة أخرى بالعربية.. ومن المؤكد أنها لك..؟

- وأين كانت الرسالة..؟

- على طاولة الكتابة.. حيث يجلس عادة للكتابة ..

صُدمت حواء صحراوي لما سمعته.. ما الذي يجري..؟ سألت نفسها.. استعادت خلال ثوان كل ما جرى ليلة البارحة فجراً، تذكرت أنها حينما أخذت مخطوطة الرواية من على طاولة الكتابة لم تكن هناك ثمة رسائل قط..!! ثم أنه قُتل.. فمن كتب الرسالة..؟ كما أنه لم يكن ينوي السفر بتاتاً..! فكرت مع نفسها بأن مسألة السفر ليست إلا غطاء للجريمة تحاول من خلاله إيفا ليسنج أن تموه على إخفائها للجثة..؟ لكن لو كان الأمر كذلك.. لاكتفتْ إيفا ليسنج برسالتها الإنكليزية.. أليس كذلك..؟ لماذا توجه رسالة إليّ.. وبالعربية..؟ لو كانت الرسالة بالإنكليزية لفكرت بأن إيفا هي التي كتبتها لكي تزيد من التمويه، لكن الرسالة كما تقول قد كُتبت بالعربية، أي هناك من شارك إيفا ليسنج في إخفاء الجثة، وفي كتابة الرسالة.. وربما طلبت هي من أحدهم أن يقوم بذلك.. لكن هل كل ذلك جرى خلال ساعات..؟ هذا غير ممكن.. لذلك أحست برغبة عارمة في أن تكتشف أسرارا ما حدث، فسألت :

- أيمكنني الحصول على الرسالة..؟

فجاء صوت إيفا ليسنج هادئا وطبيعيا، وهي تقول لها :

- أكيد.. يمكنك الحصول على الرسالة لأنها بالإساس موجهة إليك.. دعينا نلتقِ في المطعم الصيني اليوم، كما التقينا آخر مرة ..

- جيد ..

- الساعة الواحدة.. هل يناسبك الوقت..؟
- أكيد ..
- إذن.. إلى اللقاء ..
- إلى اللقاء ..

* * *

حين وضعت حواء صحراوي سماعة الهاتف في موضعها أحست وكأنها اكتشفت وجهاً آخر لصديقتها إيفا ليسنج. لم تكن تفكر أبداً بأن صديقتها يمكن أن تتصرف بأنانية مقيتة هكذا، فلكي تنقذ نفسها من الفضائح والتبعات القانونية تقوم بإخفاء الجثة، وكتابة رسائل لنفسها، بل ولها أيضا، بحيث دفعها هذا الأمر إلى أن تستعين بشخص عربي، كي يكتب لها رسالة بالعربية توجهها لها، وكأن القتيل هو من قام بذلك..؟ يا لها من شخص خطير إيفا هذه..؟ لكن عليها أن تسايرها لتكتشف إلى أين يمكن أن يؤدي ذلك كله..؟ أمن المعقول أن تقوم بكل هذا لكي تنقذ نفسها دون أن تفكر بالقتيل البريء..؟ أهي مستعدة أن يبقى القاتل طليقاً دون أن يرف لها جفن، من أجل أن لا تتشوه صورتها إعلاميا وإجتماعياً..؟ لكن كيف تسنى لها أن تقوم بإخفاء الجثة وإيجاد من يكتب لها الرسالة باللغة العربية في مثل هذا الوقت القصير..؟ وأين تراها أخفت الجثة..؟ من المؤكد أنها وحدها لا يمكنها حمل الجثة وإنزالها عبر السلم، وإلا فأنها ستثير شكوك الجيران..؟ وحتى لو قامت بذلك فمن المؤكد أنها لم تكن وحدها..؟ فيا تُرى كيف يمكنها أن تجد من يقبل بمثل هذه المخاطرة الجريئة..؟ أيعقل أنها قامت بتقطيع الجثة إلى أشلاء صغيرة ووضعتها في أكياس وحملتها إلى صناديق القمامة، ثم عادت ونظفت الشقة من الدماء..؟

أخذت حواء صحراوي تتخيل كل تلك المشاهد المرتبطة بالإحتمالات التي وردت إلى ذهنها، فأحستْ بقشعريرة الخوف تسري في جسدها، لكنها بالرغم من ذلك أحست برغبة مشاكسة في أن تذهب إلى الموعد، وأن لا تتردد في فك أسرار هذا اللغز .

ظلت جالسة في مكانها دونما تفكير. كانت وكأنها شُلت عن التفكير، أحستْ وكأنها موجودة وغير موجودة في الوقت نفسه، لكن بعد مرور فترة قصيرة عادت لنفسها وطبيعتها شيئا فشيئا، ثم أحست أن دفقاً خفياً من الدفء والرغبة الجنسية يسري في خلايا جسدها، وأخذ الدم يتدفق إلى أجزائها السفلى. نهضت ببطء، متوجهة إلى الحمام .

حينما صارت في غرفة الحمام، فتحت صنابير الماء الحار والدافيء في

حوض البانيو، بينما أخذت تنزع عن نفسها بيجامتها الفضية. وقفت عارية أمام المرآة الكبيرة. تأملت جسدها المثير. نظرت لعنقها ولنهديها الممتلئين. أحست أنها ممتلئة أكثر من اللازم في بعض الأماكن من جسدها، لا سيما في منطقة الوركين وعلى جانبيها. نظرت إلى الحوض الذي كان قد امتلأ إلى منتصفه. سكبت فيه بعض المعطرات. مزجت المعطرات بالماء محركة إياه بكفها، ثم دخلت إلى الحوض متمددة فيه. أعجبها جسدها فأخذت تتلمس نفسها برقة، فخذيها، وما بينهما، صاعدة بكفها إلى بطنها، ونهديها، دافعة بالماء إلى صدرها، وفي نفس الوقت مسترجعة الأحداث التي جرت منذ لحظة حديثها الهاتفي مع القتيل آدم التائه ليلة أمس، وحتى إنهاء المكالمة مع إيفا ليسنج. إرتسمت إبتسامة شيطانية على وجهها الفاتن.

الـفـصـل الـثـالـث: الرسالة الغامضة

كان المطعم في تلك الساعة من الظهيرة مكتظاً. حين وصلت حواء صحراوي القاعة الحمراء لمحت إيفا ليسنج تتحدث مع موظف الخدمة في المطعم، لكنها التفتت إليها مباشرة وكأنها استشعرت وجودها عند مدخل القاعة فرفعت ذراعها لتنبهها إلى مكان جلوسها. توجهت حواء إليها مباشرة. انتبه موظف الخدمة لذلك، فتراجع قليلاً لكنه ظل واقفاً بإنتظار أن تجلس، ليستكمل طلب المرأتين .

حيّتْ حواء صديقتها محتضنة إياها بشكل ودي، وجلستْ قبالتها، وقبل أن تتبادلا الحديث سأل موظف الخدمة عمّا تود أن تشربه أو تطلبه للغذاء، فطلبت كأسا من عصير الليمون، ثم ألقت نظرة إلى قائمة الطعام، إلا أن صديقتها بادرتها قائلة بأنها قد طلبت لكليهما الصنف نفسه الذي إعتادتا على طلبه كل مرة. فوافقتها مباشرة، وأخذ موظف الخدمة قائمة الطعام من على المائدة، وذهب وعلى وجهه علامات الإنبهار بهاتين المرأتين الفاتنتين .

كانت حواء صحراوي متوترة في أعماقها لكنها تكابد على أن لا تكتشف صديقتها ذلك، وكانت بالكاد تنظر إلى وجه صديقتها بشكل هادئ ومستقر، إذ تجنبت أن تلتقي عيونهما كي لا تستطيع إيفا أن تشعر بإرتباكها، وتنتبه للنظرة غير الودية التي نظرت بها إليها، إلا أن إيفا ليسنج لم تنتبه كثيرا لحالة حواء لأنها نفسها كانت محبطة، ومنكسرة الخاطر، وكأنها تحتاج إلى تعاطف حواء الأدبي والنفسي معها، لذلك وبدون مقدمات أو كلام فتحت حقيبتها وأخرجت رسالة منها، وهي تقول :

– لقد كتب لي هذه الرسالة التي تتألف من أسطر قليلة، بل يمكن عد كلماتها ..

ومدت بالرسالة إلى حواء صحراوي التي أخذتها دونما لهفة واضحة وقرأتها بصمت :

لستُ مغرما بإسداء النصائح التي أنا نفسي أحتاج إليها، لكني أظن بأننا حينما نكون سعداء نكون دائما في أحسن حال، لكننا حين نكون بوضع جيد لا يعني بأننا سعداء دائما. لستُ بلا قلب، لكني أشعر بأنه حان وقت الإختيار. آدم .

قرأت حواء صحراوي الرسالة لثلاث مرات متتالية. كانت إيفا ليسنج

تنظر إليها محاولة أن تقرأ إنطباعاتها من خلال ملامح وجهها، وكانت حواء صحراوي تعرف ذلك، لذلك حاولت أن تسيطر على نفسها وعلى ملامح وجهها، بل كانت تحاول أن تمد وقت القراءة، باحثة عن إجابة لا تثير الشك، ولا تكشف عمّا تفكر فيه، لكنها انتبهت إلى أن أسلوب الرسالة لا يختلف كثيرا عن طريقة وأسلوب آدم التائه في الكلام فعلاً، إلى جانب أن النص لا يشي بالكثير، ويكاد يكون مشفراً وملغزاً على قلة كلماته، ولا يتعارض مع سفره المفاجئ. أيمكن أن يكون قد كتب الرسالة فعلاً.. ولكن كيف ذلك وهي التي رأته بعينيها قتيلاً، مشدوداً إلى الكرسي..؟

أرجعت الرسالة إلى إيفا ليسنج. ولأول مرة من لحظة جلوسها إلى المائدة، نظرت إلى وجه صديقتها الحزين، وقرأت الإنكسار النفسي على ملامح وجهها، وشعرت للحظة بأنها نفسها الآن في حيرة، فهذا الوجه الجميل والحزين لا يمكن أن تكون صاحبته قاتلة، أو عنيفة إلى الدرجة التي يمكن أن تخفي جثة قتيل بريء، بل ولا يمكن أن يكون كل ذلك تمثيلاً.. فجأة، سألتها إيفا :

- ماذا تقولين..؟ هل فهمت شيئا محدداً..؟

لم تشأ حواء صحراوي أن تجيب مباشرة، فقد كانت منشغلة مع نفسها ومع أسئلتها التي لم تجد لها إجابات قط، فقالت بهدوء، بالرغم من أن ملامحها كانت تشي بأنها تفكر بعيداً :

- لا شيء محدد.. فالكلمات واضحة.. لا تشي بشيء سوى أنه لا يشعر بالسعادة بالرغم من توفر كل شيء.. وأنه يعرف بأنه يترك وراءه حزناً.. لكن عليه أن يختار ..

فقالت إيفا ليسنج بلهفة :

- أعرف ذلك.. فهذا ما يقوله النص.. أقصد هل هناك ما يمكن فهمه من وراء النص..؟

صمتت حواء صحراوي للحظات، ثم قالت :

- لا أعتقد.. فالنص واضح بالرغم من غموضه ..!

وبدون أن تواصل الحديث أكثر، مدت إيفا ليسنج يدها إلى حقيبتها وأخرجت الرسالة المكتوبة باللغة العربية. أثناء بحثها عن الرسالة في الحقيبة، سألت حواء صحراوي نفسها: أيمكن أن تكون صديقتها من كتب هذه الرسالة، وهي بذكائها الوقاد وثقافتها العميقة الواسعة استطاعت أن تكتب كلمات أشبه باللغز، تقول شيئاً ولا تقول أي شيء في الوقت نفسه..؟ أيعقل ذلك..؟

لم تستطع حواء صحراوي أن تستمر في أسئلتها الداخلية، لأن إيفا ليسنج مدت يدها بالرسالة التي وجهها آدم التائه إليها. أخذتها بسرعة، فضّت مغلّف الرسالة، وأخذتها بيدٍ مرتعشة، أخذت تقرأ بلهفة وكأنها نسيت للحظة وجود إيفا ليسنج التي كانت تتأمل حالتها النفسية دون أن ترتاب في أي شيء. ألقت حواء صحراوي نظرة عامة على الرسالة التي كانت في ورقة مكتوبة من الوجهين، ثم عادت ثانية لتقرأ من البداية :

السيدة المحترمة حواء صحراوي ..

تحية وتقدير ..

قبل كل شيء.. لا أدري ماذا يمكنني أن أسميك..؟ أأسميك صديقتي..؟ ملهمتي..؟ السيدة الغامضة..؟ السيدة المقنعّة..؟ لا أدري..؟ فكل تلك الأسماء والصفات هي أنت ..

لم أكن أنوي أن أكتب لك.. ولا حتى لصديقتنا المشتركة إيفا.. لكني وجدت أنه من غير اللائق أن أغادر الشقة بهذه الطريقة الغريبة والمفاجئة دونما توضيح بسيط لكما ..

حين تستلمين رسالتي هذه لا أكون في مكان محدد.. لذلك حينما تقرئين هذه الرسالة أكون أنا في اللامكان.. وربما في مكان ما قريب منك.. لا أدري. ربما مغادرتي الشقة بهذه الطريقة ستثير استغرابك ودهشتك وربما غضبك.. وبصراحة أقول، لقد مللت أن أكون عالة على إيفا.. فأنا أسكن في شقتها المرفهة.. المجهزة بكل الأشياء اللازمة.. كما أنها لا تمل من شراء المواد الغذائية، بحيث بدأت أحس بالحرج.. أحس نفسي أشبه بهؤلاء الفتيان الذي يقدمون الخدمات الترفيهية للنساء مقابل ضمان العيش المرهف.. أعذريني على هذه المقارنة الفجة.. فعلى الأقل لست بوسامة هؤلاء الفتيان.. ومهما يكن فأنا لا أقبل أن أكون في مثل هذا الموضع.. لكني وقد حققت لإيفا ليسنج ما كانت في حاجة إليه، أي أن تظهر في الصحافة بأن لديها عشيقاً جديداً كي تنفي الإشاعات التي تناولت علاقتكما الشخصية، وإتهامها بممارسة السحاق، أجد نفسي مدفوعاً لمغادرة الشقة ..

ربما تبدو مغادرتي بهذه الطريقة غريبة نوعا ما، لكن لا ضير في ذلك، فعلى الأقل ستعتقد إيفا أني رجعت إلى ألمانيا مباشرة.. لأني هكذا كتبت لها.. وأرجو أن لا تخبريها بإحتمال بقائي في لندن ..

لا أدري لماذا أكتب لك..؟ ربما لأقول لك بأني أكتشفت أنك لست هذه المرأة التي كانت تحدثني ساعات طويلة بعد منتصف الليل.. هل أنا محق في ذلك؟ لا أدري.. ربما نعم... وربما لا.. لديّ تصور عنك، ربما لا

يرضيك أبداً.. لكني أجد ملزما لإخبارك به، هو أنك تستسلمين للظلام الذي في أعماقك معتقدة أنك بذلك ستصلين إلى ينابيع النور الباهر.. هل أنت كذلك حقاً..؟ هل ما زلت في الهوة السحيقة المظلمة التي لا قاع لها.. أما ارتقيتِ إلى مشارف النور..؟ وهل لديك القوة الروحية لكي تسيري في الظلام الدامس.. نحو النور..؟

لا أدري إن كان لي الحق في أن أخاطبك بهذه الطريقة..؟ لكني أعتقد أنك تحتاجين لمن يقول لك من أنت، حتى لو كان الكلام جارحاً..؟ أو على الأقل يذكرك بنفسك، أو بالصورة التي تجسد شخصك حاليا..؟ لكن هل أمتلك الحق بأن أقوم بذلك..؟ لا أدري أيضاً ..

ربما أنت في أعماقك إنسانة طيبة..؟ أو هكذا تعتقدين أو تتصورين نفسك..؟ لكن هل أنت طيبة فعلاً؟ أو أنت كتلة من العقد المسمومة التي لا خلاص للروح منها، مهما أرادتْ الروح أن تتطهر منها لكي تسمو إلى رحاب النور..؟ كما أعتقد أنك تعيشين في عالم الأحلام.. أحلام اليقظة.. فهي عالمك الحقيقي.. لأن حياتك فراغ في فراغ.. إنك مثل ذلك النوع من الفئران الذي يوضع في عجلة دوارة مقفلة، وهو يسير والعجلة تدور.. وتدور وتدور.. أنه لا يصل إلى نهاية.. لأنه ليس من نهاية أبداً.. إنها دوامة.. ومدار مغلق.. لعنة أبدية.. قدر محتوم .

ربما أكون قاسياً معك لو قلت لك: إنك مهرجان من الألوان الفاقعة.. أنت حفلة تنكرية.. متحف للمومياءات المقدسة!..

أتعرفين.. لقد اكتشفتُ ذلك حينما زرتكم للمرة الأولى.. حينما دعوتني أول يوم مجيئي.. وتبادلنا بعض الجمل باللغة العربية.. وحينما تدخلت صديقتنا المشتركة إيفا ليسنج لمعرفة ما دار بيننا أخبرتها بأشياء أخرى غير التي دار بيننا..! حينها توجستُ منك.. وعرفت أنك يمكن في أية لحظة أن تبدلي الأشياء.. وتكذبي.. ومن يكذب فأنه يستطيع أن يفعل كل شيء.. لكن هل هناك من لا يكذب..؟

عموما.. حينها أدركتُ من أنتِ، وراودني الشك بوضعك وشخصيتك. ما دار بيننا، حينها، كان حديثا عادياً، ولم يكن كارثة إذا ما عرفتْ صديقتك به..! أتريدين أن أذكرّك بذلك الموقف.. حسناً.. أتذكرين حينما تناولتِ صحناً وملأته بقطع الحلوى.. حينها نظرتُ إليكِ، ففهمت من نظرتي إلى أني أتعجب من إقبالك على الحلوى وتناولك هذه الكمية منها، ابتسمتِ حينها، وقلت لي بأنك لست ممثلة سينمائية حتى أنتبه عند تناول الحلويات.. فقلت لك بأنك أجملُ من كل ممثلات السينما، فارتبكتِ،

وحينما انتبهتْ إيفا ليسنج لذلك لإرتباكك، وسألتكِ عما قلته لك بحيث ارتبكت بهذا الشكل..؟ فأجبتِها أنتِ بأني قلت لك بأنك سمينة..!! حينها استغربت إيفا لقولي ومازحتني مؤنبة بأنه لا يحق لي أن أخاطب سيدة مثلك بمثل هذا القول..! حينها تأكدتُ من إمكانيتك في خلط الأوراق بسهولة، برمشة عين، وبمظهر بريء جداً.. وتعمقت تصوراتي بتأكيد جديد، حيث جرى ذلك مرة أخرى حينما كنا في شقة إيفا برتشموند، والتي كنتُ أسكن فيها، وسألتُكِ أنا بالعربية إن كان لقاؤنا هذا هو لقاء مقدر لكلينا..؟ فارتبكتِ أيضا وسقطتْ السكين التي كنتِ قد وضعتها في الصحن لتقشير الفاكهة.. وأيضا انتبهتْ إيفا لحالتك المرتبكة.. لكنها لم تسألك وإنما أنتِ أردتِ تبرير ارتباكك المكشوف، فقلت لها بأني انتقدتُ قراءاتك لكتب الماورائيات والثيوصوفية..! هل تذكرين ذلك؟!..

أنت امرأة خطيرة.. وربما امرأة استثنائية.. بل ربما أنت إنسانة متمردة.. لكن يبدو لي أن تمردك تمرد طائش.. تمرد عدمي.. بالرغم من أنه تمرد نبيل.. لكنه يبقى تمرد بلا إيمان.. بلا هدف.. تمرد لتأكيد الذات، أو لتأكيد عدم الرضى عن الذات.. لكنه تمرد يصحبه شعور بالخزي والإشمئزاز من الذات.. فحياتك ليست أكثر من مخزن هائل للأقنعة والملابس التنكرية التي لا يوجد فيها وجه حقيقي واحد ..

حواء ..

لقد تركت لك روايتي التي لم أستطع إكمالها بشكل نهائي.. تركتها لأني أخاف منها.. أهناك كاتب يخاف مما كتب..؟ نعم.. هذا هو أنا.. أخاف من التوغل في أحداث هذه الرواية المستقبلية.. لقد تخيلت أحداثا ستقع في بلدي العراق.. فوجدتُ نفسي في غابة من الكوابيس أسمها العراق.. وجدتُ نفسي أدونُ تأريخا للأحزان البشرية.. وسجلاً لتفاصيل العنف المرعب والمقزز.. يبدو لي أن هذه البلاد لا يمكنها أن تتطهر من ماضيها الدموي.. الدم.. الدم.. الدم بلل أرضها.. طينها معجون بالدم..

ربما أنا مهووس بالكوابيس.. لا أدري.. لكن ثمة رؤيا تقمصتني عن مستقبل مرعب لبلادي.. حيث رأيت أنها تُحتل من قبل الأميركان.. لكن هؤلاء المحتلين يأتون بزمرة من الأوغاد ليحكموا البلاد.. وهؤلاء الأوغاد يأتون بزمر من السفلة والمنحطين والقتلة والمزورين للتاريخ ولكل شيء، ومن عملاء البلدان المجاورة.. ليديروا لهم مؤسسات البلاد..

كنت أشعر بالذنب وأنا أدون أحداث الرواية من خلال شخصية بطلي الكاتب آدم البغدادي.. وأعترافاته الموجعة.. لم أستطع إكمال الأحداث

التي تنفتح على أحداث أخرى، لأني وجدت نفسي في متاهة حقيقية.. متاهة من الأشباح.. لذا لم أكمل سوى هذا الذي كتبته وتركته لك.. ومن المؤكد أن إيفا ستعطيك المخطوطة لأنها مكتوبة بالعربية ..

لا أريد أن أطيل عليك.. لا أعرف إن كنا سنلتقي.. ربما.. فأنا أحس وكأنك ذلك العنكبوت السحريّة التي مدت خيوطها اللامرئية وقبضت عليّ... ولا أستطيع الخلاص من قوة جذبها لي.. وربما حينما نلتقي ثانية سأتحدث معك بصراحة أكبر.. هل أحبك.. لا أعرف.. بل أعرف.. أنا منجذب إليك.. منجذب لجسدك المذهل.. منجذب لخيالاتي عنك وعن جسدك ..

أعذريني على ما كتبت أعلاه.. هل يمكنني أن أقول لك إلى اللقاء..؟

إذاً.. إلى اللقاء..

التائه آدم التائه ..

قرأت حواء صحراوي الرسالة مرتين، وتأكدت من أن كاتبها هو آدم التائه فعلاً، فهو يذكرّها بتفاصيل ما دار بينهما من حوار أمام إيفا ليسنج، وهي تذكر جيداً بأنها، حينها، لم تقل لصديقتها ما دار بينهما فعلاً، فإذا كانت إيفا ليسنج هي التي كتبت هذه الرسالة، فكيف عرفت بما دار من حديث بينهما حقاً، كما جرى تفصيله في الرسالة..؟ ثم أن الرسالة تتضمن إشارة إلى أنه ربما يتواجد حالياً في لندن، وفيها طلب منه بأن لا تخبر إيفا بذلك.. فلو كانت صديقتها من كتب الرسالة مع شخص ما، على سبيل الإفتراض، فلماذا كتبت لنفسها رسالة عن لسان آدم التائه بأنه مسافر، بينما في رسالته لها، والمكتوبة بالعربية، كتب لها هي بأنه ربما سيبقى في لندن..؟ ثم كيف تخاطبها إيفا ليسنج بتلك الكلمات العاطفية التي بدأ رسالته بها..؟ ثم كيف يمكن لصديقتها أن تحلل شخصيتها بهذا الشكل العميق..؟ ومن أين لها كل هذا الحديث عن الأقنعة والملابس التنكرية..؟ ومتى كتبت كل هذا..؟ ولو كانت تريد أن تموه على الجريمة وعلى اختفاء الجثة فلماذا كتبت رسالة غامضة.. وليس رسالة صريحة يذكر فيها بأنه راجع إلى ألمانيا..؟

كانت حواء صحراوي تعرف أن إيفا ليسنج تنتظر منها تقديم توضيحات حول مضمون الرسالة المكتوبة بالعربية، لذلك بسطت حواء الرسالة على الطاولة، وأحنت رأسها، لكن قبل أن تفتح فمها لتقول شيئا، سألتها إيفا ليسنج بلهفة :

- ماذا هناك..؟ ماذا كتب لك..؟ لقد كتب لك رسالة طويلة، بينما

لم يكتب لي سوى بضع كلمات.. فماذا كتب لك..؟

لم تنظر حواء صحراوي إليها مباشرة، وإنما رفعت رأسها لتتأمل الطاولات الأخرى ومن حولها، وهي تتمتم :

- لم يقل شيئا واضحاً..؟
- ماذا..؟ سألت إيفا ليسنج مستغربة..

نظرت حواء صحراوي إليها هذه المرة وقالت :

- إنه يكتب عن معاناته..؟ وعن رواياته التي لم يكملها.. ويعتذر بشكل فج عن تصرفه الغريب ..

صمتت. نظرت صديقتها إليها للحظات، منتظرة أن توضح أكثر، إلا أن حواء صحراوي لم تقل شيئاً، فلم تنتظر الأخرى أكثر وإنما سالت :

- أهذا كل شيء..؟ لقد كتب لك على وجهي الورقة.. ولم يقل سوى هذه الكلمات التي ذكرتها الآن..؟
- طبعا هو كتب كلاما في صفحتين، لكن معظم كلامه عن روايته التي يخاف أن ينهيها لما تتضمنه من كوابيس ..
- روايته..؟
- نعم.. هذا ما كتبه ..
- لكنه أخذ الرواية التي كتبها معه.. أخذ معه كل أوراقه.. لم أجد على الطاولة سوى هاتين الرسالتين..؟
- لا أدري.. فقد كتب بأن إيفا ستعطيك المخطوطة لأنها مكتوبة بالعربية.. فكيف يكتب ذلك، بينما يأخذ الرواية معه..؟

أحست إيفا ليسنج بالحرج، وكأن ثمة نبرة اتهام في هذا الكلام، بينما أحست حواء صحراوي بفرح خفي لإحراج صديقتها بهذا الكلام المبطن، وكأنها توحي لها بأنها تعرف بما جرى لآدم التائه في تلك الشقة، لكنها فجأة شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، حين انبثق سؤال جريء في ذهنها: لو كان آدم التائه مسافراً حقاً، فكيف حصلت هي على مخطوطة الرواية..؟ مخطوطة الرواية عندها، وقد قرأت شيئاً منها، وهي على الطاولة، قرب سريرها، في غرفة نومها في تشسلي.. إذن فما رأته في الشقة كان جريمة حقيقية وواقعية..، لأن هاتين الرسالتين كُتبتا قبل مقتله بالتأكيد.. لكنها عادت وسألت نفسها عن هاتين الرسالتين التي هي على يقين بأنه هو من كتبها، كيف لم تلاحظهما على طاولة الكتابة حينما أخذت المخطوطة..؟ وما معنى وجودهما لتبرير الجريمة وكذلك لإخفاء الجثة..؟ ووجدت نفسها تجيب نفسها: ربما كان آدم التائه قد كتب هاتين الرسالتين

فعلاً، ونوى مغادرة الشقة حقاً، وأن الجريمة حدثت بعد ذلك.. نعم.. نعم.. يمكن أن يكون الأمر كذلك فعلاً.. لكن السؤال مرة أخرى: أين الجثة..؟

انتبهت إيفا ليسنج إلى أن حواء صحراوي ليست على ما يرام، وأنها منذ لحظة قراءة الرسالة إنغلقت على نفسها أكثر، وكأن هناك شيئاً في الرسالة لم تقله لها. امتدتْ لحظات صمت بينهما، قطعها وصول موظف الخدمة وهو يحمل صينية فيها كأس عصير ليمون وآخر عصير برتقال. ووضعهما أمامهما، ومضى .

نظرتْ كل منهما إلى الأخرى، وكل منهما متأكدة بأن ثمة شيئاً مخفياً في هذه القصة، إلا أن كلاً منهما تعتقد بأن الأخرى متورطة في الموضوع، فقد برق تصور شبه متكامل في ذهن إيفا ليسنج، أثناء انشغال موظف الخدمة بوضع كأسي العصير على الطاولة، وهو بأن حواء صحراوي كانت قد أقامت علاقة مع آدم التائه من وراء ظهرها، وهي قد رتبت معه كل شيء، فربما هي من دفعته للرجوع إلى ألمانيا، كي تسافر هي إليه في ما بعد..! أو قد استأجرت له شقة هنا في لندن، وطلبت منه أن يكتب رسالة يوضح فيها بأنه قد رجع إلى ألمانيا، وهذا الأمر ليس بغريب على حواء صحراوي، فلديها الإمكانية كي تستأجر شققا لعشاقها، وتلتقي معهم سراً فيها.. نعم.. نعم.. هذا هو التفسير الصحيح الذي يحتمل أن يكون.. لكن لماذا هي مرتبكة هكذا..؟ ثم لو كان الأمر كما أتصور فلماذا كتب لها رسالة طويلة على جانبي الورقة..؟ أما كان أجدى له أن يكتب لي فقط..؟ ولماذا تغير حالها منذ لحظة قراءتها للرسالة..؟ لا بد أن هناك شيئا ما مجهول بالنسبة لي.. آه منك يا حواء صحراوي.. كنت أتصورك بريئة.. وتميلين لي.. بل وتحبينني.. وإذا بك تخططين بمكر لإصطياد الرجال من ورائي..؟

أحستْ إيفا ليسنج بحزن مفاجئ هيمن على نفسها، وشعرت بأن ثمة حاجزاً غير مرئي صار بينها وبين صديقتها الوحيدة. قطع هذه التأملات وصول موظف الخدمة وهو يدفع أمامه عربة صغيرة عليها أطباق الطعام، فوضع على الطاولة ما كانتا قد طلبتا، ومضى يدفع عربته إلى طاولة قريبة منهما. ما أن بدأتا بالأكل حتى بادرت إيفا سائلة :

- ألم يكتب لك أين سيكون في ألمانيا..؟ أقصد هل سيرجع إلى ميونخ أم إلى مدينته الأولى..؟ فهو لم يذكر لي شيئاً في رسالته..؟

نظرت حواء إليها وكأنها تدرس ملامحها لتتأكد من حقيقة السؤال،

وقالت بعد لحظات قليلة :

- لا.. لم يذكر شيئا.. بل إنه لم يذكر إن كان قد رجع إلى ألمانيا أصلاً ..

تذكرتْ حواء صحراوي بأن آدم التائه كتب لها في رسالته بأن عليها أن لا تخبر إيفا ليسنج بأنه باق في لندن، إلا أن رغبتها في محاصرة صديقتها، وسعيها إلى عدم منحها فرصة التمتع بنشوة الانتصار لعدم اكتشاف جريمتها، من خلال إختلاق قصة عودة آدم التائه إلى ألمانيا، هو الذي دفعها لكشف سر بقاء آدم التائه في لندن..

لقد كانت تحس بنشوة الانتقام الخفية.. فالرجل قد قُتل، وهي متأكدة من ذلك، لأنها رأته مقتولا ومشدوداً إلى الكرسي بعينيها، كما أخذت من على طاولته مخطوطة روايته، لذا فكل حديث عن سفره هو تغطية على جريمة قتل بشعة.. وهي على يقين بأن جريمة القتل قد تمت بعد كتابة الرسالتين. ومن هنا واصلت هجومها الخفي على إيفا ليسنج ومحاصرتها لها، فقالت :

- هو يذكر بأنه سيبقى في لندن.. وإنه لا يريد أن يبقى عالة عليك.. لقد ذكر في رسالته بأنه لا يريد أن يعيش عالة عليك.. توفرين له الشقة والطعام وكل شيء، فهو شعر بعدم الإرتياح من هذه الحالة.. لذا قرر أن يغادر الشقة.. وهو كما أعتقد موجود في لندن.. لكن أين..؟
- ماذا تقولين..؟ هل كتب لك عن ذلك..؟ هل أنت متأكدة بأنه ما يزال في لندن..؟
- أعتقد ذلك ..
- لو كان ما تقولينه صحيحاً.. فسأجده.. لدي معارف في بعض الدوائر الحكومية التي لها علاقة بتسجيل المقيمين في لندن.. وسأوكل محاميا لمتابعة هذ الأمر ..
- أأنت جادة في ما تقولين..؟
- كل الجدة.. لماذا تعتقدين بأني لن أكون جادة..؟
- لا أعرف.. ظننتُ أنك متأكدة من رجوعه إلى ألمانيا ..
- هذا ما فهمته من رسالته..

فوجئت حواء صحراوي من رد فعل إيفا ليسنج عندما سمعت بأن آدم التائه ربما لا يزال في لندن، وحماسها لإيجاده، وهذا ما دفعها للحيرة

أكثر وألقاها في دوامة من الألغاز الجديدة.. فلو كانت لها صلة بمقتله، وبإختفاء جثته، فلماذا تريد البحث عنه في لندن..؟ ولماذا لا تستمر في كذبتها بأنه سافر راجعا إلى ألمانيا..؟ ولماذا تسأل عن عنوانه في ألمانيا..؟ وما أن فكرت في سؤالها الأخير حتى سمعت إيفا تقول لها :

- سأغادر قريبا إلى ألمانيا لوضع اللمسات الأخيرة على إتفاقي مع التلفزيون الألماني للتمثيل في المسلسل الأوربي المأخوذ عن رواية (مرتفعات وذرينغ) لأميلي برونتي.. وشخصياً أعرف الفندق الذي يقطنه حينما يكون في ميونخ.. ولدي رقم هاتفه.. وحتى لو غير الفندق فسأطلب من أصدقائي الألمان أن يجدوه لي عبر وسائلهم الرسمية والخاصة ..

كانت كلتاهما في حيرة وشك، وكل منهما تسعى إلى أن تحبط مخططات الأخرى، وتؤكد كل منهما بأنها قد نزعت قناع الأخرى وكشفت لعبتها. كانتا على يقين من كل تصوراتهما عن بعضهما البعض..

كانت حواء صحراوي على يقين بأن آدم التائه قد قُتل، وأنها رأت جثته المشدودة للكرسي، وقد أخذت مخطوطة روايته، وأن الجثة قد اختفت من الشقة، وأن لإيفا ليسنج يداً في هذا الإختفاء.. وستكشفه عاجلاً أم آجلاً. وكذا إيفا ليسنج كانت على يقين من أن حواء صحراوي قد أقامت علاقة مع آدم التائه دون علمها، وأنها ربما أستأجرت له شقة ليسكنها، لتقوم بزيارته سراً، بعيداً عنها، وأنها رتبتْ له قصة السفر والرجوع إلى ألمانيا.. لكن ثمة شيئا واحداً لم تفهمه: لماذا كتب لها رسالة إذا كانا قد اتفقا على هذه الكذبة..؟ ولماذا أشار لها بأنه سيترك المخطوطة وأني سأعطيها لها، بينما لم تكن هناك أية مخطوطة..؟

لم تجدا ما يمكنهما من التواصل بينهما بسهولة، دونما ريبة أو شك، فقد توتر الجو بينهما بشكل غامض وخفي، دونما مواجهة أو استفزاز، وبلباقة وتمثيل بارد كانتا تتبادلان بعض الكلمات والملاحظات، إلى أن انتهيتا من طعامهما، ولأول مرة دفعت كل منهما حسابها، ولم تذهبا إلى الصالة الأخرى لشرب الشاي أو القهوة، وإنما طوت كل منهما الرسالة الموجهة إليها في حقيبتيهما، وغادرتا المطعم، كل إلى بيتها، دونما توتر واضح، بل اتفقتا على أن تتواصلا عبر الهاتف، وأن تتواصلا عبر الهاتف مساءً، وربما يمكنهما الحديث بشكل أفضل وأوسع، واعتذرت كل منهما للأخرى عن التوتر التي وجدتا نفسيهما فيه، لكن دون أن تتنازل أي منهما عن تصوراتها التي تخص علاقة الأخرى بما حدث. لقد أدركتا بأن علاقتهما تعرضت لضربة خفية قاصمة، وأن فتورا متفقاً عليه دون إرادتهما هو الذي سيهيمن عليها،

بالرغم من أن كل منهما تلقي باللوم على الأخرى في ذلك.

تحركت كل منهما بسيارتها، وانطلقتا مغادرتين الكراج الخاص بالفندق - المطعم .

الفصل الرابع: امرأة في دوامة

حين أدارت حواء صحراوي المفتاح في قفل الباب داخلة إلى بيتها رأت مديرة المنزل تتحدث بالتليفون، لكنها قبل دخولها وأثناء عملية فتح الباب سمعتها وهي تقول للشخص الذي على الطرف الآخر من الهاتف: لننه المكالمة.. سمعت صوت محرك سيارة ينطفي عند المدخل.. أعتقد إنها قادمة.. لننهي الاتصال قبل أن تدخل .

استغربت حواء صحراوي نبرة صوت مديرة المنزل القلقة، لأنها كانت تتحدث بالعربية مع شخص، وهذا الشخص هو رجل، عرفت ذلك من ضمير المخاطب الخاص بالمذكر، لكن ما أن فتحت الباب حتى أصيبت المرأة الأخرى بصدمة واضحة، وكأنما قد تم ضبطها بالجرم المشهود، إلا أن حواء صحراوي لم تولِ الأمر اهتماماً زائداً في تلك اللحظة، فقد كانت منزعجة من التناقض والغموض الذي ورد في رسالتيّ آدم التائه إليهما، وكذلك من التدهور الذي أصاب علاقتها بصديقتها إيفا ليسنج، إذ لم تتخيل يوماً أن تصل علاقتها بها إلى هذا المستوى من التوتر المكتوم، والفتور المقبول من الطرفين .

دخلت غرفتها الواسعة مشتتة النفس، شاردة الفكر، متوترة من هذا التشابك في الأحداث، إذ كانت مقتنعة بأن هناك غموضاً في رواية إيفا ليسنج. ألقت بنفسها على الصوفا. وضعت حقيبتها الجلدية إلى جانبها. استرخت بجسدها، واتكأت برأسها على مسند الصوفا وأخذت تحدق إلى سقف الغرفة .

فجأة، تردد في ذهنها، لا إرادياً، ما سمعته من مديرة المنزل، حينما كانت تفتح الباب. سألت نفسها باستغراب: إذاً.. لقد كانت تتحدث مع رجل..؟.. لكن مَن الذي كانت تحدثه..؟ هي لا تستطيع أن تتحدث مع والدها بهذه الصيغة وهذه النبرة والسلاسة، فهي تهابه وتجله، وعادة هي تتحدث مع أمها.. وحتى حينما يكون والدها حاضراً وتريد هي أن توصل إليهم معلومة أو خبراً، فأنها تتوجه بخطابها إلى الأم، ولا تتجرأ أن تتحدث مع والدها، فمع من يا تُرى كانت تتحدث..؟ أخوها يعيش في عالم متوحد خاص به، ولا يتحدث مع أحد تقريباً، ومنعزل في غرفته، ومن المستبعد أنها كانت تتحدث معه..؟ لا سيما أن الكلام كان عنها، نعم.. لقد سمعتها تتحدث عن وصول سيارتها ووصولها، فلماذا كانت تأمر الشخص الآخر بانهاء الإتصال بنبرة آمرة..؟ ما الذي يجري في ما حولها دون علمها..؟

بالرغم من هذه الأسئلة الدقيقة والمحددة التي دارت في ذهن حواء صحراوي إلا أنها لم تسترسل في التقصي عن الإجابات، إذ شعرت برغبة حامية مفاجئة في قراءة رسالة آدم التائه ثانية، فأخرجتها من حقيبتها، وأخذت تغوص في ما وراء الكلمات باحثة عن دلالات جديدة ربما تكشف لها شيئا عن هذه الأحداث الغامضة .

قرأتْ الرسالة ثلاث مرات، ولم تكتشف شيئاً جديداً، واستمرت في القراءة الرابعة، إلا أن ذهنها لم يكن يستوعب أي شيء من الكلمات والأسطر التي تمر عليها، إذ وجدت نفسها تفكر في أشياء أخرى، لكن الناظر إليها كان يرى وكأنها تقرأ الرسالة بانتباه شديد. كانت وكأنها في عالم آخر بعيد عن الغرفة. فجأة، وبلا مبالاة واضحة وضعت الرسالة إلى جانبها على الصوفا .

كانت حواء صحراوي تتمتع بما يكفي من الوعي لتدرك أنها ليست واهمة في ما يخص مقتل آدم التائه، فقد رأته بنفسها وأخذت مخطوطة روايته أيضا، والتي ترقد هناك على الطاولة قرب السرير، وأنها أيضا تعيش حالة تشتت وإحباط وحيرة .

فجأة برقت في ذهنها فكرة أن تقرأ في الرواية التي كتبها آدم التائه، فربما تكشف شيئا ربما يفسر سر مقتله، لذا نهضت ببطء شديد واتجهت إلى حيث المخطوطة، لكنها وقبل أن تبدأ بالقراءة، اتجهت إلى الزاوية اليسرى من السرير حيث خزانة الملابس .

فتحت باب الخزانة التي كانت معشقة بالمرايا من الداخل. نزعت عن جسدها ثوبها، الذي تكوم عند قدميها. نظرت إلى جسدها في المرآة الكبيرة التي تغطي باب الخزانة، فأعجبها تناسق جسدها الذي يضج بالرغبات المكبوتة. أحست بالشفقة على هذا الجسد المتوتر. نظرت إلى وجهها. تذكرت ما قاله لها آدم التائه ذات مرة بالهاتف بأن لديها وجهاً يصعب نسيانه، وجهاً جميلاً، متناسق الملامح، تتداخل فيه البراءة والشهوة بشكل مذهل، فهي ملاك يوحي للرجل بأحلام رومانسية، وفي الوقت نفسه يوقظ فيه رغبات جنسية عنيفة وفاحشة .

تذكرتْ أنها قالت له حينها: أرجو أن لا تنظر إليّ كملاك أو كقديسة، وإنما كامرأة.. فأنا امرأة.. امرأة. وتذكرتْ أنه قال لها بأنه يريد أن يعيش مشاعر الحب لأنها تمنحه القدرة على الإبداع، فإذا نظر إليها كامرأة فقط فهذا يعني أنه سيكون بلا أوهام، أي أنه لا يستطيع أن يحبها، وإنما يخضع لقوانين الإنجذاب الجنسي فقط، فردت عليه حينها بنزقٍ

ومكرٍ نسوي مثير قائلة بأنها تتمنى أن ينجذب إليها جنسيا، فهذا يساعدها على إطلاق كل هذا الحشد من الرغبات المكبلة في جسدها، فقد تعبت من الكلمات. تذكرت كيف أنه صمت ولم يعلق على ما قالته، بحيث ظلت تفكر في صمته الغامض على دعوتها الصريحة وكشفها عن رغبتها بشكل مفضوح، وحينما سألته عن سبب صمته..؟ أجابها، وكأنه يحدث نفسه، أو يقرأ تقريرا طبياً، أو يقرأ حكما صادراً من محمكة سرية غامضة: أنت امرأة بلا معاناة حقيقية، أقصد بلا معاناة إنسانية شاملة.. معاناتك ذاتية.. أنت مكبلة برغبات مكبوتة.. ليس هناك ما يهدد كينونتك وحياتك ووجودك كإنسانة.. ضجرك وإحساسك بالضياع ليسا تجسيداً لوعيك الفلسفي أو انعكاساً لأسئلتك الوجودية عن معنى الحياة، أو أسئلتك عن الحق والعدالة بين الناس.. وإنما هو انعكاس لفراغ حياتك من الأسئلة الحقيقية عن معنى الوجود، أو على الأقل هو نتيجة لفائض الوقت الذي لديك بحيث لا تعرفين ما تفعلين بوقتك .

تذكرت كيف أنها انزعجتْ من كلامه، وحينها أجابته بأنه مخطئ في ذلك، وأنها ليست كما يتصورها تلك الثرية المدللة التي لا تعرف ماذا تفعل بحياتها، وأن معنى الحياة ووعيها للحياة لا يعني بالضرورة التفكير بالجانب المعتم من الحياة..؟ وأن العدالة ليست سوى محاولة يائسة من البشر لعقلنة الثأر والانتقام الفردي.. إنها محاولة بشرية يائسة لوضع حد مقبول ومتفق عليه من درجات العنف الجماعي.. وأن الإحساس بالضياع واللامعنى ليس ترفاً أو مرضاً، يتحلى به الأثرياء فقط، هؤلاء الذين لديهم فائض من الوقت كما يقول.. كما إنه لا يعرف عنها هي، حواء صحراوي، الشيء الكثير بحيث يحكم عليها بهذه السرعة التي تكشف عن حكم آيديولوجي، طبقي، مسبق.. فهي ليست فارغة كما يعتقد، وأن حالتها المادية الجيدة لا تعني أنها خالية من الإهتمام بما يجري حولها في العالم.. صحيح أن ما يجذبها نحو الفكر السياسي والمعارضين السياسيين للأنظمة الشمولية بشكل عام، وفي بلدان الشرق الاسلامي بشكل خاص، ليس التعاطف مع أفكارهم الليبرالية والتحررية، وشجاعتهم في تحدي التقاليد الإجتماعية البالية فقط، بل وأيضاً لفكرتها عن الألم، والمعاناة، والأخطار التي تنتظرهم، إذا ما وقعوا في قبضة هذه السلطات العنيفة.. وهذا الأمر ليس ترفاً فكريا أو تدلهاً مرضيا بالمعاناة، وإنما أيضا تقبل منها لفكرة المعاناة نفسها، بل إن التفكير في ما سيعانونه هو معاناة بحد ذاتها.. تذكرتْ أنه صمتَ للحظات طويلة، فأحست ببرودة ردة فعله حتى أنه لم يتفوه بشيء

تعقيباً على كلامها .

تذكرت أنها في تلك اللحظات قطعتْ الاتصال الهاتفي حنقاً، لكنها عادتْ واتصلتْ به بعد ساعة من ذلك. ولأن آدم التائه كان يهمه أن يبدو إنساناً نبيلاً، مهذباً، حكيماً، متسامحاً، وكان يفكر في أن يبدو كذلك في كل لحظة، بل ويفكر مع نفسه، في كل لحظة، عن تصورات الآخر عنه، وما سيقوله الآخر لنفسه وللآخرين عنه، لذلك فأنه كان يمثل، من دون أي تصنع، دور الإنسان الطيب والنبيل، والمتفهم، علماً أنه كثيرا ما يحتفظ برأيه عن الآخر في أعماق نفسه، لذلك تسرب الدفء إلى علاقتهما ثانية حالما اتصلت به مرة أخرى .

* * *

كانت حواء صحراوي لا تزال واقفة، عارية إلا من سروالها الداخلي الشفيف أمام المرآة. لم تنتبه إلى الوقت الذي مر. ابتسمت بحزن لتذكرها الحوار الذي جرى بينها وبين آدم التائه قبل ليلة من مقتله .

انتبهت حواء صحراوي لنفسها، فأخذت تتأمل جسدها. نظرت إلى نهديها الممتلئين والنافرين عن حمالتهما. داعبت حلمتها السمراء الناتئة فأحست بارتعاشة سرت في جسدها واستقرت أسفل بطنها. نظرت إلى بطنها المستوية، فانتبهت إلى ترهل بسيط على الجانبين حيث تراكمت بعض الشحوم، حدقت في زهرتها المتفتحة والمليسة والرابضة بتحفز تحت السروال الخفيف، مدت يدها إلى ما تحت السروال مداعبة نفسها بإصبعها، فأحست بالنداوة في تلك المنطقة، إلا أنها سحبت يدها فجأة، فقد أزعجها امتلاء ساقيها بشكل يكشف عن تراكم بعض الدهون في فخذيها، بالرغم من أن ساقيها تميلان إلى الامتلاء دونما مبالغة .

رفعت رأسها إلى وجهها. حدقت في عينيها. اقتربت من المرآة أكثر. أخذت تحدق بتركيز أكبر في أعماق عينيها، أحست وكأنها ترى روحها المحرومة والمترعة بالألم والرغبات الوحشية المكبلة والناطقة في الوقت ذاته. أحست بالخواء والوحشة. تذكرت نصا لا تذكر صاحبه جيداً بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يرفض أن يكون على ما هو عليه، أو بمعنى آخر، هو الكائن الوحيد الذي لا يرضى أبداً عن كيانه فهو دائم السعي إلى تغييره والعلو عليه، فالتمرد موجود في كل تجربة إنسانية، علماً أن هذا التمرد هو تمرد طائش، نبيل، وعدمي .

أحست وكأنها معزولة عن العالم، وأن غرفتها هذه لا تنتمي لجغرافيا مدينة لندن، ولا لبريطانيا، ولا لأوروبا، بل ولا حتى لكوكب الأرض .

فجأة أحست بارتعاشة، وكأن مساً كهربائيا بارداً سرى في جسدها. تشنجت عضلات ظهرها. خافت من الحالة النفسية والفكرية التي وجدت نفسها في بؤرتها. تراجعت من مكانها خطوة. مدت يدها وأخذت برنسا حريرياً أسودَ مزين بورود حمر أرجوانية، فهي تحب أن ترتدي الملابس السود، سواء أكانت ثيابا أم ملابس داخلية، بل وكثيراً ما تثير ملابسها السود التساؤلات، حيث يسألها البعض فضولاً، أحياناً، إن كانت ترتدي السواد حزنا على أحد ما، فكانت تبتسم نافية ذلك معلقة بأنها تحب اللون الأسود، فهو في رأيها لون جليل ومهيب .

ارتدتْ البرنس الحريري الأسود المزين بالورود الحمر الأرجوانية. اتجهت إلى السرير. وبرغم أن الضوء كان يغمر الجزء الأكبر من الغرفة إلا أنها ضغطت على أزرار الإضاءة، فتألقت الغرفة بالنور الأبيض المنبعث من الثريا متعددة المصابيح والتي تتدلى من وسط سقف الغرفة .

استلقت على الفراش الناعم بكامل جسدها إلا أن البرنس انزاح عن فخذيها وسروالها الداخلي. مدت يدها إلى الطاولة، وأخذت مخطوطة رواية متاهة الأشباح. وضعت الفصول التي قرأتها سابقاً جانبا، وبدأت تقرأ الفصل الجديد :

متاهة الأشباح

3

الحياة في الجانب الآخر.. في الزقاق

أنا، آدم البغدادي، كنتُ واحداً من هؤلاء الناس الذين يخافون الوحدة، لكني بقيت وحيداً، وبقيتُ في عزلتي، لم أحاول الخروج منها، لأني كنتُ لا أخاف الوحدة والعزلة فقط وإنما الناس أيضا، أخاف الزحمة وأشعر بالضياع فيها، لكني تغلبت على خوفي هذا حينما اكتشفت الكتابة، إذ وجدت فيها شفاء ومأوى، بل صرتُ أبتعد عن الناس، ما أستطعتُ إلى ذلك سبيلا، كي أكون وحيداً، ساعياً إلى الاحتيال على موقف المواجهة مع النفس، ولأرتدي أقنعة عند لحظة المواجهة من خلال القراءة والكتابة .

نعم.. نعم.. القراءة هروب من العزلة ومن مواجهة الذات، وربما أحيانا الطواف حولها كما تطوف الكواكب حول الجرم الأم..، أما الكتابة فمواجهة مع النفس لكنها مواجهة رفيقة، مخاتلة، مقنعة.. وكأنما يجد المرء نفسه مع نفسه في حفلة تنكرية .

صحيح أني وجدت نفسي أهتم بالسياسة، لكني سرت إليها من أزقة ودروب جانبية، أزقة الفلسفة والتاريخ ودروب الأدب، والأصدقاء. لقد تشكلت مواقفي السياسية في زمن أسود، بل قاتم السواد. تشكلت بشكل نظري غامض، في زمن هيمنت فيه إرادة سياسية واحدة على البلاد، حزب قومي متعصب واحد، فتح الباب أمام الحروب التي ساقت البلاد أمامها إلى المذبحة. لقد تم حساب الأنفاس على الناس، بل وكنتُ أسمع في مطعم الجامعة، وفي اللقاءات الخاصة جداً مع بعض الأصدقاء، قصصاً مرعبة عن التعذيب والإعدامات العشوائية واختفاء الناس والعوائل دون أي أثر .

بالمناسبة، أنا لم أسجل في معهد الفنون الجميلة أو الأكاديمية لدراسة المسرح أو التمثيل كما كنت أحلم في سني مراهقتي، وإنما دخلت الجامعة، وسجلت طالباً في قسم اللغات، إذ اخترت اللغة الألمانية كتخصص رئيس واللغة الأسبانية كلغة ثانية .

ربما من المهم الإشارة هنا إلى أنه كانت هناك مشكلة تواجهني عند القبول، وهي أن علي أن أجلب ورقة تأييد من المنظمة الحزبية بمنطقتي أو من التنظيم الطلابي التابع للسلطة في ثانويتي، ولم يكن أمامي سوى الذهاب إلى المنظمة الطلابية في ثانويتي والتوقيع على طلب الانضمام إليهم لتيسير أمري .

* * *

سابقاً، قبل دخولي إلى الجامعة، كان لدي بعض الأصدقاء الشيوعيين. بقيت قريباً منهم لسنوات عديدة، لكني عندما انهيت مرحلتي الثانوية وقدمت للتسجيل في الجامعة ابتعدت عنهم، لتسجيلي في التنظيم الطلابي التابع للسلطة لضمان قبولي، لاسيما وأن الوضع السياسي في البلاد قد تدهور بشكل مرعب .

ليس ابتعادي عن أصدقائي واهتماماتهم السياسية المعارضة للنظام، وتوقيعي على طلب الانتماء إلى التنظيم الطلابي للسلطة، له علاقة بتبدل مواقفي الفكرية أو الفلسفية، أو انتهازية مني، أو حتى خوفاً من السلطة، أبداً ليس هذا هو السبب، وإنما الزهد في الحياة والأشياء كلها، والإشمئزاز من المجتمع والإنحطاط الذي انحدر إليه الناس والحكم، هما اللذان دفعاني إلى اتخاذ موقف اللامبالاة بما جرى، وما يجري، وما سيكون. كنت أريد الهرب من خلال تعلم لغات أجنبية .

طبعاً كان هذا الأمر صدمة لأصدقائي الشيوعيين، فأخذوني كأية جرثومة مختبرية، ووضعوني تحت ميكروسكوباتهم الآيديولوجية باحثين في كل جوانب

تفكيري، وفي مجمل تصرفاتي، ومواقفي وسلوكي، المقصودة والعفوية، ولتاريخي الشخصي والعائلي، ليشخصوا مرضي السياسي، وانتهوا جميعاً إلى أن الدافع الحقيقي لموقفي هو خوفي وجبني، بل رعبي من زبانية النظام، وانهياري بسبب أخبار التعذيب والبطش التي أسمعها كل يوم، وكذلك لانتهازيتي النابعة من انتمائي للبرجوازية الصغيرة، فهم لم يجدوا في كل سلوكي السابق معهم ما يوحي للخيانة أو للشك الفكري، أو ما يوحي إلى التربص بهم والتجسس عليهم، أو حتى التشكيك بنزاهتهم، كما لم يجدوا لديّ كلمة واحدة في مديح النظام أو موالاة الحزب الحاكم، لكني في كل الأحوال صرتُ موضع اشمئزازهم، وشفقتهم المليئة بالمرارة، بل وصاروا يتجنبونني، بل ويتهربون من مقابلتي عندما يحدث وأن نتواجه في مكان ما .

لم أزعل منهم، وإنما حزنت حقاً على موقفهم معي، لكني أعطيتهم الحق في ذلك، فقد كنّا نعيش في زمن أسود، مرعب، يُقتل الناس فيه زرافات، ويدفنون أحياء. بل لقد سمعتُ بأن أحدهم أُعدم لأنه رأى حلماً بأن ثمة انقلاباً حدث في البلاد، فحكى ما رآه في نومه لصديق أثناء العمل، فكتب الصديق تقريراً إلى المنظمة الحزبية عن هذا الحلم، فاعتُقل الرجل، وعُذب، لأن حلمه كما جاء في لائحة اتهامه يعبر عن رغبة دفينة معادية للنظام، فالإنقلاب في الحلم يعني معاداة الحزب والثورة .

كانت قصص الرعب السياسي والاجتماعي تتوالى، فقد سمعت بأن هناك طالبا اعتقل لأنه ينتمي لحزب إسلامي معارض، وكان معذبوه يحاولون استنطاقه للكشف عن الشخص الذي يرتبط به تنظيمياً، وقد صمد هذا الطالب الشجاع متحملاً التعذيب الوحشي، لكنه بعد فترة من التعذيب خارت قواه النفسية، وفي لحظة تعذيب وحشي مرعب، رافقتها لحظة ضعف نفسي، اعترف باسم الشخص المسؤول الذي يرتبط به تنظيمياً، لكنه لم يكمل الاسم، إذ نطق اسمه الأول فقط، ومات تحت التعذيب، فما كان من أجهزة المخابرات إلا أن اعتقلت جميع الطلبة الذين يحملون ذاك الاسم في الجامعة، وكانوا في حدود الخمسين طالباً، من ضمنهم طلبة ينتمون للحزب الحاكم، وتم تعذيب الجميع بلا استثناء، ثم أعدموا، لأن أجهزة المخابرات فكرت بأن واحداً منهم هو المقصود بالتأكيد، ولأنهم لا يعرفون من هو بالضبط فقد أعدموا الجميع. لذا تفهمت موقف أصدقائي، وبقيت أكن لهم المودة والإحترام، لكني من جانب آخر توغلت في عزلتي، ومضيت بعيداً في حقول الكتابة .

* * *

لقد تحدثت في الفصول السابقة عن الدروب التي قادتني إلى الكتابة، لذا لا أعيد ذلك، لكني أود القول بأني حينما دخلت الجامعة كنت قد مارست كتابة الخواطر الأدبية وبعض النصوص التي تُحسب قصائد نثر وفق مقاييس النقد الأدبي اليوم، بالرغم من أني لا أعدّها كذلك. لم أنشر شيئا، أولاً لعدم معرفتي بالوسط الأدبي الذي تحكمه العلاقات الشخصية، وثانيا لأني جربت إرسال بعض النصوص إلى إحدى المجلات الأسبوعية التي نشرت سطرين من نص لي في بريد القراء، مع ملاحظة بأن النص مأخوذ من السياب، وأن عليّ أن لا أتكئ على عكاز غيري، وأن علي الإكثار من قراءة كتب التراث، فتعجبت حينها، إذ أن النص لم يكن شعراً وإنما خاطرة نثرية بلغة شعرية، لذا أحجمت عن النشر نهائياً .

ربما هذا الأمر ساعدني كثيراً، فلو كنت قد نشرت في الصحافة لكنت اضطررت لكتابة المقالات والنصوص النثرية والخواطر مديحاً للنظام وللحرب وللقائد الضرورة، لكني كتبتُ في هدوء، وبصمت وكتمان كامل روايةً ضخمة من ناحية حجمها، إذ بلغت خمسمائة صفحة، وضعت لها عنوان بسيطاً (الاعتراف البريء)، إلا أني مزقتها في لحظةِ خوفٍ أرعن، إذ وجدتها رواية فضائحية، لا أخلاقية، ايروسية، داعرة، تتحدث عن فتى مراهق يروي مشاهداته واكتشافاته الأولى للجنس، وكيف كان يسمع لهاث أمه وأنينها الشبق حينما كان والده يضاجعها، وكيف كان يسمع ذلك الصوت الغريب الذي يحدث عند ارتطام العضو الذكرى بفرج المرأة عند الايلاج والخروج في حركة عنيفة سريعة، بل ويروي فيها ذكرياته المختلفة ومنها رؤيته أمه عارية، حيث دخل ذات يوم إلى إحدى الغرف الفارغة، التي تُستخدم أحيانا كمخزن في البيت، وكمكان للاستحمام أحياناً، وكانت أمه قد انتهت من استحمامها، فدخل الغرفة صدفة، فشاهدها تقف أمامه عارية، وقد ظل ذلك المشهد يرافقه، ويثيره، حتى بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره .

طبعا كتبت في ما بعد نصوصاً أخرى، لكني لم أنشر شيئاً. كتبت رواية بعنوان (البرزخ)، لكنها لم تبتعد كثيرا عن العوالم الفضائحية في روايتي الأولى (الاعتراف البريء)، بالرغم من أن موضوعها مختلف جداً، لكني مزقتها أيضا لأني اكتشفت أن هناك فيلماً أميركياً تم انتاجه بعد كتابتي لروايتي بعام، حصل على جوائز أوسكار، موضوعه وأحداثه تشبه موضوع وأحداث روايتي، علماً أني، أقولها هنا بكل إخلاص، لقد كتبتُ الرواية دون معرفتي بوجود الفيلم، وحينما رأيته على قرص مدمج صُدمت حقاً للتشابه الكبير بين روايتي وقصة الفيلم، حيث تحدثت أنا في روايتي

عن عودة دورة الحياة بشكل معكوس، حيث يولد الإنسان شيخاً، ومع مرور العمر يزداد شباباً وحكمة، وشيئا فشيئا يتجه إلى الطفولة، وحينما يكون في منتهى الحكمة، يكون قد صار رضيعا، ويدخل الإنسان مرحلة النسيان حينما يصل إلى لحظة الموت التي توازي لحظة ولادة الطفل، حيث في تلك اللحظة لا يبقى في ذاكرة الإنسان سوى الضباب الأبيض. صفحة ناصعة بيضاء. مزقتُ الرواية لأنه لا أحد سيصدقني إذا ما قلت إني كتبتها قبل انتاج الفيلم وعرضه بعام. بالمناسبة، لقد مزقت النسخة المصححة، لكن لدى المسودة الأولى من هذه الرواية، وربما سأنشرها ذات يوم بعد أن أجرى عليها بعض التعديلات الضرورية .

* * *

كما ذكرت سابقا، ذات يوم جمعة مررت بشارع المتنبي. رأيت رواية اسمها (المرأة المجهولة) لأديب عراقي اسمه آدم التائه. بعد روايتي (البرزخ)، التي مزقت نسختها المصححة، كنت قد كتبت رواية اسميتها (متاهة آدم)، رويت فيها قصة مهندس عراقي، يكتب الروايات أيضا، اسمه آدم المطرود، يتعرف ذات يوم، حينما حضر مؤتمرا علمياً في تركيا، على امرأة باهرة الجمال اسمها حواء الصايغ وزوجها آدم الولهان. بعد رجوع هذا المهندس إلى بغداد، وتواصله مع حواء الصايغ وزوجها آدم الولهان بفترة قصيرة، يتم اعتقاله بتهمة اغتيال حواء الصايغ، وتتطور التهمة إلى التآمر على الحزب والثورة. يُعذب هو أصدقاؤه، وتُغتصب سكرتيرته، وأخيراً يُعدم بعبثية دون أن يعرف تهمة محددة، ودون أن تكون له علاقة بأية تهمة تُنسب إليه .

الغريب أني وجدت أن هذا الكاتب آدم التائه، قد كتب روايتي (متاهة آدم) بالنص، وكأنه سرقها مني، أو أني سرقتها منه، مع إختلاف واحد وبسيط هو أني أضفت فصلا بعد إعدام بطل الرواية آدم المطرود بينت فيه أن حبيبته حواء الصايغ لم تمت، وإنما الأمر كان مؤامرة من زوجها آدم الولهان حينما أدرك بأن زوجته قد أحبت الكاتب آدم المطرود، فدبر له مع أصدقائه في أجهزة المخابرات حكاية اغتيال حواء الصايغ، وحينما وجدوا بأن الأمور خرجت من بين أيديهم وصار القضية رسمية، وأن حججهم ضعيفة وباهتة، غيروا خطتهم واتهموه بالتآمر السياسي على الحزب والثورة، لكن في الفصل الإضافي الذي في روايتي تركت حواء الصايغ تظل لأيام تتصل بمكتب المهندس آدم المطرود فلا يرد عليها أحد، فتنزعج وتتأثر ولا تستطيع السيطرة على حالتها النفسية، فينتبه زوجها آدم الولهان لحالتها، فيزداد حقداً على آدم المطرود وعلى زوجته أيضا، ولكي يضاعف حزنها

وعذابها، يمثل عليها دور الصديق الوفي، المتأثر والحزين على مصير صديقه، فيخبرها بأن آدم المطرود قد اعتقل وأعدم لأنه قد تورط بعمل ضد السلطة، إلا أنه يستغرب بأن الخبر برغم أنه شكل صدمة هائلة لها لحظتها، إلا أنها تماسكت. نعم لقد كان وقع الكلمات عليها كمن سكب رصاصاً في أذنيها، لكن برق في تلك اللحظة بالذات هاجس في نفسها بأن زوجها وراء كل هذه القصة المزيفة، فهو الذي تآمر على حياة آدم المطرود وليس لأن الآخر تآمر على السلطة .

ظلت حواء الصايغ لأيام تحت تأثير صدمة الخبر الذي سمعته، فقررت في أعماق نفسها الانتقام من زوجها، بالابتعاد عنه نهائيا، إلا أن قبضة زوجها آدم الولهان كانت ذات مخالب حادة، وهي تعرف ذلك، لذلك تجنبت الاصطدام به، لكنها قررت الصمت وعدم الكلام معه، وقد حاول زوجها أن يجبرها على الكلام مستخدما مختلف الأساليب معها، من اللين إلى الشدة، من التملق إلى التهديد، لكن دون جدوى، إذ قررتْ الامتناع عن الكلام معه نهائيا. وكنت قد فكرت بأن أكتب رواية أخرى أتابع فيها مصيرها بعد إعدام حبيبها آدم المطرود، لكني انشغلت بالاستعداد لكتابة رواية عن مصير صديق لي أعرفه، اعتقل بطريقه عشوائية .

في هذه الرواية تركت البطلة حواء الصايغ مثلي قد درست اللغة الألمانية والأسبانية، كما لم أجعل البطل آدم المطرود سياسيا ثورياً، بل إنه مثلي اضطر للتسجيل في التنظيم الطلابي والحزبي للنظام كي يضمن الحصول على المنحة الدراسية والسماح له بالدراسة خارج البلاد، إلا أن الشهوة والرغبة العارمة والمجنونة بالتملك من قبل الزوج آدم الولهان ألقت به في غياهب السجون، هو وبعض معارفه، لا لسبب سوى أن هناك شكاً بوجود علاقة بين حواء الصايغ وبينه، لكن الغريب بل والعجيب في الأمر برمته هو ذلك التطابق الحرفي بين ما كتبتهُ وما كتبه الكاتب المدعو آدم التائه .

* * *

أثناء سنوات دراستي الجامعية افتقدت اصدقائي الشيوعيين. صحيح أنني لم أتواصل معهم منذ دخولي الجامعة، وهم بدورهم قد ابتعدوا عني، إلا أني كنت أحن إليهم، واسترجع حواراتي الفكرية والسياسية بل وكل ذكرياتي معهم، لكن الغريب أني سمعت أن بعض الطلبة كان لديهم نشاط سياسي يساري، فكيف دخلوا الجامعة إذا كانوا ينتمون إلى تنظيمات أخرى..؟ بل سمعت أن بعضهم التحق بصفوف الأنصار الشيوعيين والبيشمركة في الجبال، وبينهن بعض الطالبات، وهذا ما أثار حيرتي الحقيقية .

شخصياً كانت حياتي تلتف وتدور على نفسها مثل دوامة تمضي إلى القاع. كنت منطويا على نفسي. لا أسعى إلى أية علاقة، مع أي طالب في الجامعة، لكن هذا لا يعني أني لم أتحدث مع الآخرين أو أجاملهم، وإنما أردت القول بأن علاقتي بالآخرين كانت سطحية جداً .

لم أكن طالباً سيئا وكسولاً، لكني بإلحاح من أمي كنت أحاول البقاء كطالب في الجامعة لأطول فترة ممكنة كي لا أساق إلى جبهات القتال، وأواجه الموت الذي كنت أتصوره جمجمة ترتدي عباءة سوداء وبيدها منجل حصاد كبير. كنت أبتعد عن مواجهة الموت الذي كنت أعده فضيحة المصير البشري الكبرى .

كنت أفكر في الموت كثيرا، وأحيانا في ما بعد الموت، في سر الموت ولغزه العظيم، وكلما كنت أتوغل في تفكيري بالموت، تتضاءل قيمة الحياة في نظري، بل وتتضاءل معها كل القيم والأخلاق والأفكار السياسية وما يتبعها من تضحيات أجدها عبثية .

مرت بي أوقات توجهت فيها إلى الدين، وقرأت الكثير من الكتب الدينية، لاسيما في فترة الحمى الدينية التي أطلقتْ الصحافة عليها اسم الحملة الإيمانية، حيث لم يكن قراءة الكتب الدينية يشكل خطرا على القارئ. كنت لا أتظاهر بالتدين أمام الآخرين، لكني مع نفسي كنت أعيش حالات التوهج الروحاني، بل كنت أقضي الساعات مصلياً في ليلة القدر. ومع هذا كنت لا أتردد من ممارسة العادة السرية بشكل يومي، بل وأحياناً لمرتين في اليوم .

كنت مشغولا بالبحث عن الله، عن خالق هذا الوجود. كنت أفكر في ضآلة الكائن البشري وتفاهته أمام هذا الكون العظيم .

الغريب أن الكتب الدينية قادتني إلى الابتعاد عن الدين، لأني كنت كلما اتوغل في تلك الكتب أكتشف الكثير من التفاهات الفكرية والهذيانات اللغوية واللامعقول. لقد اكتشفت بأن الناس تسعى إلى الكتب الدينية أو إلى ممارسة الطقوس الدينية، والتشدق بالأخلاق، والتشبث الأعمى بالإيمان والغيبيات، وذلك من أجل أن يلقوا عن كاهلهم المسؤولية الفردية والأخلاقية. اكتشفت صحة جملة نبي الشيوعية ماركس حينما قال إن «الدين أفيون الشعوب»

تركت العبادات، ولم يعد الدين يخدعني، بل كنت أشفق على أمي لتمسكها المرضي بالدين، بل حتى أبي الطاغية، كنت أراه يرق في سلوكه أحيانا خلال شهر رمضان، أو أيام عاشوراء، وكأنه في هدنة مفروضة عليه

مع الله، بينما لم يعجبني من تلك المناسبات الدينية سوى أجوائها الحميمة، ولياليها المضيئة، وكم المسلسلات والبرامج الترفيهية التي يعرضها التلفزيون. ولم يتغير موقفي من الدين طوال سنوات، بل إنني الآن، وبعد إسقاط النظام من قبل الأميركان، وتسليم السلطة للأحزاب الدينية، ومشاهدتي لما قامت به هذه الأحزاب الدينية وأتباعها بمؤسسات الدولة صرت أكره الدين، وأكره المتدينين، فهم علامة النفاق والفساد بالنسبة لي، بالرغم من أن البعض يعتقد أنها فرصة تاريخية لأبناء المذهب الذي يعتنقه أهلي، وتربيت أنا على احترامه، أن يحتلوا السلطة ومؤسسات الدولة بهذه الطريقة المرعبة، لكني تشاءمت من هذا التفكير الطائفي. لا أدري، فأحيانا أفكر مع نفسي، بأن موقفي هذا من الدين في جوهرة هو موقف أخلاقي. موقف أخلاقي من قبل شخص لا أخلاقي.. لكن هل أنا إنسان أو ككاتب لا أخلاقي..؟ لا أدري .

* * *

أنهيت المرحلة الجامعية خلال ضعف السنوات المقررة لها. كانت حياتي أثناء المرحلة الجامعية جيدة، بفضل معونات أمي المالية التي لم تنقطع قط، فحتى في تلك الظروف الصعبة التي مرت فيها البلاد خلال الحرب، كنت أنفق بشكل يحسدني عليه الكثيرون، لكن لا تأخذك يا قارئي الظنون، فقد كنت أنفق المال الكثير على الكتب وكاسيتات الموسيقى. الموسيقى.. الموسيقى.. لولا الموسيقى والكتب لربما كنت قد انتحرت أو تزوجت .

وذات مرة، حين كنت طالباً في الجامعة، ساقتني الصدف أن أكون مع زميل لي من أبناء المحافظات جنبا إلى جنب في الباص المتجه إلى ساحة الأندلس، فتحدثنا قليلاً، وحينما كنا في ساحة الرصافي بشارع الرشيد دعاني إلى مقهى قريب في شارع الأمين يرتادها أبناء مدينته من الذين يعملون أو يدرسون في بغداد، أو حتى من القادمين لأيام معدودة لإنجاز معاملاتهم الرسمية وغير الرسمية .

كان هذا الفتى رقيقاً، ومثقفاً، وكنت أتحين الفرصة المناسبة للتعرف إليه، لذا قبلت دعوته، وذهبت معه. كانت تلك المقهى التي تقع في شارع الأمين، الذي يربط بين ساحة الرصافي باتجاه شارع الجمهورية، مكتظة بروادها من أبناء مدينة الكوت .

شربنا الشاي، وتشعب الحديث بيننا في الأدب والفن، فحدثني عن كتب كنت قد سمعت بها لكني لم أحصل عليها، فدعاني إلى غرفته التي تقع في منطقة الحيدرخانة، والتي كانت ضمن منزل كبير يقع في زقاق

ضيّق ملتوٍ بالقرب من جامع الحيدرخانه .

في ذلك المنزل الكبير المتداعي، المتعدد الغرف، والمتنوع السكان، والذي ذكرني بتلك البيوت التي يتحدث عنها دستويفسكي في رواياته، هناك في ذلك البيت رأيت الحياة بوجهها الحقيقي.

متاهة الأشباح
4
بيت العنكبوت

كان صديقي آدم الواسطي قد استأجر غرفة صغيرة تقع في الطابق الأول، فوق غرفة صاحبة البيت التي تسكن الطابق الأرضي، قرب المدخل. وكانت علاقته بصاحبة الدار جيدة جداً، عرفت في ما بعد أنه كان عشيقها المدلل، حيث كانت ترسل إليه الطعام، وتطلب من خادمتها أن تغسل له ملابسه، وكانت تمنحه بعض النقود بين فترة وأخرى .

حين دخلنا البيت، الذي كان منظره من الخارج مقرفاً ويبعث الكآبة في النفس، انتبهت لوجود امرأة بدينة بشكل مثير، بيضاء الوجه، تقترب من الخمسين، تقف عند باب حجرتها، وكأنها كانت تنتظر أحداً، وقد انتبهت كيف تألقت عيناها اللتان تعلقتا بوجه صديقي، الذي ارتبك قليلاً، ولم يكن أمامه إلا أن يسلم عليها مقدما إياي إليها بأني صديقه ومعه في الجامعة، فرحبت بي أجمل ترحيب. تجاوزناها صاعدين السلم المجاور، والذي يفصل غرفتها عن سلسلة الغرف المتجاورة الأخرى، كما يقود إلى الطابق الأعلى، حيث يسكن صديقي الواسطي .

حين دخلتُ غرفته تذكرت غرفة راسكولنيكوف في رواية (الجريمة والعقاب) لدوستويفسكي. كانت غرفة عارية تقريبا، يحتلها من جانب واحد سرير خشبي أوسع قليلاً من أن يكون لشخص واحد، لكنه أضيق من أن يكون لشخصين أيضاً، إلا أن الكتب كانت تحتل جانباً كبيراً من هذه الغرفة التي بدت لي نظيفة بشكل غير معتاد لطالب جامعي، وكانت ثمة خشبة طويلة قد ثبتت إلى أحد الجدران بمسامير ناتئة، تستخدم لتعليق القمصان وبعض الملابس الخفيفة .

كانت أكداس من الكتب التي تعلو قامة رجل متوسط الطول مصفوفة على كرسي خشبي في إحدى زاويا الغرفة، بينما فرش على الأرض صحفاً وضع عليها أكداسا أخرى من الكتب .

حالما رأيت هذا الكم الكبير؛ شعرت بدفق هائل من المحبة لهذا الصديق العابر، والغامض، والمنطوي على نفسه مثلي. أحسست بشيء من الأسف كوني لم أتعرف عليه بشكل قريب من قبل، على الرغم من أننا نحضر أحيانا بعض المحاضرات المشتركة، لكني كنت ألمحه أحيانا في مطعم الجامعة منفرداً، أو أحيانا تجالسه فتاة جميلة لكن كما يبدو من ملابسها أنها تنتمي لعائلة متوسطة الحال، وهي من المحافظات مثله. كنتُ أراهما دائما في حوار، وكأن بينهما أمراً ما مهماً، لكنه ليس أمراً عاطفياً في كل الأحوال، فقد كانت علامات التوتر واضحة على وجهيهما أثناء الحديث .

كنت أحيانا أراه في مكتبة الجامعة أيضاً، غارقا في كتبه ومصادره المتعددة التي يضعها أمامه. كان ثمة انجذاب صامت بيننا. ربما كان مصدر هذا الانجذاب في ما بيننا هو فضولنا لمعرفة الكتب التي يقرأها كل منا، فكان هذا الانجذاب متوترا في البداية لكنه صار هادئاً وسلساً حينما انتبهنا لتقاربنا الفكري والروحي من خلال نوعية الكتب والمؤلفين الذين نختارهم، بيد أنه كان أشجع مني في المبادرة بالتعارف، فما أن جلستُ في الباص حتى جاء ليجلس إلى جانبي، وقدم نفسه بجرأة قائلاً إنه: آدم الواسطي، فذهلت، وذهل هو حينما قدمت نفسي: آدم البغدادي، وبعد لحظات ابتسمنا لبعضنا ابتسامة عميقة مليئة بالطيبة والتفاهم القدري. هكذا بدأ تعارفنا الشخصي .

كان بريق مرضي غريب في أعماق العينين البنيتين لصديقي آدم الواسطي، وحزن جليل يكتسي وجهه الجميل الشاحب. لم أسأله عن خصوصياته، وإنما تركت الأمر له ليتحدث، فمن المؤكد هو يسعى لصداقتي أيضاً، ومن المؤكد سيكشف لي بنفسه عن عالمه، مثلما سأفعل أنا بالتأكيد .

لم يجد صديقي مكاناً أجلس عليه فطلب مني الجلوس على سرير نومه، ثم أخذ ينزل الكتب المنضدة على الكرسي في الزاوية ويضعها على الأرض، لكنه وقبل أن ينتهي من إنزال الكتب كلها دخلت خادمة صاحبة المنزل وهي تحمل كرسياً بيد وباليد الأخرى طاولة صغيرة، وهي تبتسم له قائلة :

– أستاذ آدم.. أم قابيل أرسلت لك هذا الكرسي كي يجلس ضيفك عليه، وهذه الطاولة لتضع عليها صينية الشاي الذي سأجلبه إليكما بعد قليل .

ارتبك صديقي من ابتسامة الخادمة الصريحة والمليئة بالألغاز، وتجنب للحظات النظر إليّ، فأخذ الكرسي والطاولة منها، وقال بصوت خجول :

- شكرا لك.. ولأم قابيل.. لا أريد أن أزعجها أكثر ..

فقالت الفتاة بمرح وهي تبتسم له :

- لا داع للشكر أستاذ آدم.. أنت تعرف أن أم قابيل تحبك وتعزك جداً جداً.. وانا أيضا يسعدني أن أخدمك ..

- شكرا لكما ..

ما أن ذهبت الفتاة حتى أحسست أن صديقي مرتبك من المشهد، فالتفت إليّ قائلاً وكأنه يبرر موقفاً ما :

- صاحبة البيت، أم قابيل، امرأة طيبة جداً.. ترعاني وتهتم بي.. إنها تخجلني باهتمامها المبالغ فيه أحياناً.. أحيانا تحرجني بهذا الإهتمام.. بل صرت أرى بعض الأسئلة الصامتة في عيون بعض جيراننا من سكنة البيت ..

فقلت ببراءة لكن بمحاولة لفهم الوضع بشكل صحيح :

- لا أريد أن أحرجك. وربما ليس من حقي أن أسألك ونحن في أول لقاء لنا، لكن هل هناك ما يثير الأسئلة عند الجيران..؟

صمت للحظات، ثم أجاب وكأنه يريد أن يزيح عن كاهله حملاً ثقيلاً :

- نعم.. هناك شيء بيننا، شيء لم أشأ أن يحدث لكنها سعت إليه.. مستغلة حالتي المادية.. لا أعرف ماذا أقول لك.. أو كيف أشرح لك الأمر.. فعلاقتي بها معقدة جداً، فهي تقترب من عمر أمي التي فقدتها قبل عام.. بل وتشبهها قليلاً.. وقد كنا في بداية الأمر عدوّين.. أقصد كانت ترسل خادمتها كل نهاية شهر لتأخذ الإيجار.. وكان يحصل أحيانا أن تكون نهاية الشهر وسط الأسبوع، بينما أنا لا أستطيع الذهاب إلى مدينتي الكوت إلا في نهاية الاسبوع، وهذا يعني أن أتأخر بضعة أيام، بينما كانت ترسل خادمتها إليّ كل يوم، بل وأحيانا تقف عند باب غرفتها عند دخولي لتسألني عن موعد تسليمي إيجار الغرفة.. ويحدث أن يكون بعض جيراننا واقفين يستمعون ويرون المشهد.. لاسيما العائلة التي غرفتها هناك مقابل غرفتي.. والتي تسكنها تلك العائلة المعدمة، التي تتألف من رجل مقعد، مريض، قد تجاوز منتصف الخمسين، وامرأة شابة في الثلاثين من العمر، لديها ابنة في التاسعة وصبي في الخامسة .

كنتُ صامتاً وهو يتحدث. رأيت عينيه تتقدان، وتتوهجان كلما توغل في سرده، ورأيت أن وجهه بدأ يتعرق، فمسح بكفه العرق عن وجهه مسترسلاً بتمشيط شعره الغزير الذي يتدلى على كتفيه بكفه المبللة بالعرق. حينما تحدث في بداية الأمر كان يمشي في الغرفة بهدوء دون أن أنتبه

لحركته ودورانه في الغرفة، فجأة جلس على الكرسي قبالتي، حيث كنت قد جلست منذ البداية على سرير نومه، بينما وضع الطاولة بيننا .

انتبهت إلى أنه ألقى نظرة ساهمة نحو خارج الغرفة. صمت للحظات. حينها ظننت أنه رأى أحداً في الجهة المقابلة، لكني لم أسأله، وبعد لحظات صمت ثقيلة، واصل حديثه بصعوبة :

– لا أدري أين قرأت ذلك، ربما في إحدى روايات دستويفسكي، ربما في ذكريات من بيت الموتى، أو الأبله أو الجريمة والعقاب، لا أدري، المهم أنه يتحدث عن ذلك الرجل المحكوم عليه بالاعدام والذي قال أو تخيل قبل أعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش في مكان ما، على قمة، فوق صخرة، بموضع لا تزيد مساحته على موضع قدم، وكان كل ما حوله هوة سحيقة، خضماً كبيراً، ظلماتٍ أبديةٍ، عزلةً خالدة، زوابع لا تنقطع، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة، بل ألف سنة، بل أبد الدهر، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً، أن يعيش فحسب.. أن يعيش.. أن يعيش أية عيشة.. المهم أن يعيش..! تُرى ما معنى القيم والأخلاق والأفكار العظيمة بالنسبة لذلك الرجل المحكوم عليه بالإعدام.. لا شيء.. فهي لا تبرر موته.. فهو لا يعرف سوى هذه الحياة الواقعية التي يحياها مهما كانت قذرة ومنحطة، وكل ما يقال عن الحياة الأخرى، وعالم الفردوس بل وحتى الجحيم ليس إلا رهاناً خاسراً.. ومن هنا فالجحيم هو جحيم أرضي.. لكنه جحيم في الحياة وهو أكثر قيمة من فردوس في الوهم!

كان يتحدث بحرارة، وانفعال، وكنت أحس أنه يكشف طبقات مظلمة من أعماقي المعتمة، وكأنه يشرح حالتي. لقد وجدت أنه عبر عن بعض أفكاري أفضل مما كنت أنا سأعبر عن ذلك لو أردت. صمتَ للحظات، ثم نظر إليّ وكأنه انتبه لوجودي، وانتبه إلى أني لم أتحدث تقريباً، فقال لي مبتسماً بحزن وكأنه يعتذر عما قاله :

– يبدو أني أثقلتُ عليك بهذا الحديث الغريب نوعا ما ..

– لا أبداً.. لكأنك كنتَ تعبر عما يجول في ذهني ..

نظر إليّ وكأنه غير متأكد من كلامي، وسأل :

– صحيح..؟

فقلت له بثقة ووضوح:

– صحيح ..

صمت للحظات ثم نظر إليّ بطيبة وفي عينيه بريق يشبه الدمع :

- أنت لا تعرفني جيداً أيها الصديق.. أنا أعيش حياة سافلة.. أعيش في الحضيض ..

فقلت بنبرة مواساة لأني لم أكن أدرك تماماً ما كان يقصده :

- إنها حياتك.. وأنت حر كيف تعيش.. الكثيرون لا يختلفون عنك ..

- ربما.. لكن البعض يغطي على سفالته وعفنه بالتعلق بالأفكار العظيمة، والقضايا الإنسانية الكبرى.. فلكل منا دروبه في هذا الحضيض الأرضي.. أو كما أسميته أنت الجحيم الأرضي. نحن يا صديقي كالعبيد المقهورين المكبلين بالأغلال، الملقى بهم في قاع سفينة منخورة، تتقاذفها الأمواج في بحر الضياع .

ارتبكت من هذه الصورة المرعبة من اليأس البشري، من تلك الرؤيا الجحيمية التي يصور بها وضع البشر، فقلت بهدوء :

- لكن الأفكار العظيمة تسمو بالإنسان..

أحسست وكأني مسسته بتيار كهربائي، إذ رأيته يرتد لأعماق ذاته، ويقول بأسى :

- الأفكار العظيمة.. السامية.. هه.. نحن نتجمع مثل جرذان قذرة حول كومة نفايات نتنة نسميها أفكاراً.. الأفكار ليست سوى جثث متعفنة في قبو مظلم..

- لكنك بذلك تسقط القداسة عن كل شيء.. عن لمسة الروح الإلهية التي تنبض في الإنسان ..

نظر إليّ للحظات، ثم ابتسم بحزن قائلاً :

- ربما.. ربما عليّ الذهاب إلى الصحراء كي أعود بالحكمة الصافية.. أو أذهب إلى كهوف الظلام لأجمع عظام الذئاب الميتة كي أعود حاملاً تعويذة الخلاص البشري.. تعويذة الخلاص للبشر الذين يظنون أنفسهم يعيشون كالآلهة لكنهم مهما سعوا فأنهم يغادرون الحياة كالحيوانات.. كالحيوانات بالضبط .. يفطسون كالحيوانات وليس أكثر..

أردت أن أخفف من وطأة هذه الأفكار القاتمة، وأن ألطّف من أجواء الحديث، فقلت مبتسماً :

- أنت تتحدث شعراً.. هل تكتب الشعر..؟

- أنا..؟ أنا روحي حدباء.. الروح الحدباء لا تكتب الشعر.. لكن يمكنني القول إنني ..

قبل أن يكمل جملته دخلت الفتاة الخادمة وهي تحمل صينية فيها

أكواب الشاي، وصحن فيه كعك، فقطع كلامه، ثم قام متجها إليها وهي يقول :

- شكرا لك.. وانقلي لأم قابيل شكري.. وأخبريها بأني سأمر عليها في ما بعد ..

صمتت الفتاة وقالت وعلى وجهها ابتسامة غامضة :

- سأبلغها بذلك.. ستفرح لذلك.. فقد كانت تنتظرك ..

بينما كان صديقي يضع صينية الشاي على الطاولة الصغيرة التي بيننا، قمت أنا من مكاني ورحت ألقي نظرة على الكتب المتراكمة على الأرض.. كانت كتبا فلسفية، وروايات عربية وعالمية، وكتباً في البارسايكولوجي، ومؤلفات فرويد بترجمات مختلفة.. دواوين شعر عالمي مترجم، المؤلفات الشعرية الكاملة للشعراء العرب بطبعات لبنانية معروفة.. كتابا حزبياً لمؤسس الحزب، يكاد يكون الكتاب المقدس للحزب الشمولي الحاكم.. استغربت لوجوده بين تلك الكتب التي تسيل فكراً ونوراً. كان هو ينظر إليّ، يتأملني. انتبه لتركيز نظري على كتاب الكراهية، فقال دون أن أساله :

- إنه للتمويه.. ليس إلا.. فربما يقتحمون غرفتي في غيابي أو حتى في حضوري.. فهو سينفعني حينها ..

أحسست للحظات وكأن رؤيا روحية خاطفة كوميض البرق برقت لثانية في سموات ذهني المعتمة، وكشفت لي عن بحر من الأسرار المتلاطمة التي تمور في أعماق هذا الفتى النحيل، والوسيم، كممثل هندي شهير، فهذا الفتى يعيش وكأنه في بيت عنكبوت تترصده في كل لحظة .

أحسست أن هذا الفتى تجره إلى هاوية اليأس أسرار هائلة، كتلك الأحجار الثقيلة التي تُقيد بسلسلة في أقدام السجناء الذين يلقى بهم في البحر كي تجرهم إلى القاع بلا أي أمل لهم بالنجاة. لكن كيف لي أن أعرف هذه الأسرار..؟

التفت إليه وقلت:

- لم تجبني.. هل تكتب الشعر..؟
- لا ..

صمتَ للحظات ثم واصل بلا مبالاة :

- أكتب أحيانا بعض التأملات الفلسفية، ذات الطبيعة الشعرية.. تقترب من اللغة الشعرية لكنها ليست شعراً.. على أي حال، هيّا نشرب الشاي ..

اقتربتُ جالسا على السرير ثانية، يغمرني إحساس بأننا نعرف بعضنا

منذ زمن بعيد، وأن علاقتنا ليست وليدة ساعة أو ساعتين في أكثر تقدير، واعتقدت أن هذا الإحساس يراوده أيضا، فأردت التأكد من ذلك، فقلت بوضوح :

- لدي إحساس بأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد ..

أحسست أن ملامحه استرخت قليلا بارتياح قائلاً :

- هذا الاحساس راودني أيضاً حينما رأيتك لأول مرة في مكتبة الجامعة تقرأ في رواية (صومعة بارما) لستندال.. حينها قلت لنفسي أنت إنسان يمكن أن تفهمني، ويمكن أن نكون أصدقاء.. فمن يقرأ ستندال لا بد وأن يتفهم تعقيدات النفس البشرية، وخلجاتها الغامضة ..

فاجأتني ملاحظته الدقيقة، فقد بحثت حقا عن هذه الرواية في المكتبات فلم أجدها، لكني وجدت نسخة قديمة منها في مكتبة الجامعة، وملاحظته عن ستندال دقيقة جداً، بالرغم من أني لم أجد من بين الروايات العالمية التي في غرفته أية رواية لستندال، لكني وجدت في ملاحظته ما شجعني أن أمضي في حديثي معه ليكشف لي عن أسراره التي وجدت فضولاً قاتلاً في أن أعرفها، فقلت :

- بودي أن أعبر لك عما يدور في ذهني ..

نظر إليّ صامتاً للحظات، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة لكنها طيبة، وقال :

- اسأل.. قل ما يدور في ذهنك ..

ارتبكت قليلاً، لكني وجدتُ نفسي أقول له :

- أعتقد.. أو يخيل إليّ.. لا أدري كيف يمكنني قول ذلك، لكن لديّ إحساس بأنك عالق في هذا البيت مثل ذبابة في بيت عنكبوت.. أقصد أنك عاشق يائس.. تحب بيأس.. وفي الوقت نفسه تضطر لممارسة دور المحب ..

صمت للحظات. حدق في وجهي، ثم قال :

- ستندال.. ستندال.. ستندال.. أين لي به الآن كي يشرّح ما يدور في نفسي.. أنت محق لحد ما.. هل لديك الاستعداد لسماع هذياني..؟

أحسست بفرح يغمرني لأني دخلت إلى عالمه بسلاسة، فقلت له بلهفة :

- أنا على استعداد تام ..

نظر إليّ لحظة، ثم قال بعجلة :

- إذاً اسمع قصتي التي ربما ستبعث الكآبة في نفسك ..
- تبعث الكآبة في نفسي..؟
- نعم ..
- أنا استمع لك ..
- إذاً استمع ..

* * *

حين أرادت حواء صحراوي أن تبدأ بقراءة الفصل الخامس من مخطوطة رواية آدم التائه، إذ كانت متشوقة لمعرفة أسرار آدم الواسطي، سمعت رنين الهاتف الأرضي في غرفتها. رن الهاتف ثلاث مرات، رنيناً قصيراً لا يستمر إلا لثوان، ثم ينقطع .

وضعت المخطوطة جانبا. نهضت بهدوء مقتربة من جهاز التليفون كي ترفع السماعة لحظة الإتصال مباشرة، لكن الهاتف لم يرن. أحست بأن هذا الرنين لثلاث مرات ليس عفوياً، فليس من المعقول بأن الخطوط سيئة إلى هذه الدرجة في لندن، وإنما بدا لها الأمر وكأنه إشارة خاصة، لكن مَن يرسل هذه الإشارة من خلال التليفون..؟ ولِمَن تُرسل..؟ إذا كانت الإشارة لها، فكيف للمتصل أن يتوقع بأنها ستعرف هذه الإشارة إذا لم يكن ثمة اتفاق بينهما..؟

أحست إن الأمر غير طبيعي. لكنها فكرت مع نفسها بأنها ربما تفرط في حساسيتها إزاء الأشياء المحيطة بها. ربما ثمة شخص يطلب رقما لكنه يخطئ كل مرة عند طلب الرقم، فيعيد الطلب، بدليل أن الرنين لا يستمر سوى لحظات، إذن عليها أن لا تضخم الأمور، وإلا فأنها سوف تفقد السيطرة على نفسها، عليها أن تكون هادئة جداً كي يمكنها أن تكشف سر هذا الكابوس الذي ابتدأ بمقتل آدم التائه واختفاء جثته .

خرجت من غرفتها، لكنها لم تهبط إلى الطابق الأرضي، وإنما وقفت عند الباب، في الممر الذي يقود إلى غرفة للضيوف من الجهة الأخرى، وإلى السلم الذي يهبط إلى الطابق الأرضي قرب غرفتها. ظلت للحظات واقفة في مكانها دون أي تفكير محدد. لم تسمع شيئاً. كان الصمت يلف البيت. فجأة تحركت هابطة السلم بهدوء. حين صارت في الطابق الأرضي دلفت إلى الصالة ثم إلى صالة الطعام. كان الهدوء يهيمن على البيت كله، وحينما اقتربت من المطبخ سمعت صوت التلفزيون يقدم برنامجاً عن الطبخ. فتحت الباب بهدوء فرأت الفتاة الهندية تقطع الزنجبيل .

ارتعبت الفتاة الهندية حينما رأت سيدتها ببرنس النوم تدخل عليها

المطبخ، فلم تعتد ذلك قط، بل إنها لم تر سيدتها في برنس النوم أبداً. ظلت مشدوهة وهي تنظر إلى سيدتها التي سألتها بالإنكليزية :

- أين الجميع.. لا أرى أحداً هنا..؟

فقالت الفتاة بارتباك :

- السيدة المديرة خرجت بعد أن جاءها اتصال هاتفي ..
- ماذا..؟ قالت إنها ذاهبة..؟
- نعم سيدتي.. هي قالت إنها ذاهبة ..
- هل تحدثت مع أحد.. ما..؟
- لا.. وإنما رن الهاتف ثلاث مرات دون أن تتحدث مع أحد.. فقط بعد أن رن الهاتف للمرة الثالثة، خرجت بسرعة وقالت إنها ستعود بعد قليل ..
- ألم تقل إلى أين ذهبت..؟
- لا.. سيدتي ..
- والبقية..؟
- أرسلت إثنين منهم إلى المخزن القريب ..

لم تقل حواء صحراوي شيئا، وإنما انسحبت مشغولة البال، فقد صدمتها ملاحظة الفتاة الهندية عن الإتصال الذي كما فهمت هو موجه لمديرة المنزل. استدارت خارجة، فقالت لها الفتاة الهندية سائلة بلطف :

- هل أستطيع أن أخدمك سيدتي.. إذا ما احتجتِ إلى شيء فيمكنني أن أقوم به..؟
- شكرا ..

صعدت حواء صحراوي السلم مشغولة البال. شيئا فشيئا أخذت تربط بين أشياء كثيرة لم تنتبه لها سابقا، أسرعت إلى غرفتها. دخلتها. توجهت إلى سريرها. أحست أنها بحاجة ماسة إلى أن تكون وحيدة مع نفسها، وان تبدأ بإستعادة ماضيها منذ لحظة دخول مديرة المننزل إلى بيتها لخدمتها. أخذت تحدث نفسها بصمت، بأن عليها أن تتذكر كل شيء وبهدوء كي يمكنها أن تفهم ما يدور حولها، فقد أحست بأن لهذه المرأة يداً خفية، ودوراً غامضاً في الكثير من الأحداث .

الفصل الخامس: أسرار مديرة المنزل أم هابيل

لم تدر حواء صحراوي من أين تبدأ، لكنْ ثمة يقين غامض يتجذر في أعماقها بأن مديرة المنزل، التي تُسمى أم هابيل، بالرغم من أنها لا تعرف عن عائلتها شيئاً، ولم تسمعها يوماً تتحدث عن ابن لها اسمه هابيل، والتي أرسلها أهلها لخدمتها بعد طلاقها، لها علاقة مجهولة بما يجري حولها من أحداث .

أخذتْ حواء صحراوي تستذكر تفاصيل، ومشاهد، لم تنتبه لها سابقاً، ولم تعرها أي اعتبار، لكنها الآن أخذت تشي بدلالات جديدة، فقد سمعتها مرات عدة تتحدث بصوت خافت جداً مع شخص ما، وبلغة مشفرة، لكنها كانت تعتقد بأنها تتحدث مع أمها، وتنقل لها تقريرها اليومي عما يجري في المنزل، ومرات نادرة كانت تختفي، وأيضا كانت تفسر لنفسها هذا الغياب بأنها مديرة المنزل ربما في بيتهم مع أمها .

مرة فاجأت أم هابيل وهي تفتش في غرفتها، بين الملابس ودفتر التليفونات. في تلك اللحظة لم تسألها شيئاً، إذ لم يراودها أي شك نحوها، كما أن أم هابيل بررت تواجدها في الغرفة بأنها كانت تبحث عن أية قطعة من الملابس يمكن غسلها، ولم يدر في ذهن حواء صحراوي أن تسألها عن سبب تفتيشها في الدفتر الذي تدون فيه أرقام بعض التليفونات التي تهمها .

في فجر هذا اليوم، بعد عودتها من شقة آدم التائه، كانت أم هابيل تنتظرها في باحة البيت مثل الساحرات الشريرات في قصص الأطفال، كما سمعتها حين عادت من المطعم تتحدث مع شخص ما، رجل هو بالتأكيد، لكنها تستبعد كل البعد أن يكون والدها، والآن خرجت بطريقة غامضة دون أن تخبرها إلى أين..؟ وهذا حدث بعد أن رن التليفون ثلاث رنات قصيرة متتالية، ولولا حديثها الذي جرى صدفة مع الفتاة الهندية في المطبخ، لما انتبهت لكل هذه التفاصيل .

فجأة سطعت في ذهنها فكرة منحتها دفقاً من الحيوية، إذ رأت أن بإمكانها أن تتأكد من سر التصرفات الغامضة لمديرة المنزل أم هابيل، فرفعت السماعة وطلبت رقم منزل والديها، وبعد لحظات سمعت صوت أمها يجيب على الهاتف، فسلمّت على أمها التي رحبت بهذا الإتصال لأن ابنتها لا تتصل بهم إلا نادراً جداً، ربما في الأعياد الدينية ورأس السنة وأعياد ميلادهما، لذا كان ردها دافئا وحنوناً، يشوبه بعض الخوف من

حدوث مكروه، بالرغم من أنها تحدثت معها صباحاً مؤنبة إياها على خروجها بعد منتصف الليل ورجوعها في ساعات الفجر الأولى .

سألت الأم عن سر هذه المفاجئة السعيدة باتصالها. ارتجلتْ حواء سبباً، انبثق في ذهنها خلال سؤال أمها المباشر عن سر اتصالها المفاجئ، فأجابتها بأنها كانت تبحث عن قميص لها في خزانتها ولم تجده، وبودها أن تسأل أم هابيل إن كانت قد أخذته من خزانتها لغسله .

استغربتْ حواء لإجابة أمها بأن أم هابيل ليست موجودة عندهم، بل إن الأم استغربت لعدم تواجد أم هابيل في المنزل. صمتت حواء للحظات، وأحست بدفق من الدماء تضغط على جمجمتها يرافقه دبيب يتغلغل في تلافيف دماغها، لكنها سيطرت على نفسها، وأحست برغبة في التوغل لكشف شخصية مديرة المنزل الغامضة، فأخذت تبرر غياب أم هابيل قائلة لأمها :

- ربما ذهبت إلى عائلتها..؟

إلا أن الأم قاطعتها بجواب صدمها أكثر حينما قالت :

- أم هابيل لا عائلة لديها هنا في لندن. نحن لا نعرفها جيداً.. لقد قبلنا، أنا ووالدك، تشغيلها عندنا حينما تزوجت أنت من قابيل الموسى ..

- ماذا..؟

- نعم يا ابنتي.. لقد تقدم زوجك السابق برجاء خاص إلينا، بأن نقبل تشغيلها عندنا.. وقد برّرَ ذلك بأنها كانت تخدمه، لكنه يريدها أن ترتاح قليلاً، ولأنها ذات طبيعة شرقية، ولا تعرف الإنكليزية جيداً، كما لا تعرف الأتكيت الإنكليزي، لذا فربما لا تصلح أن تخدم في منزلكما، فربما لن تلبي متطلبات الخدمة اللائقة بك.. وأخبَرَنا بأنها وحيدة، ولا عائلة لديها، وقد قبل والدك أن تشتغل عندنا وتنتقل للعيش في بيتنا، لكن بعد طلاقك، وجدنا أنه من المناسب أن ترعاك، لاسيما وهي امرأة تعرف عاداتنا وتقاليدنا .

كان كلام أمها قد أضاء ما كان معتماً في ما حولها، وكأن ستارة ثقيلة في غرفة معتمة قد أُزيحت جانباً لتكشف عن المشهد المضيء الذي كان يتألق خلف النافذة. إذاً، هي لم تكن تتجسس عليها لصالح والديها، وإنما لتنقل كل صغيرة وكبيرة تخصها لزوجها السابق قابيل الموسى..! فهي من المؤكد على تواصل معه. الآن أدركت كيف كان زوجها السابق يعرف كل تحركاتها بعد الطلاق، بل كان يعرف من يزورها في البيت، ومع مَن

كانت تتحدث، وإلى أين تذهب حينما تنوي الخروج من البيت، بل ومواعيد خروجها، ولقد حيّرها ذلك فعلاً، فقد ظنت أنه استأجر من يلاحقها ليل نهار، لكن انتبهت إلى أنه يعرف أشياء كانت تجري في بيتها، وقد ظنت، حينها، بأنه يتنصت على هاتفها، لكنه انتبهت إلى أنه كان يعرف أشياء تجري من دون أن يتحدث عنها أحد في التليفون. الآن اتضح لها هول الوضع الذي هي فيه، ولم يكن أمامها إلا أن تبدأ هجومها المضاد، فقالت لأمها :

– أخبريني يا أمي بصراحة.. وأقسم عليك بحياة أبي وأخي، وبحياتي أيضا.. ألم ترسلوها إلى بيتي كي تتجسس عليّ، ولكي تنقل لكم أخباري ..

فجاء جواب أمها حنوناً، وصادقاً :

– كيف تقولين ذلك يا ابنتي..؟ أنا ووالدك ليس لنا في هذه الدنيا غيرك وغير أخيك.. وحينما أرسلناها لخدمتك، لم يكن في ذهننا سوى خدمتك.. فالخادمات الهنديات والإنكليزيات رسميات في تعاملهن وفي الانضباط بالوقت والقضايا القانونية الأخرى، كما أنهن لا يعرفن عاداتنا وتقالدينا، لذلك فضلنا أن تكون أم هابيل عندك كي تساعدك في إدارة المنزل، وليس للتجسس عليك.. وما قالته لنا اليوم كان حديثا عابراً.. أنا اتصلت بك صباحاً، في حدود الثامنة لأخبرك بإحتمال وصول بعض الأقرباء من الخليج.. كان هاتفك مشغولاً لفترة ليست بالقصيرة.. وبعد ذلك واصلت الاتصال فرفعت هي السماعة، وحينما أردت الحديث معك أخبرتني بأنك نائمة لأنك جئت متأخرة ليلة أمس. فطلبت منها أن تجيئني لتخبرني بالتفاصيل.. ولسوء الحظ أن والدك سمع حديثها بخروجك بعد منتصف الليل ومجيئك في ساعات الفجر الأولى ..

– ألم تأت إليكم سابقاً..؟

– لا.. أبداً.. إن والدك يثق بك كثيراً، ويعتبر أن نقل الأخبار عن طريق الخادمة هو إهانة لك.. واليوم غضب جداً.. أولاً لخروجك في هذا الوقت المتأخر بعد منتصف الليل.. وثانياً لتدخل الخادمة في نقل الخبر، فهو يرفض ذلك جملة وتفصيلاً.. لأنه قال بأنه يرفض أن تكون ابنتي الدكتورة حواء صحراوي موضع شك واتهام أو انتقاد من قبل امرأة جاهلة لا ترتقي لمستواها.. أنت تعرفين والدك جيدا كم يحبك ..

أحستْ حواء بموجة من الحنان والفخر يغمرانها عند سماعها لموقف والدها منها، وحزنت في الوقت نفسه من أنها أساءت الظن بوالديها، وظنت أنهما أرسلا أم هابيل للتجسس عليها، لكن الآن عليها أن تتخذ

موقفاً حازماً، وتكشف لأمها ما يدور في ذهنها، فقالت لأمها بصوت حنون وبتعاطف واضح :

- اسمعيني يا أمي.. لماذا أنا سألتك عنها كل هذه الأسئلة..؟ لأنني بصراحة شديدة أشك فيها.. أشك بأنها تنقل أخباري إلى طليقي.. السيىء الذكر.. قابيل الموسى ..

سمعت أمها تجيب بصوت مليء بالاستغراب :

- ماذا تقولين..؟

- نعم يا أمي.. أسبوعياً تختفي من البيت لفترة قصيرة.. كنت أظنها تأتيكم بأخباري.. ولم أعر الأمر أهمية، فأنا لا أعمل شيئا خاطئاً أولاً، ولأني امرأة حرة في نفسي، ولستُ طفلة صغيرة قاصرة.. لذا لم أجد ضيراً أن تقدم لكما تقريرا يومياً عني، فليس في تصرفاتي ما يخجلكما.. لكني سمعتها تتحدث مع شخص ما.. ومن خلال الحديث انتبهت إلى أنها تتحدث مع رجل.. وقد فكرت مع نفسي بأنه من المستحيل أن يكون أبي ..

- أبوك..؟ هذا مستحيل.. فهو يفتخر بك جداً.. ويرفض هذا الأسلوب الرخيص.. وهو يقول دائما بأن ابنتي مثقفة جداً.. ولها حياتك الخاصة.. وهو يثق بتصرفاتك.. ولا أخفيك، فقد قرأ في الصحف بعض الشائعات عن صديقتك.. أقصد تلك الممثلة الإنكليزية، إيفا ليسنج.. فغضب.. واعتبر ذلك كله من تفاهات الصحف الصفراء.. لذلك من المستحيل أن يقوم بالحديث مع خادمتك ليتقصى أخبارك ..

- هذا ما ظننته أيضاً، فمن المستحيل أن يقوم أبي بذلك. أنا الآن على يقين بأنها تنقل أخباري إلى طليقي ..

- لكن كيف تعرفين ذلك..؟ ربما أنت مخطئة يا ابنتي..؟ إن بعض الظن إثم يا ابنتي ..

- لستُ مخطئة يا أمي.. لأني حالما أكون في مكان ما حتى أراه أو أرى ابن عمه أو كليهما هناك.. وقد تكرر ذلك لمرات ومرات.. حتى بدأت أشك بأن ذلك يحدث صدفة.. صحيح أنه لا يتعرض لي بشيء مهما كان.. لكن تواجده في الأماكن التي أتواجد فيها يضايقني.. أنا على يقين بأنها كانت تخبره إلى أين ذاهبة أنا ..

ومن أين تعرف إلى أين أنت ذاهبة..؟ هل كنت تخبرينها..؟

- نعم يا أمي.. لقد كانت تبدي اهتمامها وحرصها.. وخوفها منكما، فربما تسألانها عني.. وربما يحصل لي شيء ما.. فلا بد وأن تعرف أين أنا.. وكنت أخبرها بطيبة خاطر عن المكان الذي أتوجه إليه، لأني في كل

الأحوال لا أريد أن أسبب لكما أي قلق... الآن تذكرت.. لقد كانت أحيانا تسألني عن بعض الأماكن بالتفصيل.. لاسيما تلك التي تحتاج بعض الوضوح في العنوان ...

- يا للأفعى السامة... يا للحقارة والخسة.. هذا جزاء الإحسان..؟ تفعل خيراً تلقى شراً.. لقد آويناها.. بينما هي تلدغنا من الخلف.. والآن ماذا ستفعلين..؟ كيف ستتصرفين معها..؟

- لا أدري.. ربما سأطردها ..

- لا يا ابنتي.. اتركي الأمر عليّ.. سأطلب منها أن ترجع إلينا لحاجتنا إليها.. وشيئا فشيئا نتأكد من تصرفاتها.. وإذا ثبت لنا ما تقولين، عندها سنصرفها عن الخدمة ..

- لكني لا أريدها أن تعرف بأننا عرفنا بأمرها.. انتظري يا أمي.. أسمع حركة عند الباب الرئيسي.. أعتقد أنها عادت الآن.. ها أنا أسمع صوت الباب البيت يطبق ..

- اتركي الأمر عليّ يا ابنتي.. سأتصرف أنا.. لكن انتبهي منها.. سأطلبها بعد قليل.. كوني طبيعية معها ..

- مع السلامة يا أمي ..

- مع السلامة يا ابنتي.. حفظك الله من كل مكروه ..

بعد أن وضعت حواء صحراوي سماعة الهاتف في موضعها بلحظات قليلة، سمعت صوت صعود شخص ما على السلم، فخمنت بأنها أم هابيل، فرجعت إلى السرير وتمددت عليه. أخذت مخطوطة رواية آدم التائه. توقفت عند الفصل الخامس، لكنها لم تبدأ بالقراءة .

كانت حواء تتوقع دخول أم هابيل في أية لحظة، إلا أن صوت الخطوات الصاعدة قد توقف. تنصتت حواء وهي في سريرها لكنها لم تسمع شيئاً. تركت المخطوطة جانباً. نهضت متوجهة إلى خارج الغرفة .

في اللحظة التي صارت فيها عند الباب واجهتها أم هابيل بشكل مفاجئ، فارتدّت كلتاهما إلى الوراء، إذ بدا كل منهما كانت مستغرقة في التفكير خلال تلك اللحظة. كل منهما أحست بالخجل من الأخرى لفزعها الطفولي من لحظة المواجهة تلك، وابتسمتا لبعضهما غصبا عنهما، ولتدارك الموقف قالت حواء صحراوي :

- أفزعتني.. لم أتوقع وجودك عند الباب.. فلم أسمع صوت أحد يصعد السلم ..

أحست مديرة المنزل بالارتباك، لأنها انتبهت للاتهام المبطن في جملة حواء، فقالت وكأنها تداري الموقف :

– كنت أصعد السلم درجة درجة.. وعند كل درجة أتوقف لآخذ نفساً.. ولم أصعد السلم دفعة واحدة.. لذلك لم تسمعي أي صوت.. أنا امرأة كبيرة.. وأحس بأن صحتي ليست على ما يرام ..

كانت حواء تحدق في وجهها دون أن يرف لها جفن. ارتبكت أم هابيل.. ولكي لا تكشف حواء عما يدور في ذهنها، قالت لها :

– سلامتك ..

– الله يسلمك يا بنتي... سمعت من الخادمة الهندية أنك سألت عني.. هل هناك شيء..؟

– لا أبداً.. كنت قد نزلت أريد التنزه قليلاً في الحديقة.. لكني غيرت رأيي.. مررت على المطبخ فلم أجدك.. فأخبرتني الخادمة بأنك خرجت.. هل كنت عند أمي..؟

ارتبكت أم هابيل لثانية، بحيث لم تبد ذلك عليها، وقالت :

– نعم.. نعم.. كنت عند الحاجة.. الوالدة.. أرادت أن تحدثني بأمر ما.. فذهبت إليها ..

أدركتْ حواء صحراوي بأن أم هابيل تكذب بشكل مفضوح، لكنها لم تبد لها بأنها تعرف ذلك، بل انتبهت بأن كل هذا الحوار جرى وهما لا تزالان واقفتين عند الباب، ولكي تنهي هذا الموقف طلبت من أم هابيل بأن تبعث الهندية لتحمل لها كوبا من الشكولاتة الساخنة. وبدون أي تعليق استدارت أم هابيل نازلة السلم بسرعة، ناسية بأنها قالت لحواء قبل قليل بأن صحتها ليست على ما يرام، وأنها كانت تصعد السلم درجة درجة .

أحست حواء صحراوي بارتياح خفي في نفسها، وبخفة في جسدها، وكأنها أزاحت ثقلاً عن ذهنها وانقشع الخوف عن نفسها، فلم تعد تخاف مديرة المنزل التي كانت تعتقد أنها الظل الثقيل لعائلتها، وعينهم الحاضرة، بل إن حديثها مع أمها، وما قالته عن موقف والدها منها منحها قوة، بيد أن ظلالاً من الشك حول طبيعة ما كانت تنقله أم هابيل إلى طليقها، وأماكن اللقاء بينهما، ظلت تعكر عليها فرحها الصافي، لكنها لم تشغل نفسها كثيرا بهذا الأمر، إذ اتجهت ثانية إلى السرير. ألقت بنفسها عليه بإسترخاء. أخذت المخطوطة لتواصل قراءتها، فقد كانت متشوقة لمعرفة حكاية آدم الواسطي التي أراد ان يسردها لصديقه آدم البغدادي. ما أن

بدأت بعزل الصفحات التي تمت قراءتها والتوقف عند الفصل الخامس، حتى دخلت الفتاة الهندية تحمل صينيةً عليها كوب من الشكولاته الساخنة وكأس ماء. مشت داخل الغرفة بهدوء أشبه بالدبيب. وضعت الصينية على الطاولة قرب السرير. خرجت بهدوء أيضاً، دون أن تنطق بأية كلمة. كانت حواء صحراوي تنظر إليها منذ لحظة دخولها ولحين خروجها من الغرفة بشكل أربك الفتاة التي أحست بنظراتها. مدت يدها وارتشفت شيئا من الشكولاتة الساخنة، ثم استدارت لتقرأ في مخطوطة رواية متاهة الأشـباح .

متاهة الأشباح

5

الحضيض العراقي

أخذتُ رشفة من الشاي بعد أن قضمت شيئا من الكعك، الذي خمنتُ أن صاحبة البيت قد اشترته من محل (كعك السيّد) القريب والشهير في البلاد كلها، بينما انطلق صديقي آدم الواسطي يروي قصته، وكأنه بذلك كان يخفف عن نفسه عبئاً أحنى روحه وأتعبها، وها هو يجد من يشاركه حمل هذا العبء من خلال كشفه عن أعماقه له :

- ملاحظتك عن كوني مثل ذبابة عالقة في بيت عنكبوت، ربما هي أصدق تعبير عن حالي، أكثر من كوني عاشقاً يائساً كما عبّرتَ. في هذا البيت الكبير عالق أنا. إنه عالمي الصغير. فيه أرى الحياة تفور بكل تناقضاتها ومآسيها ودفئها وخستها وانحطاطها ورومانسيتها. هنا الجمال ليس إلا وردة بيضاء في وحل نتن أسود. أتريد أن أروي لك عن هذا العالم الذي يتجسد في هذا البيت الكبير شبه المتداعي.. في هذا الحضيض؟

نظرتُ إليه دون أن أجيب، لكن نظرتي كانت تحمل الكثير من التعاطف الذي يشجع على الاستمرار في الحديث. نظر إليّ ثم استمر قائلاً :

- ربما من الغريب أن أتحدث لك عن أسرار نفسي التي أكتمها عن أي إنسان، بينما نحن نلتقي لأول مرة..! لكني، كما قلتَ أنت، كأننا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد، فمعرفة الإنسان للإنسان لا تقاس بعدد السنين التي التقيا فيها معاً، وإنما بكثافة لحظات اللقاء تلك.. لحظات المواجهة بين عقلين وروحين.. وها نحن نقترب من بعضنا بعقلينا وروحينا.. أتوافقني الرأي..؟

دمدمت وكأني أحدثُ نفسي :

- طبعاً.. طبعاً.. صحيح أن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها عن بعضنا.. لكننا برغم ذلك نحس وكأننا نعرف بعضنا عبر جوهرنا الإنساني.. جوهرعقلينا وفكرنا وإدراكنا لقيمتنا الإنسانية الفردية وقيمتنا الإنسانية بشكل عام.. أما التفاصيل الحياتية الأخرى، العائلية والاجتماعية التي تخص كل منا، فستكون مكملة ومعمقة لهذا التعارف بيننا.. أنا في شوق لسماع ما ستقوله ..

كان يستمع إليّ بانتباه شديد. وما أن انتهيت حتى نظر إليّ، أطال النظر وكأن يقرأ في وجهي شيئاً يريد أن يدركه، أو يمنحه الأذن إلى الانطلاق بالحديث. بقي لدقيقة تقريبا ينظر إليّ دون أن يرف له جفن.. ثم انطلق :

- هذا البيت زريبة إنسانية، إنه الحضيض الذي تحدث عنه مكسيم غوركي ذات مرة.. أو الذي كتب عنه دستويفسكي كثيراً.. فأم قابيل.. صاحبة البيت.. مثلاً.. هي في عمر أمي.. لكنها تعشقني.. إنها علاقة معقدة.. أنا بمثابة ابن لها وفي الوقت نفسه الرجل الذي تحبه.. ربما تستغرب ما أقول.. إنه وضع ملتبس. لا أدري كيف أشرح لك ذلك.. سأروي لك كل شيء.. أم قابيل هذه امرأة طيبة.. امرأة كانت ذات طموح وكبرياء ورغبة عارمة في الحياة.. لكن الزمن حطمها بضربة قاضية.. بالكاد تحاول أن تنهض من هول هذه الضربة على قدميها.. وربما من خلالي.. لا أدري.. هي أرملة.. لا أعرف شيئاً عن زوجها.. لا يعرف أحد من سكان البيت شيئاً عن زوجها.. لكن الخادمة أخبرتني ذات يوم بأنه كان ثرياً.. ومات بطريقة غامضة.. ورثت عنه هذا البيت وأموالاً أخرى.. ولم تنجب منه سوى ابنها قابيل الذي كان يكبرني بسنة واحدة.. وقد كرست حياتها لتربيته.. لكن قابيل كان كسولاً فلم يكمل المدرسة.. اكتفى بالشهادة المتوسطة.. ولم يكمل الثانوية.. إذ تركها وهو في الصف الرابع الثانوي.. قابيل هذا مات في الحرب مع إيران.. كان ذلك قبل ثلاث سنوات.. كنت حينها في السنة الأولى.. رأيته في زيارة قصيرة له.. لم نتحدث حينها في ما بيننا كثيراً.. كان شاباً وسيما.. طيباً.. بسيطاً.. تبادلنا بعض الحديث القصير لمرتين أو ثلاث خلال إجازته القصيرة والوحيدة التي رأيته فيها.. وحينها سألني عن دراستي.. وعن المحافظة التي جئت منها إلى بغداد.. وحينما أخبرته بأنني من مدينة الكوت تألقتْ عيناه، وأخبرني بأن صديقاً له في الجبهة، كان من مدينة الكوت أيضا، لكنه قُتل بصاروخ جاء من الجبهة الأخرى، وحينما نقلوا جثمانه إلى مدينته ليسلمّوها لأهله إتضح أن أهله من الكورد الفيليين

الذين هُجروا إلى إيران باعتبارهم من التبعية الإيرانية، بينما بقيتْ جثة الإبن التي احترقت دفاعاً عن العراق في تابوتها وحيدةً أمام باب دار أهله، تلك الدار التي منحتها الحكومة لشرطي في المخابرات.. وقد بادر بعض الجيران لنقل الجثمان إلى النجف لدفنه هناك.. قابيل هذا حدثني عن الأهوال التي حدثت في جبهات القتال.. روى لي قصصاًعن مآسٍ إنسانية يشيب لها الرأس ولا يمكن تصورها بتاتاً.. حدثني عن عبث تلك الحرب الملعونة.. عن إنحطاط البشر في الحروب.. بل عن إنحطاط العالم كله.. العالم الذي كان يبيع السلاح للبلدين المدمرين والمخربين.. قابيل الذي اكتفى بشهادة المتوسطة، كان حينما يسرد لي قصص الحرب وحياة الجنود في الجبهات، يصفها بدقة عجيبة بكل مفارقاتها التي لا يمكن إلا لعين فنان كبير وموهبة أدبية أن تنتبه لها، وكأنما كنت أستمع لنصوص من قصص سيباستوبول لليف تولستوي أو مشاهد من ملحمته الحرب والسلم.. قابيل هذا ذهب إلى الجبهة ولم يعد.. بل عاد أشلاء ممزقة في تابوت ملفوف بعلم البلاد المجنونة.. وهؤلاء الأوغاد السفلة لم يسمحوا لأمه المسكينة أن تقيم الفاتحة له.. كنتُ أنا حينها قد سافرت إلى مدينتي لمدة أسبوع.. وحين عدت إلى المنزل الكبير لمستُ ملامحَ الحزن التي طغتْ على البيت كله بشكل غير اعتيادي.. حيث اختفى مزاح الجارات الداعر.. ومشاجرات وصراخ العائلة التي تسكن في الغرفة المقابلة لي.. لم أدرك الوضع إلا من الخادمة التي قابلتها بعد يوم من عودتي عند المدخل، فسألتها أن كان قد جرى شيء ما.. فأخبرتني بإستشهاد قابيل في الجبهة.. صُدمت.. لم أمتلك الجرأة كي أذهب إلى أمه لأعزيها بإستشهاده.. ماذا أقول لها..؟ أأنافق بالقول بأنه شهيد بطل.. وإن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.. وأنا أعرف عبثية هذا الموت كله..؟ أأقول لها: البقاء في حياتك..؟ وأية حياة تبقى للأم حينما يأتون بجسد ابنها الوحيد، الشاب الوسيم، ممزقا إلى قطع محترقة.. نتنة.. مع رأس مهشم وملامح مشوية..؟ إن مثل هذا العزاء سيكون إهانة لها ولحزنها الجليل.. وبرغم إلحاح الخادمة، بأن أذهب لتعزيتها، إلا أني لم أقدم على ذلك إلا بعد مرور شهر.. حينما رأيتها صدفة عند باب حجرتها وأنا داخل إلى الدار، فقالت لي بحزن معاتبة برقة وضعف.. بأني لم أقدم لها التعازي باستشهاد ابنها الذي كان يحبني جداً.. فعزيتها أمام الآخرين الذين كانوا في باحة الدار.. لكنها كانت نادراً ما تغادر غرفتها.. بل إن موت ابنها هدها هداً، وكسر جبروتها، فصارت أكثر رقة مع المستأجرين، بل صارت لا مبالية بكل ما يدور من شؤون في الدار.. وكثيرا ما سمعتها تبكي

بحرقة في غرفتها التي تغلقها على نفسها كي لا يسمعها أحد... وحدث في شتاء العام الماضي.. أي بعد سنتين من مقتل ابنها.. وكانت الحياة قد مست قلبها بلمستها الشافية.. وفي ليلة شتائية قارصة البرد، كنت راجعا من السينما.. سمعت أنيناً ينبعث من أعماق القلب.. كنت قرب باب غرفتها.. تسمرتْ قدماي.. لم أستطع التحرك.. بقيت أتنصت لأنينها الذي أثار أشجاني.. وتذكرت وجه قابيل الوسيم.. وملامحه الطيبة وهو يحدثني عن آلام الجنود في الجبهات.. وها أنا اسمع نشيج أمه الحزينة.. وكما قلت لك.. لم أستطع أن أخطو خطوة أخرى من أمام باب غرفتها.. وفجأة.. وبلا شعور وجدتني أدفع باب الغرفة قليلاً.. التفتتْ هي إليّ بعينين مليئتين بالذهول ومترعتين بالحزن.. بيد أنها حين رأت ملامح الحزن والتأثر على وجهي، رقت ملامحها.. قالت لي وهي تئن: كان يحبك يا آدم.. كان يحبك.. كان يوصيني بأن أعتني بك.. بأن لا أضغط عليك من أجل الإيجار.. لقد رحل يا آدم... رحل وتركني وحيدة.. ما معنى حياتي الآن بدونه..؟ لمن كل هذا الأموال..؟ ولمن هذا البيت الكبير..؟ لمن أعيش الآن..؟............... كانت جميلة في حزنها ذاك.. احترت في تلك اللحظة.. ماذا أفعل..؟ كانت غرفتها دافئة جداً.. غرفة ليست بالكبيرة، لكنها كافية كي تضم خزانة عريضة تحتل جانباً من الغرفة، ومن الجانب المحاذي للباب كان جهاز التلفزيون على طاولة، بينما في عمق الغرفة كان سريرها العريض يحتل مساحة كبيرة. كانت تجلس على الأرض التي فرشتها بالسجاد الغالي، متربعة على وسادة عريضة، وأمامها سماور الشاي الذي كان البخار يتصاعد منه.. كانت عيناها تلمعان.. لا أعرف ماذا أحسستُ حينها.. هل كانتا تبرقان بالدمع أم بالرغبة المكتومة.. كانت تنظر إليّ وهي تخبرني عن حب قابيل لي.. وكيف أوصاها بي.. وأنها ستكون وفية له. كنتُ أرى في أعماق عينيها أشعة رغبة مكتومة.. لكني كنت في عالم آخر.. لا إراديا، وبدون أي تفكير أو نية مسبقة، انحنيت عليها ضاما إياها بذراعيّ.. مبدياً تعاطفا كبيراً معها، وحناناً فائضاً.. جلست منهداً أمامها، فأرتمت هي في حضني.. أخذت أمرغ وجهي في شالها الأسود الذي تغطي به رأسها وجانب من وجهها وأذنيها.. فوجئتْ هي بذلك لكنها لم تعترض، فدفعت بشفتي جانب الشال وأخذت أقبل خدها وشحمتي أذنيها، والتقمت بحركة مفاجئة شفتيها.. فوجئتْ هي بهذا الهجوم الكاسح من قبلي.. لكنها لم تعترض.. ولم تبد أي إشارة احتجاج.. فشعرت وأنا أقبلها بأنها كانت تحتاج لذلك مثلي.. كانت تلهث وتئن من اللذة.. وبكل جرأة مددت يدي إلى صدرها وأخذت أعصر نهديها، وبحركة جسورة مددت يدي إلى الأسفل..

فانهارت.. تمددت تلقائيا، وضمتني بقوة وهي ترتجف.. لم أنتظر.. بل نهضت سريعاً عنها.. في تلك اللحظة رأيت ما يشبه الخيبة قد ارتسمت على وجهها.. فلم يكن أمامي سوى أن أقفل الباب من الداخل.. نظرتْ إلي بتوسل.. ما بين الرغبة والرفض.. ما بين انتظارها أن أغادر وانتظارها أن أقبل عليها بقوة.. وبدون أية كلمة تقدمت منها.. أخذتها من ذراعها وألقيت بها على السرير.. واخترقتها بعنف.. كانت ترتجف تحتي من اللذة.. لكنها طوال انهماكي بجسدها الممتلئ، البض، والأملس، كانت تتكلم دون توقف مرددة: أنت حبيبي.. أنت ابني.. أنت عشيرتي وأهلي.. أنت حياتي.. سأكون خادمتك إلى الأبد.. حبيبي قابيل أوصاني بك.. سأكون لك إلى آخر لحظة من عمري......... حين انتهيت منها.. نهضت عنها سريعاً.. وغادرت الغرفة.. لكني قبل أن أغادر الغرفة انتبهت إلى أنها وكأنها استوعبت ما جرى بيننا.. ظلت لحظة ساكنة تنظر إليّ بعينين مليئتين بالرعب.. وفجأة، أخذت تلطم وجهها ورأسها.... هربت إلى غرفتي بسرعة حيث كنت أقفز السلم درجات عديدة في كل قفزة.. لقد أحسست بأني قد تهورت وأني قد أقدمت على أمر جلل.. خفت أن تفضحني أمام الجيران.. أن تطردني في هذا الليل.. لكني كنت استرجع كل اللحظات التي مرت، فلم أجد ما يشير إلى عدم رغبتها في ذلك.. بل لقد وصلت هي إلى النشوة مرات خلال لحظات قصيرة.. فكرت مع نفسي بأنها ربما أدركت أخلاقيا ودينيا ما قامت به.. ربما وجدتْ في ذلك تدنيساً لذكرى ابنها.. لا أعرف.. قضيت تلك الليلة وأنا قلق مرعوب من نتائج تهوري الجنسي.. كنت أتنصت لكل حركة في البيت.. لكل خطوة.. وانتبهت إلى أنها دخلت غرفة الاستحمام الصغيرة، وسمعت صوت الموقد النفطي يهدر، ففهمت أنها تغلي الماء لتستحم.. بعد فترة سمعت وقع خطوات في الباحة.. خرجت كاللص لأنظر إلى الباحة من الأعلى، فوجدتها تدخل غرفة الاستحمام وتغلق الباب.. وبعد فترة قصيرة خرجت.. عرفتُ أنها استحمت، وتطهرت من الجنابة.... بعد ذلك اعتكفت أم قابيل في غرفتها لشهر تقريباً.. لم أرَها.. بل إن الخادمة قالت إنها تصلي النهار والليل كله، وتندب حظها.. تبكي ابنها الشهيد.... كان الجيران يزورونها في غرفتها.. ويخرجون من عندها رافعين الأكف إلى السماء، متضرعين أن تباركهم مثلما باركت أم قابيل فمنحتها هبة الإيمان الذي نورها ونورت حياتها فجأة.. كان الجيران يتحدثون عن وجهها الذي استرخى وتألق بالنور.... لم أجرؤ، حينما كنتُ أخرج إلى الجامعة، أن أتوقف عند بابها، بل كنت أولّي هارباً، كي لا تلمحني، على الرغم من أن بابها كان مسدوداً دائماً

حينما أمرّ.. وبعد فترة لم تتجاوز الشهرين جاءتني الخادمة.. وبالمناسبة.. الخادمة هذه فتاة يتيمة.. تعيش مع جدها في البيت المجاور لنا، وقد كانت أم قابيل ترعاهما، وكانت الفتاة تقوم بكل الخدمات التي تحتاجها أم قابيل، بل كانت وكأنها سكرتيرتها في كل شيء، إذا طاب لنا تسمية الأمر كذلك.. المهم.. جاءتني الخادمة ذات يوم، وأخبرتني بأن أم قابيل تريد أن تراني في غرفتها.. حاولتُ أن أستفهم منها ما تريده مني، لكنها أنكرت معرفتها بأي شيء.. فسألتها عن حالتها النفسية.. هل هي عصبية أو غاضبة من شيء ما.. فأخبرتني بأنها في أحسن حال.. فنزلت مرتبكا، متوجساً شيئاً غامضا ينتظرني.. له علاقة بما جرى في تلك الليلة من دون شك.... كان باب غرفتها مفتوحا قليلاً.. فطرقته بيد مرتعشة.. سمعت صوتها يدعوني للدخول.. كان صوتها هادئاً وخافتاً بالكاد سمعته.. حين دخلت الغرفة رأيتها تجلس في المكان نفسه الذي كانت تجلس عليه تلك الليلة.. نظرتْ إليّ وفي عينيها حب جارف وحنان أخاذ.. ابتسمتْ لي بمودة وطيبة ودعتني إلى الجلوس بالقرب منها.. سألتني عن أحوالي.. عن دراستي.. وزياراتي لأهلي في الكوت.. كنت أجيبها بارتباك، إلا أن نبرة المودة والحنان في صوتها، وتلك اللهفة والرغبة الخجولة في أعماق عينيها منحتني الشجاعة لمواجهة هذا الموقف الذي كنت أخاف أن أجد نفسي فيه.. فجأة، قالت لي بأنها رأت قابيل في الحلم.. وقد أرسل سلامه لي.. وإنه لايزال يوصيها بي.. ثم نظرت إليّ بشكل صريح وقالت لي بأنها ليست غاضبة ولا مستاءة مما جرى في تلك الليلة.. بل إنها واحدة من أجمل الليالي التي عاشتها في حياتها.. وإنها اطمأنت بأنه لم يحدث أي شيء يمكن أن يفضحها.. فقد جاءتها الدورة الشهرية بعد ذلك بأسابيع.. وإنها بعون الله لن تكرر ذلك.. قالت لي بأنها تحبني.. وإنها لا تستطيع أن تطلب مني أن أتزوجها لفارق العمر بيننا.. لكنها توسلتني بأن لا أهملها.. فهي لا تستطيع العيش دون أن تراني.. وإنها سترعاني ما دامت على قيد الحياة.. ومدت يدها لتمسك بكفي.. وأخذت أصابعي بين أصابع كفها.. شدت قبضتها على قبضتي.. ثم فجأة استدارت حول نفسها، ومدت يدها إلى تحت الوسادة، واخرجتها وهي مليئة بكمية من الأوراق النقدية.. وضعت رزمة النقود في جيب بنطالي.. وأشارت بإصبعها إلى أن أصمت كي لا يسمع أحد من الجيران صوت اعتراضي.. ثم نادت على الفتاة التي تخدمها لتعد لنا الشاي.... وقالت لي بأنها تكون دائما وحدها بعد التاسعة أو العاشرة ليلاً.. بعد أن تذهب الفتاة إلى حيث تسكن مع جدها.. ويمكنني أن أزورها.. وأن أشاهد برامج التلفزيون معها

إذا ما أحببت.. واستمر الحال بيننا لأشهر، صرت فيه مركز اهتمامها.. لكن طوال تلك الفترة لم يحدث بيننا أي وصال جنسي.. بالرغم من الرغبة التي كانت تتقد في نظراتها، وفي لمساتها الحميمة لي أحيانا.. لكن الغريب أنها في ليلة من ليالي رمضان طلبت مني أن أسهر معها لنتابع برامج السهرات الرمضانية والمسلسلات العربية، حيث كان ثمة مسلسل مصري شهير يُبث في وقت متأخر من الليل.. في تلك الليلة طلبت مني طلباً غريبا.. بدأت حديثها أول الأمر عن حبها لي.. وعمّا جرى بيننا في تلك الليلة.. عن تلك اللحظات الخالدة في حياتها، اللحظات التي لا تنساها إلى آخر يوم في عمرها.. وأوضحت بشكل صريح وواضح وبجرأة نادرة بأنها تشتهيني.. وتريدني.. بل وأنها تحلم بي في يقظتها والمنام، وأنها تتخيلني معها في حمى الوصال.. لكنها تابت.. وقد ألهمها الله نعمة الإيمان.. لذا فأنها كي لا تقع في الخطيئة ثانية فأنها تريد تزويجي من الفتاة اليتيمة، من خادمتها.. وقالت لي بطريقة عجيبة، بأنها تشعر حينئذ بأني أضاجعها هي كلما ضاجعت الفتاة الخادمة.. وأن لديها طلباً واحداً هي أن تراني مع الخادمة ولو لمرة واحدة.. أي أن تكون حاضرة أثناء جماعنا..

* * *

شخصيا كنتُ مأخوذا بهذه القصة الغريبة. كنت أتأمل وجه آدم الواسطي وهو يسرد قصته مع أم قابيل.. كنتُ أفتش عن ظل من الخيال، واللاواقع في هذه الحكاية، إلا أني وجدت أنه كان يتحدث بوعي كامل، وكانت عيناه تتوهجان مع سير الأحداث، وتتألقان.. بالرغم من أني شعرت ببعض الإثارة الجنسية أثناء حديثه عن ممارسته الأولى معها، بل شعرت برغبة شخصية في مضاجعة أم قابيل، إلا أن الحكاية بحد ذاتها قد أثارتني وحفزت فضولي الروائي، فسألته بنبرة مليئة بالترقب :

- وهل تزوجت الخادمة..؟

نظر إليّ للحظات، وكأنه انتبه لوجود مستمع جيد له، فقال مسترسلاً :

- لا.. لا طبعاً.. لم أتزوجها ..
- وكيف كان رد فعلها..؟ كيف تصرفتْ..؟
- الحياة مليئة بالغرائب يا صديقي.. كان شكسبير يؤكد بأن من يقف على القمة يتعرض لكثير من العواصف التي لا ترحم.. لكني أقولها لشكسبير، لك، ولكل العالم.. بأن هناك أناساً في القاع.. في الحضيض الأرضي، يواجهون عواصف أشد هولاً من تلك التي يتعرض لها الذين يقفون على

القمة.. إنها عواصف الجحيم المحملة بالسموم القاتلة والعفونة والنتانة المقززة.. لقد كنتُ أبدو كالقديس في نظرها، بينما يربض في داخلي شيطان ماكر ..

- أنت..؟ أنت شيطان ماكر..؟

نظر إليّ وعلى وجهه ابتسامة حزينة، وقال :

- هل تظنني شخصية روائية مصنوعة من مادة غير قابلة للتغيير والتحول، شخصية تبقى كما هي مهما مرت السنون على الرواية، شخصية لا تهرم أو تشيخ، ولا تتحول من الخير إلى الشر أو من الشر إلى الخير.. تبقى مسجونة في صفحات الرواية.. لا يا صديقي.. أنا إنسان من دم زنخ، وجسدي مليء بالأوشال والنتانة.. ونفسي مليئة بالرغبات المحرمة والدنيئة التي أخاف أحيانا من مواجهتها.. كان انتوان تشيخوف يسخر من هاملت، ويعلق عليه قائلاً إنه ليعجب من هاملت الذي كان مشغولاً بشبح قادم من وراء الموت، بينما الحياة مليئة بأشباح حية مرعبة.. نعم يا صديقي ..

- كيف جرت الأمور إذن..؟

صمت للحظات، ثم قام يخطو في الغرفة، ووقف أمام الباب مباشرة. التفت نحوي وقال :

- أترى تلك الغرفة التي أمام غرفتي ..

- ما بها..؟

استدار نحوي، ثم جلس على الكرسي، وأخذ يواصل حكايته :

- تلك العائلة تتألف من أب تجاوز الخمسين بسنوات، وزوجته في الثلاثين من العمر، كما لديه ابنة في التاسعة من العمر، وصبي في الخامسة.. كانا يسكنان هذا البيت قبل وصولي.. عرفت من الخادمة أول ما وصلت بأنه تعرض لحادث أثناء عمله اليومي، حيث كان عاملاً مياوماً في البناء، كما أنه مريض.. وذات يوم سقط مع حمل الطابوق الذي كان يحمله إلى طوابق أعلى فكُسرت ساقه وذراعه.. ومنذ ذلك الحين وهو مقعد في البيت.. باعوا كل شيء ثمين كان يمكن أن يباع.. لولا بعض المساعدات الشحيحة التي كان يمدها لهما شخص غريب الأطوار، غامض، يزورهما بين فترة وأخرى.. شخص كان يأتي أحيانا لابسا الزيتوني.. حين سألتُ الخادمة عنه لم تستطع أن تجيبني بشكل واضح، لأنها نفسها غير متأكدة من طبيعة علاقته بهم، فهي علاقة تحيطها الشكوك، والظنون السوداء. لأنها تعتقد بأن هذا الرجل كان على علاقة مع الزوجة، إذ كان يأتي أحياناً في أوقات الضحى، حيث الابنة في المدرسة.. وحيث معظم المستأجرين خارج

البيت، بما فيهن النساء اللواتي يعملن في أماكن مختلفة.. حتى أم قابيل تكون إما في حجرتها، وإما تزور بعض الجارات في الحارة.. وكان الأب يجلس على كرسي أمام باب غرفته في الممر المطل على الباحة محتضنا ابنه الصغير، بينما هذا الشخص يكون في داخل الغرفة مع الزوجة، التي كانت تطل بين فترة وأخرى لتموه على الوضع المريب.. بعد أن يغادر هذا الرجل تعيش العائلة في بحبوحة لأيام تالية.. وأحيانا توفر الإيجار من عطايا هذا القريب.. كل هذه الأمور كانت تجري قبل وصولي للسكن في هذا البيت، لأني حينما استأجرت هذه الغرفة، كان سكان البيت ينظرون له كخطيب للفتاة الصغيرة، التي بدأ صدرها يتفتح عن ثديين ينموان بسرعة، حيث كانت الخادمة تعلق بأن الأمر يعود لكف الرجل القريب الذي يداعبهما دائماً.. لا أخفي عليك يا صديقي.. لقد أعجبتني الأم حين رأيتها لأول مرة، ويبدو أني قد أثرت اهتمامها أيضا.. إذ كنت أراها تتحين الفرص حينما أخرج من غرفتي، أو أصعد السلم إليها، انتبه لها وهي تتحجج بالخروج من غرفتهم لتكون أمامي، فتبتسم لي بمودة أو تنظر لي نظرات رومانسية مليئة بالكلام الصامت، أو لتلقي عليّ التحية بهدوء وكأنها تأتي فعلاً ممنوعاً في العلن. لكني، منذ لحظة سماعي بعلاقتها بالرجل القريب، واختلائها معه في الغرفة وحدهما دافعة زوجها وابنها خارج الغرفة، حتى وجدت نفسي تنفر منها. هي امرأة جميلة، ولو كانت تضع المكياج أو تذهب إلى الصالونات لتصفيف شعرها، فربما تجاوزت بجمالها بعض ممثلات السينما المعروفات.. جمالها وحشي.. طبيعي.. وجسدها فياض بالرغبة.. لكني لم أتعاطف مع مشاعرها، على العكس من ذلك، وجدت نفسي أنجذب لابنتها، ذات السنوات التسع... هل لك أن تتصور أن هذه الفتاة التي في التاسعة هي التي بدأت بالتحرش بي وإبداء مشاعرها تجاهي، بحيث لم أجد نفسي إلا أن أبادلها المشاعر نفسها، وربما بشكل أشد...... لا أدري إن كانت الأم قد انتبهت لمشاعر ابنتها التي تكنها لي، لأني انتبهت ذات يوم إلى أن الأم كانت قد خرجت من غرفتها حينما سمعتني أتحدث مع أم قابيل في الباحة، وحينما صعدت السلم كانت ابنتها قد أخذت تنزل السلم لأمر ما. التقينا، أنا وهي، على درجات السلم.. وقفت أمامي على درجة السلم الأعلى مني مباشرة، فصار وجهها بمستوى وجهي.. بقينا للحظات قصيرة ننظر إلى بعضنا صامتين.. فجأة، ألقت ذراعيها حول رقبتي، وقبلتني قبلة سريعة على شفتي، ونزلت مسرعة.. حينها شعرت بالذهول.. بقيت للحظات على السلم، بينما كانت الأم تنتظر في ممر الطابق الأول أمام

غرفتهم، والفتاة قد صارت في الشارع.. وحين صعدت إلى غرفتي، لمحت علامات غضب مكتوم مرتسمة على وجه الأم.. بل إنها لم تبتسم لي ولم تلق التحية حتى.. وإنما استدارت داخلة إلى غرفتها، صافقة الباب بقوة، وكأنها تصفعني.. هل انتبهت لما جرى بيني وبين ابنتها..؟ هل انتبهت إلى تأخرنا على السلم..؟ هل رأتْ شيئاً..؟ لا أعتقد، فقد كنا بعيدين عن موضع الرؤية لأي كان.. لكنها، كما بدا لي، قد خمنت بأن ثمة شيئاً ما حصل على السلم بيني وبين ابنتها.. فمن المؤكد أنها تعرف ابنتها أفضل مني وتتوقع منها مثل هذه الأشياء..؟.. منذ ذلك اليوم، صارت جارتي عصبية المزاج.. وحاولتْ، كما فهمت من الخادمة التي كانت مصدر أخباري الأول والرئيس، بأن تعجل من زواج ابنتها من الرجل الغامض القريب إليهم...... أتدري يا صديقي آدم أنني كثيرا ما فكرت بنفسي.. سألت نفسي إن كنت مصاباً بعقدة لوليتا، كما يسميها الفرويديون..؟ تلك العقدة التي تتمحور حول حب الفتيات القاصرات من قبل الرجال البالغين.. لم أصل إلى جواب شاف.. لا.. لا أعتقد ذلك.. فلم أكن أفكر فيها بشكل جنسي، وإنما كنت شغوفاً ببراءتها، وحزنها الذي هو أكبر من عمرها، والذي منح ملامح وجهها نضجاً أكبر من عمرها، ونظراتها تأملاً يوحي بخصوصية شخصيتها على الرغم من سنواتها العشر. كانت نحيلة، سمراء البشرة، طويلة القامة.. ذات صدر مثقل بنهدين عامرين كأنما لفتاة في السادسة عشرة من العمر وليست في التاسعة.. لم ألتق الفتاة وحدنا ثانية، بل انتبهت ذات مرة، وأنا أدخل بأنها كانت مع أمها ينظران إلى الباحة، وحاولت الفتاة أن تهبط إلى الطابق الأرضي، متحججة بشيء ما من أجل أن تلتقيني على السلم، إلا أن أمها صرخت بها بعصبية واضحة، وطلبت منها الدخول إلى الغرفة..

كانت علاقتي بأم قابيل قد تطورت كثيراً.. فقد أخذت ترسل لي الطعام بيد الخادمة حينما أعود قبل ذهاب الخادمة، وأحيانا كانت تنتظرني عند بابها، أو تجلس على كرسي في الباحة، حينما أتأخر في العودة إلى البيت ليلاً، فتدعوني مباشرة لتناول العشاء عندها في الغرفة، وكانت تروج أمام الجيران بأني عوضتها عن ابنها الشهيد، وأن الشهيد قابيل يأتيها في الحلم ويوصيها بيّ خيراً.. لكنني حينما أكون وحدي معها، لا تستطيع السيطرة على رغباتها المكبوتة، فتلقي برأسها أحيانا على كتفي، أو تأخذ كفي لتقبض عليها بقوة وكأنها تلتذ بذلك.. أو تأخذ رأسي في حجرها وتقرب رأسي من أسفل بطنها.. لكنها ظلت تحجم عن الممارسة الجنسية

الصريحة.. بل كانت تلتذ بالحديث معي، محاولة إقناعي بالزواج، وحينما رفضت فكرة الزواج من الفتاة الخادمة تأثرت جداً، إذ قالت لي إنها تريد أن تضمن مستقبل الفتاة أيضا، وأيضا لتعيش معي من خلالها.. طبعاً فكرتُ في حالتها كثيراً، وتذكرت رواية لكاتب ايطالي يتحدث عن كاتب زوجته تمارس مهنة القوادة، فكانت ترسل إليه الفتيات ليضاجعهن.. وكانت تعيش أحلام يقظتها معه من خلال تصورها لعملية المضاجعة وتفاصيلها.. بل رأيت فيلما فرنسيا عن ذلك أيضاً حيث تستأجر امرأة ما عاهرة كي تغوي زوجها، إلا أن العاهرة لم تستطع أن تغويه، لكنها استمرت تروي للزوجة تفاصيل علاقتها الجنسية بالزوج، وكانت الزوجة تعيش أحلام يقظتها من خلال ما ترويه العاهرة.... فكرت مع نفسي، ربما أم قابيل هي هكذا أيضا.. لا تريد أن تقيم علاقة جنسية بي لأسباب دينية أو اخلاقية.. لكنها تريد أن تعيش أحلام يقظتها معي، من خلال تفاصيل علاقتي الجنسية التي يمكن أن تكون مع الخادمة لو تم مثل هذا الزواج.. ظلت أم قابيل تحاول إقناعي بالزواج.. لكنها حينما تأكدت من رفضي التام، فاتحتني ذات ليلة بموضوع غريب.. كنت قد جئتُ متأخراً، فوجدتها تنتظرني بلهفة، وحينما صرنا داخل الغرفة ضمتني إلى صدرها بحنان، ووضعت رأسها على صدري مثل عاشقة رومانسية في السينما المصرية.. وبعد أن صبت لي طعام العشاء.. وانتهيت من شرب الشاي، قالت لي بأنها وجدت حلاً.. قدمت لكلامها بأنها تحبني، ليس حب الأم لابنها فقط كما تروج هي أمام الجيران، وإنما كحب امرأة عاشقة، امرأة محرومة من الحب، ومن الجنس الذي لم تعرف طعمه في حياتها إلا في المرة الوحيدة حينما كانت معي.. وحينما وصلت إلى هذه النقطة من الحديث صمتت.. وأخذت تتنفس بصعوبة وكأنها تلهث، لكنها واصلت الكلام.. قالت إنها ربما أخطأت حينما طلبت مني الزواج بالخادمة اليتيمة.. لكنها تقترح عليّ أن أقوم بعلاقة جنسية مع جارتنا.. الزوجة الثلاثينية.. صُدمت حين سمعت ذلك.. قلت لها لكنها متزوجة.. فقالت هي تعرف بأنها متزوجة.. قلت لها بأنها ربما لا تقبل ذلك.. فقالت لي بأنها ستقبل بذلك.. لأن الجارة نفسها تحدثت معها بطريقة مكشوفة عن حبها لي وعن استعدادها لخدمتي بدل الخادمة اليتيمة، وأنها تتمنى ذلك.. وحين سألتها أم قابيل عن كوني شاباً ربما سيكون من الخطر عليها الاقتراب مني، فقالت لها مازحة إنها تتمنى أن أشعل نارها.. وحينما ألحت عليها أم قابيل في التفاصيل... أبدت تلك عن استعدادها لكل شيء.. وحينما سألتها أم قابيل إن كانت لا تخاف الفضيحة

أمام الجيران.. فأجابتها الأخرى بطريقة ملغزة، بأنها على استعداد لكل شيء في السر، وأن كل شيء يمكن أن يكون في غرفة أم قابيل، باعتبار أنه مثل ابنها، ويمكن أن تزورها بحجة متابعة برامج التلفزيون، وللتأكيد سألتها أم قابيل إن كان كل شيء سيجري أمام عينيها، فقالت الأخرى، إن كل شيء كان يجري أمام عينيّ زوجها وابنتها.. فلا ضير أن يجري أمام عينيها، ناهيك أنها تريد أن تزوج ابنتها قريبا بحيث لا يكون هناك ما يقيد حركتها. وقد صار الاتفاق بينهما أن تقوم أم قابيل بمفاتحتي بالأمر.. وكانت أم قابيل فرحة جداً بهذا الأمر، أولاً لأنها لن تجبرني على الزواج، وثانياً: إن جارتنا المتزوجة وافقت مقدماً بأن تجري لقاءاتنا، وكل تفاصيل علاقتنا، أمام عينيها.... كنت منذهلا مما سمعت.. أيمكن تصديق ذلك.. أيمكن لأم قابيل أن تكون قوادة.. أم هي امرأة مريضة.. أو لأقل مصابة بفصام بحيث لا تقبل ممارسة الجنس لأسباب دينية بينما تقنع امرأة أخرى لتقوم بذلك وتكتفي هي بالنظر..؟ ما الذي يجري في هذه البلاد..؟!

* * *

كنتُ متوتراً وأنا أستمتع لحديث آدم الواسطي. لم أكن أستطيع تصنيف مشاعري نحو كل ما سمعت.. هل كنت أحسده على كل هذا الحب الذي تحيطه النساء به، أو أشفق عليه لاستغلاله من قبل أم قابيل بهذه الطريقة لكي يلبي نزواتها الغريبة، لمعرفتها حاجته إلى المال والطعام الجيد، أم أغتاظ من نفسي لأن حياتي تخلو من مثل هذه المغامرات الروائية..؟ كنتُ أعرف شيئا واحداً هو أني مأخوذ بهذه القصة ومتحرق لمعرفة ما جرى، فسألته :

- وماذا فعلت..؟
- لا شيء ..
- لا شيء..؟
- نعم.. لا شيء.. أقصد تصرفت بما أشار عليه قضيبي.. ففي مثل هذا الحضيض لا معنى للعقل والتفكير.. بل كنت أقرأ هنا في هذه الغرفة رواية ما.. أو كتاباً فلسفياً، ثم أنزل إلى غرفة أم قابيل لأقوم بمشهد ربما لا تراه إلا في أفلام البرنوغرافيا ..
- ماذا تقصد..؟هل وافقت على أن تقيم علاقة مع الجارة أم الفتاة الصغيرة..؟
- هه.. الفتاة الصغيرة.. لقد كانت صدمتني هذه الفتاة الصغيرة صدمة كبيرة.. وهذا ما دفعني لكي ألقي بنفسي في الهاوية التي أمامي ..

- ماذا جرى..؟

- لقد كنت راجعاً من الكلية ذات ظهيرة، فرأيتها في إحدى زوايا الزقاق المعتمة حتى في النهار مع شابين مراهقين.. أحدهما كان يقبلها ويداعب نهديها، والآخر متربع على الأرض، رافعا ثوبها إلى الأعلى ويده تحت سروالها.. جمدت في مكاني.. انتبه الشابان لوقوفي فارتبكا.. انتبهتْ هي أيضاً فهربت راكضة إلى البيت، وسمعت الشابان المراهقان يناديانها بأن ترجع لأخذ النقود التي اتفقوا عليها ..

- ماذا..؟

- نعم.. كانت تمنح جسدها للفتيان مقابل بعض المال ..

- وهل كانت أمها تعرف بذلك..؟

- نعم.. كانت تعرف بكل شيء.. بل عرفتُ من الأم في ما بعد بأن هذا الرجل الذي يدعي أنه قريبهم هو ليس بقريبهم.. إنه مسؤول حزبي صادف أن عمل زوجها عاملاً في بيته أثناء البناء.. وحينما سقط زوجها من الطابق الأعلى، جاء هذا الرجل به إلى البيت.. وحين لمح زوجته.. أعجبته.. وبدأ يتردد عليهم.. ويساعدهم بالمال طمعا في مضاجعة الزوجة.. ولكي لا يسببوا حرجا لأحد أدعوا أنه قريب لهم.. إلى أن دعا الزوجة ذات مرة للذهاب معه لشراء بعض الثياب لها ولبقية العائلة.. لكنه أخذها إلى إحدى الفنادق.. وهناك بدأ علاقته الجنسية معها.. لكنه حين ارتوى منها.. وانتبه إلى الفتاة التي كانت تتفتح أمام عينيه طلب يدها للزواج.. بالرغم من أنه متزوج.. ولديه أبناء أكبر منها.. واتفق مع والديها على أن يتزوجها، وأن ينقلهم إلى بيت خاص بهم بعد الزواج.. لكن يبدو أنه لم يف بأي من وعوده.. كما يبدو أنه اتخذ منها عشيقة بالرغم من أنها قاصر.. على أمل أن يتزوجها ذات يوم.. فكان يضاجع الأم والفتاة حسب رغبته..

- وأنت..؟

- أنا.. من أنا..؟ أنا حارس هذا الخراب.. الشاهد على تفاهة حياتنا وقساوتها وظلمها.. ماذا تنتظر مني أن أفعل..؟ هل لي أن أجد أفضل من هذا الحضيض الذي أنا فيه..؟ لقد توجهت إلى حلقات المثقفين والأدباء فوجدتها أوسخ من هذا الحضيض الذي يحيط بي هنا.. القذارة والتفاهة والسطحية والأنانية، الجبن، الخباثة، والإنحطاط الفكري، هي سمات معظم هؤلاء المثقفين.. أتدري أنهم كانوا يتنافسون على كتابة نصوص وروايات وقصائد في مديح الحرب.. بالرغم من أنه لا أحد قد طلب منهم

ذلك.. إنهم يكذبون حينما يقولون بأن هناك من أجبرهم على كتابة المدائح الصاخبة.. إنهم جوق من المهرجين.. من هو الأفضل في هذه الحالة..؟ هذي النساء اللاتي يصارعن الحياة بأجسادهن، أم هؤلاء العواهر من الكتاب والفنانين الذين يبيعون ضمائرهم وفكرهم بثمن بخس..؟

- ألا تخاف من هذا الرجل الغريب.. القريب..؟
- ألم تجد كتاب (في سبيل البعث) موجودا بشكل بارز فوق كتبي.. إنه كتاب الحزب المقدس، وهو تعويذتي من شياطينهم وأبالستهم ..
- وكيف رتبت وضعك مع أم قابيل.. والجارة..؟
- لا أدري.. يا صديقي.. قبلت بالصفقة التي قدمتها أم قابيل.. حدث ذلك لمرتين.. ضاجعتها على سرير أم قابيل.. أول الأمر خرجت أم قابيل من الغرفة.. لكنها لم تصبر إذ دخلت علينا.. كانت تنظر إلينا بعينين مفتوحتين.. مركزة على أعضائنا المتداخلة.. أو التي كانت تتداخل بعنف.. لكني لم أستطع أن انتهي.. لا أستطيع أن أرى هناك من يراقبني.. وفي المرة الثانية حدث الشيء نفسه.. فقررت أن لا أقوم بذلك.. بل إني ذات ليلة، ألقيت بأم قابيل على السرير وأولوجته فيها.. كانت هي تصرخ وتئن وتتوسل من شدة اللذة وتنطق بكلمات داعرة كنت أتعجب وأنا فوقها أن أسمعها تنطق بها............ بعد ذلك قررت هي أن أستمر معها.. بالرغم من أنها لم تترك صلاتها، ولا صومها.. بل صارت أكثر تعبداً وطلباً للمغفرة، لكنني حينما أكون في غرفتها تلقي بكل المقدسات وراء الباب.. غير أن هذا الأمر أشعل نيران العداوة بيني وبين الجارة المتزوجة وابنتها.. الأم أخذت تغار من أم قابيل، وشكت في وجود شيء غير طبيعي بيننا، أما ابنتها التي رفضتُ رؤيتها أو حتى تحيتها.. فصارت تكرهني، لا سيما بعد أن رأيتها في ذلك الوضع مع الشابين المراهقين.. ذلك المشهد الذي حطم العلاقة الرومانسية التي كانت بيننا ..
- والآن..؟
- لا أدري ..
- أقرأ.. وأقرأ.. وأقرأ.. مستذكراً هاملت شكسبير حينما سُئل: ماذا تقرأ أيها اللورد هاملت.. فأجاب: كلمات.. كلمات.. كلمات ..
- نعم.. كلها كلمات..! الأشياء كلها كلمات ..
- أليس هناك شيء خارج الكلمات..؟
- بلى.. الصمت خارج الكلمات ..

ما كاد صديقي ينتهي من روايته العاصفة حتى جاءت الفتاة الخادمة وهي تحمل صينية كبيرة فيها صحون الطعام الشهي.. الرز الملون بالزعفران ومرق الفاصوليا البيضاء، تزين الصحون قطع اللحم، ودورق زجاجي مليئ باللبن، والخضروات المتنوعة ورغيفان من الخبز .

نهض آدم الواسطي وكأن الأمر متفق عليه. أخذت بدوري صينية الشاي ووضعتها جانبا بينما وضع هو صينية الطعام على الطاولة. كانت العتمة قد تسربت قليلاً إلى الغرفة، فضغط على زر الكهرباء فأضاء الغرفة بالنور الباهر. أخذت الفتاة صينية الشاي بصمت، وقبل أن تذهب التفتت قائلة :

- أم قابيل تقول لكما بالعافية.. هنيئاً مريئاً ..
- شكراً جزيلاً ..

* * *

مضى أكثر من أسبوعين على زيارتي اليتيمة لغرفة صديقي آدم الواسطي، إلا أني انتبهت إلى غيابه في الأيام الأخيرة. كنت ألتقيه يومياً بعد ذلك اللقاء العاصف في غرفته. كنا نذهب إلى شارع المتنبي.. نشتري بعض الكتب والمجلات الجديدة الصادرة في بيروت أو الكتب القديمة النادرة. كنت قد أثرت فضوله لسماع الموسيقى.. وتعرفتُ عليه أكثر من ذي قبل. حدثني عن عائلته.. حدثته عن وضعي العائلي البائس، عن اهتماماتي الفكرية وقراءاتي المفضلة.. وحينما وصلنا إلى السياسة، أبدى حماساً حذراً. سألته ذات مرة عن تلك الفتاة التي كنت أراها معه في مقصف الكلية، فتردد أول الأمر... لكنه حدثني عنها في ما بعد بإسهاب.. فهي فتاة ذات فكر سياسي وفلسفي معروف.. وهي كما وصفها لي مناضلة حقيقية، ومن عائلة مناضلة.. فسألته عن هذا التناقض في كونها مناضلة ومن عائلة مناضلة.. بينما نحن جميعاً تم قبولنا على أساس تأييدات جئنا بها من المنظمات الحزبية أو الطلابية التابعة للنظام.. أوضح لي بأنها من عائلة شيوعية معروفة، إلا أن معظم أفرادها تم اعتقالهم في نهاية السبعينات.. وقعوا على تعهدات بعدم ممارسة العمل السياسي.. بعض أفراد العائلة الآن في كوردستان يحمل السلاح ضد الحكومة، طبعاً دون أن يعرف أحد بذلك.. والبعض الآخر وصل إلى الدول الاسكندنافية.. وأنها لم تكن تهتم بالسياسة حينما تخرجت من الثانوية، لكنها بعد السنة الجامعية الأولى، وفي قسم الفلسفة، بدأ وعيها الفكري والفلسفي يتشكل، ولم يكن الأمر صعبا عليها، فهي قد تربت في عائلة يخيم عليها فضاء الفكر والسياسة، برغم توقيعهم على التعهدات

السياسية .

الغريب في كل هذه الحوارات أنه نقل لي ذات مرة بأن أم قابيل سألته عني قائلة: أين صديقك الذي جلست ساعات تتحدث معه، ولم تخرج من الغرفة يومها..؟ لماذا لا يزورك مرة أخرى؟ وفسر هو ذلك بأنها كما قالت هي له قد لاحظت ارتياحه لزيارتك تلك.. وعلق مبتسماً بأني ربما أثرت إعجابها.. وضحك.. قائلاً هو يتمنى أن أخلصه منها.. فهو يعيش عقدة ذنب أزاء زميلته الفيلسوفة السياسية.. لحظتها أعجبتني الفكرة.. لكننا ضحكنا على الأمر.. وكأنه نكتة مرحة .

مضت أيام لم ألتق بصديقي.. لا في المكتبة، ولا في مقصف الكلية. وفي أحد الأيام بحثت عنه في الكلية، وفي المكتبة العامة فلم أجده، بل فتشت عن زميلته فلم أجدها أيضا، لذلك قررت الذهاب إليه في البيت الكبير، لاسيما وأن هناك دافعاً غامضاً آخر يحفزني على ذلك، هو رؤية أم قابيل.. ولكن ليتني لم أذهب..!

متاهة الأشباح
6
انتحار

حينما قررت الذهاب لزيارة صديقي آدم الواسطي في المنزل الكبير المتداعي أعددتُ له هدية لأخذها معي، ولم تكن هذه الهدية سوى كتاب (فلسفة التاريخ عند هيغل) الذي ألـّفه جان هيبوليت، أستاذ الفلسفة في إحدى جامعات باريس، والمتخصص في فلسفة (هيغل)، بل وكما قرأت عنه هو مترجم مؤلفات هيغل الكاملة إلى الفرنسية. الكتاب قديم، كان قد صدر في السبعينات، وجدته في إحدى مكتبات شارع المتنبي، بين أكداس من الكتب القديمة، وكان في حالة جيدة جداً، بل إنه لم يُفتح، إذ كانت بعض ملزماته متلاصقة الصفحات، وربما يُعد من الكتب النادرة بعد أن أخفى أصحاب المكتبات في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات الكثير من الكتب الفكرية العميقة التي كانت تُعد مصادر للفكر الثوري واليساري الماركسي، وأتلفوا الكثير منها، لذا كنتُ متأكداً من أن هذا الكتاب سيسعد صديقي الذي يدرس الفلسفة، ويكاد يقدس هيغل، إذ قال لي مرة بأنه يتبنى الكثير من فلسفة ماركس، لكنه يجد أن هيغل عبقرية فلسفية أسست لوضع مفاهيم الفلسفة الحديثة، وأنه ظُلم من قبل الماركسيين، وإنه

على مستوى الفكر الفلسفي وتاريخ الفلسفة أهم من ماركس بكثير، وأذكر أنه أطلق تعليقا مفارقاً على ماركس إذ قال إن ماركس ليس سوى قارئ جيد لهيغل، بل هو أهم معلق على فكر هيغل وفلسفته، إنه تلميذه النجيب. حينها لم أناقشه لأنني لم أقرأ لماركس سوى كتاب يضم مخطوطات الشباب، لذلك وجدت في كلام صديقي شيئاً من إدعاءات وحماسة الشباب، لكن برغم ذلك أعجبتني شجاعته وتحرره الفكري وموقفه النقدي، لا سيما أن موقفه من ماركس لم يبعده عن التواصل السياسي مع اليساريين، أو هكذا خمنت من خلال علاقته بصديقته الفيلسوفة، أقصد الطالبة في قسم الفلسفة، والتي كنا نطلق عليها اسم الفيلسوفة كشفرة عندما يرد ذكرها في أحاديثنا صدفة .

هيأت نفسي للذهاب إلى المنزل الكبير المتداعي. في ذاك اليوم كنت قد عدت من الجامعة، وبعد أن أخذت وجبة طعام الغذاء، دخلت الحمام، فحلقت ذقني، ورششت العطر على وجهي وملابسي، بل كان عطري يسبقني بخطوات. أمي المريضة التي دخلت غرفتها قبل خروجي انتبهتْ لذلك، فسألتني إن كانت هناك حفلة في الجامعة اليوم..؟ استغربت سؤالها، أردت أن أبرر ذلك، لكنها قبل أن أجيب أعقبت سؤالها قائلة بأنها تسألني لأنني تأنقت هذا اليوم بشكل خاص. ارتبكتُ. لم أقل لها شيئا، أحسست وكأنها ضبطتني وأنا أقوم بشيء غير مقبول كما كنت في الطفولة، بالرغم من أني الآن على مشارف الثلاثين .

حين صرت في الشارع أحسست بفرح غامر خفي يسري في نفسي، ربما لأني سألتقي صديقي آدم الواسطي.. أو ربما لأني سأسعى لرؤية أم قابيل..؟ كان الوقت قد قارب الثالثة عصراً.

* * *

نعم.. نعم.. أنا مؤمن بالصداقة.. الصداقة الحقيقة التي تبعث الفرح والدفء في النفس، وتمنح الحياة معنى وجودياً.. نعم.. لقد أحببت صديقي آدم الواسطي.. فهو بكل غضبه الجامح على العالم، وكراهيته لكل هذا الانحطاط البشري الذي يراه في كل شيء، وسخريته من نفسه ومن الأشياء، وسوداويته الكابوسية، كان يتوهج بالطيبة والخير ...

كان آدم الواسطي يفيض بالمحبة وهو في ذروة غضبه من العالم، بينما هناك أناس تحسهم يتقدون بالحقد والكراهية حتى عندما يعبرون عن حبهم.. أناس يتآكلون من الداخل حقداً وكراهية على العالم والأشياء، وربما على أنفسهم أيضاً، لذلك تفقد كلماتهم في الحب عطرها، ومشاعرهم الرقيقة

توهجها، بل تكون مثل ورود اصطناعية أو مثل أسماك ميتة تطفو على الماء. إنهم يكرهون ويحقدون حتى عند التعبير عن الحب .

كانت ثمة رغبة غامضة تتقد في أعماقي لرؤية أم قابيل، فمنذ أن حدثني آدم الواسطي عن تفاصيل علاقته بها، وأنا أحس نفسي مأخوذاً بها، ومنجذباً إليها، إلا أن هذا الإنجذاب تحول إلى ما يشبه الهوس بعدما قال لي مازحاً ذات مرة بإنها ربما معجبة بي..؟ وإنها سألت عن عدم زيارتي له..؟ ما باح به مازحاً بأنه يتمنى أن أنقذه منها أجج رغبتي الغامضة واللاواعية فيها، إلى اندفاع واع بأن أسعى للإقتراب منها، وإقامة علاقة معها، لذا قررت مع نفسي بأن أراها هذا اليوم، بل وسأسعى للحديث معها .

* * *

ما أن وصلت الزقاق حتى انتبهت فجأة إلى أني قد نسيت الكتاب في البيت. لم أحمله معي بالرغم من أني وضعته على طاولتي. شعرت بانزعاج كبير.. فكرت أن أرجع إلى بيتنا لأخذ الكتاب ثانية، لكني ترددت لبعد المسافة ولسوء وسائل النقل، كما ترددت في الذهاب إلى المنزل الكبير، لكني بعد لحظات من التردد قررت أن أمضي لتحقيق ما جئت من أجله، أما في ما يخص الكتاب فبررت لنفسي بأن أسلّمه له في ما بعد. وبرغم ذلك شعرت بشيء من عدم الارتياح لذلك .

حين دخلت الزقاق لم أجد ما يثير الانتباه، لكني ما أن توغلت فيه، وانعطفت نحو المنزل الكبير، وصرت على مقربة خمسين متراً من المنزل تقريباً أثار انتباهي خروج بعض النساء من البيت. راودني حدس بأن شيئاً سيئاً، قد حدث .

حين صرت أمام باب المنزل، انتبهت إلى أن باب المنزل كان مفتوحا على مصراعيه. لمحت بعض النساء مقبلات من داخل المنزل، متجهات للخروج. لم أسألهن، لكني أثناء مواجهتي لهن سمعت إحداهن تقول :

- ما ذنب الشاب المسكين.. هي انتحرت، فلماذا يلقون اللوم عليه..؟

لم أفهم تماماً ما المقصود بتلك الجملة، لكني أدركت حدوث عملية انتحار وثمة رجل متهم في تلك العملية، برغم حدسي الداخلي بأن الكلام يمس صديقي آدم الواسطي. حين دلفت إلى الباحة تكشف لي المشهد بكامله .

رأيت عدداً من النساء يجلسن في باحة المنزل على أفرشة صوفية

على جهتين متقابلتين، وبين الجهتين فراش آخر تجلس عليه زوجة الرجل المريض، وهي تقتعد الأرض وتضرب صدرها بيدها نادبة حظها، منادية على ابنتها بحرقة أم ثكلى، والنساء الأخريات يبكين معها بحرقة، ويبدو أن كل واحدة من هاتيك النساء كانت تندب حظها أو ابنا أو أخاً أو زوجاً سقط في تلك الحرب المجنونة .

على مبعدة منها من النساء قليلاً رأيت رجلاً قاسي الملامح، يميل إلى البدانة، متكرشاً قليلاً، في ملابس الحرب الزيتونية، يجلس على كرسي، ينظر إلى النساء المتجمعات بغضب، ثم يرفع رأسه ليوجه نظرته الغاضبة إلى الأب المقعد الذي كان يجلس مذهولاً، فعرفت فوراً أنه عشيق الأم وخطيب البنت، المحسن الغريب، القريب .

لم ينتبه أحد منهم لدخولي. فتشت عن أم قابيل بين هذا الجمع من النساء فلم أجدها. فجأة خرجت الفتاة الخادمة من غرفة صاحبة المنزل. كانت دامعة العينين. التفت نحوي. اندهشت لوجودي، ودون أن تقول لي أية كلمة دخلت الغرفة ثانية.،. بعد لحظات خرجت أم قابيل وخلفها الفتاة الخادمة. كانت شاحبة الوجه، وثمة غضب مكتوم يشد ملامحها الجميلة. نظرتْ إليّ وكأنها تعرفني جيداً، وقالت لي :

- تفضل أستاذ إلى الغرفة ..

ارتبكتُ قليلاً، وقلت لها :

- جئت لأرى صديقي آدم ..

لم تدعني أكمل حديثي، إذ أشارت لي بحركة من يدها :

- تفضل عندي أولاً ..

في تلك اللحظة أدركت بأن أمراً خطيراً قد حدث وأن صديقي آدم الواسطي له علاقة به، فتبعتها دون أي اعتراض، داخلاً إلى الغرفة التي أعرفها جيداً من خلال وصف صديقي آدم لها حينما حدثني عن علاقته بها، لكن زيادة على وصف صديقي، كان هناك كرسي خشبي إلى جانب طاولة التلفزيون .

أشارت لي، بنبرة خافتة، لكنها متوترة، بأن أجلس على الكرسي، ثم التفتت إلى الفتاة طالبة منها أن تعد لي الشاي ريثما تعود، ومرة أخرى التفتت إليّ معتذرة بأنها ستخرج لدقائق وتعود بعدها لتشرح لي كل شيء .

أعدت الفتاة الخادمة الشاي دون أن تتحدث معي، لكنها كانت

ترمقني بين لحظة وأخرى بنظرة متعاطفة مليئة بالتساؤل، ولم أجد مفراً من أن أسألها :

- ما الذي يجري هنا..؟ هل مات أحد..؟

ودون أن تنظر إليّ أجابت :

- ابنة جيراننا قد انتحرت ..
- انتحرت..؟ أي جار منهم..؟

نظرت إليّ بتعاطف ثم قالت :

- ابنة جارنا التي رأيتَ أمها تنوح وتبكي في وسط الباحة ..

وقبل أن ألقي عليها بسؤال آخر، سألتني :

- هل أنت من أقرباء الأستاذ آدم..؟
- لا.. أنا صديقه وهو صديقي.. بل هو بمثابة أخي.. ونحن أقرب من الأقرباء.. لماذا تسألين.. وأين هو..؟
- كنا نبحث عنك منذ أيام.. لكننا لا نعرف عنوانك.. أما بالنسبة للأستاذ آدم فأنه ..

لم تستطع أن تكمل الفتاة جوابها لي، ففي تلك اللحظة دخلت أم قابيل، التي بدا لي أنها انتبهت للحديث الذي جرى بيننا. ارتبكت الفتاة لأن أم قابيل نظرت إليها نظرة مليئة بالتأنيب، ثم علقتْ قائلة :

- أرجو أن لا تكوني قد قلت شيئا مقلقاً للأستاذ..
- لا أبداً ..

أجابت الفتاة بارتباك. التفت أم قابيل نحوي بينما كانت تتخذ مكانها جالسة على الوسادة الكبيرة والعريضة على الأرض المفروشة بالسجاد، ثم قالت :

- أين أنت يا أستاذ..؟ أين كنت كل هذه المدة..؟ كنا نبحث عنك.. لقد حدثت عندنا مصيبة كبرى.. وكنا نريد الوصول إليك لإخبارك، لكننا لم نكن نعرف عنوانك أو أي شيء عنك ..
- لماذا..؟ ما الذي حصل.. ما هذا العزاء.. أين آدم..؟

لم تجبني مباشرة، لأني ما أن ذكرت اسم آدم حتى رأيت الدمع يترقرق في مآقيها. لم أبد لها علمي بحادث الانتحار الذي حدسته من حديث الجارات الخارجات، ومن الخادمة التي أخبرتني به قبل دخولها. نظرت إليّ محاولة كتمان مشاعرها الخاصة التي أعرفها من خلال معرفة طبيعة علاقتها السرية بصديقي آدم، ثم أستمرت بالحديث :

- لقد حدثت في هذا البيت مصيبة.. أنت تعرف ابنة جيراننا

الذين يسكنون في الغرفة المقابلة لغرفة ابني آدم.. كانت فتاة في التاسعة من العمر.. ربما رأيتها حينما كنتَ هنا في المرة الوحيدة التي جئت إلى المنزل فيها.. دخلت هذه الفتاة إلى إحدى الغرف الفارغة في البيت. غرفة مجاورة لغرفتهم. انتقلت العائلة التي تسكنها إلى مدينة أخرى فظلت فارغة، على أن تسكنها عائلة جديدة في بداية الشهر المقبل.. لكن الفتاة دخلت الغرفة، وعلقت حبلا بكلاّب مروحة السقف، ثم جاءت بكرسي شبه مكسور، صعدته، ووضعت الحبل في رقبتها، شانقة نفسها .

لم أتمالك نفسي، فسألت :

- لماذا..؟ لماذا شنقت نفسها..؟

نظرت إليّ للحظات وكأنما لم تفهم سبب انفعالي لموتها، ثم قالت :

- شنقت نفسها لأنها لا تريد أن تتزوج من الرجل الذي في عمر والدها.. الرجل الذي يرتدي الزيتوني الذي يجلس على كرسي في الباحة ..

- وهل هذا يستدعي منها أن تشنق نفسها..؟

نظرت إليّ، فرأيت لا مبالاة واضحة ترتسم على وجهها لمصير الفتاة، ففهمت ذلك كجواب على سؤالي، بالرغم من أن وجهها كشف عن قلق خفي بعد لحظات من ذلك، وقالت بمرارة :

- لو كان الأمر قد انتهى بشنق نفسها لتأثرنا لمصيرها التعيس، لكن أن تشنق نفسها، ثم تترك رسالة تتهم الآخرين وتورطهم في موتها، فهذا أمر يدفعنا لعدم التعاطف مع موتها ..

- ماذا تقصدين..؟ أية رسالة..؟

نظرت إليّ بتأثر واضح، وترقرقت الدموع في مآقيها، وقالت :

- مقصوفة الرقبة رحلت عن هذه الدنيا.. لكنها ورطت ابني الحبيب آدم معها ..

قفزت واقفاً بشكل لا إرادي، صارخاً :

- ماذا..؟

تألق وجهها حينما رأت قلقي وتأثري، ودبت الحيوية في نفسها، وكأنها وجدت من يشاركها مصيبتها، فاسترسلت في حديثها لتوضح لي الأمر :

- يبدو أن الفتاة كانت تحب ابني آدم.. ومن كان لا يحبه..؟ إلا أن ابني كان مهتماً بدراسته وكتبه ولم يكن يهتم لطفلة في التاسعة.. لذلك لم يبادلها الحب، لذلك حاولت أن تلقي اللوم عليه في عملية انتحارها.. على الرغم من أنها كتبت في رسالتها، بأنها ليست للبيع، وأنها لا تريد أن تتزوج من رجل ينام مع أمها ومعها.. وأنها بعد نكستها في الحب، واحتقار

حبيبها الجامعي لها، لأنه شاهدها في وضع غير صحيح، قررت وضع حد لحياتها التعيسة ..

- هل ذكرت في رسالتها آدم بالاسم..؟
- لا.. فقط الجامعي.. وكما تعرف ليس في البيت من طالب جامعي غيره ..

فسألتُ بقلق :

- وأين آدم الآن..؟
- أخذته الشرطة منذ ثلاثة أيام للتحقيق معه ..
- لكني لم أره منذ أسبوعين تقريباً ..
- أوه.. هذه قضية أخرى.. سأرويها لك في ما بعد ..
- وما علاقته هو بعملية الانتحار..؟ ومن يؤكد بأنها تقصده هو..؟ ربما كانت لديها علاقة مع شاب جامعي آخر، وليس آدم الواسطي هو المقصود..

نظرت إليّ بانتباه شديد وبإعجاب لدفاعي عن صديقي، فاتقدت حماستي، فأخذت أسترسل مقدماً مرافعتي القانونية أمامها :

- ما دام لا يوجد أي ذكر لاسم آدم بشكل صريح في تلك الرسالة، فهذا ينفي أية علاقة له بعملية الانتحار.. ثم أنها كما قلتِ قد ذكرت في رسالتها بأنها ليست للبيع، وأنها لا تريد أن تتزوج الرجل الذي يرتدي الزيتوني الذي يضاجع أمها أيضا، فالأجدر هنا أن يتم التحقيق مع الأهل.. مع أمها وأبيها ومع عشيق أمها.. وليس مع صديقي آدم ..

نظرت إليّ باعجاب شديد، وكانت عيناها تتألقان بحنان وعاطفة نحوي، فسألتني بمودة فجأة :

- هل أنت محامي.. أو تدرس القانون..؟
- لا.. لماذا..؟
- لأنك تتحدث كما يتحدث المحامون في الأفلام التي تعرض على شاشة التلفزيون.. هل تعتقد أنهم لا يملكون أي شيء ضده..؟
- لا أعتقد ذلك.. فما علاقته بانتحار الفتاة..؟ هي لا تريد أن تتزوج.. ولا تريد أن يبيعها أهلها لرجل بعمر أبيها.. لذلك انتحرت، فما علاقته بذلك؟ بل، الحق يقال، ليس لأحد علاقة بذلك.. هي انتحرت ولم يقتلها أحد.. لقد قتلتها الظروف ..

نظرتْ إلى الفتاة الخادمة التي كانت قد صبت لنا الشاي في استكانات مذهبة، وأشارتْ لها برأسها بأن تغادر الغرفة، فقامت الأخرى

بصمت وباستسلام تام وغادرت الغرفة، ثم أطبقت الباب علينا .

ما أن غادرت الفتاة الغرفة حتى تألقت أم قابيل بحيوية أكبر، وطلبت مني أن أقرّب الكرسي منها أكثر، وكأنها تود أن توحي لي بأنها لا تريد أن تتحدث بصوت مسموع، فدنوت منها حاملاً الكرسي إلى خطوتين أقرب، فصار وجهها الجميل قريبا مني جداً، بل شممت عطرها الطيب المنبعث من ثيابها، ومن الشال الذي تغطي به رأسها وجانبي وجهها، وقالت لي :

- كل المصائب من وراء هذا الرجل الذي يرتدي الزيتوني ..

استرسلتْ تقصّ عليّ كل تفاصيل علاقة هذا الرجل الذي يرتدي الزيتوني بتلك العائلة الفقيرة. تفاصيل أكثر بكثير من تلك التي عرفتها من صديقي آدم الواسطي الذي كان قد استقى معلوماته من الخادمة ومن أم الفتاة حينما كان على علاقة بها .

من خلال حديث أم قابيل عن الرجل الذي يرتدي الزيتوني، اكتشفت أمامي امرأة نادرة. أم قابيل ليست امرأة ساذجة، لا تفهم ما يجري حولها من تحولات سياسية واجتماعية، فقد منحتها الحياة حكمتها العميقة، وفراسة عجيبة في تشخيص الأشياء. لقد حدثتني عن مفاهيم الإستغلال بكلمات بسيطة، تتطابق في الجوهر مع ما جاء بكتابات المفكرين التنويريين.. تحدثت عن الأب المقعد المريض الذي يشبه مومياء تتنفس، وعن استغلال الرجل الذي يرتدي الزيتوني لبؤس العائلة، فاشترى بماله وسلطته صمتهم وشرفهم وقلب مفاهيمهم الأخلاقية.. المال.. المال.. المال.. المال المسنود بسلطة الحكومة هو الذي دمر حياة هذه العائلة ودفع بالفتاة إلى الانتحار ..

حدثتني عن مقايضة الحب والمشاعر بالمال، وكيف اضطرت الأم إلى أن تجاري الرجل الزيتوني معتقدة بأنها ستنقذ العائلة من الضياع، وكيف أقنع الرجل الذي يرتدي الزيتوني الأمَ كي تمنحه جسدها المليء بالرغبات المكبوتة مستغلاً وضع زوجها الصحي وعدم قدرته على أن يمنحها الراحة النفسية، بل إن الرجل الذي يرتدي الزيتوني دفعها إلى أن تزيف مشاعرها، وأن تدعي بأنها تحبه، وأن تسقط بذلك إلى الحضيض، بل إن هذا الوحش الآدمي بملابسه الزيتونية قد اشترى صمت الأب وكبرياءه المسحوقة، فأجبره على تقبل هذا الوضع السافل الذي تعيشه عائلته .

في تلك اللحظة تملكني غضب مكتوم فقلت بنبرة متوترة :

- كيف قبلت أنت بهذا الوضع الذي يجري في منزلك..؟ ما سر

صمتك.. وتقبلك لكل هذه المأساة ولم تتدخلي لإنقاذ هذه العائلة البائسة..؟

نظرت إلي بارتباك ولمحت خجلاً خفيا ارتسم على ملامح وجهها، وبعد لحظات قالت :

- أنا إنسانة بسيطة يا أستاذ، لكني أتفهم الظروف التي تدفع الناس إلى مثل هذه الأمور. أنا لا أنصب نفسي قاضياً على الناس وسلوكهم.. لا أحد يمتلك الحق بإدانة الآخرين..، ثم أما يكفي أن الحياة حكمت عليهم بهذا البؤس.. ثم.. ثم..؟

صمتت ولم تكمل كلامها. مرت لحظات على صمتها وهي تشغل نفسها بصب الشاي لي، ولما طال صمتها، سألتها أن تواصل :

- ثم.. ثم ماذا..؟
- ثم.. أني كنت أخاف على ابني آدم ..
- تخافين على آدم..؟ مـمَن..؟
- من الرجل الذي يرتدي الزيتوني.. من كل الملابس الزيتونية.. وغير الزيتونية ..
- ولكن ما علاقة آدم بالرجل الذي يرتدي الزيتوني..؟

نظرت إليّ وفي عينيها ألق جميل ممزوج بحزن أخاذ أضفى عليها جلالاً وهيبة، وقالت بهدوء :

- أتعتقد أنني لم انتبه إلى أن آدم يكره الحكومة، وليس لديه علاقة بحزبها، وأنه يمقت الرجل الذي يرتدي الزيتوني والحزب والثورة كما يرددون شعارها دائما في التلفزيون..؟ كما أنك تعرف بأنه يقرأ كتباً كثيرة، ربما هي ممنوعة..، فغرفته مليئة بتلك المجلدات الضخمة من الكتب ..
- ثم ماذا..؟ ماذا يعني أنه يقرأ الكتب الضخمة.. وأن غرفته مليئة بها..؟ هذا ليس دليلاً ضده بأنه يكره الأشياء التي ذكرتها ..

لقد ترددت أن اذكر أنه يكره الحكومة، وحزبها، والرجل الذي يرتدي الزيتوني والثورة، فذلك ممكن أن يجر إلى الإعدام لمجرد سماعها أو فهما بشكل غير دقيق لذا لم أردد كلماتها. لم ترفع رأسها، بل أحنته، ونظرت إلى نقطة ما في الأسفل، وقد ارتسمت ابتسامة طيبة وحزينة على وجهها وقالت :

- من يقرأ ويفهم الأشياء لا يحب هؤلاء يا أستاذ.. أنا التي لا أقرأ لا أحبهم.. فكيف بالذي يقرأ ويفهم..؟
- لكن بين هؤلاء من يقرأ أيضا.. ويكتب، بل وينشر الكتب ..
- أنا أتحدث عن الضمير يا أستاذ ..

- الضمير.. ما علاقة الضمير بالقراءة..؟
- ما علاقة الضمير بالقراءة..؟ كيف تسأل هذا السؤال وأنت صديق آدم..؟
- لم أفهم ماذا تقصدين..؟
- أقصد أن آدم ابني كان يقرأ ليتنوّر.. ليصير إنساناً.. ليفهم الحق من الباطل.. فيتبع الحق مهما كلفه من تضحيات.. ومن يتبع الحق لديه ضمير حي.. ليس كل من قرأ وكتب لديه ضمير.. أو أنه يقرأ ليتنوّر وليصير إنساناً.. هناك من يقرأ ليتعلم كيف يسد المنافذ التي يتسرب منها النور إلى العالم.. وليبني سقفا حجريا يحجب السماء وضوء الشمس عن الناس.. فإذا ما وجدتَ من بين أهل الزيتوني من يقرأ ويكتب فأنه يقوم بذلك من أجل أن يتعلم كيف يحجب النور عن الناس، لا أن يتنوّر.. هؤلاء ضمائرهم ميتة يا أستاذ.. بل ضمائرهم جيف نتنة تعفنت وهم في أرحام أمهاتهم.. أنا أعرف ابني آدم جيداً.. هو ولي من أولياء الله، بالرغم من أنه لا يصوم ولا يصلي أبداً.. لذلك كنتُ أسكت عمّا يجري لتلك العائلة في الغرفة العليا، خوفا مني على آدم، فقد أخبرتني الزوجة المسكينة، بأن الرجل الذي يرتدي الزيتوني عبّر أكثر من مرة عن عدم ارتياحه لآدم الواسطي، وكان يتسقط أخباره منها ومن ابنتها التي اتضح الآن أنها كانت تحب آدم ..

أذهلني فهمها البسيط والعميق لفعل القراءة، وتأويلها لدورها في تهذيب الذات، ولموقفها الإنساني من الأشياء، وتسامحها في أحكامها الأخلاقية على الآخرين لمعرفتها العميقة للحظات الضعف البشري، ولمواجهتها لضغط الرغبات الجنسية المكبوتة في أعماق الناس، والتي تدور في أعماقهم كما يدور الضبع في القفص الذي سُجن فيه. لكني كنت متلهفاً لمعرفة مصير صديقي، الذي من خلال كلامها، ليست هناك خطورة عليه، فسألتها :
- لكن أين آدم الآن..؟

7

أمواج الرغبة

- ابني آدم في التحقيق منذ ثلاثة أيام .

فقلت متسائلاً :
- لكني لم أره منذ حوالي إسبوعين تقريباً.. أين كان كل هذه

الفترة..؟

نظرت إليّ وفي عينيها استغراب واضح، وسألت :

- ألا تعرف إذن بالمصيبة التي حلت عليه، وحطمته بالكامل..؟ ظننتك قريبه، أو من مدينته أيضاً، وتعرف ما حصل له..؟

أحسست بخجل خفي لا أعرف مصدره وكأنها بكلامها ذاك قد شككت بعمق صداقتي به، فأخذت أبرر لها موضحاً :

- نحن أصدقاء، لكنا لسنا من المدينة نفسها.. أنا من أهالي بغداد.. تعارفنا في الجامعة.. كنا نلتقي عادة في الجامعة، وأحياناً نذهب إلى المقهى أو نتمشى معاً أحياناً.. وقد افتقدته منذ فترة تقارب الأسبوعين.. لم يحضر إلى الجامعة، بل ولم أقابله في مقصف الجامعة أيضاً.. قلقت عليه.. ظننته مريضاً أو تعرض لحادث ما، لذلك جئت اليوم لأتفقد أخباره.. لا أعرف ما جرى بالضبط، إلا أن كلامك بعث التوتر في نفسي.. فأرجوك أخبريني، ما الذي حدث له غير مسألة انتحار الفتاة..، والتي كما أفهم ليست بتلك المشكلة الكبيرة..

صمتتْ للحظات، لكن هاجساً خفياً مرق في داخلي أوحى لي بأنها ارتاحتْ حينما قلت إني لست قريبه، وإني من أهالي بغداد، لماذا..؟ لا أعرف.. لذلك لم أستمر في تتبع هاجسي، إذ أنها أخذت تروي عن أحداثٍ صدمتني، وملأتني بالكوابيس :

- هل تعرف عائلة ابني آدم..؟ أقصد عائلته الحقيقية التي في الكوت.. أمه، أباه، أخته ..

- لا.. لا أعرفها.. لكنه حدثني عنها قليلاً... قال إن أباه يعمل سمكرياً، وعنده أخت في السابعة عشرة كما أذكر ..

- نعم.. نعم.. لكن ألم يحدثك عن وضعه العائلي..؟ عن مشاكله العائلية..؟

- لا.. ماذا هناك..؟

صمتت للحظات وكأنها تزن الكلام الذي تود أن تخبرني به. نظرت إليّ، وظلت تحدق في عينيّ دون أن يرف لها جفن، ثم قالت :

- أمه كما قال لي امرأة جميلة، في الأربعين من عمرها، أو أكثر قليلاً.. وأباه ليس طاعناً في السن، فهو يكبر أمه بخمس سنوات، فهو في كل الأحوال في منتصف الأربعينات، أو أكثر بقليل.. أي ليس طاعناً في السن أو أن فارق العمر يشكل مشكلة لهما.. لا أعرف ماذا أقول لك ....

صمتت قليلاً. كانت محرجة في أن تسترسل في رواية ما جرى

لصديقي آدم. لم أعلق أنا بأي شيء. بقيت صامتاً وعيناي متعلقتان بوجهها الجميل منتظراً أن تواصل كلامها، ولما انتبهت إلى صمتي المليء بالتساؤل، واصلت حديثها الذي صدمني منذ أول جملة نطقت بها :

- لقد هربت أمه مع فتى مراهق أصغر من ابنها آدم بكثير، ربما هو بعمر ابنتها ..
- ماذا..؟

صرخت دون إرادة مني، إذ كان وقع الكلمات عليّ كمن تلقى صعقة كهربائية بشكل مفاجئ، حتى أن الفتاة الخادمة، كما يبدو قد سمعت صرختي، فاقتحمت الغرفة خائفة وعلامات الدهشة مرتسمة على وجهها، فأشارت أم قابيل بيدها إليها مطمئنة إياها بأن كل شيء على ما يرام، وأن عليها مغادرة الغرفة، فخرجت، بينما واصلت أم قابيل ما بدأته :

- هربت أمه مع شاب مراهق، وتم إلقاء القبض عليهما هنا في شارع المتنبي بالقرب منا.. في فندق رضوان الذي في الزاوية ..

لقد صدمني ما قالته لأني أحسستُ وكأني عشت هذه اللحظة لكن في المستقبل. رأيت الأم والفتى المراهق في زمان ما، وكنتُ شاهداً على تفاصيل اعتقالهما في الفندق، لكن متى كان ذلك.. لا أعرف.. لم أكن حينها أسكن في ذلك الفندق، وإنما بعد فترة ليست بالقصيرة، ورأيت هذه المرأة وذاك المراهق.. لكن كيف يحدث ذلك أن تعيش المستقبل في الماضي..؟ أحسست بالتشويش، فكيف يمكن أن أرى احداثاً، بكل تفاصيلها، وهي لم تحدث بعد..؟

سألتها بلهفة :

- متى كان ذلك..؟
- قبل عشرة أيام تقريباً ..
- وكيف عرف هو بالأمر..؟ أقصد من أخبره..؟

لمحت ارتباكها، وكأن ارتباكي أربكها هي أيضاً، فقالت بهدوء، لكن وجهها كان يشي بأنها كانت تفكر في أشياء أخرى أثناء حديثها :

- لم يخبره أحد، وإنما جاء والده إلى بغداد بعد أن تم تسليم الأم وعشيقها المراهق إلى الجهات الحكومية في مدينة الكوت.. جاء مع آدم.. دخلا غرفته.. سمعت آدم يتكلم بعصبية.. كان يهدد بأن يذبح ويقتل.. بينما كان والده يهدئه.. ويذكّره بمستقبله، وبأن يترك الأمر لأخواله وعشيرته.. لكنني كنت أسمع شتائم آدم البذيئة وقسمه بغسل هذا العار، ولم أكن حينها أدرك بأنه كان يشتم أمه ..

أصابني كلامها بالذهول، فقد كشفَ لي عن صورة أخرى لصديقي آدم، صورة لم أتوقعها، إذ ظننته متحرراً في تفكيره، تقدمياً، يحاول أن يتفهم ظروف الناس، والأفراد، والقوى الغامضة التي تدفع بالإنسان إلى القاع، ولم أكن أتوقع أن يكشف في لحظة ما عن رجل عشائري في أعماقه، يهدد بذبح أمه لأنها ذهبت مع شاب مراهق..!! وبغض النظر عن صدمة الحدث في مجتمع مثل مجتمعنا، لكني كنت آمل أن يتخذ موقفاً آخر غير الذي سمعته الآن عنه.. وبصراحة لا أعرف ما كان يجب عليه أن يقوم به، بل أنا شخصيا لا أعرف نفسي لو كان الأمر يخص أمي، لكني في هذه اللحظة صُدمت من موقف صديقي آدم.. وخفت عليه من هذا التهور الذي ربما سيدمر حياته ومستقبله.. ولكي أهدئ ما يدور في نفسي من قلق، سألت للتوضيح:

- لم أفهمك..؟ مَن كان يهدد بالقتل والذبح.. هو أم والده..؟

وكأن أم قابيل كانت تنتظر مثل هذا السؤال، إذ أجابت بحرارة وتعاطف :

- هو.. الوالد كان لا يريد منه أن يتدخل في أي شيء وأن يبقى بعيداً.. وأن يترك الأمر لأخوتها والعشيرة ..

صمتُ للحظات. كانت هي خلال ذلك تنظر إليّ وكأنها تريد أن تعرف ما يدور من صراع في نفسي، فسألتها:

- وكيف عرفتِ كل هذه التفاصيل..؟

- لم أعرف التفاصيل في حينها.. الفتاة التي تخدمني أخذت إليهما الشاي.. لكنه أخذ الصينية منها بعصبية.. خافت الفتاة، وأخبرتني بأن آدم في حالة غير طبيعية.. حينها صعدت درجات السلم.. لكني بقيت على نهايته، ولم أبلغ سطح الطابق الأول، حتى لا يراني أيّ من الجيران.. حينها سمعت كل شيء.. وكان واضحا أن الحديث يدور عن امرأة قد هربت مع شخص.. لكني ظننت أنها ربما أخته وليست أمه ..

- وماذا حصل في ما بعد..؟

- لا شيء.. خرجا بعد فترة قصيرة جداً.. حين سمعت قرارهما بالسفر إلى مدينتهما.. هبطت السلم مسرعة كي لا ينتبها لوجودي.. بعد دقائق هبطا السلم. كنت أنتظر واقفة خلف باب غرفتي التي فتحته قليلا... رأيته حينما مرَّ.. كان غاضبا، متجهما.. وجهه كتلة من الحقد والغضب ..

- ماذا جرى بعد ذلك..؟

- لا شيء.. عاد بعد أسبوع.. أي قبل ثلاثة أيام من مصيبته الأخرى.. أقصد انتحار الفتاة.. وكأن الحياة ليس لديها من همّ سوى أن تصب المصائب عليه ..

- وماذا جرى له هناك..؟ هل عرفت شيئاً مما جرى له هناك..؟

صمتت للحظات، ثم واصلت بحزن :

- عاد محطماً.. حزيناً جداً.. لحظة دخل جاء إلى غرفتي، لم يصعد إلى غرفته.. ألقى بنفسه في حضني وأخذ يبكي كالطفل الصغير.. بكيت معه.. حدست بأن الأم قد قُتلت.. لكني لم أعرف من قام بذلك لحظتها.. بكى كثيراً.. وحين هدأ.. أو لأقل حين تعب من البكاء.. روى لي ما حدث منذ البداية.. كان غاضباً جداً. يشتم البشر كلهم.. والنساء بشكل خاص.. لم يعد يثق بأحد.. حتى بي ..

- لكن ماذا جرى لأمه..؟ ألم يحدثك عن مصيرها..؟

- نعم.. لقد حدثني عنها.. وعن نهايتها القاسية.. فبعد أن أعتقلت مع الفتى المراهق.. تم ترحيلهما إلى الكوت.. وهناك سُلمت هي لزوجها وأخوتها.. أخبرني وهو يبكي بأنها رفضت أن تراه.. كانت تتمنى الموت قبل أن تلتقي عيناها بعينيه.. طلبت رؤية ابنتها على انفراد.. لكن البنت رفضت أن تذهب إليها، بل أخذت تشتمها بأقذع الألفاظ.. كانت الأم مستسلمة لمصيرها الأسود الذي تعرفه بحكم التقاليد العشائرية.. الأب، الزوج، رفض أن يقتلها.. كان يحس بأنه مهان، ومخدوع، ولم يكن يفهم سر هروبها.. ولكي يحفظ ماء وجهه، رفض أن تتنجس يده بدمها الوسخ.. فتبارى أخوتها في ما بينهم متسابقين على ذبحها.. آدم على خلاف أبيه طلب أن يقوم هو بذبحها.. لكنها توسلت الجميع بأن لا يدعوا آدم يقوم بذلك.. لا تريده أن يُسجن وتتحطم حياته جراء ذبحها، لذلك قام أحد أخوتها بذبحها ..

- يا للمرأة المسكينة ..

نظرت أم قابيل إليّ باستنكار واضح مستغربة تعاطفي مع الأم القتيلة، وقالت :

- مسكينة..؟ ماذا تقول.. جلبت العار لعائلتها.. هربت مع صبي أصغر من ابنها بسنوات.. وتقول عنها مسكينة..؟

استغربت من موقف أم قابيل وعدم تعاطفها مع الضحية، لاسيما هي امرأة مثلها، وربما هي عشقت الصبي المراهق مثلما هي تعشق صديقي الآن. طبعاً هي لا تعرف بأني أعرف أنها عشيقة صديقي آدم، الذي هو في عمر ابنها قابيل. أحسست برغبة في مشاكستها وتشويش قناعها المطمئن،

إذ وجدت في استنكارها الأخلاقي هذا قساوة ليست في محلها، فهي لا يحق لها أن تطلق حكما أخلاقيا على امرأة مسكينة ضحية ظروف وملابسات غامضة، بينما يمكن لأم قابيل أن تكون في الموقف نفسه لو كان ابنها حيا ولم يُقتل في الحرب.. فقلت لها بنبرة مليئة بالإنفعال :

- أنتِ امرأة ويمكنك أن تفهميها أكثر منّا نحن الرجال.. أليس كذلك..؟ لا بد من وجود أسباب دفعتها لذلك..؟ هل فكر أحد في السبب الذي دفعها إلى أن تترك زوجها الذي لا يكبرها في العمر كثيراً، وأن تعرض نفسها وعائلتها لهذه الفضيحة التي تعرف نهايتها مسبقاً..؟ هل فكر أحد بالظروف التي هيأت مثل هذه العلاقة بينها وبين فتى بعمر ابنتها، بل وأصغر من عمر ابنها البكر بسنوات..؟ ألا تعتقدين أنه لا بد من وجود سبب لذلك..؟ لدينا مثل شعبي يقول: لو عُرف السبب لبطل العجب.. وإن المرء لو عرف السبب فلربما خفف من حكمه القاسي على هذه المسكينة.. الناس ضعفاء أمام شهواتهم وغرائزهم يا أم قابيل.. ثم أن هذه الأمور تحدث في كل زمان ومكان.. ولو حكمنا بالذبح أو القتل بأية طريقة على كل أنثى تقيم علاقة خارج عقد الزواج لتمّ القضاء على ثلاثة ارباع أناث العالم، ولما استمرت البشرية في البقاء.. بل لما بقيت إلا نسبة قليلة من النساء على وجه الأرض ..

صمتت. فوجئت من ردة فعلي. أخذت تتأمل الأرض أمامها، تنظر إلى نقطة بعيدة عن المكان، لكني لمحت وجهها يتقد بمشاعر مختلفة. أحسست بملامحها ترق. وثمة انبساط وارتياح خفي لكلامي.. رفعت رأسها إليّ وسألت بمودة وحرارة :

- أنت محق.. لقد نبهتني لأشياء مهمة غابت عني.. نحن البشر قساة جداً.. نحن لا نعرف شيئاً حقاً عن سبب ذلك.. بل أذكر أني سألت آدم إنْ كان هناك توتر بين أمه وأبيه..؟ فقال لي بأن علاقتهما طيبة، وإنه كان يحترمها، بل ويدللها.. ولم يضغط عليها يوماً.. ولما سألته عن علاقتهما الأخرى كرجل وامرأة غضب من سؤالي، وشعر بإهانة ما، وأخذ يشتم قائلاً بأن عقل المرأة بين فخذيها.. وإنها لا تستطيع أن تسيطر على أي شيء إذا ما اتقدت شهوتها.. وإنها مستعدة لأن تبيع كل شيء.. وتضحي بكل شيء من أجل إطفاء اللهب الذي يتقد هناك في.... أستحي أن أكرر اللفظ الذي قاله حينها.. أقصد أنه قال بأن المرأة ليست سوى ذلك الشيء الذي تخفيه، وهي أي المرأة ليست سوى... يمشي، ولفظ اسم ذلك الشيء.. كان غاضباً .

- وأنت..؟ ماذا تعتقدين..؟

ارتبكت من سؤالي الذي كان مفاجئاً لها، لم تكن تتوقع أن أسألها مثل هذا السؤال المحرج، إلا أني أحسست بنشوة خفية في اقتحام عالمها الداخلي، وتحطيم بواباتها المغلقة، وكشف وجهها الحقيقي عن قناعها المطمئن. كان ثمة صراع في أعماقها، لكنها قالت :

- ليست المرأة وحدها تفكر بذلك الشيء.. الرجل أيضا.. الرجال يبيعون كل شيء من أجل إطفاء عطشهم، وشهوتهم في حضن المرأة.. أليس كذلك..؟

كان جوابها منطقيا، ودبلوماسيا، وكأنما استشعرت رغبتي الشبقة فيها، لذلك أرادت أن تصدني بطريقة ذكية، كي لا أتمادى في الإقتراب من حقولها السرية الغامضة، ولتثبت لي بأنها مخلصة لصديقي آدم، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منها بسهولة .

أحسست أنها أوقفتني عن خط صار من الصعب عليّ تجاوزه الآن، وفي مثل الموقف الذي نحن فيه، لذلك أردت أن أبدي لها بأني غير مهتم بوصالها، وأن ما قلته لها عادي وبدون أية نوايا خاصة، فانتقلت بالحديث إلى الجانب الآخر، إذ سألتها :

- والصبي..؟

شعرت بالحيوية حينما سألت عن الصبي، فانتقلت بالحديث من تلك المنطقة الحساسة المحصورة في حقل الرغبة إلى الحديث عن مصيبة صديقي آدم، فقالت :

- تقصد الفتى المراهق الذي هربت الأم معه..؟
- نعم.. المراهق..
- لقد تم تسليمه إلى أهله وأعمامه من قبل الجهات الحكومية أيضاً.. وكما روى لي، فأن المدينة قد توترت خوفاً مما قد يحدث بين أبناء العائلتين والعشيرتين، والذي كان ينذر بسقوط ضحايا في أية لحظة، لأن أخوة الأم أرادوا قتل الفتى أيضا.. إلا أن أهل الفتى وعشيرته واجهوهم.. مدعين بأن ابنتهم هي التي أغوت ابنهم المراهق وهربت به.. المهم.. تكللت عائلة الأم بالعار.. وقد أخبرني بأن أخته حاولت الانتحار بحرق نفسها، إلا أنهم أنقذوها في اللحظات الأخيرة قبل أن تشعل النار في نفسها، وقد أخذها أخوالها عندهم، إذ رفض ابن عمها، الذي كانوا قد اتفقوا على خطبتها له من أن يقترن بها، فأخذها أخوالها عندهم.. أما آدم فقد تحطم، وفقد رغبته بالحياة.... وحينما عاد من الكوت إلى هنا، جاء

إليّ مباشرة، وبقي إلى ساعة متأخرة من الليل.. كان منهاراً.. يبكي أحيانا كالأطفال.. ويغضب ويشتم أحيانا أخرى، كان خائفا، يحس وكأن أشباحاً تظهر له، فيرتجف خوفاً.. أخذته في ساعة متأخرة من الليل إلى غرفته، وأضجعته في فراشه، لكنه لم يغادر غرفته طوال الأيام التالية، إلى أن تعالى صراخ جارتنا حينما اكتشفت جثة ابنتها المتدلية من سقف الغرفة المجاورة لغرفتهم.. وحتى بعد أن هرع الجيران على صوت صراخ الأم الثكلى.. ومبادرة بعض الجيران إلى الإتصال بمستشفى الطوارئ وبالشرطة، فأنه لم يخرج من غرفته بتاتاً.. إلى أن عثرت الشرطة على الرسالة التي كتبتها مقصوفة الرقبة قبل أن تشنق نفسها، فسألوا أن كانوا يعرفون طالباً جامعياً تشير إليه الرسالة حتى صرخت الأم متهمة إياه ظلماً، إذ أخذت تتهجم عليه وتتهمه بأنه وراء موت ابنتها.. وحينما اقتحموا غرفته وجدوه مستلقيا على سريره، ينظر إلى السقف بعينين فارغتين. أخذوه معهم دون أي سؤال من قبله عن سبب اقتيادهم له.. حاولت أن أشرح لمختار محلتنا، وكذلك الرجل الذي يرتدي الزيتوني بأنه في حالة نفسية غير طبيعية نتيجة موت أمه، إلا أنهم أخبروني بأن الأمر روتيني، فهم سيطرحون عليه بعض الأسئلة، وسيعود بعد ساعات.. لكنه لديهم منذ ثلاثة أيام ..

آلمني حديث أم قابيل عن تفاصيل ما جرى لصديقي آدم الواسطي، بل أحسست بأن الكثير من الأمور قد اختلطت عليّ، وكأن آدم ليس هو نفس الصديق المتوهج بالحياة والأمل والطيبة، بالرغم من حزنه العميق وسوادوية عالمه، فلم أكن أفهم سعيه إلى أن يقوم هو نفسه بقتل أمه، وهو الذي يؤمن بقيام مجتمع متسامح قائم على الحرية، ويحتكم لقيمة الإنسان.. كيف لم يفكر هو، بل والجميع، بأن يتركوا للأم أن تدافع عن نفسها وأن تكشف عن الأسباب التي دفعتها إلى أن تتحدى كل القيم الاجتماعية لتتخذ مثل هذه الخطوة اليائسة..؟

كان واضحاً على ملامحي بأني كنتُ في عالمي الداخلي، لأني انتبهت على صوت أم قابيل تسألني :

- ما بك..؟

نظرت إليها للحظات، ولا أعرف لحد الآن السبب الذي دعاني إلى الوقوف، تأهباً للخروج، بحيث انتبهت إلى الدهشة الكبيرة المصحوبة بالخيبة الواضحة اللتين ارتسمتا على وجه أم قابيل حينما رأتني واقفاً، وسمعتها تسألني بصوت مخنوق تحاول أن تكتم من خلاله انفعالاتها :

- هل قلت شيئا أزعجك..؟ هل سؤالي أزعجك..؟ أنا لم أسألك إلا

لأني وجدتك مشغول البال بشكل كبير، والألم يعتصر روحك ..

لم أقل شيئا مباشرة. نظرت إليها فوجدتها حزينة، ربما لأنها لم تتوقع أن ينتهي الحديث بيننا إلى هذه النهاية غير المتوقعة، وسألتها :

- في أي مركز هو موجود الآن..؟

- لا أعرف.. يمكنني أن أسأل مختار المنطقة.. سأمر عليه مساء هذا اليوم.. أو لأقل لك.. يمكن أن أمرّ عليه الآن ..

قالت ذلك ونهضت متجهة لأخذ عباءتها المعلقة عند الباب. حينما مرت بجانبي شممت عطرها الأنثوي المثير. سألتها قائلا :

- هل لي أن آتي معك إلى بيت المختار.. ربما يمكنني أن أزوره..؟

فجأة برقت في ذهني فكرة وجدتها منطقية جداً، فقلت لأم قابيل :

- لماذا لا تسألي الرجل الذي يرتدي الزيتوني.. فمن المؤكد أنه يعرف مكانه، وهو بحكم علاقته المباشرة بالقضية، يعرف أين يتم التحقيق في موضوع انتحار الفتاة ..

نظرت إليّ وكأنني صفعتها بشكل مفاجئ وقالت :

- كم أنا غبية.. كيف لم أفكر بهذا..؟ نعم.. نعم.. من المؤكد أن الرجل الذي يرتدي الزيتوني على علم بكل تفاصيل الموضوع.. ويمكن أن يخبرنا أيضاً عن السبب الذي دعاهم لاحتجازه كل هذه الأيام ..

سحبت العباءة عن رأسها وعلقتها بمكانها، وخرجت إلى الباحة، لكنها بعد دقائق قليلة عادت إلى الغرفة وعلى وجهها ملامح القلق والخيبة، وقالت :

- الرجل الذي يرتدي الزيتوني قد غادر المنزل.. سيعود غداً صباحاً ..

فقلت لها وأنا ما زلت واقفا في مكاني :

- غداً صباحا لدي محاضرات.. لكني سأعود بعد الظهر.. هل هذا ممكن؟

نظرت إليّ بعينين مليئتين بالحنان، وقالت :

- كيف تسأل مثل هذا السؤال..؟ البيت بيتك.. ويمكنك أن تأتي في أي وقت.. أنت بالنسبة لي مثل آدم.... حينما أراك وكأني أراه.. سيخبرني الرجل الذي يرتدي الزيتوني بالمكان، وسنذهب إليه معاً.. وربما سينهون التحقيق معه اليوم.. أو غداً بعونه تعالى ..

في تلك اللحظات التقطتُ أنا إشارتها الخفية التي ربما لم تقصدها بشكل مباشر لكنها تكشف عن لاوعيها، حينما وضعتني بمكانة آدم صديقي،

وإنها برؤيتي تراه.. وبالتالي تكشف عن رغبتها في رؤيتي.. لم أستطع السيطرة على مشاعري المتضاربة، فودعتها بسرعة .

- إذن.. سأمر عليك غداً.. هنا، في هذه الغرفة ..
- مع السلامة... وليحفظك الله ..

حينما خرجت من الغرفة رأيت النساء ما زلن يفترشن الأرض، جالسات على السجاد الوثير، وكذلك ما زالت الأم في موضعها، لكنها قد كفت عن البكاء الآن. نظرت الأم الثكلى إليّ بنظرة متفحصة، مستغربة وجودي .

حينما صرت في الزقاق أحسستُ بأني خرجت من كابوس مرعب، لكني لم أستطع أن أمحو عن تفكيري مشهد الأم وهي تنتظر الذبح بصمت.. صمت الحملان.. لكنها وهي في لحظاتها الأخيرة، كشفت عن حبها الكبير لابنها، حيث رفضت أن يقوم هو بذبحها، لأنه بذلك سيحطم حياته، وستطارده لعنة نفسه، وستتحول حياته إلى جحيم.. لذلك توسلتْ أن يقوم أي شخص آخر بهذه المهمة. لا أدري لماذا، وأنا أقطع ذلك الزقاق الذي بدأت العتمة تخيم عليه تذكرت مسرحيتيّ النائحات والمنتقمات لأسخيلوس، واللتين تتحدثان عن اللعنة التي لاحقت أورستوس حينما قام بقتل أمه كليمانسترا انتقاما لأبيه الذي قتلته هي مع عشيقها، فقررت الآلهة معاقبته على جريمته، فأخذت تلاحقه..

* * *

حينما انتهت حواء صحراوي من قراءة هذا الفصل أحست بالتعاطف مع الأم الضحية، وشعرت بالألم لمصيرها القاسي. لم تتخيل لحظتها ما تخيله آدم البغدادي عند خروجه من غرفة أم قابيل، وإنما أخذت تتخيل لحظات الذبح نفسها، مستعينة بمخيلتها السينمائية وما شاهدته من أفلام رعب وقتل وجريمة ..

أحستْ وكأنها تكتشف وجها آخر لآدم التائه، ذلك الوجه الإجتماعي والسياسي غير المعلن، فهو هنا يتعاطف بشكل واضح مع الضحية من خلال بطله آدم البغدادي.. وربما هو بذلك أراد أن يتحدث عن مصير الآلاف من النساء في الشرق .

فجأة أحستْ حواء صحراوي بتشنج في ظهرها، فبالرغم من أنها كانت مستلقية باسترخاء وهي تقرأ في مخطوطة الرواية إلا أنها انتبهت بأنها شعرت ببعض الألم في أسفل ظهرها، وبتشنج عام في ظهرها حينما تحركت قليلا على السرير. استغربت من هذا التشنج المفاجئ.. فكرت لحظتها بأن

تأخذ حماماً ساخناً فربما سيساعدها على استرخاء عضلات ظهرها. حينما أرادت الجلوس أحست وكأن صعقا كهربائيا يسري في ظهرها. كادت تصرخ من الألم. لكنها لم تفعل وإنما قامت عن السرير وتوجهت إلى غرفة الحمام .

انحنت حواء صحراوي على حوض البانيو، ففتحت صنبور الماء الساخن بقوة محركة إياه إلى منطقة الماء البارد، بحيث صارت درجة حرارة الماء مقبولة كي تملأ البانيو للتمدد فيه .

حين أرادت أن تستقيم بظهرها أحست بتشنج دفعها أن تمسك حافة البانيو بكفيها، وظلت على وضعها ذاك لدقائق، مستغربة هذا الانهيار الصحي المفاجئ، إلى أن تمكنت من أن تستقيم بجسدها. نزعت عنها البرنس، وسروالها الخفيف ودخلت حوض الماء متمددة فيه. شعرتْ بالدفء يغمرها، لكنها استغربت من نفسها حينما بدأت تفكر بهذه الأم التي هجرت بيتها وهربت مع مراهق بعمر ابنتها، وأصغر بسنوات من ابنها البكر، علما أن زوجها لا يكبرها إلا بسنوات قليلة جداً..! غطّستْ جسدها في الماء، وهي تبحث عن سبب معقول دفع هذه المرأة إلى أن تهرب من بيتها متحملة كل تبعات هذا الهروب.

الفصل السادس: حواء صحراوي والسفر إلى جزيرة البركان

انشغلت حواء صحراوي خلال اليومين التاليين بأمور عديدة لم تمنحها فرصة لمواصلة قراءة مخطوطة الرواية، بل ولم تمنحها الفرصة للتواصل مع صديقتها إيفا ليسنج، التي إتصلت بها صباح هذا اليوم من المطار، وتحدثت معها بنبرة حزينة، بأنها الآن في مطار هيثرو وأنها ستقلع بعد قليل إلى ميونخ لتوقع عقدها مع التلفزيون الألماني، ولتبدأ البروفات الأولى على تمثيل مسلسل (مرتفعات وذرينغ)، كما أخبرتها بأنها اتصلت بها مرات عدة فلم يرد عليها أحد، فأخبرتها حواء بأنها تعرضت لوعكة صحية، فأبدت إيفا قلقاً حقيقياً واضحاً، إلا أن حواء هدّأت من روعها، وأخبرتها بأن الأمر لا يتعدى بعض التشنجات في الظهر، وأنها كانت طوال اليومين في العيادة الطبية الخاصة لإتمام الفحوصات اللازمة .

سرّتْ حواء لنبرة الإهتمام في صوت إيفا ليسنج، برغم الفتور في علاقتهما، لا سيما حينما ألحت إيفا ليسنج في سؤالها ثانية عن وضعها الصحي، وإنْ كان ذلك يتطلب منها تأجيل سفرها إلى ميونخ كي تكون بقربها، إلا أن حواء، التي تأثرت جداً بهذا العرض الصداقي النبيل من قبل إيفا، أكدتْ لها ثانية بشكل أكثر تفصيلاً بوجود التهابات بسيطة في العمود الفقري، وأن طبيبتها الخاصة قد نصحتها بالسفر إلى حيث الأماكن الدافئة، وينابيع الكبريت، وحينما سألتها إيفا ليسنج إنْ كانت قد حددتْ المكان الذي ستسافر إليه للعلاج، أخبرتها حواء بأن الطبيبة اقترحت عليها السفر إلى ايطاليا، وإلى جزيرة (إسكيا) البركانية الشهيرة للعلاج هناك، وأنها مرت على أحد مكاتب السياحة ليقوم لها بالحجز في جزيرة (إسكيا)، وقد تم الحجز فعلا من قبل المكتب السياحي الذي خاطب فندقين هناك لحجز جناح لها، لكن لم يأت أي تأكيد من قبل أي منهما بعد، وهي تنتظر إتصالاً من المكتب السياحي لتأكيد الحجز، وأنها ستسافر إلى هناك، وربما ستسافر أمها معها أيضا.. كما أوضحت لها سبب عدم رد أي أحد في المنزل على اتصالاتها بأن مديرة المنزل أم هابيل لم تعد تعمل لديها بعد الآن، فقد تم سحبها إلى بيت الأهل منذ يومين. من جانبها أوضحت إيفا ليسنج لها بأنها ستكون في فندق صوفيتيل ميونخ، وستكون في جناحها المعتاد، المرقم 333 ، ثم أعطتها رقم هاتف استعلامات الفندق الذي دونته

حواء في دفتر التليفونات، فوعدتها حواء بأنها ستتصل بها حينما تستقر في الجزيرة .

* * *

حين تمددت حواء صحراوي في حوض البانيو، بعد الانتهاء من الفصل السابع من رواية آدم التائه، قبل يومين، أحست بشيء من الاسترخاء في ظهرها المتشنج، لكنها استمرت بالتفكير في هذا الوجع المفاجئ والتشنج الذي شدّ كل عضلات ظهرها. انتبهت حينها إلى أن هذه الأوجاع ليست شبيهة بأعراض العادة الشهرية التي انقضت قبل أسبوع، كما أنها لا تتذكر تعرضها للبرد خلال الأيام الماضية، سوى تلك اللحظات التي خرجت خلالها من سيارتها وصعدت إلى شقة آدم التائه ليلة مقتله، ثم خروجها السريع ثانية وهي تحمل مخطوطة روايته، حيث كان المطر يهطل بقوة حينها، لكن هذا لا يمكن أن يكون سببا للتشنج الذي تعاني منه، إذ ركضت حينها بسرعة إلى داخل سيارتها، ولم تبتل كثيراً. فكرت أيضاً بسرير نومها الذي قد يكون هو السبب، لكنها تعرف بأن سريرها مريح، ويمتلك مواصفات طبية خاصة من حيث استقامة الظهر والفقرات، وحينما لم تجد أي احتمال معروف لديها تفسر به حالتها، لذلك قررت مع نفسها أن تذهب إلى عيادة طبيبتها الخاصة لتفحصها، لا سيما وأن فكرة مرعبة برقت بشكل مفاجئ في ذهنها، فملأتها بالرعب، إذ كانت قد قرأت ذات مرة، بأن سرطان العظام والمفاصل يبدأ بتشنج وألم مفاجئ في العظام أول الأمر، لذا أحست بالرعب من هذه الفكرة التي سعت إلى محوها من ذهنها، وقد نجحت في ذلك، لكن ظلالها بقيت تراودها كهاجس مزعج .

حين خرجت من الحمام اتصلت مباشرة بعيادة طبيبتها الخاصة، فأخبرتها المساعدة التي تعمل في الاستقبال بأن عليها الانتظار ليومين كأقرب موعد، إلا أنها أصرت بأن الحالة طارئة وعاجلة، لذا اتفقت أن تأتي في ذاك اليوم نفسه، راضية بأن تنتظر حتى انتهاء المواعيد المحددة لبقية المرضى المراجعين .

شرحت حواء لطبيبتها حالتها، وتم فحصها موضعياً، إلا أن الطبيبة طلبت منها إجراء بعض الفحوصات الخاصة كالأشعة والتحاليل الضرورية الأخرى للتأكد من الحالة، وهذا ما زاد من قلقها، فلو كان الأمر عادياً لسجلت لها دواءً، ولم تطلب إجراء التحاليل والأشعة .

حين عادت مساء ذلك اليوم من العيادة، كانت تشعر بتعب شديد، وكآبة تسربت إلى نفسها من تخيلاتها عن المرض الخبيث الذي يمكن أن

يكون قد أصابها. وصلت البيت لكنها لم تنزل من سيارتها. أطفأت محرك السيارة وظلت جالسة في مقعدها. ظلت لفترة ليست بالقصيرة تنظر أمامها فارغة الذهن، ليس في ذهنها أية فكرة عما تريد أن تفعله، كما ليست لديها رغبة في أن تدخل إلى البيت. فجأة، أدارت المفتاح في موضعه، وتحركت بسيارتها متجهة إلى المراكز التجارية في منطقتها، حيث توجهت لا إراديا إلى شارع كينغزرود ومنه إلى شارع سلون ستريت، ثم إلى منطقة نايتسبريدج، حيث ركنت سيارتها في الطابق المخصص لسيارات الرواد في مركز التسوق الشهير هارودز، وأخذت تتجول فيه دون هدف محدد، وإنما لتكون بين الناس، ولتشعر بنبض الحياة، حيث أنفقت وقتاً هادئاً أبعدها عن لجة التفكير في إحتمالات المرض .

في وقت متأخر من ذلك المساء رجعت إلى البيت. فتحت الفتاة الهندية لها الباب، فاستغربت الأمر، إلا أن الفتاة الهندية روت لها كيف أن الأم الكبيرة قد اتصلت بأم هابيل، فذهبت إليها، وبعد نصف ساعة عادت أم هابيل غاضبة جداً، فلم تتحدث مع أحد من العاملين على الخدمة في البيت، إذ دخلت غرفتها، وخرجت وهي تحمل حقيبة جلدية كبيرة، يبدو أنها وضعت فيها جميع ما لديها من أشياء، وقالت لها بأن الأم الكبيرة تحتاجها هناك، وأنها ستعمل في بيت العائلة الكبير. بالنسبة لحواء كان الأمر واضحاً، فقد تصرفت أمها كما وعدتها، بسحبها للعمل في بيت العائلة لحاجتهم إليها هناك .

حين صارت في غرفتها اتصلت بأمها، وشكرتها على خطوتها بسحب أم هابيل إلى الخدمة في بيت العائلة، كما حدثتها عن الآلام والتشنجات المفاجئة في ظهرها، وأنها قد ذهبت إلى العيادة الخاصة. قلقت أمها جداً من حديث حواء عن مرضها وخوفها منه، لكنها برغم ذلك حاولت أن تستهين بالأمر وتسخر من مخاوف ابنتها، كي تخفف من قلق ابنتها .

في تلك الليلة أخذت حواء حماماً صحراوي ساخناً، وابتلعت حبوباً مهدئة ثم جلست تتابع التلفزيون متنقلة دون هدف محدد بين القنوات، وتوقفت عند فيلم هندي بريطاني مشترك من انتاج القناة الرابعة، يتحدث عن عائلة متوسطة الحال تعيش في قرية بعيدة تقع على ضفاف أحد الأنهار، وتتألف العائلة من أب وأم كما لديهما فتى يدرس بالجامعة في إحدى المدن الكبرى، وفتاة في عمر الزواج، وكان من عادة الإبن أن يزور الأهل بين فترة وأخرى، إلا أنّ فترة طويلة مضت دون أن يزور أهله، فصار من عادة الأهل أن يتابعوا موعد وصول القطار على الضفة الأخرى،

وانتظار وصول القارب الذي يعبر فيه أبناء القرية وهم يرجعون إليها، إلى أن تقرر الأخت السفر إلى المدينة الكبيرة بحثاً عن أخيها، وهناك تعرف من أصدقائه بأنه كان نشطاً سياسياً في المطالبة بحقوق الطلبة، مما أدى إلى اعتقاله. تيأس الأخت من الوصول لمعرفة مصير الأخ، فترجع للقرية، دون أن تخبر أهلها بمصير الأخ البائس، وتظل هي توهمهم بعودته من خلال انتظارها له كل مساء عند ضفة النهر.. لم تشاهد الفيلم منذ بدايته لكنها فهمته من السياق العام. أعجبتها الممثلة جداً، لا سيما وهي في ثوبها الأصفر الكركمي، وتسرب إلى نفسها حزن شفيف من اللاعدالة التي تسود العالم، متذكرة مصير آدم التائه، الذي هجر بلاده نتيجة القمع السياسي، ولا إراديا وجدت نفسها تفكر في إختفاء جثته، إلا أن متابعتها للفيلم أبعدتها عن التركيز حول ذلك. بعد انتهاء الفيلم أحست بما يشبه الخدر، فذهبت إلى سريرها. وغطت في نوم عميق .

* * *

في اليوم التالي، ومنذ الصباح الباكر، انشغلت حواء صحراوي بكل الإجراءات الطبية المطلوبة، من تحليلات لازمة كالدم والإدرار، ومن تصوير الظهر بالأشعة، وبعد فترة انتظار ليست بالطويلة، التقت طبيبتها الخاصة التي أخبرتها مسرورة بأن الأمر ليس خطيراً أبداً، وإنما هو برد قد مسها في أوقات مختلفة، وقد سبب إلتهاباً بسيط في العمود الفقري، وأنها تنصحها بالذهاب إلى المنتجعات الصحية التي فيها ينابيع كبريتية ووحل بركاني، وأن مثل هذه الأماكن موجودة في ايسلندا، وايرلندا، وايطاليا، وأماكن أخرى، إلا أنها تنصحها بالسفر إلى الأماكن الدافئة، إلى إيطاليا، المعروفة بجزرها البركانية القريبة من سواحل مدينة نابولي، وبالتحديد جزيرة (إسكايا) .

كانت حواء تشعر بسعادة لنتيجة التحاليل، وأن الأمر لا علاقة له بذلك المرض الذي اسمه يثير الرعب في النفس، ويلقى بالمصاب به على حافة العالم الآخر، لذلك توجهت مباشرة بعد خروجها من عيادة الطبيبة إلى المكتب السياحي .

أبدت لهم رغبتها في السفر إلى جزيرة (إسكايا). قام الموظف في المكتب السياحي بالبحث من خلال الإنترنيت، واتفقوا معها على أن يجدوا لها فندقاً راقياً، وأن ينجزوا كل ذلك خلال الساعات القادمة، لأن عليهم استلام تأكيد من الفندق الذي طلبوا الحجز فيه، وأن المكتب السياحي سيتصل بها عند استلامه جواب التأكيد على الحجز الفندقي ليتم تأكيد

السفر .

بعد خروجها من المكتب السياحي، أخذت تتجول بسيارتها على غير هدى، وكأنها كانت مختنقة وتريد الآن أن تتنفس هواء نقياً. وجدت نفسها في شارع أوكسفورد الذي قطعته إلى توتنهام كورت رود، ثم انعطفت إلى نيو بوند ستريت، فأوقفت سيارتها في إحدى الباركات، وأخذت تتجول بين محلات المجوهرات ومحلات العطور والموضة .

أمضت ما تبقى من النهار متنقلة بين المحلات، بعد أن تناولت وجبة الغذاء في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، وواصلت تجوالها إلى أن أحست بالتعب وبرغبة حقيقة للعودة إلى البيت والإسترخاء في سريرها الوثير .

وصلت إلى البيت. فكرت بأن تذهب إلى بيت الأهل، لكنها سرعان ما غيرت رأيها، فهي لا تريد أن ترى أم هابيل، لأنها لا تريد أن تضطر إلى تملقها بالكلام المعسول، فهي لم تعد تطيق رؤيتها بعد أن عرفت دورها الخبيث في التجسس عليها ونقل أخبارها لطليقها، ولم تكن تطيق أن تسكت عن الأمر، لذلك فضلت أن تتصل بأمها هاتفيا متجنبة رؤية أم هابيل .

تحدثت مع أمها ونقلت إليها ما قالته الطبيبة عن نتائج التحليلات، وعن ضرورة سفرها إلى إحدى الجزر الإيطالية لغرض العلاج. فوجئت الأم بقرار حواء السفر وحدها، لكنها أخبرتها بأنها ستقنع أباها إذا ما أعترض على ذلك .

في وقت متأخر من تلك الليلة اتصلت أمها بها، وأخبرتها إن كانت هناك أمكانية أن تسافر هي معها أيضا، وأخبرتها بأنها تحدثت مع والدها عن مرضها، وعن التهاب عمودها الفقري، وضرورة العلاج في إحدى الجزر البركانية في إيطاليا، وقد رحب الوالد بالفكرة، بل ودعاها إلى أن تذهب معها إيضا لتعالج مفاصلها هناك، فهو يعرف هذه الجزيرة المشهورة بمنتجعاتها المختصة بالعلاج عن طريق الوحل البركاني .

تضايقت حواء لا شعوريا في اللحظات الأولى، لكنها رحبت بالفكرة، فأمها امرأة لطيفة، خفيفة الظل، وهي ما تزال في نشاطها وحيويتها، ولن تسبب أي ازعاج في السفر، ووعدتها بأن توضح الأمر مع المكتب السياحي في اليوم التالي .

* * *

أول ما قامت به حواء صحراوي هذا الصباح هو أنها اتصلت

بالمكتب السياحي، وطلبت منهم الحجز لشخصين، وأعطتهم المعلومات الكاملة التي تخص أمها، ووعدتهم بأن تمر على المكتب مصطحبة الوثائق الرسمية المطلوبة لكليهما .

بعد أن أنهت فطورها اتصلت بأمها وأخبرتها بأنها اتصلت بمكتب السياحة، وأنها تحتاج إلى جواز سفرها البريطاني، لأغراض الحجز. واتفقتا على أن يبقى الأمر في الكتمان، بحيث لا تعرف أم هابيل بأي شيء. ووعدت الأم بأنها ستحمل إليها الجواز .

لم يمض الكثير من الوقت حتى سمعت حواء أصوات خطوات تصعد السلم بكل وضوح، مصحوبة بجمل الدعاء، فعرفت أن أمها هي القادمة .

كانت الأم ما تزال عندها حينما اتصلت إيفا ليسنج، وعند انتهاء المكالمة علقت الأم قائلة :

- هل هي مسافرة..؟
- مـَن..؟
- صديقتك الممثلة.. أليست هي التي اتصلت بك الآن..؟
- نعم هي ..
- إنها إنسانة طيبة.. وممثلة ممتازة.. لكن لدي سؤال..؟
- ما هو..؟ اسألي يا أمي ..
- في أحد الأفلام رأيتها عارية.. مع رجل في الفراش ..
- ثم ماذا..؟
- ثم ماذا..؟ كيف ثم ماذا..؟
- نعم يا أمي.. ثم ماذا..؟ هذا تمثيل.. وليس شيئا واقعيا..؟
- لكنها كانت عارية معه في الفراش.. ربي كما خلقتني.. وتقولين لي تمثيل.. أي تمثيل هذا..؟
- يا أمي هي ممثلة إنكليزية.. تمثل في فيلم قصته تؤكد بأن البطلة تمر بموقف ما.. وهذا الموقف يكون في الفراش.. وأنها تكون مع شخص ما عارية، فهي تمثل ذلك المشهد.. ليس أكثر من ذلك..؟
- والله يا ابنتي لا أعرف ماذا أقول لك؟..
- لقد أردتِ أن تسأليني عنها.. لكنك لم تسأليني..
- نسيت السؤال نتيجة هجومك عليّ بالدفاع عنها ..

قهقهت حواء ضاحكة من تعليق أمها على ردود فعلها، وطلبت منها بمودة أن تسأل سؤالها، فقالت لها الأم :

- كنت أريد ان أسأل أن كان الممثلون والممثلات يقبلون بعضهم

بعضا، أو يقومون بأشياء أخرى، فهل يفعلون ذلك بشكل حقيقي أم لا..؟

فوجئت حواء بسؤال أمها، فقد كان مثل هذا السؤال يدور في خاطرها، وكانت تريد ان تسأل صديقتها إيفا ليسنج عنه، ليس هذا السؤال الذي يخص القُبل بالتحديد، وإنما في ما يخص المشاهد الجنسية الصريحة، فهل يتم القيام بالممارسة الجنسية فعلاً.. أم يتم فبركة ذلك في المونتاج..؟ لكنها ترددت أكثر من مرة عن أن تسأل صديقتها، كي لا تنظر الأخرى إليها كشرقية محافظة، أو غير متحررة.. لكن هذا السؤال راودها هي أيضا.. لذلك قالت بعد لحظات :

- لا أعرف بالضبط يا أمي.. أعتقد أنه تمثيل في تمثيل.. أتدرين كم شخص يكون خلف الكاميرا بينما الممثلون يؤدون أدوارهم.. من خمسة إلى عشرة أشخاص أحيانا.. وهم ينظرون إلى البطل والبطلة في مشهد حميمي.. لذلك أعتقد أن هناك الكثير من التمثيل.. عموما.. لا أعرف الإجابة بالضبط يا أمي..

- لا أدري.. هي إنسانة مثقفة جداً.. وجيدة جداً.. وقد شاهدتها في أحد اللقاءات.. ما شاء الله عليها.. كان المذيع المحاور يحاول أن يستفزها لكن إجاباتها كانت قوية وجريئة.. بالمناسبة.. أبوك معجب بها كممثلة وإنسانة.. وحينما تحدثت الصحف عنها ومستك معها من بعيد.. غضب والدك ودافع عنها.. وقال إن هذه حملة حقيرة ضدها لبعض مواقفها السياسية والاجتماعية التي لا تعجب البعض هنا في بريطانيا، لذلك تحاول الصحافة أن تختلق الأكاذيب ضدها وتنشر شائعات تعتذر عنها في اليوم الثاني، لكنها تكون قد ضاعفت مبيعاتها في يوم اطلاق الشائعة.. هل هذا صحيح..؟

- نعم يا أمي.. هذه صحيح.. الصحافة أحيانا تطلق كذبة وتعرف أنها كذبة، لكن قبل أن تقع تحت طائلة القانون تعتذر في اليوم الثاني أو الثالث.. طبعا بعض الشائعات قاسية.. وبعضها يفرح لها من مستهم لأنها تعيدهم للواجهة وتسلط الأضواء عليهم.. فالشائعات ضرورية أحياناً للذين يريدون أن تتسلط الأضواء عليهم دائماً.. وهي ليست من هذا النوع من الممثلات ..

انتبهت حواء صحراوي بأنها كانت تدافع عن إيفا ليسنج لا إرادياً، وفي الوقت نفسه أزدحم في ذهنها المشهد الذي رأته في شقتها تلك الليلة، وما جرى بينهما عند اللقاء الأخير في المطعم، فاستيقظت شكوكها ثانية حول علاقتها باختفاء جثة آدم التائه، واندفعت فجأة كل الكوابيس التي

رافقتها منذ تلك الليلة المطرة التي مشى السومبي فيها عبر جسور لندن وفي شوارعها الليلية، لذلك أرادت تغيير الموضوع، فطلبت من أمها ان تكون حذرة من أم هابيل، بينما أكدت أمها لها بأنها قد وضعتها تحت المراقبة دون أن تنتبه تلك لها، لكنها تعتقد بأن أم هابيل بدأت تشك في مسألة رجوعها للخدمة في بيت العائلة، دون أن تعبر عن ذلك .

أخذت حواء الوثائق الخاصة بأمها إلى جانب وثائقها، ونزلتا معاً خارجتين من البيت. كان سائق الأم لا يزال منتظراً في السيارة قرب الباب. ودعت كل منهما الأخرى، وصعدت حواء صحراوي في سيارتها البهية وانطلقتْ متوجهة إلى المكتب السياحي، بينما سمعت وراءها هدير محرك السيارة التي تقل أمها إلى بيت العائلة .

* * *

حين كانت حواء صحراوي في المكتب السياحي جالسة أمام الموظف الذي أخذ يسألها إنْ كانت أمها ستسكن معها في الجناح نفسه أم في جناح منفصل، أحست حواء صحراوي بمشاعر غريبة، ففي تلك اللحظة بالذات، حينما كان الموظف يسألها، رأت مشهداً تجلى بوضوح أمام عينها الداخلية حتى أنها لم تر أي شيء سواه، إذ رأت شاهدة قبر تعلو قليلاً على قبر محاط بالأزهار، يبدو بالنسبة لها وكأنها تنظر إليه من الأسفل، بينما القبر على مرتفع تل صغير .

لم تكن هناك مقبرة، إنما قبر وحيد محاط بالأزهار، وكان منظر القبر والشاهدة جميلاً، جمالاً حزينا، رومانسيا، وكان صوت هدير البحر يُسمع آتياً من خلف التل. لم تكن تعرف حواء أين هو مكان التل، ولا أي البلاد، ولا هوية الشخص المدفون في هذا القبر، لكن إحساساً راودها بأن هذا التل، والقبر، ربما هما في الجزيرة التي تتوجه إليها للعلاج. كانت تنظر إلى تلك الشاهدة نظرة تزداد إصراراً وتركيزاً، ولكنها كانت تحس بأن تلك النظرة تغوص في أعماقها هي، ثم فجأة اتضح لها كل شيء!..

حين انتبهت حواء صحراوي لنفسها كان واضحاً لها بأنها تريد أن تكون وحدها في السفر، وأن عليها إلغاء الحجز لأمها. انتبهت لصوت الموظف يسألها :

– هل أنت معي مدام صحراوي..؟ لم تجيبيني على سؤالي..؟

– عفواً لم أسمعك جيداً، أعذرني كنت سارحة قليلاً.. هل بالإمكان تكرار ما قلتَ.. رجاء..؟

نظر الموظف إليها متأملاً جمالها المهيب، وقال بهدوء وتهذيب :

- سألتُ إن كانت والدتك ستسكن معك أم في جناح منفصل..؟
- ماذا..؟ أوه.. لا.. لا.. رجاء إلغ حجز الوالدة.. سأسافر وحدي.. هي امرأة كبيرة، وغير قادرة على السفر الآن.. سأكون وحدي .

فوجئ الموظف لأنه كان قد أعد اجراءات السفر لاثنتين. ارتسمت ملامح الإحباط على وجهه للحظة، لكنه كظمها، فليس من اللائق أن يبدي أية إشارة تذمر أمام أي زبون لاسيما إذا كان بمستوى السيدة حواء صحراوي، التي حجزت في فندق من الدرجة الأولى، والسفر بالدرجة الأولى أيضا، لذلك أعاد ترتيب الأمور كما كانت أول مرة حينما جاءتهم، وأخبرها بأن جواباً من فندق فلوريدايان قد وصلهم، وأن حجزها مضمون لديهم، وأخذ يشرح لها تفاصيل السفر بأنه سيكون غداً من مطار هيثرو، وستهبط الطائرة في نابولي، وهناك سيتم استقبالها من قبل مندوب الشركة السياحية، وسيتم نقلها إلى الميناء، ومن هناك ستبحر في حدود الخمسين دقيقة للوصول إلى جزيرة (إسكيا) حيث سينتظرها مندوب آخر من الشركة السياحية لإيصالها إلى فندقها في مركز الجزيرة السياحي، وتمنى الموظف لها رحلة ممتعة .

حين أكملت حواء إجراءات الدفع ببطاقتها الإئتمانية، وصارت في الشارع، راودها شعور بالذنب من الكذب على الموظف، كما أحست بالارتباك من تخيلها للحظة مواجهة أمها، وإخبارها بكذبة أخرى، عن عدم وجود أماكن في فنادق الجزيرة، ووعدهم بإمكانية الحصول على أماكن بعد عشرة أيام، وأنها ستتصل بهم من هناك للتأكد من ذلك .

لم تكن حواء صحراوي تعرف بالضبط السبب الذي دفعها إلى إلغاء سفر أمها معها، وإقدامها على الكذب من أجل التمويه على رغبتها تلك في عدم مرافقة أمها لها. لم تتذكر كيف قطعت المسافة ما بين المكتب السياحي وكراج السيارات، ولا كيف هبطت المصعد إلى الطابق الذي ركنت في سيارتها في هذا الكراج المتعدد الطوابق، لكنها انتبهت لنفسها حين صارت في سيارتها. أحست بإختلاج شفتيها، وارتعاشة ما في جفنيها وتحت عينيها، وحبات عرق صغيرة جداً تجمعت على جبينها. أخذت منديلاً ورقيا شفافاً فمسحت جبينها، ثم نظرت إلى نفسها في مرآة السيارة لترتب حجابها الذي كاد يسقط عن رأسها، ففزعت، إذ رأت ظل شخص في المقعد الخلفي، شخص لم تتبين ملامحه جيداً، فالتفتتْ بكل جسدها إلى الخلف لتتأكد من الجالس، إلا أنها أحست بسلام بارد يحتويها، فلم يكن ثمة أحد في السيارة سواها .

بسملت مع نفسها وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم. ما الذي يجري معها؟ ما معنى رؤيتها لذلك التل المغطى بالزهور، والمطل على البحر من الجهة الأخرى، والذي تعلوه شاهدة قبر وحيد..؟ قبر من ذاك؟ وهل ترآى لها رؤية شخص في السيارة أم كان ثمة شخص في السيارة..؟ لكن إذا كان حقا موجوداً فأين هو..؟

* * *

حين دخلت بيتها، وصلت أنفها رائحة الأكل الخليجي المنبعث من المطبخ، فلم تستطع أن تقاوم جاذبية التوابل التي أثارت رغبتها لمعرفة ما تم إعداده من طعام، لأنها شعرت فجأة بأنها جائعة، وأنها لم تفكر بالأكل حينما كانت خارج البيت، وفكرت مع نفسها بأنها حسناً فعلت بذلك، لكنها تذكرت بأن أم هابيل لم تعد تدير الخدمة، وتشرف على الطبخ، لاسيما الأصناف الخليجية، لذا راودها الفضول في معرفة من قام بالطبخ، وحين دخلت المطبخ وجدت أمها تعطي الإرشادات للفتاة الهندية حول إضافة بعض حبات الهيل إلى الوجبة المعدة. أحست حواء بحرج كبير، فلم تكن مهيأة لمثل هذه اللحظة الآن. كانت الأم مشغولة مع الفتاة الهندية، أرادت حواء أن تتراجع بهدوء إلى غرفتها، إلا أن الفتاة الهندية وجهت نظرتها نحو الباب حينما لمحت سيدتها، فحانت إلتفاتة من الأم نحوالباب فرأت ابنتها، التي لم تتمكن من التراجع، فدخلت محرجة وهي تبتسم وتسأل أمها:

- ماذا تفعلين هنا يا أمي..؟ لماذا تتعبين نفسك بالإشراف على الطبخ بنفسك..؟

فابتسمت الأم، وقالت :

- ليس هناك من تعب يا ابنتي ..
- لقد تعلمت من أم هابيل كما أعتقد ..
- لا.. لم تتعلم شيئاً.. لا تعرف كيف تتحكم بمقادير البهارات ..
- الرائحة زكية جداً.. سلمت يداك.. بالمناسبة يا أمي. لم يحصل المكتب السياحي على أي مكان في فنادق الجزيرة.. يقولون إن الموسم سياحي والفنادق مكتظة بالسائحين.. ربما بعد عشرة أيام أو أسبوعين سينتهي الموسم، ويمكن عندها الحجز بسهولة ..

نظرت الأم إليها نظرة سريعة، ابتسمت مع نفسها، ثم قالت :

- لا عليك.. أردت أن أكون معك لا أكثر.. المهم أن تتعالجي من آلام ظهرك ..

أحست حواء بالخجل، لأنها أدركت بأن أمها حدست بأنها لا تقول الحقيقة، وأنها هي لا تريد أن تسافر أمها معها.. تريد أن تكون وحدها. انتبهت الأم للحرج الذي وجدت ابنتها نفسها فيه، فأرادت أن تخفف عنها، وهي تقول بنبرة صادقة :

- الخير في ما وقع يا ابنتي.. فكيف يمكنني أن أترك والدك..؟ مَن سيعتني به..؟ كما أن أخاك يحتاج إلى رعاية خاصة.. سافري على بركة الله ..

أحست حواء ببعض الراحة عند سماعها كلام أمها، إذ أحست بصدقه وبواقعية الحجج التي ساقتها. ظلتا للحظات تنظر كل منهما إلى الأخرى، حواء لتتأكد من أن أمها غير مستاءة من عدم سفرها معها، والأم من أن شعور ابنتها بالذنب وحرجها قد خفّا؛ بحيث ستسافر وهي مرتاحة الضمير .

حين استدارت حواء خارجة من المطبخ سمعت أمها تقول لها :

- الطعام جاهز.. أنا ذاهبة يا ابنتي ..
- شكراً لك يا أمي ..

قالت حواء وهي تصعد السلم .

- متى سيكون السفر..؟
- غداً ..

خرجت الأم من المطبخ إلى الباحة متتبعة حواء التي لم تكن قد وصلت نهاية السلم، فقالت لها :

- كيف غداً..؟

التفتت حواء التي انتبهت إلى أن أمها في الباحة، وقالت :

- نعم يا أمي.. السفر غداً في الحادية عشرة صباحاً.. من مطار هيثرو ..
- ألا تودعين والدك..؟
- سأتصل مساء.. لا أريد أن آتي إليكم لوداعه كي لا تعرف تلك الخبيثة أم هابيل ..
- طيب سأفهمه بالأمر.. وإلا سيزعل.. أما أنا فسأكون صباحا عندك ..
- طيب يا أمي.. شكرا لك على كل شيء ..
- على أي شيء تشكرينني يا ابنتي..؟
- على أنك لم تستائي لعدم سفرك معي ..

نظرتا لبعضهما البعض، وكأنهما تقولان إننا نعرف بأن الأمر لا علاقة

له بعدم وجود الحجز. ابتسمت الأم وقالت :

- لا يهمني سوى سعادتك يا ابنتي.. أريدك أن تكوني سعيدة ..

أحست حواء بفيض غامر من الحنان نحو أمها، فلم تتمالك نفسها، بل هبطت السلم مسرعة نحوها. احتضنتها وقبّلت وجنتيها، وأخذت يدها مقبلة ومتبركة بها بوضعها على جبينها. الأم بدورها طبعت قبلة على رأسها والدموع تترقرق في عينيها. لم تتمالك حواء نفسها، فصعدت السلم مسرعة. كانت الأم لا تزال واقفة في الباحة عند باب المطبخ. سمعت صوت إغلاق باب الغرفة آتياً من الطابق الأعلى.

الفصل السابع: رؤى حواء صحراوي.. قبر الغريب

عند العصر، وبعد أن استيقظت حواء صحراوي من قيلولتها، نزلت إلى الطابق الأرضي، واجتازت صالة الضيوف خارجة إلى الحديقة. كانت تشعر بأنها ما زالت في مملكة النوم، فقد كان ذهنها خاملاً، وكأن رأسها فارغ.. كانت تنظر إلى أزهار الحديقة الملونة، والمتنوعة، وإلى البركة التي تسبح فيها بطتان. أرادت أن تجلس هناك لتشرب الشاي، خرجت إلى الشرفة التي تقود إلى الحديقة مباشرة. كان ثمة مطر ناعم جداً يسّاقط. فكرت مع نفسها بأنه من الأفضل أن تجلس في الصالة، فدخلتها وجلست على نفس المقعد الذي جلس عليه آدم التائه حين دعته إلى بيتها أول يوم بعد وصوله .

كانت تنظر إلى الحديقة التي أمامها وهي تستقبل المطر الناعم. أحست وكأن العشب ينتعش ويتألق لونه. كان كل شيء يبدو أمام عينيها بهياً، متحركاً، فها هو النسيم يحرك الأوراق المتدلية من أغصان الأشجار، وثمة طيور أختبأت بين الأغصان متجنبة المطر، وخريرالماء في الساقية المجاورة للحديقة من الطرف الآخر، والغيوم في السماء تجري بسرعة وكأنها تهرب من شيء غامض يلاحقها. كانت الحياة تضج بالحركة حولها، بينما هي تجلس ضعيفة، هشة، مليئة بالهواجس والكوابيس، ضائعة في اللامعنى الذي يغمر وجودها كله .

دخلت عليها الفتاة الهندية وهي تحمل صينية عليها دورق للشاي، سكرّية، كوب وصحن فارغ، صحن صغير فيه شرائح من الليمون، وصحن آخر فيه بعض قطع الكيك، وكأس مليئة بالماء. وضعت الصينية أمامها، وسألت إن كانت السيدة تحتاج لشيء آخر، فانتبهت حواء صحراوي لوجودها، وطلبت منها أن تصعد لتأتيها بمخطوطة الرواية الموجودة على الطاولة عند رأس سرير النوم .

صبت لنفسها الشاي في الكوب، منتظرة أن تأتيها الفتاة الهندية بالمخطوطة، وحين رفعت رأسها ناظرة إلى الحديقة عبر الباب الخارجي الذي يفصل بين الصالة والشرفة، تراءى لها وكأنها ترى في وسط الحديقة امرأة ما بيدها باقة من الزهور البنفسجية اللون. كان وجه المرأة متجها نحو الجهة الأخرى المعاكسة، إلا أنها أدركت من طبيعة جسد المرأة وطولها بأن هذه التي تقف هناك وبيدها باقة الورد البنفسجي تكاد تكون هي نفسها .

كان المطر الناعم يسّاقط، وكانت شبيهتها في ثوب أبيض صيفي خفيف، بالرغم من المطر الذي يبلل جسدها بالكامل، فبان جسدها المثير من تحت الثوب الشفيف، لم تكن ترتدي سوى سروالٍ من الدانتيلا، فكانت تبدو وكأنها عارية تحت المطر .

كانت واقفة، وكأنها تؤدي طقساً جنائزياً تحت المطر. لم تكن مهتمة بالمطر المنهمر عليها. فجأة انحنت ومدت يدها يدها لتضع باقة الزهور على الأرض، ومع انحناءة جسدها إلى الأمام تكشف لها الأفق عن شاهدة قبر وضعت المرأة باقة الورد أمامها؛ ففزعت حواء صحراوي من المشهد، مشهد المرأة والقبر الذي يتوسط الحديقة، بالرغم من أن صوتاً داخليا مسموعاً في داخلها كان يقول لها بأن لا تفزع فما تراه ليس حقيقة وإنما هو وهم .

في تلك اللحظة انتبهت لحركة دخول الفتاة الهندية وهي تحمل المخطوطة. التفتت إليها لتتأكد من ذلك، فرأت الفتاة قد صارت بالقرب من المقعد الذي تجلس عليه. مدت الفتاة المخطوطة لها، فأخذتها ووضعتها على حافة الطاولة، وسمعتْ الفتاة الهندية تسألها إنْ كانتْ تحتاج لأي شيء آخر، فشكرتها قائلة بأنها لا تحتاج لأي شيء .

حين نظرت مرة أخرى إلى الحديقة، لم تر شيئاً، لا المرأة في الثوب الأبيض الشفيف ولا القبر الذي يتوسط الحديقة. أقنعت نفسها بأن كل ما رأته ليس إلا علامات على التعب النفسي الذي لازمها منذ رؤيتها لآدم التائه مقتولاً في شقة إيفا ليسنج .

ارتشفت شيئا من الشاي، وقضمت شيئا من الكيك، وهي تبحث مع نفسها عن تفسير لرؤيتها نفسها بهذه الطريقة، في ثوب شفيف، تقف شبه عارية، وسط الحديقة تحت المطر.. ولماذا تتكرر عليها صورة الشاهدة والقبر..؟ وكيف رأت في تلك الليلة التي لا تنسى، السومبي يملؤون شوارع لندن الليلية ويزدحمون على جسورها العديدة..؟ أكل ما تراه ليس سوى أوهام يخلقها عقلها المتعب..؟ ثم.. لماذا قررت فجأة وبدون أي تفكير مسبق وبلا سبب معقول أن تلغي الحجز الخاص بسفر أمها معها..؟ لماذا قررت ذلك، مباشرة، بعد أن تراءت لها صورة شاهدة القبر التي بدت في أعلى التل، وصوت البحر غير المرئي الذي كانت تسمعه قادماً من الجهة الأخرى من التل...؟ لحظتها أحستْ وكأن نداءً ما يدعوها هي وحدها أن تكون عند هذا القبر.. لكن أهناك قبر وحيد على تل مطل على البحر في تلك الجزيرة التي ستذهب إليها حقاً..؟

لم تجد جواباً عن كل هذه الأسئلة التي بدأت تصطخب في ذهنها .

فجأة بدأ المطر يهطل بغزارة، وبدأت السماء تبرق وترعد. أحست بالخوف من البرق الذي أخذ يشق سقف السماء التي اكفهرت وادلهمت بالغيوم. ظلت لفترة تراقب المطر المنهمر وتستمع لصوته وهو يرتطم ببلاط الشرفة. دخلت الفتاة الهندية تتبعها موظفة الخدمة الانكليزية، حيث أخذتا تغلقان نوافذ صالة الطعام المجاورة والمفتوحة على صالة الضيوف، ثم أخذتا تغلقان نوافذ صالة الضيوف والباب الذي يقود إلى الشرفة، وخرجتا دون أن تتبادلا معها أية كلمة وكأن ما قامتا به هو جزء من عملهما حين تمطر السماء .

لم تعرف كم الوقت مر عليها وهي تنظر إلى الحديقة والمطر الذي أخذ صوته يُسمع ليس عند ارتطامه ببلاط شرفة الحديقة فحسب وإنما من خلال صوت جريانه في البالوعة المجاورة إلى حفرة لاستقبال مياه الأمطار أو مياه غسيل الشرفة في بعض أيام الصيف الساخنة .

أحست بالكآبة تقبض على روحها. لم تستطع القراءة. نهضت وبيدها المخطوطة. اقتربت من الباب الزجاجي الذي يفصل بين الصالة والشرفة. اقتربت جداً بحيث التصق أنفها بالزجاج، لكنها تراجعت مرتعبة، فجأة، حينما برقت السماء بريقا هائلاً مصحوباً برعد هز البيت، بل وأحست كأن الرعد قد هز مدينة لندن كلها .

شعرتْ بضآلة الإنسان أمام جبروت الطبيعة. لا تدري كيف برقت صورة الإنسان القديم الذي كان يسكن الكهوف إلى ذهنها، وسألت نفسها كيف صمد أمام جبروت الطبيعة وهو العاري الذي عاش حياة بدائية موحشة..؟ هل كان للحياة معنى آنذاك..؟

أحست برغبة في أن تكون في غرفتها حيث تشعر بالأمان أكثر. غادرت الصالة حاملة مخطوطة رواية آدم التائه، صاعدة إلى الطابق الأعلى، بينما كان البيت يهتز من هزيم الرعد الهادر .

* * *

استمر المطر ينهمر طوال ساعات المساء. بعد العشاء أعدّت حواء صحراوي حقيبة سفرها، واضعة فيها كل ما تحتاجه هناك، من ملابس خفيفة لمنطقة يفترض أن يكون جوها حاراً وغير ممطر، إلى جانب ملابس الشاطئ من مايوهات السباحة وأغطية الرأس، والثياب الخفيفة الطويلة، والمراهم وعطور وأدوات الزينة، والبدلات الليلية، والبنطلونات الأنيقة.

ظلت حواء لوقت طويل تحاول أن تستذكر أي شيء ضروري ربما قد

نسيت أخذه معها، لكنها لم تجد، كما اتصلت بوالدها، وتحدثت معه قليلا عن حالتها الصحية وضرورة السفر للعلاج إلى تلك الجزيرة البركانية، فهذه أول مرة يتحدثان فيها عن مرضها، ثم ودعته، دون الإشارة إلى أمها، إذ تحدث معها عن ضرورة الانتباه لنفسها وصحتها، لكنه لم يشر إلى سفر أمها قط، حتى أخذت تشك بأنه هو الذي اقترح عليها السفر معها، أو حتى دار مثل هذا الحديث بين والديها، إذ ربما كانت هذه هي رغبة أمها، ولو كانت قد حجزت لها لكانت قد وضعت الأب أمام الأمر الواقع، أو ربما فعلاً كانا قد اتفقا على ذلك، لكنه احتراما لها لم يأت على ذكرها كي لا يحرجها .

انتابها مزاج السفر، فكانت قلقة، مستنفرة الأعصاب. كانت تتحرك في غرفتها من زاوية إلى أخرى دون هدف معين. فتحت خزانتها، كانت تبحث عن شيء غير محدد، لا تعرف ما هو، فجأة، تذكرت ذلك الشيء الذي كانت تبحث عنه: إنها الكتب. انتبهت إلى أنها لم تأخذ معها كتباً، فكرت أنها في كل الأحوال لم تنته من رواية آدم التائه التي ستأخذها معها، وربما ستحاول الليلة أن تقرأ ما تستطيعه، وستحملها في حقيبتها اليدوية بحيث يمكنها أن تقرأ في الطائرة إذا أحست برغبة في مواصلة القراءة، لذلك توجهت إلى الجانب الآخر من الغرفة حيث صفوف الكتب على الرفوف، مستذكرة حديث آدم التائه عن روايات محددة كانت قد قرأتها، لكنه تحدث عن خصوصياتها من ناحية الموضوع وطبيعة الشخصيات، فاستلت رواية مترجمة عن الفرنسية هي رواية (صومعة بارما) لستندال من رف الكتب الإنكليزية، وكذلك استلت كتاباً يضم مجموعة من أشعار ت. أس. إليوت بالإنكليزية، وكتابا جديداً كان قد صدر مؤخرا (البارسايكولوجي والفلسفة الروحانية) لمؤلفه ديفد راي كريفن، ثم اقتربت من رف الكتب العربية فتناولت كتابا هو نص مسرحية (يا طالع الشجرة) لتوفيق الحكيم، فتحته لا على التعيين، فوقعت عينها على حوار كانت قد خطَّتْ تحته بخطوط ملونة، أثناء قراءتها لنص المسرحية سابقاً، إلا أن الحوار أعجبها، فقرأته ثانية والابتسامة على شفتيها :

المفتش: أسمع.. أعطني تذكرتك ..

الدرويش: وإذا لم أعطك التذكرة ..

المفتش: نتخذ ضدك الإجراءات ..

الدرويش: وما هي الإجراءات!..

المفتش: دفع ثمن التذكرة مع الغرامة ..

الدرويش: وإذا لم يكن معي نقود..؟
المفتش: أنزلك من القطار في أول محطة وأسلمك إلى ناظرها ..
الدرويش: وماذا سيصنع بي الناظر..؟
المفتش: يسلمك للبوليس ..
الدرويش: وماذا يصنع بي البوليس..؟
المفتش: يحرر لك محضر مخالفة ويقدمك للمحاكمة ..
الدرويش: وبماذا تنتهي المحاكمة..؟
المفتش: بالحكم عليك بغرامة ..
الدرويش: وإذا لم أدفع الغرامة..؟
المفتش: توضع في الحبس ..
الدرويش: وماذا أفعل في الحبس..؟
المفتش: لا تفعل شيئاً ..
الدرويش: أنا الآن لا أفعل شيئاً ..

كان وجهها مبتسماً لكنما يوحي بالتفكير الحزين. أغلقت الكتاب، فهي تعرف هذا النص المسرحي جيداً، فقد قرأته حينما كانت تعد لإطروحة الدكتوراه عن شكسبير فقرأت الكثير من نصوص المسرح العربي، ومن بينهم توفيق الحكيم. أرجعت الكتاب إلى الرف، ثم سحبت رواية (السراب) لنجيب محفوظ التي تحدث عنها آدم التائه بالإسم من بين روايات نجيب محفوظ العديدة، وبالرغم من أنها قد قرأتها قبل سنوات إلا أنها أحست برغبة بإعادة قراءتها ثانية لتكتشف تلك الخصوصية التي تحدث عنها آدم التائه في هذه الرواية.، كما سحبت كتابا ضخماً يضم السونيتات الكاملة لشكسبير بالعربية والإنكليزية بترجمة كمال أبو ديب. فكرت أن تأخذ كتباً أخرى، لكنها وجدت أن هذا العدد من الكتب كاف للفترة التي تنوي فيها الإقامة هناك .

حينما انتهت من وضع الكتب في الجيب الخارجي للحقيبة، أحست بشيء من الإستقرار النفسي .

* * *

حين استلقت حواء صحراوي في سريرها الوثير وجدت في نفسها الرغبة في مواصلة قراءة مخطوطة رواية آدم التائه. وضعت صفحات الفصول السبعة السابقة جانباً، لكنها وقبل أن تبدأ القراءة، فكرت في جثة آدم التائه واختفائها الغامض.. أين يمكن أن تكون؟ مَن قام بإخفائها..؟

وكيف؟ انتبهت لنفسها إلى أنها لا تفكر في القاتل لأنها على يقين من أنه طليقها السابق قابيل الموسى.. بل إن يقينها الآن لا يقبل الشك بعد أن عرفت بأن أم هابيل تنقل له كل شيء، ومن المحتمل أنها كانت تتنصت على غرفتها ليلاً حينما كانت تتحدث معه عبر الهاتف.. ما يحيرها هو اختفاء الجثة.. وفي الساعات الأولى من الفجر، إذا افترضت أن صديقتها إيفا ليسنج ليست لها علاقة بالجريمة، وأنها فعلا لم تر الجثة، ولا تعرف شيئا عمّا حصل..، وإلا فأنها شريكة في الجريمة بكل تفاصيلها .

ظلتْ للحظات تحدق في سقف الغرفة وعلى وجهها علامات تفكير عميق. كانت في تلك اللحظات تفكر في رؤيا الشاهدة والقبر على التل، ووسط الحديقة تحت المطر، وسألت نفسها: أيكون هذا إشارة من آدم التائه إلى أنه دفن، وإنّ عليها أن تجد قبره المجهول..؟ إنها تؤمن بالبارسايكولوجي، والتخاطر، والخبرات الروحية التي تتجاوز التفسيرات العقلانية الباردة.. وأحست انها تتهيأ لتجربة روحية مهمة.. لكن متى وكيف؟ لم تجد أية إجابة أو تفسير لما كان يجول في ذهنها، ولكي تخرج من دوامة الأسئلة هذه توجهت لقراءة المخطوطة، عسى أن تمنحها شيئا من الجلاء الروحي والمعرفة الاستبصارية للكشف عن ملابسات ما يجري، لذا وجدت نفسها تبدأ قراءة الفصل الثامن من مخطوطة رواية متاهـة الأشباح:

متاهة الأشباح

8

آدم البغدادي والضياع في متاهة الرغبة

في تلك الليلة، وفي ظلام الغرفة الدامس، لم أستطع أن أرقد مستقراً، إذ كانت أعماقي مضطربة، وكانت الأفكار المتناقضة تبعد النوم عن عينيّ، فلم أصدق بأن صديقي آدم الواسطي الذي كنتُ أعدّه من ألمع المثقفين الذين أعرفهم، ومن أكثرهم إطلاعاً على الفكر الإنساني، والمولع بالفلسفة وعلم النفس، يطلب من والده وأخواله أن يقوم هو بذبح أمه أو رميها بالرصاص..!

لم أكن قادراً على استيعاب هذا الأمر! أكانت الثقافة والفكر والقراءات الطويلة منفاه من عالم الواقع، بحيث عندما واجه الواقع البشع ألقى بالفكر في صندوق القمامة..؟ أكان آدم الواسطي نفسه يعاني من عقدة أوديب خفية..؟ أي أنه كان يعشق أمه المرأة الجميلة التي ربما هي

أصغر بقليل من أم قابيل..؟ وأنه أحس بأنها خانته حينما ذهبت مع شاب أصغر منه؟ وأن طلبه أن يقوم هو نفسه بقتلها ليس إلا تعبيراً عن رغبته المقموعة، التي كان يحاول التعويض عنها من خلال علاقته بأم قابيل، لكنها تفجرت الآن على شكل رغبة في الإنتقام..؟ لا أدري.. ربما!..

كنتُ أقلب الأمر من جميع جوانبه مع نفسي. فجأة، وجدتُ نفسي أفكر في أم قابيل. أحسستُ برغبة شبقية عارمة نحوها. سألتُ نفسي مشاكساً، إذا كان صديقي آدم الواسطي يهرب من رغبته المحرمة في أمه، نحو جسد أم قابيل الجميلة، فما الذي يدفعني أنا إليها..؟ أهي رغبتي الدفينة في أمي، حسب تحليل فرويد وجماعته، وأحاول أن أحيلها إلى رغبة في جسد آخر هو جسد أم قابيل..؟ لا.. لا.. أمي ليس فيها أية مسحة من الجمال.. فهي ضئيلة، مريضة، شاحبة الوجه، لا تثير في النفس أي شعور بأنها أنثى، ناهيك أنها بالنسبة لي كالغريبة.. أأنا مصاب بعقدة أوديب..؟؟ لا.. لا.. ليس الأمر في عقدة أوديب بهذا التبسيط الساذج..

لكن ما الذي يدفعني إلى أم قابيل حقاً..؟ أهو عمرها الناضج..؟ خبرتها الجنسية..؟ جسدها الممتلئ قليلاً والمثير، والموحي والواعد برغبات مكبوتة وعطش جنسي، أم هي غيرتي اللاواعية من صديقي آدم الواسطي ورغبتي الغامضة في امتلاك ما يخصه، إشباعاً لعقدة نقص في أعماقي؟

على إيقاع تلاطم أمواج الأفكار الغامضة، والأسئلة الصريحة، والشبق الجنسي، تسرب النوم لا إراديا إلى ذهني ونفسي، وغصت في قاع لا قرار له .

* * *

لم أفتش ذلك اليوم عن صديقي في مقصف الجامعة، فقد عرفت أين هو، لكني لمحت زميلته الفيلسوفة من بعيد. كان وجهها شاحباً، يفيض بالقلق والترقب والخوف المكتوم، تفتش في زوايا المكان، وكان واضحاً بالنسبة لي بأنها تفتش عن صديقي آدم الواسطي .

فكرتُ مع نفسي بأن أذهب إليها لأخبرها عما جرى لصديقي، لكني أعرف بأنها لا تعرفني، بيد أني أخمن بأن صديقي ربما حدثها عني كما حدثني عنها، وإلا فأنها ستشك بي، وبرغم ذلك فقد قررت أن أذهب إليها لأحدثها عنه، وسأسألها إن كانت تحتاج إلى أية مساعدة يمكنني أن أقدمها إليها.

حالما قمت من مكاني لأتوجه إليها، رأيتها تغادر المكان. أخذت أسرع في المشي. انتبهتُ أن لديّ محاضرة عن الشاعر الألماني غوته، وبعدها عليّ

الذهاب إلى المنزل الكبير، إلى أم قابيل، والتي عليّ أن أحسم طبيعة علاقتي بها هذا اليوم، لكني أردتُ أن أحدث الفتاة الفيلسوفة عن صديقي آدم الواسطي أيضاً فهي بالتأكيد تبحث عنه، وقلقلة عليه مثلما كنتُ قلقاً عليه قبل أن أعرف أخباره.

حينما صرتُ خارج المقصف لمحتها على بعد خمسين متراً تقريباً، وهي باتجاه الباب الخارجي، حاولتُ اللحاق بها، لكنها كانت قد صارت في الشارع، وحين صرت في الشارع أيضاً لم أجدها.

تلفّتُ يميناً وشمالاً لكنها كانت قد اختفت، إلا أني وعلى بعد عشرين مترا رأيتها تجلس بين رجلين في سيارة بيجو، انتبهتُ إلى رقم السيارة، فحفظته مباشرة، ردد تُ مع نفسي: 13760 بيجو بيضاء. تحركتْ السيارة، ورأيت يداً تضغط على رأسها، فتختفي بكامل جسدها إلى الأسفل بين الرجلين. من تُرى هم هؤلاء..؟سألتُ نفسي. تذكرتُ أن هذه السيارات تعود لأجهزة المخابرات، فهل هذا يعني أنها أعتُقلت..؟ .

لم أرجع إلى الكلية، بل قررتُ الذهاب مباشرة إلى المنزل الكبير. كانت تدفعني رغبة مراوغة، تتراءى لي مرة وكأنها لمعرفة مصير صديقي، ومرة أخرى كأنها لرؤية أم قابيل .

بعد دقائق انتبهتُ لنفسي وأنا أمشي باتجاه باب المعظم، لأنعطف منه إلى ساحة الميدان ومن هناك إلى المنزل الكبير في الحيدرخانة .

* * *

حين وصلتُ قرب المنزل الكبير، لم أجد أية زحمة كما بالأمس، بل رأيت فتيات صغيرات يلعبن على بُعد مسافة قريبة من الباب. كان باب المنزل الكبير مفتوحاً. حين دخلتُ أحسستُ برهبة غير عادية، حيث كان سكون يطبق على المنزل، وحين انعطفتُ إلى الباحة لم أجد أحداً من المعزّين أو المعزيات، وحين رفعتُ رأسي إلى الطابق العلوي وجدتُ والد الفتاة المنتحرة يجلس كالمومياء على كرسيه وينظر إلى الفراغ. لا أدري لماذا تذكرتُ صورة لمومياء الفرعون رمسيس الثاني التي تتواجد في معظم الكتب التي تتحدث عن مصر الفرعونية؟

كانت الأفرشة لا تزال على أرضية الباحة، بل حتى الكرسي الذي كان الرجل الذي يرتدي الزيتوني جالساً عليه بالأمس لا يزال في مكانه. كان ثمة سكون يطبق على المنزل. أحسستُ بشعور غير مريح من هذا الهدوء، ومن عدم وجود أحد، بل حتى الفتاة التي تخدم أم قابيل، والتي تتحرك في المنزل بشكل دائم قد اختفت .

ما الذي جرى..؟ سألتُ نفسي. تقدمتُ بضع خطوات في الممر الذي يجاور غرفة أم قابيل. وجدتُ الباب موارباً بشكل لا يشير بأنه مسدود، لكنه في كل الأحوال يحجب من في داخله عن الرؤية. وبهدوء شديد مددتُ كفي دافعا الباب قليلاً .

كانت أم قابيل جالسة وأمامها سماور الشاي. كان وجهها تجسيدا معبرا للحزن والخوف معاً. حين رفعتْ رأسها نحو الباب التي فُتحت بهدوء، ورأتني مادا برأسي داخل الغرفة، ارتعشت ملامحها، ولمحتُ بريقاً في أعماق عينيها، فأدركتُ بأنها قد بكت طويلاً، لكني انتبهتُ أيضا إلى أنها قد ارتدت ثوباً اسود جديداً، وزينت نفسها بشكل خفيف جداً، وبدون أن تتحدث مدت يدها إليّ وكأنها تستنجد بي .

حين صرتُ داخل الغرفة توجهتُ إليها آخذا يديها بيدي. جلستُ قربها على الأرض المفروشة بالسجاد. نظرتُ إليها. ارتعشت شفتاها ألما، وامتلأت عيناها بالدمع. فجأة، أخذت تبكي وتقول :

- مصيبة يا أستاذ... مصيبة.. ابني وحبيبي آدم راح مني.. فقدته ..

أحسستُ كأن تشنجاً قد قبض على قلبي، وضغط على رئتي، فخنقني، ومنعني من التنفس بشكل طبيعي. انتبهتُ لحالتي. توقفت عن أي رد فعل، إلى أن استطعت التنفس ثانية، فقلتُ لها والكلمات تخرج من فمي بصعوبة :

- ماذا تقولين..؟ لا أفهم ماذا تقصدين..؟
- ابني آدم.. حبيبي.. متورط بأمور السياسة ..
- ماذا تقولين..؟ من أخبرك بذلك..؟ كيف عرفت..؟
- جارنا الذي يرتدي الزيتوني.. تحدثت معه اليوم، فأخبرني بأن آدم لن يخرج من التحقيق بسهولة ..

أحسستُ بتوتر خفي، وبرق في ذهني مشهد زميلة صديقي التي نسميها بالفيلسوفة وهي في سيارة البيجو البيضاء التابعة للمخابرات، لكني أقنعت نفسي بأن هذا الأمر حدث قبل أقل من ساعة تقريباً، وآدم الواسطي في التحقيق منذ أربعة أيام، وهذا يعني أنه لا علاقة لها بالأمر.. انتبهتُ لأم قابيل التي كانت لا تزال تمسك بكفي وساعدي، فسألتها :

- لكنك قلت إنه في التحقيق بسبب انتحار الفتاة التي كتبت في رسالتها بأنه أحد الذين دفعوها للإنتحار..

قالت أم قابيل وهي تولول :

- أي.. هذا صحيح.. لكن الرجل الذي يرتدي الزيتوني كان يعرف

بالقصة منذ مساء الأمس.. إذ أنه قد التقى مسوؤل منطقتنا الحزبي، الذي أخبره بأن الشاب الجامعي الذي يسكن في المنزل الكبير، والمسمى آدم الواسطي، اتضح أنه معاد للحزب والثورة، ويتعاون مع أعداء البلاد، وأن البلاد الآن تمر بظروف سياسية وعسكرية صعبة، وأميركا وبقية الدول الأوربية يحاولون ضربها، لذلك فأن مصيره سيكون مجهولاً.. ونصحني بأن أتعاون معهم بإعطاء أية معلومات تفيد التحقيق وألا فستكون عاقبة الذين لا يتعاونون عسيراً.. أنا خائفة.. خائفة يا أستاذ ..

لا أعرف لحظتها كيف اندفعتُ بحركة لا إرادية مادا ذراعي إليها محتضناً إياها، فمالت هي بجسدها إلي. انتبهتُ بعد ثوان لما قمتُ به، ولم أكن أعي هل كنتُ أريد مواساتها، أو أن الخوف قد تسرب إلى نفسي، فلذتُ محتميا بجسدها الدافئ واللدن .

انتبهت أم قابيل أيضا للوضع، فحين رأت نفسها بين أحضاني الدافئة، أحست بحنان دافق يغمرها، ومشاعر غير واضحة من الحب والإعجاب واللطف تشكلت في أعماقها نحوي. أحستْ ببعض الارتباك من هذه المشاعر الرقيقة التي غمرتها، فسحبت نفسها قليلا، متحررة من أحضاني، إلا أني أحسستُ بالارتباك أيضاَ حينما سحبت نفسها من بين ذراعيه .

بقينا للحظات صامتين. أحسَ كلانا بالخجل من اللحظات القليلة التي كنا فيها يحتضن كل منا الآخر. كفت هي عن البكاء فجأة، قالت لي :

- هل أصب لك شاياً في الكوب..؟
- نعم.. نعم ..

مدت يدها إلى الصينية المجاورة لها وأخذت كوبا، وضعت فيه ملعقة من السكر، ثم صبت لي الشاي. كنتُ أتأملها، فانتبهتُ إلى كفها البيضاء الناعمة التي تزينها المحابس ذات الأحجار الثمينة، وإلى ساعدها الذي انكشف حينما أخذت تصب له الشاي. قدمت لي الشاي ثم سألتني:

- أتدري أنني لا أعرف اسمك لحد الآن، بالرغم من أننا قريبان من بعضنا جداً..؟
- آدم.. آدم البغدادي ..

ارتسمت علامات التعجب على وجهها الجميل، وقالت :

- آدم.. آدم أيضا..؟
- نعم آدم.. كلنا أوادم يا أم قابيل ..

نظرت إليّ للحظات وكأنها تبحث عن شيء ما تريد أن تتأكد من وجوده من خلال نظرها إليّ، وقالت :

- هذا صحيح.. كلنا أبناء آدم وحواء.. أتدري أن زوجي كان اسمه آدم أيضا.. وقد سمى ابني باسم قابيل ابن آدم.. وحينما استشهد ابني قابيل قبل سنوات في الجبهة، أرسل الله إلي ابني آدم الواسطي.. والآن هو في التحقيق.. ولا أدري إن كان سيخرج سالماً أم لا.. بينما بعثك الله لتكون إلى جانبي في هذه المحنة التي أمر بها ..

أحسستُ بارتعاشة صوتها وهي تتحدث، لا سيما حينما نطقت جملتها الأخيرة والتي خصتني بها، إذ كان ثمة رغبة واضحة في صوتها. أحسستُ برغبة هائلة تجتاحني، بل كنتُ أتخيل نفسي معها في تلك اللحظات أكثر مما كنتُ أقوم به من خطوات فعلية للحصول عليها.

كنتُ، في اللحظات التي كانت تحدثني، أتخيل نفسي أخترقها بعنف وقوة وهي تئن وتصرخ تحتي، لكني انتبهتُ لنفسي بأني ما زلتُ أستمع إليها، وكل منا جالس في مكانه، بينما أنا لا أفعل شيئاً سوى النظر إلى وجهها الجميل المحاط بالشال الأسود الذي تضعه النساء العراقيات الريفيات على رؤوسهن، مسافراً بعينيّ في أنحاء جسدها، أنظر إلى نهديها اللذين كانا واضحين بحجمهما المثير تحت ثوبها الأسود، وإلى بطنها التي لم تكن مستوية لكنها ليست متكرشة، وإلى ردفيها اللذين يبدوان ممتلئين من تحت الثوب الأسود .

نظرت إليّ بحنان، وقالت لي بجرأة أعجبتني وأربكتني في الوقت نفسه :

- أريدك أن تكون قربي هذه الأيام.. أنا أخاف من الوحدة.. الفتاة التي تخدمني سافرت مع جدها إلى أقرباء لهم في السماوة.. وستبقى بضعة أيّام هناك.. يبدو أن خالاً لها أو خالة هناك في حالة خطرة.. أخذت جدها وسافرت.. كما لم تطق أم الفتاة المنتحرة صبراً، فأخذت ابنها وسافرت إلى النجف لزيارة قبر ابنتها الذي لم يجف ترابه.. أنا وحيدة.. وخائفة ..

قالت ذلك ومسكت ذراعي وكفي بكفيها. أحسستُ بدفئها يتسرب إليّ. كانت متوهجة برغبة بدأت تفصح عن نفسها. أحسستُ بالارتباك برغم أن إشارتها كانت واضحة، فقلتُ لها :

- سأكون معك.. لا تخافي.. أنا معك.. إلى أن يخرج آدم من المحنة التي هو فيها ..

انتبهتُ إلى أنها سحبت يديها حينما ذكرت اسم صديقي الذي يمكن أن يخرج، وقالت بنبرة باردة لم أسمعها منها سابقاً:

- إنه لن يخرج.. جارنا الذي يرتدي الزيتوني، الذي لا أعرف اسمه

لحد الآن، بالرغم من أنه يدخل بيتنا كل يوم تقريبا ومنذ أشهر، أكد لي بأنه متورط بأشياء خطيرة. أنا خائفة ..

كانت تريد أن تبتعد عن ذكر آدم الواسطي، محاولة أن لا يكون حاضرا بيننا الآن، فقالت بشكل أكثر وضوحاً :

- صرت لا أستطيع العيش دون أن أراك.. حين أراك أرى ابني وحبيبي آدم.. أمس حينما ذهبت شعرت بالخوف.. قلت لنفسي ربما تفوهت بشيء أزعجه، لأنك فجأة قررت الذهاب ..

أحسستُ بارتباك مصحوب بخوف خفي من هذه الدعوة الصريحة بأن أكون معها، وأخذتُ أعيش في أعماقي صراعا بين أن أنسحب كليا، وبين أن أتقدم نحوها ملبياً دعوتها الواضحة جداً، والتي لا يمكن أن تفسر على غير ما هي عليه من وضوح، فقلتُ لها بشكل محايد:

- أبداً لم تزعجيني.. فقط كان عليّ الذهاب.. فبيتنا بعيد.. نحن نعيش في الوشاش ..

- لماذا لا تعيش هنا عندي.. في الغرفة العليا الفارغة.. أو حتى في غرفة آدم..؟

فوجئتُ باقتراحها الذي لم أتوقعه أبداً، فقلتُ مرتبكا :

- كيف..؟ صحيح أنا أستطيع العيش خارج البيت، لكن كيف يمكنني أن أسكن هنا..؟

- بكل بساطة.. أنا سأعتني بك وبغرفتك.. ولا تفكر في الإيجار.. سترتاح هنا ..

كانت تتحدث بنبرة مليئة بالشبق والرغبة الطاغية بحيث شعرتُ بالحرج، بينما كنتُ في أعماقي أنتقد نفسي لجمودها وعدم استجابتها لجسد هذه المرأة الذي كان مهيئا لاستقبالي بشوق، فقلتُ :

- ولكن ..

مسكت كفي وأخذتها بين كفيها مستديرة بكامل جسدها نحوي، فمستْ كفي تلك المنطقة ما فوق ركبتها فأحسست بطراوة فخذها. لم أكن أعرف كيف أتصرف، إذ أحسستُ بالانتعاظ المفاجئ. كانت هي تنظر إلى وجهي، تدرك ارتباكي، بل أدركتْ بأن عليها هي أن تقودني وإلا فسوف أهرب منها ثانية، فأخذتْ تضغط على كفي، وتسحبها نحو أعلى فخذها بحركة تبدو وكأنها عفوية وغير مقصودة.

في تلك اللحظة لم أعد أفكر في أي شيء، سوى اختراقها، فسحبتُ كفي من بين كفيها، واحتضنتها، مقرباً وجهها من وجهي ومقبلاً شفتيها

بشكل محموم، بينما يدي الأخرى أمتدت، بجرأة لا أعرف مصدرها، إلى ما بين فخذيها، فانهارت من حمى الشهوة، ومدت نفسها على الأرض، منتظرة مني الدخول فيها، إلا أني كنت منشغلا بتقبيل شفتيها ووجهها ورقبتها نازعاً عنها شالها الأسود، مادا يدي إلى ما تحت الفتحة في ثوبها من الأعلى، ضاغطاً على نهديها، بينما كانت هي تقول بصوت خافت مترع بالشهوة :

- تعال حبيبي.. أطفئ ناري.. أنا أشتعل.. حبيبي..

سحبتُ يدي من فتحة ثوبها من الأسفل، رافعا ثوبها كاشفا عن جسدها اللدن، ناظراً إليها، عارية، فمددتُ يدي إلى هناك حيث كان حليقاً، ومبتلاً بسخاء، فأخذتُ أداعبه بأصابعي وكفي، بينما هي تئن من شدة الشهوة بصوت مكتوم، داعر، ويدها تمتد إلى بنطالي محاولة فك حزامه، فأدركتُ أنها كانت قد أعدت نفسها لمثل هذه الموقف .

فجأة، برقت في ذهني صورة صديقي آدم الواسطي الذي قالت عنه بأنه لن يعود، ومشهد الفتاة الفيلسوفة وهي في سيارة المخابرات، وهذا الصمت المطبق في المنزل الكبير، وصورة الرجل الذي يرتدي الزيتوني، فأحسستُ وكأن ألقي بي في حوض ماء بارد. خمد كل شيء. وكأن ثمة زراً تم ضغطه فأنطفأ كل شيء. سحبتُ يدي، وحاولتُ النهوض، وكففتُ عن أية محاولة لاقتحام جسدها .

نظرتْ إليّ دون أن تدرك شيئاً مما جرى. كانت مصدومة، ومرعوبة من أنها ربما اقترفت خطأ ما، أو تصرفت بشيء لم يعجبني. كانت حائرة، لم تفهم ما جرى، فنظرت إليّ وقالت بصوت مخنوق :

- ماذا جرى..؟ لماذا توقفت.. حبيبي..؟ هل بدر من شيء ما أزعجك..؟ حبيبي. أرجوك. قل لي.. لماذا توقفت..؟

- لا شيء ..

- لا شيء.. إذاً لماذا توقفت حبيبي..؟

- قلت لك لا شيء.. مجرد تذكرت صديقي آدم الواسطي ..

نظرت إليّ برقة، لكنها كانت تفكر بسرعة خارقة في أن تعيدني إلى جسدها، وإلى حالتي الشبقية المتهيجة التي فاجأتها، فقالت بنبرة شبقة، وهي تقبض على كفي التي كانت تداعب أسفلها قبل لحظات :

- حبيبي.. نحن الآن في لحظة لنا.. دعنا من الآخرين الآن ..

نهضتْ لتجلس على حافة السرير دون أن تترك يدي ساحبة إيايّ نحوها، وهي تقول بشبق :

- تعال حبيبي.. أتوسل إليك.. أبوس يدك تعال ..

وأخذت تقبل يدي بشهوة، وتضع أصابعي في فمها ماصة إياها، إلا أني كنت مثل جبل الثلج فلم أستجب لها، بينما كانت هي تغرق في مياه رغبتها العارمة وهي تقول لي دون أن تنتظر جواباً مني :

- حبيبي. حبيبي أنت.. تعال أدخله فيّ.. أنا انتظرك من أول مرة رأيتك فيها.. كنت أنتظر أن أراك فوقي.. أنا خادمتك.. كل ما أملك من مال وأملاك تحت قدميك.. فقط أطفئ ناري... أقبل يديك وقدميك.. حبيبي ..

كنتُ أنظر إليها جامداً دون أية استجابة، وأراها وقد دخلت حالة من الهستيريا الجنسية، إذ كانت تتلوى، وتتفنن في تقبيل أصابعي، ثم تمررها على جسدها، بل رفعت ثوبها حتى عنقها كاشفة عن جسدها بالكامل. كانت تهذي، وتقول :

- لا تتصوّرني إنسانة عادية وأعطي نفسي لأي رجل كان.. أنا لك.. لك وحدك.. أنت حبيبي الشاب الجامعي.. أرجوك.. أنا أتعذب.. أرحني.. أنا لك.. حبيبي ..

لا أعرف ما الذي جرى لي في تلك اللحظة بالضبط، إذ أحسست بنفسي وكأني خارج المكان والزمان، أطل من شرفة عالية لأرى مشهداً ما، أو أرى أمامي شيئا غريباً عني، وبعيداً عني وليس أمامي مباشرة.

كانت أم قابيل في حمى شبقها الجنسي، تهذي دون توقف بكلام داعر. سحبتُ يدي، فلم تنتبه لذلك، وإنما أخذت تداعب صدرها وبطنها وأسفلها صعوداً ونزولاً بيديها. نظرتُ إليها وهي تتلوى مغمضة العينين. كانت هي في عالم آخر، مهووسة بذاتها وبشهوتها المتفجرة، كانت لا ترى ما يجري في الواقع، وإنما تتخيل ما يجري، فكانت ترفع نصفها الأسفل للأعلى قليلاً ثم تهبط، تتلوى يمينا وشمالاً وهي تتمتم بكلمات مليئة بالشبق المفضوح، عن الإيلاج والإشباع، وتتوسلني بأن أطفئ لهيبها بمائي. كانت مثل حيوان ذبيح، أو موجوع يتلوى من الألم، لكن فجأة، سكنتْ، ليس عن إشباع وبلوغ لذة، وإنما لانتباهها بأنها وحدها، وليس ما كانت تتخيل أنه يجري. حدقت إليّ بعينين مفتوحتين، مليئتين بالتوسل والرغبة المنكسرة، دون أن تفهم شيئاً .

كنتُ أنظر إليها جامداً.. مستغرباً من حالة البرود والعجز والإنطفاء الكامل الذي أصابني فجأة. سمعتُ حركة أقدام تدخل إلى المنزل، صمتنا كلانا منصتين للصوت منتظرين معرفة القادم، بينما كانت هي تغطي بثوبها

جسدها العاري، محاولة الجلوس على حافة السرير. انقطع الصوت فجأة. بقينا ننتظر قليلاً، لكن لا أحد قد أتى، ولا صوت يُسمع .

كانت تنظر إليّ، متوسلة، وهي تأمل أن أقترب منها. كنتُ واقفا قرب السرير، نزلتْ هي متزحلقة عن السرير وجلست على ركبتيها. مدت ذراعيها ومسكت بكفيّ الممتدتين على جانبيّ بإسترخاء كامل. كانت تنظر إليّ كما ينظر الكلب إلى سيده بعيني مليئتين بالتساؤل والرجاء. لم تكن تفهم لماذا انطفأتُ وابتعدتُ عنها بالكامل. قالت بكلمات مخنوقة متوسلة :

- ما الذي حصل..؟ ألا أعجبك..؟ ألا تريد أن تنام معي..؟ ألم يعجبك جسدي..؟ انظر إليّ.. أجبني أرجوك.. أتوسل إليك.. أنا أشتعل.. أرحني من عذابي.. أخبرني فقط لماذا لا تريد أن تنام معي..؟

كنتُ أقف كالتمثال. أنظر إليها بعينين فارغتين، لا أعرف أنا نفسي ما الذي جرى معي فجأة، فقد كنتُ أنتظر هذه اللحظة منذ أسابيع فلماذا انطفأتُ الآن؟ بل إنني عاجز بالكامل. كنتُ أفكر مع نفسي، بينما كانت هي تهز يدي مقبلة إيّاها بشبق، وتواصل كلامها وتوسلاتها :

- أرجوك يا آدم.. أنا أحبك.. لا أستطيع العيش بدونك.. كنت أحلم الليل كله بك.. لماذا أنت صامت لا تتكلم..؟ أخبرني أرجوك ما الذي حصل..؟ لقد حضرت نفسي لك.. لقد استحممت وحلقت وزينت نفسي وتعطرت من أجلك.. فما الذي جرى؟ لقد كنت قبل قليل مشتعلاً وأنت تقبلني، ومددت يدك فيّ وداعبتني.. فما الذي حصل..؟ إذا كنت لا ترغب فلماذا أشعلت النار فيّ..؟ أجبني أرجوك.. هل بدر مني ما أزعجك..؟

كنتُ أنظر إليها، وأسمع توسلاتها، أرغب فيها جنسياً بفكري، لكنني بارد كالثلج ومطفأ مثل قنديل صدئ في معبد مهجور. كنتُ أفكر مع نفسي بهيمنة الجنس على الإنسان.. لكن فجأة، وبدون أي كلام، وجدتُ نفسي اندفع مغادراً الغرفة مسرعاً وكأني أهرب من مأزق لعين، بينما ارتسم الرعب والصدمة على وجهها الذي لم تغادره بقايا الرغبة الملتهبة بعد، وهي تصرخ خلفي :

- آدم.. أرجوك.. لا تتركني.. أرجوك عد إليّ.. آدم ..

قبل أن أصل الممر سمعتُ صوت أقدام تخرج من البيت.. في الممر الذي يؤدي إلى خارج المنزل التقيتُ بالرجل المتكرش الذي يرتدي الزيتوني. نظرنا لبعضنا البعض نظرة قصيرة لكنها بليغة ومليئة بالأسئلة، وتجاوز كل منا الآخر .

* * *

حين صرتُ في الشارع، أحسستُ وكأني أتنفس هواء جديداً، وكأني خرجتُ من قمقم مسحور، لكني في الوقت نفسه أحسستُ وكأني خسرتُ شيئاً ثميناً، فرصة قد لا تتكرر بتاتاً، وأخذتُ ألوم نفسي وأنتقدها على جبنها وبرودها، إلا أني كنتُ أعرف جيداً بأني كنتُ أتهرب من السؤال الصادم لي وهو: لماذا انطفأ كل شيء لديّ، وعجزتُ كرجل من أن أنام معها..؟

كنتُ أعرف جيداً بأني سألتف على السؤال مع نفسي، وسأداري كبريائي الجريحة من خلال إيجاد تبريرات أخلاقية بأني لا أريد أن ألوث صداقتي بالممارسة مع عشيقة صديقي، لكني كنتُ أعرفُ أيضاً بأن أم قابيل، كما اتضح لي، لم تفكر بصديقي إلا حينما كان أمامها ويعيش في بيتها، فهي تفكر بالرجل الذي أمامها فقط، تفكر بالرجل الذي يطفئ لهيب شهوتها المتأججة .

النساء النساء... آخ من النساء.. لا تثق يا آدم.. يا بغـدادي.. بأية أمرأة أبداً.. أبداً.. حتى لو كانت أمك.. فالمرأة تخون، فإذا لم تخنك بجسدها وبشكل واقعي من خلال منح جسدها لرجل آخر، فهي تخونك في خيالها، وأحلام يقظتها، حتى إنْ كنت معها اثناء الممارسة.. المرأة.. لا.. لا. ثقة في المرأة حتى لو كانت نبية.. ثم ما هي الخيانة..؟ هل هي إطفاء نار الجسد من خلال شخص آخر، أياً كان هذا الآخر..؟ هل منح الجسد لا يكون خيانة إذا تطابق مع شرعنة المجتمع.. بينما الفعل نفسه يُعد خيانة إذاً خرج عن شرعنه المجتمع..؟ ألم أكن قد خنت صديقي لو كنت قد مارست مع أم قابيل..؟ لا.. لا.. هي ليست زوجته، كما أنه لم يأتمني عليها، بل على العكس كان يتمنى أن أخلصه منها.. لا. لا.. هذه تبريرات غير مقنعة.. إنني أحاول أن أخفف عن وطأة هروبي من أمام أم قابيل، بل لأهرب عن التفكير في انطفائي وعجزي الكامل.. لكن هل عليّ أن أذهب إلى الطبيب طلباً لشرح حالتي، ومنحي بعض المقويات..؟ كنت أحاور نفسي باحثاً عن تفسير لما جرى لي في غرفة أم قابيل.. انتبهتُ.. كان الزقاق يمتد أمامي ملتوياً كالأفعى .

* * *

هـامـش الـمـؤلـف حـول الأحـداث

مـا جـرى في غـيـاب آدم البغـدادي

كانت أم قابيل محبطة، ومتهيجة في الوقت نفسه، وحين سمعت صوت خطوات قادمة ظنت أنه آدم البغدادي عاد إليها، ولكي تثيره، ولا

تترك مجالاً للحوار، تمددت على السرير بعد أن نزعت ثوبها بالكامل .

كانت تتأجج مع كل خطوة تقترب من جهة الممر باتجاه باب الغرفة، لكنها ارتعبتْ حينما رأت رأس الرجل الذي يرتدي الزيتوني داخل الغرفة من فتحة الباب. قفزت مادة يدها إلى ثوبها القريب، لكنها لم تستطع أن تلبس ثوبها، إذ كان الرجل قد صار في الغرفة، بل وبقفزة واحدة صار عند حافة السرير. كان ينظر إليها غير مصدق فتوة جسدها الأربعيني الذي كان يلفه الثوب السود، وجمال صدرها وعنقها، ووجهها المثير الذي كان يغطيه الشال الأسود، فلم ينتبه كل هذا الوقت لها، لكنه الآن أحس وكأن مئات من إبر اللهب توخز جسده، وتشعل جذوة الشبق فيه. انتبهت لنظراته الوحشية الشبقة التي كانت تلتهم جسدها. كان الصمت هو المهيمن بينهما. كانت مثل لبوة في حفرة الصياد الذي يريد أن يجرحها بنصل رمحه الحاد. انكمشت على نفسها. في لحظة كالبرق سألت نفسها: ماذا لو عاد آدم البغدادي الآن ووجد هذا الرجل في غرفتي..؟ أكيد أنه سيتركني، ولن أراه إلى الأبد..؟ .

كان الرجل المتكرش الذي يرتدي الزيتوني قد بدأ يفك حزام بنطاله، حينما صرخت به بصوت جريح مبحوح :

- ماذا تفعل..؟

ابتسم الرجل المتكرش ابتسامة شيطانية، داعرة، وقال وهو يفح :

- ماذا أفعل..؟ أفعل الذي فعله قبلي ذاك الطالب الجامعي.. لقد سمعت كل شيء ..
- هو لم يفعل شيئا.. أقسم لك ..
- كنت تريدين منه أن يفعل.. وإلا لماذا أنت عارية إذن..؟
- لقد نزعت ثوبي بعد أن ذهب ..

كانا يتحدثان بينما كانت يداه تجرانها إلى حافة السرير، لم تستطع أن تقاومه، فهي تخافه أساساً، وحينما صارت أمامه، كان هو قد نزع بنطاله وسرواله اللذين تكوما عند قدميه. حاولت أن تقاوم يديه اللتين كانتا تفتحان فخذيها، لكن بدون جدوى، فقد دفعها بقوة فانبطحت على السرير، وفي لحظة سريعة كان قد أولجه فيها. كانت هي رطبة ومبتلة، أنت بشهوة، بالرغم من محاولتها ألاّ تتجاوب معه، لكنه كان عنيفا، وصلباً، فتنهدت مغمضة العينين، عاضة على شفتيها، وفي لحظة أخذتْ كفها وعضتها بقوة كي لا تصرخ من اللذة الفائقة. وحين انتهى منها مالئا رحمها بمنيه، كانت الدموع تنهمرمن عينيها، دموع الإحساس بالمهانة، والشعور بالذنب

لأنها بلغت أقاصي الذروة الجنسية مع هذا الشخص الذي لا تحبه بتاتاً .

مرت لحظات وهي مستلقية على حافة السرير. رفعت رأسها، وجدته ينظر إليها بشبق، وحينما التقت عيونهما، قال لها بلهجة آمرة :

- سأكون عندك الليلة أيضا.. أنت أيضا متورطة مع هذا الواسطي.. لكن لا تخافي.. أنا موجود لأحميك.. فقط أريدك لي.. بعد ساعتين ثلاث ساعات سآتي بالعشاء معي.. وسنسهر إلى الصبح.. مفهوم ..

لم تجبه، لكنها استوعبت برعب كل كلماته، وأحست نفسها تدور مع دوامة تمضي بها إلى قاع مظلم مخيف .

ظلت مستلقية على السرير. فجأة نهضت من مكانها. ارتدتْ ثوبها، وخرجت مسرعة إلى غرفة الاستحمام. فدخلتها وتعرت هناك، وأخذت تتحمم، وتنظف رحمها مما علق به. كانت في تلك اللحظات تلعن نفسها، وشهوتها التي حولتها إلى عاهرة، يمتطيها كل من يراها دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها، ولعنت في أعماقها الواسطي والبغدادي، لكنها تراجعت قليلاً، وأحست أنهما بريئان مما جرى لها، لكنها قررت في أعماقها أمراً رهيبا، وعزمت على تنفيذه مهما كانت نتائجه. أحست بضياع كل شيء. بتفاهة الأشياء، ولا معناها.. من لها في هذه الدنيا..؟ زوجها ميت، وابنها الذي كرست كل حياتها لأجله، فلم تتزوج وتستمتع بحياتها لتنجب أطفالاً آخرين، راح قتيلاً في حرب لا معنى لها.. من لها في هذه الدنيا..؟ لقد انتبهت لنفسها بعد الأربعين لتشبع شهوتها التي ذلتها، فأخذت تتنقل من شاب إلى آخر.. تصرف عليهم وتتوسلهم كي ينيكوها.. أهذا ما وصل حالها إليه..؟ وإذا ما كان هؤلاء الشباب يحبونها دون أن يقولوا، وهي تحبهم بعنف، فهذا المتكرش يريدها أن تكون قحبته، وبشكل صريح.. لا.. لا.. هذا لن يكون. هكذا كانت أم قابيل تحدث نفسها، بينما كانت الدموع تنساب بلا بكاء من عينيها، مختلطة بالماء الذي كان يطهر جسدها الأبيض اللدن والشهي .

* * *

حين خرجت آم قابيل من الحمام كانت جامدة الملامح. تنظر إلى مكان مجهول خارج المكان. كانت مأخوذة بالقرار التي أرادت تنفيذه فوراً. توجهت إلى غرفة تحت السلم تُستخدم كمخزن للأشياء الزائدة عن الحاجة. أخذت من هناك لحافاً قديما مليئاً بالقطن وبعض الوسادات المحشوة قطناً. فرشت اللحاف على الأرض ووضعت الوسادات جانباً. مضت إلى غرفتها. دخلتها، ثم خرجت وبيدها مقص. أخذت تفتح جانبي اللحاف بشقه طولياً وتسحب بطانته القطنية. تكدس القطن جانبها. فأخذت تبرمه لتشكل منه

فتائل قطنية بطول ذراع كامل. أعدت كمية ليست بالقليلة من تلك الفتائل القطنية. فعلت الشيء نفسه بقطن الوسادات. نهضت ثانية متجهة إلى برميل النفط الذي يتوسط أحد جانبي الجدار مجاوراً غرفة الاستحمام، وملأت جردلاً بالنفط. حملته وجاءت إلى حيث الفتائل القطنية فبللتها بالنفط، ثم حملتها صاعدة إلى الطابق الأعلى وأخذت ترصفها إلى جانب الأبواب والنوافذ، وأحيانا تلف النوافذ الخشبية بها. حين مرت من جانب الأب المشلول لم ينتبه إليها. لم تنظر هي إليه أيضاً .

كانت أم قابيل تتحرك داخل المنزل الكبير صاعدة نازلة كالممسوسة، تتمتم مع نفسها كلاماً غير مسموع، لكن ملامحها كانت غاضبة وهي ترافق تلك التمتمات غير المفهومة. أمتلأ المنزل برائحة النفط، إذ لم تكتف بتوزيع الفتائل القطنية وإنما رشت كمية من النفط على الأبواب وعلى خشب السياج في الطابق الأعلى وعلى جوانب السلم. وحينما انتهت من الطابق الأعلى والغرف سحبت من غرفة المخزن تحت السلم أكياس من الخيش والقماش الأبيض، وبعض الكراسي الخشبية المهشمة الأضلاع، وخزانات محطمة. أخذت تنقلها بهمة وبحالة عصبية واضحة إلى الممر قرب الباب الخارجي بحيث يكون من الصعب للشخص الداخل أن يخرج من بينها أو يدخل بسهولة .

حين انتهت أم قابيل من هذه المهمة بسد الممر بالحواجز الخشبية وبأكياس الخيش والقماش الأبيض السريع الإشتعال، توجهت إلى برميل النفط وملأت الجردل مرة أخرى. دخلت غرفتها. أخذت تمسح بالباب من الداخل بالنفط، ثم بللت عباءتها، وعلقتها على الباب، بل لم تكتف بذلك وإنما رشت كمية من النفط على السرير، وحين أكملت ذلك، فتحت الخزانة الجانبية وأخرجت ثيابها وكومتها خارج الخزانة على الأرض، وحملت بعضها لوضعها قرب الباب، ثم أخرجت سكيناً ذا نصل حاد جداً، ووضعته تحت الوسادة. جلست على حافة السرير وهي تلهث من التعب، منتظرةً ما سيأتي .

* * *

حين أراد الرجل المتكرش الذي يرتدي الزيتوني أن يدخل المنزل، كان يمني نفسه بملذات هائلة، فقد اكتشف أن هذه المرأة الأربعينة تملك جسداً أكثر نعومة وطراوة من جسد الفتاة الصغيرة، ومن أمها الثلاثينية، كما أنها أكثر شبقاً منهما. صحيح أنها لم تقبل بي بداية، قال لنفسه، لكنها حين دخلت فيها أخذت ترتعش من اللذة، بل عضت على كفها كاتمة

رغبتها بالصراخ والأنين الشبق.. نعم.. نعم. أنا أعرف أمثال هؤلاء النساء اللواتي لم يضاجعهن رجل منذ سنوات.. خاصة اللواتي في مثل هذا العمر الأربعيني الساحر. لكنه حين دفع الباب أحس أنه لا يُفتح بسهولة، وحينما حاول ودخل إلى المنزل، وجد نفسه يرتطم ببعض الكراسي المحطمة. ظن أن أم قابيل تريد رمي هذه الأشياءغير النافعة، لكنه استغرب رائحة النفط المنتشرة .

دلف إلى باحة المنزل بسرعة متجاوزاً زحمة هذه الأغراض، فانتبه إلى الهدوء الذي يخيم على المنزل بكامله. كانت العتمة قد هبطت على المنزل، ولم ينار فيه أي مصباح كهربائي، سوى بعض النور الذي يتسرب من شق باب غرفة أم قابيل. حين رفع رأسه إلى الطابق الأعلى رأى الأب المشلول يجلس في العتمة ككتلة سوداء بلا ملامح على كرسيه محدقاً إلى الفراغ .

لم ينتظر طويلا فقد كان متهيجاً جداً، كما أنه كان سعيداً جداً بأن الفتى الجامعي الواسطي، المتهم بقضية الفتاة المنتحرة، سيساق إلى الإعدام، وهذا يعني أن أم قابيل ستكون له، له وحده، هكذا فكر والابتسامة ترتسم على وجهه، لكن ابتسامته شحبت فجأة حينما تذكر بأنه لا يستطيع أن يتأخر عندها طويلا، فقد كان عليه أن يتواجد في المنظمة الحزبية الليلة، فالأوضاع لا تبشر بخير .

دفع باب الغرفة ودخل، فرأى أم قابيل في ثوب أسود خفيف عليه زهور من الدانتيلا السوداء. كان جسدها البض يبدو ناصعا من خلال شفافية الدانتيلا. رفعت رأسها إليه بنظرات جامدة. شمّ رائحة النفط التي تشبع بها هواء الغرفة، لكنه لم ينتبه للفوضى الموجودة في الغرفة. كانت شهوته قد شلت تفكيره، فلم يفكر سوى بأن ينزع عنها ثوبها ويخترقها .

اقترب منها. كانت جامدة التفكير. وقف أمامها بالضبط. كان هو يعرف أنها تخافه، وأراد أن يمارس سلطته عليها، فأخذ يفك حزامه دون أن يقول شيئاً. كانت هي جالسة على حافة السرير، فمد ذراعيه وسحب ثوبها على جانبي كتفيها كاشفا عن كتفيها وصدرها. أخذت الدماء تسري في جسده بسرعة، وأحس بتهيج طاغ، فقال له :

- إفتحي البنطلون.. وأخرجيه ..

لم تجبه، وإنما مدت يدها فاتحة أزرار البنطلون مادة يدها لتقبض على عضوه. كان هو يشعر بلذة مضاعفة، إذ امتزجت لذته الجنسية مع لذة ممارسة السلطة على كائن ضعيف. كان يحس بلذة كونها لن تستطيع أن تعبر عن لذتها بشكل صريح، بل ستكتم أنفاسها وتعض على كفها

وهي ترتعش تحت أمواج اللذة، إذ كان يشعر بالخوف من النساء اللاتي يصرخن من شدة اللذة بصوت عال .

أخذت تخرج عضوه بهدوء شديد وهي تفكر مع نفسها بالخطوة التالية. كان هو يغمض عينيه مستمتعاً. أخرجته. كان قويا، منتعظاً. أحست بتدفق الدفء من كفها مجتاحاً كيانها، لكنها قمعت هذه المشاعر. فجأة، إنطلقت منه صرخة حيوانية هائلة. في لحظة خارقة، وبسرعة البرق، مدت أم قابيل يدها اليسرى إلى تحت الوسادة، بينما يدها اليمنى لا تزال تمسك بالعضو المنتعظ كي لا يفلت منها. وفي لحظة سريعة، ولكي تتمكن للقيام بما تنوي عليه، أخذت السكين بكفها اليمنى ومسكت العضو بكفها اليسرى، ثم هوت عليه بضربة قوية، مصممة، فاصلة قطعة اللحم المتوترة التي كانت تقبض عليها بكفها الأخرى، فنفر الدم ملوثا ما حوله .

تلوى الرجل المتكرش من هول الألم المفاجئ. وركض مرعوباً إلى الزاوية المحصورة بين السرير والخزانة. كانت الدماء المتدفقة بغزارة تثير رعبه أكثر. في تلك اللحظة قفزت أم قابيل خارجة من الغرفة. ركضت صاعدة إلى الطابق الأعلى.. وبيدها ولاعة للنار. أشعلت الفتائل القطنية التي أخذت تلتهب بسرعة، وكذلك النوافذ والأبواب، وكانت تشعل كل ما تمر به وهي نازلة، ثم توجهت إلى مدخل المنزل فأشعلت أكياس الخيش والقماش البيض، والخزانات، فتعالت النيران، ولم يعد ثمة أمل للخروج من المنزل، بينما تعالت النيران في الطابق العلوى، وحين دخلت الغرفة ثانية، أشعلت النار في الباب وفي عباءتها، وكذلك في ثيابها المبتلة المتكومة على الأرض .

كان هو يتقد بالحقد المجنون والألم الهائل، فقفز عليها ماسكا إياها بقوة، راميا بها على السرير. كانت هي قد رمت السكين من يدها بعد أن قطعت قضيبه، فالتقط السكين، وأخذ يطعنها. لم تكن تتألم أو تتأوه، وإنما بتصميم أخير مدت الولاعة إلى جانب فراشها وأشعلت النار فيه، ولفت نفسها بقوة على الرجل المتكرش. وراح يطعنها في صدرها، وبطنها، وأراد أن يذبحها، لكنه لم يستطع ذلك بالكامل، حيث ضربها على جانب من عنقها، فمزق عضلات رقبتها.

كانت أم قابيل غارقة بالدم، بينما راحت النار تلتهم السرير بسرعة، والباب والخزانة حتى وصلتهما؛ فاشتعل جسداهما .

ثمّ التهمت النيران كل جوانب البيت، وفي تلك اللحظة بالذات دوت القنابل في العاصمة، وانهار البيت بكامله تحت صوت مصحوب بلهب هائل .

متاهة الأشباح
9
حريق المنزل الكبير

حين خرجت من ذلك الزقاق إلى شارع الرشيد انتبهتُ إلى أن الشارع يكاد يكون خالياً. كان الوقت عصراً، لكن قلة المارة في الشارع أثارت انتباهي. كانت سيارات عسكرية محملة بعتاد، وأسلحة ثقيلة تجتاز الشارع متجهة نحو جهة الباب الشرقي، وكان التوتر بادياً على وجوه السابلة في الشارع.

توجهتُ إلى جهة ساحة الأمين، منعطفاً إلى اليمين، حيث تقع محطة باصات مصلحة نقل الركاب، منتظراً الحافلة التي ستقلني إلى منطقة إسكان غربي بغداد لأتوجه من هناك إلى منطقة الوشاش. انتبهتُ إلى أن محطة انتظار الحافلات تكاد أن تكون خالية أيضاً، رغم قربها من سوق السراي، وشارع النهر والمتحف البغدادي، وهي محطة لأكثر من حافلة ولأكثر من اتجاه في منطقة الكرخ، فالحافلات التي تقف في هذه المنطقة تعبر جسر الشهداء ناقلة الركاب من جهة الرصافة إلى جهة الكرخ، ذاهبة بهم إلى مختلف المناطق في غرب العاصمة . وعند وقوفي في المحطة انتبهتُ إلى ساحة الأمين، فوجدت أنها محاطة بعدد من السيارات المتوزعة في مختلف جوانبها، كما لمحتُ سيارتين عسكريتين محملتين بمضادات للصواريخ المعدة للإنطلاق تتوزعان جهتين متقابلتين من الساحة .

أحسستُ بالراحة حينما لمحت حافلة النقل مقبلةً كحيوان خرافي يتهادى، وحين صعدت فيها وجدتها شبه فارغة على غير العادة في مثل هذا الوقت، حيث تكتظ بالركاب .

جلستُ على مقعد في الصف الأخير بمؤخرة الحافلة. لم يكن في الحافلة أكثر من عشرة ركّاب، لكنني سمعت ثلاثة من الركاب يتناقشون في ما بينهم عن احتمال قيام الأميركان بضرب العراق، وضرب قواتنا في الكويت. أدركتُ أن ثمة تداعيات جديدة في ما يخص احتلال الكويت، وأن الموعد الذي حدد لإنسحاب العراق سينفد الليلة، وأن احتمال نشوب الحرب قائم جداً. أدركتُ لحظتها لماذا خلت الشوارع من السابلة، ولماذا الحافلة شبه فارغة قياساً بسعتها الكبيرة .

* * *

كنتُ في غرفتي كئيباً، جالساً أمام طاولتي أفكر بالعجز الذي أصابني فجأة، وبإنطفاء رغبتي الذي أحرجني أمام المرأة التي كانت تتوسل أن أضاجعها. لم أجد تفسيراً مقنعاً لما جرى معي .

سمعتُ طرقاً خفيفاً على الباب. لم أعهد أن يزورني أحد أثناء وجودي في الغرفة، إذ أحيانا، حينما أعود من الجامعة، انتبه إلى لمسات ما واضحة في ترتيب فراشي ومكتبي وملابسي، فأدرك بأن أمي قد دخلت الغرفة ورتبتها لي. لم يحدث أن زارني أحد من والديّ في غرفتي، فأنا ألتقيهما، أحيانا، في غرفة الإستقبال. قمت من مكاني وفتحت الباب. كانت أمي تقف أمامي، نظرتْ إليّ بارتباك، وقالت بصوت ملؤه الرجاء :

- ابني آدم.. ألست نائما بعد..؟

لم تكمل جملتها إذ قاطعتها سائلاً :

- ماذا جرى..؟ خير إن شاء الله ..

ارتبكت هي أكثر فقالت بصوت مرتجف :

- أمس ذهبت وأنت فرحان.. تهندمت بأحسن ما يكون.. لكنك اليوم مكروب النفس.. هل حدث شيء؟

فاجأني سؤالها وملاحظتها، فقلتُ بغضب مكتوم :

- وكيف عرفت أني مكروب النفس..؟

- لقد رأيتك حين دخلتَ البيت، ثم جلست ساهماً.. ولاحظتك وأنت تتابع شاشة التلفزيون.. لكنك لم تكن ترى وتسمع شيئاً.. حتى أني سلّمت عليك ولم تجبني.. كنت غائبا عن البيت كله.. فجئت أسألك إن كان هناك شيء أستطيع أن أساعدك فيه..؟ هل تحتاج إلى مال.. لدي ما أستطيع أن أساعدك به..؟

انتبهت إلى أنني أحدثها أمام الباب، ولم أسمح لها بالدخول، فاستأت من نفسي، لكني برغم ذلك قلت لها :

- لا تقلقي يا أمي.. لا شيء يستحق.. إذهبي إلى غرفة الاستقبال سأتي حالاً ونتحدث ..

ظلت واقفة أمامي للحظات تنظر إليّ برجاء وحيرة، ثم مضت بصمت. كنتُ أشعر بالارتباك، وبالضيق من هذه الزيارة المفاجئة، ومن سؤالها الذي كشفت فيه صراعي مع نفسي، بل وتضايقت من طريقة تعاملي الباردة معها، فهي امرأة مسكينة، ليس لها سواي، أنا فرحتها في هذا العالم، لكني لا أستطيع أن أكون دافئا في تعاملي معها.

جلستُ على الكرسي مفكراً بما يمكن أن أقوله لأمي. سألتُ نفسي:

لماذا نحب الألم..؟ أو لماذا نؤلم مَن يحبنا..؟ لماذا لا يكون الحب دائماً سعيداً، طيباً، يهذب الإنسان ومشاعره، ويسمو به، ويجعله طيباً وحنوناً، كحب أمي لي، وإنما يكون أحياناً قاسياً، مريضاً، عنيفاً، أنانياً، لا يسمو بالإنسان ليجعل منه ملاكاً، وإنما ليهوي به إلى أسفل دركات الجحيم، ليجعل منه شيطاناً..؟

هي لا تعرف أن حياتي ليست سوى سلسلة من الإخفاقات المؤلمة والمخجلة.. وهي باعتبارها أمي، وزوجها بإعتباره أبي هما أول إخفاق لي.. وأنني قلق ومتعطش للإطمئنان... على أية حال، سأهرب من نفسي وأسئلتي القاسية بالحديث معها قليلاً، ثم نهضتُ خارجا .

* * *

في تلك الليلة أشتعلت بغداد بنيران الصواريخ الأميركية المهاجمة والصواريخ المضادة، وتعالت أصوات سيارات الإسعاف والطوارئ وسيارات إطفاء الحريق. كانت تلك الليلة كابوساً حقيقياً تعالت فيها ابتهالات الناس البسطاء، وأنين الجرحى، وكوابيس الذين دفنوا أحياء تحت أنقاض البيوت التي سقطت عليها الصواريخ، ورعب الأطفال والمسنين، وتشفي اليائسين من أمل بالتغيير. كان الموت يطل من شرفته العالية على بغداد مبتسماً وكأنه يرى ملهاة .

آدم التـائـه: شخصيا لم أستطع التدخل والتأثير على مسار شخصية آدم البغـدادي، ولا أعرف بالضبط لماذا انطفأت رغبته..؟ ولـمـاذا أحس بالعجز عن مضاجعة أم قابيل بالرغم من شبقه العارم وأحلامه بأن يكون معها..؟ ربما هو يعاني من العصاب، بمعناه العميق، حسب تفسير ولهلم رايش في كتابه عن (وظيفة الذروة الجنسية).. أي العصاب النفسي الناتج عن ذكريات واللواعج النفسية والصدمات في مرحلة الطفولة، وكذلك العصاب الراهن الناتج عن اختلال في وظيفة الأعضاء الجنسية بسبب الإفراط في الاستمناء والزهد عن ممارسة الجنس نتيجة ظروف مختلفة: أخلاقية، دينية، إقتصادية، إجتماعية.. ربما.. أنا أعتقـد أن إفراط آدم البغدادي في ممارسة العادة السرية سبب له عصاباً، فهذا الشعور بالذنب الذي يجتاحه بعد ممارسة العادة السرية وما يقرأه بأنها تسبب الضعف الجنسي، كرست في نفسه شعوراً بالعجز الجنسي، بالرغم من أنه غير عاجز حينما يتخيل نفسه معها. لا أدري.. لكنه في كل الأحوال شخصية عصابية.

* * *

حين قرأت حواء صحـراوي تعليق آدم التائه في نهاية الفصل، وتفسيره

لعجز بطله آدم البغدادي عن الممارسة الجنسية بسبب العصاب الناتج عن إفراطه في ممارسة العادة السرية، أصابتها الدهشة من محاولة آدم التائه أن يفسر الأمر على هذا النحو. فهي تميل لتفسير آدم البغدادي نفسه عن نفسه، باعتبار ذلك ربما ناتج عن عقدة الذنب، وتذكرت أنها قرأت دراسات حول هذا الأمر، لاسيما دراسة فرويد الشهيرة عن (التابو والتحريم) وعن مفهوم قتل الأب من قبل الأبناء من أجل السيطرة والاستحواذ على نسائه، لكن الأبناء اكتشفوا أنهم قد أحبوا أباهم، فراحوا يسترجعون محاسنه، مما دفعهم إلى التخلي عن الاستحواذ على نسائه جنسياً، بل واتفقوا على تحريم مضاجعتهن، أي أن عقدة الذنب لدى آدم البغدادي بسبب علاقته بصديقه آدم الواسطي، ومعرفته بأن أم قابيل تخصه، وهي عشيقته، بينما صديقه رهن الاعتقال، وبالتالي أحس بالعجز.. ربما هذا هو أقرب لفهم ذلك.

ظلت حواء صحراوي لدقائق تفكر في التفاصيل التي سردها في روايته، وكانت قد شعرت بالتهيج عند قراءة تفاصيل ما جرى بين آدم البغدادي وأم قابيل، كما أعجبها هذا التوغل النفسي لآدم التائه في عالم أبطاله، فواصلت القراءة:

متاهة الأشباح

10

الحقيقة وظلالها الشاحبة

حين بدأت الصواريخ الأميركية تمطر على بغداد ليلة أمس كنتُ جالساً مع أمي نتحدث وأمامنا استكانات الشاي. تزلزل المنزل وكأن نيزكا دكّ المدينة دكّاً. أخذت أمي تقرأ بصوتٍ عالٍ بعض الآيات القرانية وتبتهل إلى الله أن تمر هذه الليلة بسلام. دخل أبي غاضباً، كعادته، وكأن القصف سلب راحته. لم يكن خائفاً، وإنما منزعجاً، لاسيما حينما رآني وأمي في الصالة. لم يتحدث مع أي منّا، على الرغم من أن أمي سألته إن كان يود أن يشرب الشاي معنا، إلا أنه لم يجبها وإنما خزرها بنظراته، ثم خرج راجعا إلى غرفته، وهو يلعن الخنازير الأميركان الذين لا يقتلعون السن النتنة التي زرعوها هم بأنفسهم .

لم أبق مع أمي جالساً طويلا، إذ نهض كل منا متجهاً إلى غرفته. كنت قالقاً، بل منزعجاً، ولا أدري إن كان ذلك ناتجاً من أصوات سقوط الصواريخ، والصواريخ المضادة لها التي تنطلق من أسطح الفنادق والبنايات

العالية، وأصوات سيارات الإسعاف، وسيارت إطفاء الحرائق، وسيارات شرطة النجدة، أو مما جرى لي اليوم مع أم قابيل .

لم أنم تلك الليلة، فقد كنت أحس بأني أقف في منعطف خطير من حياتي، منعطف متعلق بمعنى رجولتي، وجدوى استمراري في الحياة، إذ أن عجزي الجنسي وإنطفاء رغبتي المفاجئ عصر أمس أرعبني، أكثر مما أرعبتني الصواريخ التي يطلقها الأميركان من بارجات حربيّة في الخليج .

حين صحوت هذا الصباح على طرقات الباب، حيث حملت لي أمي الفطور في صينية كبيرة، أحسست بأني لستُ على ما يرام. لم تكن لديّ ذلك اليوم محاضرات، لكنني منذ أن فتحت عينيّ هذا الصباح، قررت أن أزور أم قابيل وأضاجعها بقوة .

لم أكن عاجزاً جنسياً بالكامل، إذ أنني أحسست بالانتصاب والرغبة الجنسية حينما تذكرت مشهد أم قابيل وهي عارية الجسد أمامي، وتذكرت كفي التي كانت تداعبها من الأسفل، لكني حينها كنتُ عاجزاً أمامها، بل وانطفأت رغبتي بالكامل. وها أنا الآن أشعر بأن رغبتي الجنسية نحو أم قابيل متقدة وفي أوجها، وأتخيل نفسي معها. تعجبت من نفسي.. لماذا حين أتخيل المشاهد الجنسية أشعر بالإنتصاب بينما حينما أكون في وضع يتيح لي الممارسة أشعر بالضعف والعجز..؟ لقد قرأت بأن كثرة ممارسة العادة السرية تدفع أحيانا إلى الضعف الجنسي.. أهذا هو سبب ما حصل معي..؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا حينما أحس بالرغبة والإنتصاب عند تذكري للمشهد الذي شعرت بالعجز فيه..؟ هل أنا مريض نفسياً..؟

* * *

لم تكن ثمة حركة في الشارع، كأنما الناس أموات. سوى بعض أفراد الجيش الشعبي قد نصبوا بعض الحواجز عند نهاية شارعهم، وهناك وقفت سيارتان وعليهما أسلحة ثقلية موجهة للسماء. ألقيتُ التحية على القائمين بالحراسة من أعضاء الجيش الشعبي، فردوا عليّ التحية بغير اهتمام، وسألني أحدهم، الذي بدا أنه مسؤولهم بنبرة استفزازية :

- إلى أين أنت ذاهب..؟
- إلى الجامعة ..
- إلى الجامعة..؟ هل أنت تلقي علينا نكتة..؟ ألا تعرف أن كل شيء مغلق اليوم بعد العدوان الأميركي على بغداد ليلة أمس..؟
- أعرف أنهم أعتدوا علينا.. لكني لا أعرف أن الجامعة مغلقة..؟
- الآن صرت تعرف.. أرجع لبيتك أفضل لك.. وانتظر إلى أن تنتهي

هذه الغمة ..

لم يشأ آدم البغدادي أن يناقشهم كثيرا. لم يكن يريد الذهاب إلى الجامعة، بل إلى المنزل الكبير، لذلك قال لهم :

- طيب سأذهب إلى بيت خالتي في الحيدرخانة.. لأن خالتي مريضة.. وهي امرأة عجوز تعيش وحدها، وتخاف من القصف ..

- إذا كان الأمر هكذا فيمكن ذلك.. لكن ليست هناك مواصلات.. هل ستمشي إلى هناك مشياً على الأقدام..؟

- نعم.. ماذا عليّ أن أفعل.. لا بد من الذهاب ..

- إذاً يمكنك أن تعبر تختار بين أن تتجه إلى منطقة العلاوي ومنها تتجه لعبور جسر الشهداء، أو أن تمضي عن طريق الشالجية ..

- لا. لا.. سأذهب عن طريق منطقة علاوي الحلة.. وسأمر بالشواكة ومن هناك سأعبر جسر الشهداء وأصل إلى الحيدرخانة القريبة ..

- هل أنت متأكد أنك تريد الذهاب إلى هناك وليس إلى مكان آخر..؟

- طبعاً.. إلى أين أذهب إذاً..؟

- لا أدري إلى أين تذهب..؟ أنت الوحيد الذي في المنطقة لا تشارك في الجيش الشعبي ..

ارتبكتُ من تطور النقاش بيننا، والذي ربما سيقود إلى ما لا أحب، فأردت تجنب الخوض في التفاصيل، فقلت بحذر :

- أنا لا أتواجد عند أهلي دائماً، وإنما أزورهم أحياناً ..

- هكذا إذاً.. كنا نتساءل لماذا أنت تتهرب من الدفاع عن الوطن في مثل هذه الظروف الصعبة ..؟

- كيف..؟ أنا أعيش معظم وقتي عند خالتي ..

أنقذني من الاستمرار في النقاش وصول سيارة عسكرية نزل منها بعض الأشخاص، فترك النقاش معي ومضى إليهم. استفدتُ من ذلك، فمضيت باتجاه الشارع العام الخلفي الذي يربط بين الصليخ والكاظمية من جهة وبين مطار المثنى ومحطة السكك الحديدية الكبرى والعلاوي من جهة أخرى .

كنتُ أحس بإنقباض نفسي منذ أن أخذ مسؤول الجيش الشعبي يسألني بطريقة مراوغة. أحسست بأن عليّ أن أحترس منهم، وانتقدت نفسي لانقيادي وراء رغبتي الجنسية. كان أدرك بأن خروجي في مثل هذا اليوم الذي يشي بتوتر سياسي وأمني في البلاد يُعد حماقة، وقد يؤدي إلى

مواقف مجهولة العواقب، لكن الآن لا فائدة من التراجع، فقد خرجتُ من البيت وواجهت مفرزة الجيش الشعبي في المنطقة، وعليّ أن أذهب إلى المنزل الكبير. لا أخفيك عليك يا قارئي الكريم، فقدت تدفقت أحلام اليقظة على مخيلتي المتهيجة مثل ماء يتدفق إلى أرض مالحة، فحثثت خطواتي إلى المنزل الكبير .

* * *

حين كنتُ أمشي على جسر الشهداء عابرا من الكرخ إلى الرصافة ألقيت نظرات إلى يمين الجسر فرأيت أحد الجسور البعيدة وقد انخسف بقصف صاروخي، كما رأيت واحداً من أعلى المباني الحكومية البارزة التي كان يضم مركز الإتصالات في منطقة السنك، قد تهدمت قمته، وشاهدت دخانا ما زال يتعالى من منطقة بعيدة لم أستطع تحديد مكانها. أدركتُ أن الخسائر كانت فادحة، لكنما لم أعرف شيئا عن طبيعة القتلى والجرحى، فقد خرجتُ من البيت دون أن أستمع إلى الأخبار .

حين وصلت إلى منطقة الحيدرخانة، ودخلت إلى الزقاق الذي يقود إلى المنزل الكبير، أحسست بوجود حركة غير طبيعية في الزقاق، حيث كان عدد من أفراد الجيش الشعبي، وسيارات قادمة من أعماق الزقاق، وأخرى خلفي تتوجه إلى أعماقه، لكني ما أن صرت أمام الفرع الذي يقع المنزل الكبير فيه حتى أدركت الكارثة .

كان ثمة خراب كبير وحفرة هائلة في المكان الذي كان المنزل الكبير يقوم عليه. فقد سقط صاروخ أميركي على المنزل الكبير، فهدّه، بل محاه تاركاً آثار خراب، وحفرة عميقة، تحتل مكان الباحة وغرفة أم قابيل والسلم، حسب ما أتذكر من طبيعة المنزل الكبير، كما تهدمت الجوانب الأخرى من المنزل والتهمها حريق كبير .

انتبهت إلى وجود سيارة أسعاف لا تزال واقفة على مبعدة، وقربها ثلاث جثث ممدة على نقّالات معدنية ومغطاة بقطع من القماش الأبيض، وعلى مبعدة ثمة أكوام من الأشياء التي تم إخراجها من المكان المهدم .

التفتُ إلى ما حولي، وحينما انتبهت لانشغال الموجودين عني، اقتربتُ أكثر من تلك الأكوام. انتبهت لبعض الكتب المحترقة الأطراف، وبعض الكتب التي لم تمسها النار، فاستطعت أن أقرأ غلاف كتاب (تفسير الأحلام) ليسغموند فرويد، وديوان شعر لبدر شاكر السياب من منشورات إحدى دور النشر ببيروت، وهناك ألبوم صور، وعدد من الصور المبعثرة، واحدة منها أثارت انتباهي، إذ لمحتُ صورة صديقي آدم الواسطي مع زميلته

الفيلسوفة وهما يجلسان على مقعد في حديقة، ربما هي حديقة الزوراء، وصورة أخرى له متوسطا امرأة جميلة ناضجة الملامح وفتاة مراهقة، فخمنتُ أنهما أمه وأخته. بسرعة فائقة انحنيت ملتقطاً الصورتين، وواضعا إياهما في الجيب الخلفي ببنطالي. أردتُ أن أخذ كتاب فرويد وديوان السياب كذكرى لكني ترددت لحجمهما الكبير الذي يمكن أن يثير الآخرين، كما أنهما موجودان عندي .

أردتُ أن أغادر المكان سريعاً حينما رأيتُ سيارة بيجو بيضاء مقبلة. انتبهت لرقم السيارة، فتذكرت رقم سيارة البيجو البيضاء التي شاهدت الفيلسوفة تجلس فيها متوسطة رجلين في المقعد الخلفي، إنه هو نفس الرقم 13760 . أحسست بساقي ترتعشان،. ورجفة تسري في جسدي كله.

نزل ثلاثة من الرجال بملابس مدنية من تلك السيارة. كان أحدهم كما يبدو هو المسؤول الأمني. اقترب من الرجال الآخرين الذين بعضهم قد نزل إلى الحفرة التي تركها الصاروخ الأميركي. وكان ثمة رجل يبدو أنه ضمن المشرفين على تفتيش المكان، أو متابعة البحث فيه، إذ كانوا مشغولين بلملمة قطع معدنية من بقايا الصاروخ الأميركي الذي سقط على المنزل، وسمعتُ الرجل المسؤول الذي نزل من سيارة البيجو يسأل الشخص المشرف على التنقيب عن عدد الأشخاص الذين قتلوا، فسمعتُ الآخر يجيبه بأنهم لم يجدوا أكثر من ثلاث جثث، واحدة لامرأة واثنتين لرجلين، لكن الرجل والمرأة ربما كان في سريرهما لأنهما وجداً ملتحمين ومحترقين معاً، أما الرجل الآخر فقد وجدت جثته بين الأنقاض الأخرى .

بعد هذا الحوار تحركتُ مغادراً المكان، كي لا ينتبه إليّ رجال الأمن، ولكي لا أثير انتباههم، استدرتُ إلى زقاق آخر يقود إلى الشارع العام، لكن ليس من جهة شارع الرشيد، وإنما من جهة شارع الجمهورية الموازي له، واختفيتُ في عتمته والتواءاته الضيقة، حاثاً خطاي ما أمكن، وحينما صرتُ على مبعدة مائة متر، أخذتُ أركض هارباً من المنطقة كلها، وكأن إحساساً قد تولد لديّ بأن هؤلاء جاءوا ليفتشوا غرفة صديقي آدم الواسطي، الذي هو معتقل لديهم، وربما أنهم يبحثون عني أيضا .

* * *

حينما خرجتُ إلى شارع الجمهورية من الجهة الأخرى، مشيتُ باتجاه منطقة الشورجة، لكني عند التقاطع الذي يذهب إلى منطقة قنبر علي، أوقفتُ سيارة تاكسي قديمة، وطلبت من سائقها أن يوصلني إلى منطقة الوشاش، إلا أنه رفض أن يذهب إلى هناك، فطلبتُ منه أن يوصلني إلى

أية منطقة في الكرخ، فوافق السائق أن يقلني إلى منطقة العلاوي فقط، طالبا مني مبلغاً يُعد كبيراً كأجرة لتلك المسافة، لكني وافقتُ من أجل أن أبتعد عن هذه المنطقة المريبة بسرعة .

حين غادرتُ سيارة التاكسي أخذت أمشي بسرعة أشبه بالركض متجها إلى منطقتي. وحينما صرتُ على مشارف شارعنا، مشيتُ بسرعة نحو الطرف الآخر من الشارع، متجنباً المرور بمفرزة الجيش الشعبي التي قابلتها حينما غادرت البيت. وحين صرتُ قرب باب بيتنا، التفتُّ نحو الجهة الأخرى حيث تربض المفرزة، وجدتُ عدداً من أعضاء الجيش الشعبي، لكن المسؤول الذي تحدث معي لم يكن بينهم .

* * *

كانت رائحة الرز ومرق الفاصوليا تهيمن على البيت حينما دخلتُ مستفزاً، متقطع الأنفاس. وقفتُ للحظات قرب الباب من الداخل لكي أستعيد أنفاسي، وقبل أن أتجه إلى غرفتي لمحت أمي وهي تضع لمساتها الأخيرة على الطعام الذي أعدته .

حين صرتُ في غرفتي، وجلستُ على سريري، انتبهتُ لنفسي بأني لم أفكر كثيراً بأم قابيل، بالرغم من أني ذهبتُ خصيصاً لرؤيتها. تأسفتُ مع نفسي لهذا الجريمة التي ارتكبها الأميركان بقصفهم العشوائي على بيوت الناس الآمنين.

فجأة، برقت في ذهني كلمات الرجل المشرف على التنقيب بأنهم وجدوا جثتي رجل وامرأة ملتصقتين وفي غرفة واحدة، ويبدو أنهما كانا في السرير حسب تفسير الرجل المشرف.. سألتُ نفسي عن كيفية حدوث ذلك..؟ من هو ذلك الرجل الذي كان معها..؟ أتراه هو صديقي آدم الواسطي وقد خرج سالماً من التحقيق..؟ كيف فاتني أن أسأل عن هوية الرجل والمرأة المحترقين..؟ نعم.. نعم.. لا بد أن يكون هو صديقي آدم الواسطي، وإلا من تراه يكون..؟ بل ربما المرأة المحترقة ليست هي أم قابيل وإنما هي أم الفتاة المنتحرة مع الرجل المتكرش الذي كان يرتدي الزيتوني، وقد سقط الصاروخ عليهما وهما في لحظة عناق..؟ لكن إذا لم تكن أم قابيل فأين اختفت..؟ لماذا هي غير موجودة أصلاً وقد تهدم بيتها..؟ وإذا كان هو صديقي وأم قابيل.. فأين هو الرجل المتكرش الذي يرتدي الزيتوني والذي يتواجد يومياً تقريباً..؟ لماذا لا يتواجد هنا ليستعرض مكانته الحزبية وأهميته..؟

بقيت جالساً على حافة سريري. سحبت الصورة من جيب بنطالي.

أخذت أنظر إلى صورة صديقي آدم الواسطي مع زميلته الفيلسوفة، فانتبهت إلى جمالها، إلى نظرتها الذكية الواثقة، وإلى ذلك الحزن الذي يرتسم على محياها، لكني وبصراحة لم أكتف بذلك وإنما رحتُ أتمعن في تفاصيل جسدها، متأملاً صدرها وقوامها كله. سألت نفسي: كيف لم أنتبه لكل هذا الجمال الوحشي، وهذا الجسد المثير سابقاً..؟ لكني لم أستطع أن أنسى ذلك المشهد الأخير الذي رأيتها فيه آخر مرة، منذ لحظة دخولها إلى مقصف الجامعة وحتى رؤية رأسها وهو يُدفع للأسفل في سيارة جهاز المخابرات، البيجو البيضاء. وسألت نفسي: أترى تم أعتقالها في تلك اللحظة، أم أنها تتعاون مع جهاز الأمن بحيث جاءت لتستدرج صديقي آدم الواسطي كي يتم اعتقاله، أو على الأقل تشخيصه ثم اعتقاله في ما بعد..؟ لكن لو كان الأمر كذلك لماذا جاءوا اليوم إلى المنزل الكبير حيث كان صديقي يستأجر غرفة..؟

ألقيتُ نظرة على الصورة الأخرى، فأحسست بقلبي ينقبض لجمال أم صديقي التي هربت مع الفتى المراهق..؟ لكن هذا الوجه معروف لي، لأني بعد سنوات تعرفت على هذه المرأة نفسها في الفندق نفسه الذي جرى فيه اكتشاف أمر هروبها مع الفتى المراهق.. وقد حدثتك عن ذلك يا صديقي القارئ سابقاً عن حادثة الفندق.. فكيف يمكن أن يحدث ذلك..؟ بل كيف لي أن أعرف في هذه اللحظة ما سيحصل في ما بعد، وكأنه حدث بالأمس..؟

* * *

أحسستُ بالتعب، وأردتُ أن أستلقي على السرير ولا يشغل ذهني أي شيء.. أي شيء.. إنني قلق ومتعطش إلى الأمان، أحس بالعزلة القاتلة. أحس بغضب على نفسي، على ذاتي التي لاتكف عن جرّي وراءها لإرواء رغباتها التي لا ترتوي .

أحسست بنفسي وكأني شمعة تذوي في زنزانة، تنطفئ ذبالتها شيئاً فشيئاً. التناقض صار يكبل حياتي أكثر مما يدفع بها إلى الأمام. في أعماقي أتوق إلى أن أكون متحمساً، حيوياً، نشطاً، ميالاً إلى المرح والفكاهة، لكني في الواقع لا أستطيع إلا أن أكون صبوراً، هادئاً، عقلانياً، بارداً.

أحلم في أعماقي أن أكون مناضلاً، ديناميكيا، صاخباً، ومبادراً، ومتدفقاً بالحياة، بينما في الواقع أنا مسالم، لا أفكر إلا بالسلام الذي هو أقرب للمساومة والهروب من المشاكل، منه إلى إيقاف زحف الآخر عليّ والتوازن معه في القوة. ورغم ذلك أبدو كالقديس، لكنما في أعماقي شيطان رجيم.

* * *

حينما انتهت حواء صحراوي من قراءة هذا الفصل أحست وكأن آدم التائه يتحدث عنها حينما يتحدث عن آدم البغدادي. فالكثير من تساؤلات آدم البغدادي تتطابق مع التساؤلات التي تطرحها أحيانا على نفسها.. أترى كان يقصدها..؟ لكن كيف يقصدها وهو يتحدث عن شخصية رجل آخر.. يعيش في العراق، محاولاً من خلاله أن يتحدث عن فترات من تاريخ بلده؟

انتبهت إلى أن عليها النهوض مبكراً. طوت المخطوطة، ووضعتها بالقرب منها على الطاولة، وأطفأت النور. غرقت الغرفة في ظلام دامس، إلا من إضاءات البرق الخاطفة غير المصحوبة بهزيم الرعد. كان صوت المطر الناعم ينقر أحيانا على نافذة غرفتها المطلة على الحديقة في الليل .

الفصل الثامن: مواجهات حواء صحراوي الصغيرة

حين دخلت حواء صحراوي إلى السوق الحرة في مطار هيثرو، بعد أن ودعتْ أمها التي أصرت أن توصلها بسيارة العائلة، لمحت من بعيد طليقها قابيل الموسى. كان يقف أمام قسم الدفع وأمامه بعض الهدايا من العطور والمشروبات الروحية والحلويات. أحستْ بتشنّج في عضلات فخذيها، بحيث لم تستطع أن تواصل المشي. بقيت للحظات شبه مشلولة في مكانها، لكنها حاولت أن تخفي عن رواد السوق حالتها تلك بفتح حقيبتها اليدوية وكأنها تبحث في داخلها عن شيء ما. بقيت لدقائق على تلك الحالة إلى أن استرختْ عضلاتها شيئا فشيئا، فغادرت المكان، متوجهة إلى البوابة المخصصة لرحلتها .

استغربت حواء صحراوي من وجود طليقها في المطار، وسألت نفسها عن الجهة التي ينوي السفر إليها. أحست برجفة حينما خطر في ذهنها أن تكون إيطاليا، فهذا يعني أنه سيكون على متن الطائرة نفسها، وإذا ما صح ذلك؛ فهذا يعني أنه ربما سيجلس إلى جانبها أو بالقرب منها، فمن عادته السفر في الدرجة الأولى .

بالقرب من البوابة التي ستقودها إلى الطائرة رأت مجموعة من المسافرين. امرأة أربعينية، إنكليزية، أنيقة، تجلس وحدها وبيدها كتاب يبدو من غلافه أنه رواية ما، وعلى مقربة منها شاب وصديقته يحتضنان بعضهما ويقبلان بعضهما، وعلى المقعد المقابل لهما فتاتان في سراويل قصيرة تكشف عن أفخاذهما المتناسقة، وفانيلات صيفية مرسوم عليها صور للثائر الأرجنتيني تشي جيفارا، وعلى المقاعد الموازية ثلاثة أزواج من المسنّين .

نظرت حواء صحراوي إلى ساعتها فعرفتْ أن الوقت ما زال مبكراً على الرحلة، فأمامها ساعة ونصف حتى وقت الإقلاع. لم تجلس وإنما غادرت ذلك المكان متوجهة إلى جهة معاكسة للجهة التي تواجد فيها طليقها، وأخذت تقضي الوقت الفائض بين محلات الجوهرات والتحفيات، لكن أعماقها ظلت في حالة ترقب وتوجس من أن يدخل طليقها إلى هذه الأمكنة أيضا .

أعجبها عقد من الذهب الأبيض، مصاغ بأسلوب الحلي والعقود الهندية. جاءت البائعة الهندية الجميلة وأخرجته لها من الصندوق الزجاجي الذي وُضع فيه. أخذت تقلبه بين يديها. وقفت أمام المرآة الصغيرة التي أمامها، وأخذت تجرّب العقد بشكل سريع، واضعة إياه على أطراف الشال

الفضي الحريري المخطط ببعض الكتابات العربية الذي يغطي رأسها .

كانت تنظر إلى نفسها برضا داخلي، فهي تعرف بأنها جميلة جداً، وأنيقة، وأن العقد ينسجم مع شالها الفضي ومع ملابسها بشكل عام، إذ كانت ترتدي طقماً أبيض يتألف من بنطلون وسترة بيضاوين وقميصاً حريرياً أرجواني اللون. كانت الفتاة الهندية تُسمعها كلمات الإطراء والإعجاب بإنسجام العقد مع ملابسها .

في لحظة ما رفعت رأسها لا إرادياً ونظرت إلى حركة السابلة خارجة المحل، فأصابها الذهول. انتبهت الموظفة الهندية لذهولها فالتفتت إلى الاتجاه الذي كانت نظر حواء إليه فلم تر شيئاً غريباً سوى حركة المسافرين .

لم تصدق حواء صحراوي عينيها حينما رأت الكاتب آدم التائه يمر من أمام المحل متجها نحو جهة البوابة التي جاءت منها. أحست برجفة تسري في جسدها، وخفقان سريع في قلبها، أسرعت بطريقة مرتبكة إلى نزع العقد، ووضعته على الطاولة الزجاجية أمام البائعة التي لم تفهم سر كل هذا الارتباك .

- شكراً جزيلا.. ربما سأرجع بعد قليل ..

قالت ذلك للبائعة الهندية الجميلة التي ابتسمت لها، برغم ملامح الإحباط الذي ارتسم على وجهها، وقالت لها وهي تبتسم :

- على الرحب والسعة في أي وقت ..

خرجت حواء صحراوي مسرعة، وحينما صارت في الممشى العام، اتجهت نحو الجهة التي رأت آدم التائه مشى فيها فلم تجد له اثراً، لكنها رأت شخصا ما، ظنتْه هو على الرغم من أن هذا الشخص كان أبعد بكثير مما يفترض أن يكون آدم التائه، فاتجهت نحوه مسرعة، حتى أنها أصطدمت ببعض المسافرين .

حين صارت على بعد أمتار من ذلك الرجل الماشي أمامها تأكدت من أنه ليس آدم التائه. أحست بالخيبة، لكنها سألت في حيرة: كيف يحدث أن أراه هنا ماشياً وقد رأيته مقتولاً وهو مشدود إلى الكرسي..؟ هذا يعني أن ما رأيته هنا لم يكن سوى وهم..؟ بل ربما رؤيتي لطليقي قابيل الموسى ليس سوى وهم أيضاً..؟ هل أنا مربكة وتعبانة نفسياً إلى هذه الدرجة بحيث صرت أرى أشباحاً وأوهاماَ..؟.... لكن ماذا لو لم يكن ما رأيته وهماً..؟ وأن آدم التائه حي يرزق..؟ ألم يذكر لي في رسالته بأنه سيكون في لندن..؟ وأنه طلب أن لا أقول ذلك لإيفا ليسنج..؟ .

كانت تمشي وتفكر، تطرح على نفسها أسئلة قلقة وتجيب عليها بقلق

أيضاً، وأحست بأنها ضّيعت على نفسها متعة التواجد في زحمة المطار وفي محلات السوق الحرة، وفرصة شراء ذلك العقد الجميل .

أرادت أن ترجع إلى محل المجوهرات، إلا أنها نظرت إلى إحدى شاشات التلفزيون المنتشرة والتي تبث جداول الإقلاع فانتبهت إلى الإشارة المضيئة أمام رقم رحلتها وموعد الإقلاع ورقم البوابة بأنهم بدأوا يستقبلون المسافرين، فتوجهت
إلى البوابة .

حين وصلت إلى البوابة المخصصة لرحلتها هالتها زحمة المسافرين، فلم تتوقع بأن كل هذا العدد من الركاب سيتوجه إلى إيطاليا، وإلى نابولي بالذات، فقبل أقل من ساعة لم يكن أكثر من عشرة مسافرين ينتظرون، إلا أنها ذهلت ثانية حينما نظرت إلى مدخل البوابة فرأت الرجل نفسه الذي ظنته الكاتب آدم التائه، بيد أنه اختفى حينما أرادت اللحاق به. كان الطابور طويلاً، بينما الرجل سلّم بطاقته إلى موظفة الرحلة وأخذ منها القطعة الخاصة برقم مقعده على متن الطائرة، ودخل الخرطوم الطويل الذي يقود إلى متن الطائرة .

أحستْ أنها في حيرة وبشيء من الضيق النفسي. هي لا تريد سوى اليقين من كل ما تراه.. كيف لها أن تبلغ هذا اليقين..؟ ومن يؤكد لها أن ما ستحسبه يقيناً هو يقين حقاً..؟ ألم تر آدم التائه مقتولاً ومشدوداً إلى الكرسي، بينما تراه الآن أمامها في مطار هيثرو؟ لكن كيف تتيقن بأنه هو..؟. فحينما أرادت أن تناديه لتتأكد من هويته الحقيقية، ومن نفسها، ومن أن ما تراه بعينيها الآن هو حقيقة، لكنه كان قد غاب عن ناظريها

أرادت أن تخترق طابور الركاب الذي يمتد أمامها طويلا لكنها ترددت، لأنها تعرف بأنها ستتعرض لإنتقادات من قبل البعض، وسيسمعونها كلاما مهيناً لا يليق بها، لكنها فكرت مع نفسها أنها ستجده في الطائرة بلا شك
.

* * *

حين دخلتْ الطائرة تذكرتْ احتمال أن ترى طليقها قابيل الموسى، الذي غاب عن بالها بالكامل منذ أن رأت آدم التائه. بسرعة نظرتْ إلى ما حولها في مقصورة الدرجة الأولى فلم تره، بل لم يكن في المقصورة سوى رجل في الخمسين يجلس في الصف الأول. وضعت حقيبتها في الخزانة العليا فوق مقعدها بالضبط، لكنها ظلت واقفة جانباً تنظر إلى أعماق الطائرة التي لم تكن ممتلئة بالركاب بعد، فلم تعثر له على أي أثر .

وجدت حواء لنفسها فسحة للمرور، فخرجت من مكانها ومشت عبر ممر الطائرة الضيق متجهة نحو مؤخرة الطائرة، متفحصة الوجوه التي استقرت في أماكنها أو ما زالت منهمكة بترتيب حقائبها الصغيرة في الخزانات العليا، وكأنها مضيفة في الطائرة، باحثة عن آدم التائه، لكنها لم تجده. فكرت مع نفسها: ربما دخل الحمام..؟ إلا أن إشارة الحمام كانت تضيء باللون الأخضر والأبواب مفتوحة؛ فأين أختفى..؟ سألت نفسها. كانت متأكدة من أنها رأته، أو شبيهه، يدخل البوابة متجهاً إلى الطائرة، مثلما رأته قتيلاً مشدوداً للكرسي.

رجعت إلى مكانها في مقصورة الدرجة الأولى، مصطدمة بالركّاب الذين كانوا يبحثون عن مقاعدهم في الدرجة الثانية من الطائرة .

جلست في المقعد المخصص لها. كانت تنظر إلى وجوه الداخلين إلى متن الطائرة متفحصة. هاجسها الآن أن تترك الأمر إلى إحتمالات مفتوحة، إحتمال أن يكون قد انشغل بشيء ما ولم يدخل إلى الطائرة مباشرة، وهو إحتمال ضعيف حاولت أن تقنع نفسها به، وإحتمال آخر هو أن يدخل طليقها قابيل الموسى الآن، إذا ما صادف حقا أنه يريد السفر إلى إيطاليا أيضاً. لكن لحد الآن لم يتحقق أيّ من الاحتمالين .

* * *

مسرة عمياء غمرت أعماق حواء صحراوي. مسرة لا تعرف من أين.. ولماذا..؟. لم تكن مسرتها سوى إحساس غامض بالاسترخاء لوصولها إلى شيء من الوضوح في أن ما رأته لم يكن سوى وهم، وأن رؤيتها لشبيه آدم التائه، أو حتى لآدم التائه، لم يكن سوى تجلٍ لرغبة غير واعية، وأن ما رأته ليس سوى شبح ووهمٍ من إنتاج عقلها القلق وأعماقها المتوترة .

حين أقلعت الطائرة أخذتْ هي تستمتع بمشاهدة لندن من النافذة. أحست وهي على متن الطائرة وكأنها في زورق بلا شراع. ومع أنها أخذت مخطوطة رواية متاهة الأشباح في حقيبتها اليدوية، إلا أنها الآن لا تشعر بأية رغبة في القراءة، وإنما ستكتفي بتصفح مجلات الدعاية للعطور وللمواد التي تباع على متن الطائرة، ولأنها كانت قد سهرت طويلا وهي تقرأ في مخطوطة الرواية، لذا أحست برغبة عميقة في النوم، فغطت في نوم طويل لم تفق منه إلا والطائرة على سواحل نابولي، حتى أن المضيفة كانت في حرج من أن توقظها عند توزيع الطعام، وما أن أفاقتْ من نومها حتى وجدت نفسها تلتفت دون إرادة منها إلى قاعة الدرجة السياحية على متن الطائرة، عسى أن ترى آدم التائه .

* * *

هبطت الطائرة، وبدأ المسافرون بالخروج من الطائرة. كان الباص الذي ينتظر المسافرين ليقلهم إلى داخل مبنى المطار قد امتلأ، وأغلق السائق البواب، وتجمع بقية المسافرين بانتظار الباص الآخر. كانت حواء تنظر إلى الوجوه وكأنها تبحث عن شريك لها .

حين صارت في الممر داخل مبنى المطار أخذت تتباطأ في مشيتها لتترك معظم الركاب يجتازونها، عسى أن ترى آدم التائه بينهم، كانت تكاد تراوح في مكانها حتى أن بعض المسافرين التفت إليها مندهشاً من طريقة مشيها، بل إن أمرأة مسنة التفت إليها وسألتها إن كانت تشكو من شيء وتحتاج للمساعدة، فارتبكتْ وشكرتها على لطفها، وأخذت تمشي بشكل أكثر نشاطاً، لكنه يبقى بطيئا قياساً لحركة بقية المسافرين .

في القاعة الكبيرة لإستلام الحقائب كانت تبحث بين المسافرين الذين تجمعوا حول رقم الحزام الخاص برحلتهم فلم تعثر عليه. كان مطار نابولي غير مزدحم كما كانت تتوقع، لذلك أخذت تنظر إلى المسافرين الآخرين ممن كانوا على متن رحلات أخرى. ما الذي يجري معي..؟ هكذا سألت نفسها .

حين خرجت إلى الصالة وجدت فتاة في منتصف العشرينات تحمل لافتة مدون عليها اسمها، فتوجهت إليها مباشرة .

بعد التعارف بينهما، طلبت منها ممثلة المكتب السياحي برجاء أن تنتظر قليلاً، فثمة مسافرون آخرون سينضمون إليهم، فهي تنتظر رجلاً وامرأة أيضاً، وكانت قد كتبت اسمهما على ظهر اللائحة نفسها التي كُتب عليها اسمها. لم تمض دقائق حتى اقترب رجل وخلفه زوجته. سلموا على بعضهم البعض بنبرة محايدة، روتينية تفترضها مثل تلك اللقاءات، وتوجهوا جميعاً إلى خارج المطار تقودهم ممثلة المكتب السياحي .

خارج بوابة المطار كان هناك باص ينتظرهم. وبالقرب منه كانت شاحنة صغيرة مخصصة لنقل الحقائب. طلبت ممثلة المكتب السياحي بأن يتركوا الحقائب لحملها بالشاحنة. أعطتهم أوراقاً لاصقة لكتابة اسم الفندق الذي يتوجه إليه كل منهم، واسم العائلة، وأكدت لهم بأنهم سوف يستلمون حقائبهم حسب العنوان المكتوب، كما بينت لهم بأنهم سيتوجهون إلى الميناء، ومن هناك سيركبون باخرة تقلهم إلى جزيرة إسكيا .

* * *

ثمة في ميناء نابولي حياة صاخبة. مئات البشر يقفون في طوابير أمام

بوابات مرقمة تقود إلى بواخر متوسطة الحجم تقل السواح والمسافرين والمواطنين الإيطاليين أيضا إلى الجزر التي تنتشر أمام ساحل نابولي. حين أقبلت الباخرة، التي قالت المرشدة السياحية بأنها ستقلهم إلى الجزيرة، انتبهت حواء صحراوي إلى اسمها الغريب، إذ كانت تحمل اسم (ميدمار)، فتذكرت رواية (ميرامار) لنجيب محفوظ بالرغم من أن الأسم ليس نفسه .

فُتحت البوابات الخلفية للعبّارة الأنيقة، اندفع منها مئات الأشخاص. جموع مختلفة من الناس. سيّاح في طريقهم إلى المطار كي يرجعوا إلى بلدانهم. سيّاح يريدون قضاء الوقت في نابولي لما تبقى من النهار، إيطاليون يعملون في تلك الجزر القريبة، أو من سكان تلك الجزر يعملون في نابولي .

كانت حوّاء صحراوي واقفة في زحمة الناس الذين يتأهبون للدخول، وهي في حالة نفسية مشوشة، فثمة غمرتها راحة نفسية نتيجة الجو المشمس الدافئ، وخضرة البحر المائلة للزرقة، شموخ الجزر البركانية التي تبدو في الأفق وكأنها حيتان أسطورية نائمة، ومن الجانب الآخر حضور المدينة التي عرفتها عبر أفلام صوفيا لورين، رغم ان المدينة لم تعجبها، على الأقل ما رأته ما بين المطار والميناء، غير أن زحمة الناس وتدافعهم، ومحاولاتهم الدخول إلى الباخرة بينما بقية ركابها لم يخرجوا بعد، دفعها لتسأل نفسها سؤالاً غريبا لمثل تلك اللحظة: ماذا كانت ستفعل الحياة، والأرض، والبشرية، لولا وجود الموت..؟

ابتسمت ساخرة من نفسها لهذه الأفكار الكئيبة والغريبة التي تتوالد في ذهنها مثل موجات خفيفة تنبع من بئر مظلمة، وقالت لنفسها مؤنبة كأنها تتحدث مع شخص آخر: ما لك يا حواء.. أفي مثل هذا الجو الرائع والبحر الأخضر البهي تفكرين بالموت وبهذه الأفكار المتشائمة..؟ .

لم تستطع ألاّ تجيب نفسها، وتقبل بهذه السخرية من نفسها، إذ وجدت نفسها تجيب نفسها الأخرى بصوتها الداخلي وكأنها تحتج: ماذا أفعل..؟ أنا هكذا دائماً.. صريحة كهوة سوداء، أو هاوية بلا ضفاف..؟ أنا متناقضة.. وأعرف أنني متناقضة، لكن كيف لي أن أتخلص من هذه الأفكار الحزينة..؟ كيف لي أن أكون إنسانة أخرى غير هذه التي هي أنا..؟ أنا هي أنا وأنا لستُ أنا.. وأريد أن أكون أنا ولا أريد أن أبقى أنا..؟ ابتسمت في أعماقها من هذه السفسطة الفكرية واللغوية التي حاورت نفسها بها، وأعجبتها، إذ ذكرتها بحوارت مسرح اللامعقول.. لكنها علقت لنفسها على نفسها: كم أتمنى أن أمسح كل ذكرياتي وأعود كورقة بيضاء

دونما أية ذكريات وأفكار حزينة..؟ .

كان وجهها جامداً ووقوراً، لكن عينيها كانتا قلقتين، وهي غارقة في تفكيرها وحوارها مع نفسها، لكنها لم تنتبه إلى أن أناقتها وجمالها الغامض والمثير أثارا بعض الرجال، بل إنهما أثارا إهتمام بعض النساء القريبات منها أيضا .

حين اندفع الجميع للصعود إلى الباخرة وجدت نفسها محصورة ضمن موجة الداخلين، بل أحست بجسد رجل يطبق عليها بقوة من الخلف، استفزها ذلك لأنها أحست بقضيب الرجل يطبق على مؤخرتها. التفتتْ مستفزة إلى الخلف، فوجدت رجلاً وسيماً، أنيقاً، كأنه أحد نجوم الدعاية في مجلة نسائية، بلحية خفيفة لم تحلق منذ أيام. لا تعرف لماذا خمنّت أنه إيطالي الجنسية .

كان ينظر إليها بتصميم وكأنه يختبر قبولها لمغامرة جنسية معه. ظل الرجل ينظر إليها دون أن يطرف له جفن، بل ارتسمت ابتسامة شهوانية جسورة على وجهه الوسيم. فوجئت بجسارته، ولم تستطع أن تقول شيئا، بل ولم تستطع أن تصمد أمام نظراته الجسورة والبليغة، لكن علامات الاستفزاز والنرفزة كانت واضحة على وجهها. فاستدارت بغضب. وحالما تحركت الجموع ثانية، وازدحمت أمام السلم القصير والضيق أكثر، حتى أحست بإنطباق جسد الرجل الوسيم خلفها بالكامل، بل أحست بعضوه المنتعظ أكثر وكأنه يمارس معها من الخلف، وانتبهت لحركة ذراعه المقصودة في أن يتحسسها من الجانب، ويمس جانبي نهديها بحجة الزحمة. ظلت الجموع للحظات لا تتحرك، بينما يضغط الرجل نفسه عليها بقوة. أرادت أن تتكلم، أن تصرخ، لكنها أحست بفمها كالمشلول، وبتصلب في جسدها، فأدركت أنه من غير المجدي الآن أن تفعل شيئاً، لأنها ببساطة غير قادرة على ذلك، وكذلك فأن الزحمة قد تبرر له فعلته، ولا تعرف كيف انبثقت في ذهنها لحظتها بأن هذا (الماتشو) هو من هؤلاء الرجال الوسيمين الذين يصطادون النساء الثريات المسنات، والسائحات الغربيات والشرقيات اللواتي يبدو عليهن الثراء، واللاتي يجيء معظمهن للمتعة وقضاء الوقت مع أمثاله .

صارت أمام السلم ولم تصعد الدرج، بل انحرفت جانباً قليلاً، فصار هو في تلك الزحمة أمام الأمر الواقع بأن يصعد السلم، بينما ظلت هي واقفة للحظات عند جانب السلم، وهي تشعر بغضب داخلي، ترافقه إثارة جنسية لا إرادية. بعد لحظات خفت الزحمة، فصعدت إلى سطح الباخرة .

شعرت بالانشراح بعد أن صارت على سطح الباخرة، فقد امتد أمامها

أفق لامتناه، فليس هناك سوى إنغلاق السماء على البحر.. البحر.. البحر.. البحر يحيطها من كل الجهات، والجزر تبدو كظلال قاتمة، والنسيم المشبع برائحة أمونيا البحر. كانت تطل من حاجز الباخرة الخلفي على البحر، وتنظر إلى ميناء نابولي وهي تبتعد عنه، لكنها اندهشت حينما شعرت أنها كلما ابتعدت عن الميناء تكشفت لها معالم المدينة أكثر، فقد أخذت ترى قلعة المدينة القديمة، وانتبهت إلى أن المدينة تغفو على سفح جبل. أخذت تتابع بنظرها رصيف الميناء الطويل الذي يمتد إلى مسافة طويلة. وبرغم هذا الإسترخاء الذي منحه البحر لها إلا أنها كانت متضايقة من نفسها، ومن ارتباكها بالتصاق جسد ذلك الرجل الوسيم بها، وعضوه القوي الذي أيقظ في جسدها رغابات نائمة، وكأن جسدها تمساح كان مطموراً تحت طين المستنقع، لكنه فتح عينيه حين شم رائحةً فتحت شهيته، فبدأ يتحرك بتثاقل، لكن بإحتراس غادر .

انحنت على السياج الخلفي للباخرة الصغيرة وأخذت تتأمل الزبد التي يتشكل من حركة أجنحة الماكنات المغمورة تحت الماء للباخرة، وتتابع تلاشيه فوق سطح البحر شيئا فشيئا. كانت رغم صفاء البحر وانفتاح الأفق، تشعر بضيق في نفسها. وكما تأتي الأصوات خافتة من أعماق بئر الصمت لتصعد وتعلو، هكذا أحست بنفسها، ودون شعور منها، تدندن مع نفسها بصوت صامت لكنه واضح يتردد في ذهنها، لأبيات من قصيدة للشاعرة العراقية نازك الملائكة، التي كانت قد حفظتها أيام دراستها الجامعية، وأثناء إعدادها دراسة سنوية عن المقارنة بينها وبين الشاعرة الأميركية أميلي ديكنسن. كانت بعض كلمات تلك الأبيات تكاد تصل إلى شفتيها لكنها تكبتها، إلا أن صوتها كان واضحاً ومسموعاً في رأسها، ومنسجماً مع حالتها النفسية :

سيري فهذا طريقٌ عميقْ
يتخطّى حدودَ المكانْ
لن تعي فيه صوتاً لغمغمةِ الأفعوانْ
إنه «لابيرنثٌ» سحيقْ
ربما شيّدتهُ يدٌ في قديمِ الزمانْ

لم تكن كآبة سوداء ذلك الإحساس الذي غمرها بعد أن استذكرت مع نفسها تلك الأبيات، وإنما كان حزناً رومانسياً شفيفاً. كانت تتأمل الأمواج الهاربة والمندفعة نحو الشاطئ الذي أخذ يبتعد شيئا فشيئا. فجأة، سمعت من يتحدث معها بالإيطالية. التفتتْ بفزع نحو جهة الصوت، فرأت الرجل

الوسيم الذي تحرش بها في الزحمة يقف إلى جانبها وقد وضع نظارة سوداء على عينيه، فبدا كنجم سينمائي، فقالت له بالإنكليزية :

- عفواً..؟ ماذا قلت..؟

كان هو منحنياً مثلها على السياج الحاجز لكنها لم تنتبه لمجيئه، أحست باستفزاز ممزوج بارتباك. انتبه هو إلى أنها لا تتحدث الإيطالية فتحدث بإنكليزية جيدة قائلاً :

- قلت إن البحر جميل جداً.. لكنه يبعث على الحزن.. والوحدة ..

نظرت إليه دون رغبة حقيقية في أن تتواصل معه، لكنها وجدت نفسها مضطرة إلى أن ترد من باب اللياقة المفروضة، فقالت دونما إهتمام، وبشيء من الإستفزاز المبطن :

- لكني لست حزينة ..

نظر إليها وهو ينزع نظاراته. تأمل وجهها. نظر إلى عينيها بتركيز وتحد قائلاً :

- أعتقد أنك حزينة، لكنك لا تعرفين أنك حزينة ..
- ماذا..؟

انتبهت إلى أن كلامه يكشف عن شخصية غامضة، مراوغة، تشي بسمات أبعد مما يعكسه شكله الخارجي وتصرفاته الوقحة وجسارته التي شعرت أمامها بشيء من الضعف الأنثوي الذي لم تود أن تعترف به في تلك اللحظة حتى مع نفسها. وجدت نفسها منجذبة للحوار معه لا إراديا، إذ ردت على كلامه قائلة :

- من أين جاءك هذا اليقين بأني حزينة.. بينما قلت لك بأني لستُ حزينة..؟

ارتسمت على وجهه الوسيم ابتسامة غامضة، وقال :

- وجهك صريح.. صريح جداً ..

في تلك اللحظة بالذات، وبينما كانت تنظر إلى وجهه الوسيم وهو يتحدث، سألت نفسها:

هل أترك نفسي تنجرف مع هذا المد والجزر من الرغبات الغامضة التي تجتاحني..؟

انتبهت إلى أنه قد انتهى من جملته، لكنها لم ترد بشيء، إذ كانت منشغلة مع نفسها، بل انتبهت إلى أنه قد انتبه لإنشغالها مع نفسها، فغضت نظرها متهربة من نظراته الصريحة والمليئة بدعوتها كأنثى للتواصل معه. أحست بخوف ممزوج بضعف أنثوي لا إرادي فقالت دون أن تنظر

إليه :

- ربما.. أقصد ربما أن وجهي صريح.. مع أني أشك في ذلك.. لكن من المؤكد بأنه لا يقول بأني حزينة ..

- إنك تكابرين.. وتهربين من نفسك.. وأعتقد أنك جئت إلى إسكيا هاربة من نفسك.. أليس كذلك..؟

- هذا غير صحيح ..

قالت ذلك بنبرة مستفزة وبغضب مكتوم، فمن تراه كي يكلمها بهذه الطريقة..؟

هكذا فكرت لحظتها مع نفسها، لكنها في تلك اللحظة أحست برجفة في أعماقها، وكأن هذا الرجل الوسيم يملك سلطة غامضة بدأ يفرضها عليها، كما أنه يرى أعماقها، بل وأحست من نظراته إليها وكأنه يراها عارية بدون ثياب، فشعرت بخوف غامضٍ منه، لكنها ولكي تواجه لحظات ضعفها وخوفها، استنهضت في نفسها قوة غامضة داخلية لا تعرف مصدرها بالضبط، قوة تسربت بسرعة هائلة إليها، ومثل موجة عارمة بدأت تغمرها، ودفعتها للوقوف بوجه هذا الإنجذاب الخطير الذي يقودها إلى دهاليز مظلمة، إلى متاهة لا تمتلك الشجاعة في تلك اللحظة على الدخول إليها، فقالت له وهي تنسحب من مكانها :

- عفواً.. يجب أن أذهب ..

ودون أن تسمع جوابه، أو ترى ردة فعله، استدارت مبتعدة عن المكان هابطة السلم لتجلس في الصالة السفلى وكأنها كانت تهرب من نفسها أكثر مما كانت تتهرب منه، بينما ظل الرجل الوسيم في مكانه، دون أن يتأثر بكلامها أو بمغادرتها، وارتسمت على وجهه إبتسامة المنتصر، تلك الإبتسامة التي يمتزج فيها الدهاء والسماحة والثقة الهائلة بالنفس، فكأنه أسد يدري أنه حاصر غزالا، فلا يتعب نفسه بمطاردته، ويبدي عفوه المؤقت له، لأنه يعرف بأنه لا مفر له من قبضته .

* * *

حين نزلتْ على شاطئ الجزيرة كانت ثمة امرأة أربعينية تحمل لافتة عليها علامة الشركة السياحة التي حجزت من خلالها فتوجهت إليها. خلال دقائق معدودة تعرفت حواء صحراوي على المرشدة السياحية الألمانية الأصل، والتي كانت تتكلم أربع لغات أوربية بطلاقة من بينها الإنكليزية، والتي تركت ألمانيا لتعمل وتعيش في إيطاليا، وكان واضحا أن المرشدة السياحية استلطفت حواء صحراوي فحدثتها بتلقائية عن نفسها، وقبل أن تتوغلا في

الحديث وتبدأ المرشدة السياحية بسؤالها، أقبل عدد من السيّاح نحوهما. أخذت المرشدة السياحية تسألهم عن أسماء الفنادق التي حجزوا فيها .

توجه الجميع إلى سيارة باص صغيرة تقف على مقربة من رصيف الميناء. صعدوا جميعهم إليها. التفتتْ حواء صحراوي نحو المرفأ فلمحتْ الرجل الوسيم يتلفت قلقاً، فظنت مع نفسها أنه يبحث عنها. وبرغم أنها انزعجت من جرأته، واستفزها محاولته فرض نفسه عليها، فأنها أحستْ بفرح خفيف لبحثه القلق عنها، لكنها سرعان ما سألت نفسها: من قال لك يا حواء إنه يبحث عنك..؟

إنطلقت السيارة بهم. كان فندق (فلوريديانا تيرم) ثاني فندق يقف عنده الباص. أوضحت المرشدة لها بأنها ستكون عندها في الغد، وأن حقيبة الملابس ستصل إلى الفندق بعد قليل .

* * *

يقع فندق (فلوريديانا تيرم) في جادة كولونا الضيقة نسبيا والملتوية بارتفاع وانحدار طريق جبلي، والتي تصطف فيها المطاعم والمقاهي ومحال الملابس بشكل كثيف، كما تعج بالسيّاح وكأنها المركز التجاري للمدينة. كان الفندق يطل على الجادة العامة عبر سياج عال وبوابة حديدية عالية تبعد عن مبني الفندق ومدخله أكثر من خمسة عشر متراً. أحد جوانب الساحة بين البوابة الخارجية ومدخل الفندق يُستخدم كموقف لسيارات النزلاء أو للسيارات التي تعود لموظفي إدارة الفندق، أما الجانب الآخر فكان يشمل حديقة تتخللها ثلاث نخلات فارعة ومشذبة بطريقة جميلة جداً، تم ربط جذوعها بأسلاك إضاءة كهربائية تحوي مصابيح صغيرة ملونة .

كانت الرزانة المعمارية تبدو على الفندق المطلي باللون الأبيض، من حيث أنه كان قصرا لأوائل الإرستقراطيين الذين قدموا من نابولي، وبنوه قبل أكثر من مائة وخمسين عاماً على طراز العمارة الإيطالية الإرستقراطية، ثم تم تحويله من قبل الأحفاد إلى منتجع سياحي وعلاجي، حيث كان ملك أثيوبيا يحط رحاله لأشهر سنوياً خلال فترة حكمه الطويلة، كما نزل فيه بعض نجوم السينما العالميين الذين وصلوا الجزيرة لاستكمال أفلامهم، التي كان بعضها يروي مغامرات القراصنة، بل وأخبروها بأن فيلم كيليوباترا من تمثيل إيلزابيت تايلور وريتشارد بيرتون قد تم تصويره في هذه الجزيرة، وأن الجزيرة كانت منتجعا للمخرج الايطالي الشهير فسيكونتي، حتى أن بيته فيها قد تحول إلى ستوديو ومتحف فني. كل هذه المعلومات حصلت عليها حواء صحراوي في الدقائق الأولى التي كانت فيها عند استعلامات الفندق،

حيث استقبلتها فتاة برونزية اللون، ذات جمال متوسط لكنه مثير، ممتلئة الجسد نوعا ما، وكأنها من المكسيك أو أميركا اللاتينية أكثر مما توحي بأنها إيطالية، تتحدث الإنكليزية بطلاقة، وهي التي روت لها شيئا من تأريخ الفندق، كما وضّحت لها عن طبيعة العلاج المتوفر فيه، والخدمات الأخرى كأحواض السباحة المتعددة، والمنتشرة بين حدائق الفندق وأقسامه المتعددة، وأخيرا قادتها إلى الجناح الذي تم حجزه لها، في الطابق الثالث، والمطل على حوض السباحة الرئيسي في الفندق، وعلى البحر من بعيد .

* * *

حين صارت حواء صحراوي في جناحها وحدها، بعد أن سلمتها موظفة الاستعلامات مفتاحا ثقيلاً معشق بقطعة برونزية نقش عليها اسم الفندق والرقم 333 الذي هو رقم جناحها، أحست براحة واسترخاء مفاجئ. أخذت تتأمل الجناح. فكرت مع نفسها بأنه لا يختلف كثيراً عن أجنحة الفنادق الأوربية التقليدية، فهو يتألف من شرفة كبيرة نسبياً تتوسطها طاولة من المرمر المعشقة على مساند من الحديد المصبوغ بالأسود والمصنوع بطريقة فنية جميلة، يحيط بها كرسيان من القصب المزخرف والمتماسك. الشرفة تطل على حوض السباحة الرئيسي في الفندق، وتتصل عبر باب يتوسطها بصالون كبير يقود إلى الصالة التي تضم طقماً من الأثاث الثمين، وجهاز تلفاز كبير الحجم يتربع على طاولة في الزاوية، وطاولة أخرى للكتابة تتوزع عليها كراسات ومجلات، وقربها ثلاجة صغيرة .

قرب الباب الخارجي للصالة توجد غرفة الحمام وخزانة عريضة للملابس من جهة، ومن الجهة الأخرى تقع غرفـة النوم، والتي فيها خزانة أخرى للملابس وطاولة عليها جهاز تلفاز صغير نسبيا، ومقعدان بينهما طاولة صغيرة، ومرآة كبيرة تستند على طاولة جميلة الصنع. وكان واضحاً من الأثاث بأنه مصنوع بذائقة فنية إرستقراطية. على الجدار المقابل للسرير لوحة لمنظر طبيعي لجانب من ساحل البحر العاصف حيث يواجه قارب عاصفة .

انتبهت حواء صحراوي بأنه لم يكن معها سوى حقيبتها اليدوية التي تضم عدة مكياجها، وعطورها وبعض حليها الماسية واللؤلؤية الثمينة، ومخطوطة رواية متاهة الأشباح، ومحفظتها التي فيها بطاقات الإئتمان البنكية العالمية الدفع والمتعددة، وظرف فيه مبلغ مالي كبير، وبعملات أوربية متنوعة، ما بين الدولارات والجنيهات الأسترلينية، ولم يكن أمامها سوى إنتظار وصول حقيبة الملابس .

دخلت غرفة النوم. وضعت حقيبتها اليدوية على الطاولة أمام المرآة. ألقت بنفسها على السرير. أحست براحة نفسية كونها وحدها في هذه الجزيرة البعيدة عن ضجيج لندن. فكرت مع نفسها بأنها قد تخلصت من الروتين اليومي الذي يبعث على السأم، حيث الصحو صباحاً، ثم الفطور والإتصال الهاتفي مع أمها أو صديقتها إيفا ليسنج، بعد ذلك فترة الغداء، وبعدها القيلولة، وما يتبع ذلك من طقوس عند المساء، فإما الجلوس في البيت وإما الخروج للتسوق أو التسكع في محلات المجوهرات، أو العشاء في مطعم مع صديقتها .

فكرت مع نفسها بأنها تمنت لو لم تنته من دراستها العليا، إذ كانت الدراسة تمنح وجودها معنى. نعم.. نعم.. هي الآن تحمل شهادة الدكتوراه في الآداب، بتخصص الفنون الجميلة، وبالتحديد في بحوث المسرح، وقبلها الماجستير في الأدب الإنكليزي، لكن ماذا تفعل بهذه الشهادات..؟ هي لا تعمل أبداً، فهي ليست بحاجة إلى العمل، فلديها مال كثير، مورد شهري يضعه والدها في حسابها، ومورد النفقة الكبيرة التي تحصل عليها من طليقها قانوناً، وبيت كبير في لندن كان طليقها قد كتبه باسمها عند الزواج، وأموال كثيرة وعقارات ورثتها عن جدتها لأمها بوصية خاصة من الجدة، لذا فهي لا تحتاج إلى العمل، لكنها تحس بأنها في دوامة، فالأيام تتكرر، بل الأشياء كلها تتكرر، بل وحتى لو لم تتكرر فأنها فقدت طعمها.... ولم يخرجها من هذا الروتين إلا الكاتب آدم التائه. لكن آدم التائه قُتل بطريقة غامضة. إنها تذكر جيداً حين كانت تلك الليلة تتحدث معه تليفونياً، وتوقف عن الحديث لأنه سمع صوت جرس الباب الخارجي، ثم قطع الاتصال واعداً بمعاودته، لكنه لم يتصل لأن الذي طرق الباب كان هو القاتل. نعم.. القاتل هو الذي طرق بابه في تلك اللحظات..، لكن لا يمكن أن يكون القاتل فرداً، لأنه كان مشدوداً إلى الكرسي..! نعم.. لقد رأت ذلك بعينيها، ولا يعقل أن يقوم شخص واحد بشد وثاقه إلى الكرسي بمفرده..؟ الغريب في كل هذه الجريمة هو أن الجثة قد اختفت..؟ فلا إيفا ليسنج تعرف شيئاً عن الأمر، ولا الصحافة أشارت إليه، بل على العكس، فقد كتب رسالتين زادت الأمر غموضاً، ثم أنها رأته في المطار.. كيف يحصل كل هذا..؟ ما هو تفسيره..؟

ودون أن تدرك، ولا إرادياً، وجدت نفسها تفكر في الرجل الوسيم الذي تحرش بها في العبّارة (ميدمار). استغربت من ظهوره المفاجئ في ذاكرتها، بل إن وجهه الوسيم ونظراته المليئة بالكلام الوقح والرغبة

المفضوحة، والتحدي الواثق، وإبتسامته المنافقة، كل ذلك يحضر الآن أمام عينها الداخلية، تراه في عين ذاكرتها بوضوح شديد.. لكن كيف يحصل كل هذا..؟ ولماذا..؟ ما علاقة هذا الرجل بمقتل آدم التائه..؟

أحست بشعور غير مريح من حضور هذا الرجل في ذاكرتها بهذه القوة. كانت تخاف من التفكير فيه، حتى ولو بشكل سلبي، إذ هي تشعر بأنها تقاوم جاذبية غامضة، وكل تفكير فيه حتى ولو كان سلبيا وعدوانيا فهو ليس أكثر من مقاومة ضعيفة لهذا الإنجذاب، لذا فمن الأفضل لها أن لا تفكر فيه أصلاً، حتى ولو بشكل سلبي .

ولكي تقطع على نفسها التفكير فيه نهضت من السرير وتوجهت إلى الحمام، لكنها تذكرت أن حقيبة ملابسها لم تصل بعد، لذا توجهت إلى الشرفة .

* * *

كانت الشرفة مطلة على حوض السباحة الكبير. جلست على أحد الكراسي الموجودة حول الطاولة المرمرية. كان الجو دافئا. فكرت في الفرق بين الجو في إيطاليا وإنكلترا. شعرت بموجة من البهجة بأنها تخلصت من الأمطار التي ملأتها بالكآبة. تذكرت أن الشاعر العراقي السياب تحدث عن الحزن الذي يبعثه المطر. صحيح أن الشاعر كان يتحدث عن المطر العراقي، لكن المطر في كل زمان ومكان، فيه لمسة خفية من الحزن والوحشة .

انتبهتْ إلى نزلاء الفندق الذين تمددوا على الأسرة المتوزعة حول حوض السباحة. بعضهم نصب مظلة تقيه من الشمس التي لم تكن في ذلك الوقت ساخنة جداً. بعض الأسرة كانت في جهة الظل. ثمة امرأة أربعينية في البكيني تضع نظارة سوداء على عينيها، بجوارها رجل يتمدد على سريره في الشمس لكنه يضع قبعة من القش على وجهه. على مبعدة منهما امرأة تقرأ في كتاب سميك، في جانبها رجلان يتمددان على سريريهما جنبا إلى جنب ويتحدثان. النادل يحمل صينية فيها كأس كبيرة مليئة بالمثلجات الملونة وهو يقترب من المرأة الأربعينية في البكيني. فتاتان شقراوان، إحداهما في نهاية العشرينات من عمرها والأخرى في بداية العشرينات من عمرهما تقطعان الحوض سباحة ذهاباً وإياباً وكأنهما تواصلان تمرينا رياضيا. رجل في الخمسين يقف في الحوض دون أن يتحرك، يتلفت بجسده يميناً وشمالاً، دافعاً الماء إلى جسده، بدا لها وكأنه لا يعرف السباحة لكنه لا يستطيع إلا أن يلقي بنفسه في الماء ليواجه حرارة الشمس. كانت الأجساد كلها مسترخية، غير آبه أي منها بالآخر، أياً كان

هذا الآخر .

أحستْ بإسترخاء نسيت نفسها خلاله، إذ أنها استغرقت في تتبع النزلاء المتمددين حول حوض السباحة، ولم يخرجها من استغراقها سوى طرقات على الباب. انتبهت، ثم قامت بهدوء ومضت لتفتح الباب .

كان فتى في العشرين من العمر يقف أمام الباب وأمامه حقيبة ملابسها. ألقى التحية سائلاً إن كانت هذه هي حقيبة ملابسها فعلاً، ولم تكن بحاجة إلى التأكد إذ أن لون حقيبتها القهوائي ونوعية الحقيبة أكدت أنها حقيبتها من أول نظرة. أدخل الفتى الحقيبة إلى الصالة، بينما دخلت هي غرفتها، وخرجت وبيدها ورقة نقدية من خمسة دولارات أعطتها للفتى الذي أخذها بسرعة وهي يشكرها مغادرا الصالة .

فتحت الحقيبة. أخرجت الكتب. وأحذيتها، ملابس السباحة، بدلاتها الأنيقة، وملابسها الداخلية التي أخذت تصففها في الخزانة. وبسرعة أخذتْ تنزع عن نفسها ثيابها، وتوجهت إلى غرفة الحمام .

* * *

أفاقت من قيلولتها العميقة في حدود الساعة السادسة مساء. كانت تشعر بخدر لذيذ. أحست برغبة هائلة في أن تنسى كل شيء. لم تكن تتوقع أنها متعبة لهذا الحد، فقد نامت ساعتين وعشر دقائق، وكأنها كانت تستكمل نومها العميق في الطائرة. كانت الغرفة مظلمة. وكانت قد رقدت عارية ملتفة ببرنس الحمام فقط. أحست بطعم النوم لأول مرة منذ أيام. ظلت لدقائق متمددة على السرير. تذكرت أن العشاء في الطابق تحت الأرضي، المقابل لحوض السباحة يبدأ من الساعة السادسة وحتى الثامنة. وبتكاسل ممزوج بالنعاس نهضت من سريرها لكي ترتدي ثيابها، ثم تنزل إلى المطعم .

* * *

حينما انتهت حواء صحراوي من ارتداء ثيابها نظرت إلى نفسها في المرآة طويلاً. كان ثمة شيء ما ناقص في صورتها عن نفسها. بدون أي تفكير مسبق مدت يدها إلى رأسها وسحبت الشال الذي كانت تغطي به شعرها عادة. كان شعرها مصفوفا بطريقة جميلة بدت فيها وكأنها إحدى نجوم السينما الهندية. فكرت مع نفسها بأنها هنا وحدها، ولا أحد يوجد من معارفها أو معارف أهلها. الجميع هنا غرباء. إنها لم تكن محجبة أصلاً وقد تحجبت بعد الزواج تحت ضغط زوجها، لكنها وبضغط من الأهل واصلت تغطية رأسها بشال حريري. هي الآن مطلقة. كما أن حجابها سيثير

الانتباه لشخصها أكثر مما لو كانت بدونه، لذا قررت أن لا تضع الشال على رأسها .

خرجت من غرفتها، لكنها حينما صارت أمام الباب الخارجي، رجعت لغرفتها مسرعة ووضعت الشال على رأسها، ثم غادرت الغرفة. في الممر انتقدت نفسها على ترددها وجبنها .

* * *

ينقسم المطعم الذي في الطابق الأسفل إلى صالتين بينهما صالة صغيرة مفتوحة تتوسطها طاولة ضخمة توزعت عليها صواني الطعام بكل أصنافه. على جانبي الصالة طاولتان توزعت عليهما دوارق مليئة بأنواع من عصير الفواكه والخضروات. المطعم بجميع صالاته يطل من خلال شرفة واسعة طويلة على امتداد حوض السباحة الكبير .

في المطعم، وأمام القاعة الأولى استقبلها نادل أنيق يلبس بدلة سوداء رسمية، في الخمسين من العمر، قصير الشعر، لا يبدو عليه لأناقته وحضوره الشخصي وكأنه نادل في مطعم. سألها بالإيطالية فارتبكت قليلاً، فسألها بالإنكليزية عن رقم غرفتها، شعرت بومضة راحة، وقالت برزانة 333 ، اعتذر لها لأنه ظنها إيطالية فهي تشبه الإيطاليات، فذكرت له بأنها عربية، فطلب منها برجاء أن تتبعه .

قادها إلى طاولة لشخصين فوضعت حقيبتها اليدوية على أحد الكراسي، ثم جلست على الكرسي الآخر، وأخذت قائمة الطعام لترى ماذا ستحجز كطبق رئيسي، إذا أن المقبلات والأجبان والوجبات الخفيفة والفواكه، كلها موجودة في الصالة الوسطى كمائدة مفتوحة، لكن بإمكان النزلاء أن يطلبوا طبقا ساخنا حسب رغبتهم .

كانت طاولتها قريبة من الشرفة الأرضية المطلة على حوض السباحة، وكان ثمة حاجز زجاجي كبير يمتد على طول القاعة ليفصلها عن الشرفة والمسبح. بالقرب منها كانت طاولة أخرى لشخصين، رجل وامرأة، عرفت أنهما ألمانيان من خلال لغتهما التي كانا يتحدثان بها. كانا ينظران إليها بفضول وإعجاب، وعلى بعد أمتار منها كانت هناك طاولة تجلس حولها ثلاث نساء، انتبهت إلى ملامحهن الجانبية فخامرها شعور بأنهن عربيات. لم تسمع حديثهن لأنهن كن يهمسن في ما بينهن. لم ينتبهن إليها. كانت إثنتان منهن تجلسان وظهرهما إليها، أما الثالثة فقد كانت تجلس أمام إحداهن فلم تكن تظهر أمام ناظريها .

كانت القاعة مليئة بالإيطاليين الذين جاءوا إلى هذه الجزيرة للعلاج.

انتبهت إلى وجود عدد غير قليل من المسنين بين رواد المطعم، لكن ما أثار انتباهها أكثر هو أن غالبية النزلاء الأجانب هم من الروس. عوائل روسية مع أطفالهم، فتيات بمفردهن، أزواج بمفردهم، مجموعات مختلطة لأكثر من عائلة. انتبهت لحيويتهم وبساطتهم في الحديث في ما بينهم، وإهتمام الآباء والأمهات بالأطفال الذين معهم، وتلقائيتهم في الحركة وبساطة وأناقة لبسهم وسط هذا الجو الاستعراضي .

أحست براحة نفسية وهي ترى الفتاتين اللتين كانتا في حوض السباحة عصراً وهما تتحدثان بالروسية. مرّتا جنب طاولتها وهما تبتسمان وتتحدثان بمرح، ولا ترتديان سوى ثوبين صيفيين بسيطين وزوجين خفيفين من النعال. أحست أنهما أكثر حرية وتلقائية منها، فهما لا تعيران اعتباراً للطقوس الرسمية ولا لإستعراض الثياب. تمنت لو أنها تتحرر من قيودها غير المنظورة التي تكبلها من الداخل. أحست برغبة عميقة في أن تكون حرة وبسيطة وتلقائية مثلهما .

تابعتْ الفتاتين وهما تتوجهان نحو صالة الطعام، وحين التفتتْ ثانية إلى طاولة النساء الشرقيات، وجدتْ نفسها، دون إرادة منها، تمد يدها إلى الشال الذي يغطي رأسها، وفكتْ عقدته وسحبته بهدوء، ثم طوته ووضعته في حقيبتها اليدوية. فكرت مع نفسها بأن جان بول سارتر كان محقاً حينما قال: «الجحيم هم الآخرون».. نعم.. أنا لا أريد أن أكون موضوعا لنظرات الآخرين وتفسيراتهم. أحستْ براحة نفسية وخفة في جسدها، وكأنما كانت تضع أثقالاً على رأسها وليس شالاً خفيفاً .

ظلت جالسة على كرسيها تنظر إلى قائمة الطعام دون أن تستطيع أن تقرأ حقا ما فيها، فقد راودتها في تلك اللحظات مشاعر متناقضة، إذ أحست بأنها نزعت عن نفسها قناعاً ثقيلاً، وفي الوقت نفسه كأنها وضعت قناعاً وهمياً جديداً. ابتسمت لنفسها وهي تدمدم في أعماقها بأبيات لشكسبير من مسرحيته ريتشارد الثالث، وكأنها تبرر لنفسها ما أقدمت عليه:

«فلأكن إذن شريراً.. ما دمتُ لا أصلح للحب، ولا للإستمتاع بهذه الأيام الجميلة الزاهرة»

ابتسمت لنفسها مرة أخرى وهي تقول لنفسها بإنها ليست شريرة كرتشارد الثالث؛ فكل ما تريده هي أن تكون حرة، أن تكون هي ذاتها، وليست ذاتاً أخرى غير مقتنعة بها .

نهضت متجهة إلى الصالة الوسطى لتجلب لنفسها صحنا من المقبلات والخضراوات الموجودة. اجتازت طاولة النساء العربيات جانباً. انتبهت إلى

أنهن يتحدثن باللهجة اللبنانية. حين مرت بجانبهن رفعتْ المرأة التي كانت بعيدة عن ناظريها رأسها إليها، فتبادلتا النظرات في ما بينهما بإنتباه .

* * *

حملت لنفسها طبقاً من الأجبان الإيطالية المختلفة وشيئاً من الخضروات الطازجة، بينما كان ذهنها مشغولا بحوارها مع ذاتها، إذ كانت تحدث نفسها بأنها لا بد أن تتخلص من حالة التوتر التي هي فيها، إذ عليها الاسترخاء الكامل، وفي الوقت نفسه أخذت تبرر لنفسها حالة التوتر التي هي فيها بأن هذه هي طبيعة الإنسان المثقف، فهو متحف للقصص القديمة والحكم المتناقضة والمقولات والجمل الذكية المتنافرة، وأرشيف للأحداث المنتقاة، فالإنسان المثقف ليس إلا مكتبة مبعثرة متنقلة .

كان النزلاء يدورون مثلها حول الطاولة ليصبوا لأنفسهم المقبلات المختلفة في الصحون التي يرفعونها بأيديهم، بينما كانت هي تدور حول ذاتها. لمحت النساء العربيات الثلاث يغادرن صالة الطعام التي تجلس فيها، إثنتان منهن نظرتا إليها بتمعن، بينما ابتسمت لها الثالثة التي تبادلت معها النظرات قبل قليل، فبادلتها الابتسامة دون إرادة منها .

* * *

أول ما قامت به بعد عودتها إلى جناحها هو الاتصال بأمها في لندن، لطمأنتها على وصولها وأعطتها رقم الغرفة، وطريقة الاتصال بها، وتحدثت معها عن الجزيرة وطقسها الجميل وعن نزلاء الفندق .

فكرتْ بأن تتصل بصديقتها إيفا ليسنج، لكن ثمة دافع خفي منعها من ذلك، وكأنها كانت تتلذذ بأن تترك صديقتها تنتظر إتصالها، فهي تعرف بأن إيفا ليسنج تعرف موعد سفرها، وبأنها الآن في الجزيرة، وقد وعدتها بالإتصال بها حين وصولها مباشرة. لا تعرف من أين جاء هذا الدافع الغامض بعدم الإتصال بها..؟ هي ليست بهذه القسوة مع الآخرين، لاسيما مع صديقتها إيفا ليسنج .

ظلت للحظات تدور في جناحها حائرة ما بين أن تتصل بصديقتها أو لا تتصل. خرجت إلى الشرفة. أطلت على حوض السباحة. رأت ثمة طاولات في العتمة حولها شموع متقدة لكن لا أحد يجلس حولها. دخلت إلى غرفتها ثانية. جلست على السرير وهي تنظر إلى جهاز التلفون، وفي أعماقها دفقات من المشاعر المتضادّة، وأخيراً حسمت أمرها، فمدت يدها إلى جهاز التلفون لتتصل بصديقتها، إذ قررت مع نفسها بأن تكون بعيدة عن هجمات الغريزة الشرسة، وعن المشاعر العدوانية، وبعيداً عن وخزات الضمير

الأعمى. أخرجت دفتر تليفوناتها، وأخذت سماعة الهاتف، متبعة الإرشادات الموجود للاتصال الدولي التي اتبعتها عند الاتصال بوالدتها. طلبت رقم فندق سوفيتيل في ميونخ. تحدثت مع موظف البدالة أو الإستقبال، طالبة الجناح المرقم 333 ، انتبهت لتشابه الأرقام بين جناحها وجناح صديقتها، فهما يسكنان في جناحين يقعان في دولتين مختلفتين، لكنهما يحملان الرقم نفسه. بعد لحظات أجابها موظف الاستقبال في الفندق الألماني بان السيدة ليسنج غير موجودة في جناحها، فتركت لديه رسالة برقم فندقها وجناحها واسمها .

أحست براحة وسلام يغمرها من الداخل، وبدفق من المسرة الخفية يجتاحها. بعد لحظات رق مزاجها فقررت أن تقوم بجولة في المدينة، لاسيما في الشارع التجاري الذي يقع فيه الفندق. نهضت وغادرت الجناح.

الفصل التاسع: دوامة إيفا بعلبكي

كانت جادة كولونّا مزدحمة بالسيّاح من مختلف الأعمار. المحلات مفتوحة والأضواء القوية التي تشع على الدرب الضيق نوعا ما تبعث البهجة في النفس. لم تكن حواء صحراوي تعرف إلى أي اتجاه من الجادة يجب أن تتوجه، فهي تخرج من الفندق لأول مرة منذ وصولها. الجادة من الجهتين تضج بالمطاعم والمقاهي. من جهة اليمين تهبط منحدرة إلى المخازن والمطاعم والمقاهي، بينما تتجه من الجهة اليسرى صاعدةً شيئاً فشيئاً نحو ذروة ما ثم تنحدر بعدها ببطء متفرعة إلى أزقة ودروب جانبية .

وجدتْ حواء صحراوي نفسها تتجه نحو اليمين الذي بدا لها أكثر حيوية وزحمة بالناس. كانت تستعرض بنظرها كل واجهات المخازن، ومحلات بيع المشروبات المنتجة في الجزيرة، وبعض محلات التحف، ومحلات الملابس والحقائب الجلدية والأحذية لأشهر الماركات الإيطالية المعروفة في أوروبا .

توقفت عند عدد من تلك المحال. انتبهت إلى أن الأسعار هنا أرخص بكثير مما هي عليه في لندن. عند أحد الدكاكين التي تبيع الحلويات وأنواع النبيذ الذي تنتجه الجزيرة اوقفتها البائعة وصبت لها في كأس صغيرة شيئاً من المشروبات المحلات بالكريما والمصنوعة من البطيخ الأصفر. أعجبها مذاقه جداً، فاشترتْ قنينة منه .

عند ناصية الجادة في أسفل الشارع انتصبت كنيسة بيضاء، صغيرة، مضاءة بمصابيح ينتشر منها شعاع أصفر. قرأتْ على لوحة تعريفية اسم الكنيسة (سانت ماريا ديله غرازي). وقفت للحظات تتأمل هذه الكنيسة التي تقع في الطريق مجاورة للمطاعم والمقاهي. حين تجاوزت الكنيسة وجدت نفسها تنحدر نحو جادة تحمل اسم روما. لم تكن تلك الجادة طويلة إذ سرعان ما وجدت نفسها عند تقاطع يتجه إلى ساحل البحر القريب، ويمضي من جهة أخرى إلى الميناء. لم يكن أمامها سوى أن ترجع باتجاه الفندق .

* * *

حين اجتازت حواء بهو الفندق واستدارتْ نحو الممر الضيق حيث المصعد وجدت المرأة العربية التي ابتسمت لها في صالة الطعام تنتظر نزول المصعد وهي تحمل بيديها كيسا كبيرا يحمل شارة ماركة إيطالية شهيرة للملابس. ألقت عليها تحية المساء بالإنكليزية، فردت الأخرى عليها

مبتسمة. ظلتا واقفتين للحظات إلى أن انفتح المصعد، خرج رجل وامرأة عجوزان. سلمّا على المرأة العربية باللهجة اللبنانية، فردت عليهما أيضا. التفتا إلى حواء وسلما بالإنكليزية فردت عليهما بالعربية. ابتسما لها بحزن ومضيا في الممر .

حين صارتا في المصعد بادرتها المرأة اللبنانية وسألت بالعربية بنبرة ودودة :

- حضرتك عربية..؟

استجابت حواء صحراوي للسؤال، فقالت بمودة وبنبرة من يرحب بالتواصل :

- نعم.. أنا خليجية.. لكني ولدت وترعرعت في لندن ..
- أهلا وسهلا.. تشرفنا ..
- لـي الشرف.. وحضرتك.. هل أنت لبنانية..؟
- نعم.. أنا لبنانية.. لكني أعيش في ألمانيا.. في برلين ..
- أهلا وسهلا ..

ضغطت المرأة اللبنانية على رقم الطابق الثاني، ونظرتْ إلى حواء صحراوي تسألها من خلال النظرات، فابتسمت لها وقالت :

- الطابق الثالث ..

مدت المرأة اللبنانية إليها يدها بطريقة مفاجئة مصافحة وهي تقدم نفسها :

- أنا إيفا بعلبكي ..

فوجئت حواء صحراوي لحركتها فمدت يدها مصافحة أيضا وهي تقدم نفسها :

- حواء صحراوي ..

كان المصعد قد بدأ يتحرك بهما إلى الأعلى. لم تمض سوى لحظات حتى توقف في الطابق الثاني. وانفتح الباب، فقالت لها إيفا بعلبكي بمرح وصداقة :

- أنا أعيش هنا في الغرفة 222 . . تفضلي معي ..
- شكرا جزيلاً.. أنت أيضا يمكنك أن تتفضلي عندي.. أنا أسكن في جناحي المرقم 333 . .
- شكراً جزيلا.. بالتأكيد سأمر ..

فجأة تذكرت حواء صحراوي القنينة التي في يدها، فقالت :

- أنا اشتريت قبل قليل قنينة من عصير البطيخ.. ليكيور لذليذ

جداً.. تفضلي عندي لنجربه ..

ظلت إيفا بلعبكي لحظة صامتة وكأنها تفكر، ثم قالت بمرح وهي تبتسم بمودة حقيقية :

- طيب.. سأضع حاجاتي في الغرفة وآتيك.. هل قلت رقم جناحك 333 . .؟
- مضبوط ..
- ألا يكون الوقت متأخراً.. ربما تحتاجين للراحة..؟
- لا أبداً.. سأكون سعيدة بحضورك ..
- طيب سأكون بعد دقائق ..
- سأكون بالإنتظار ..

حين أُغلق باب المصعد شعرت حواء صحراوي بموجة فرح خفي تغمرها، فقد وجدت في نفسها ارتياحا لإيفا بعلبكي منذ أول لحظة رؤيتها في المطعم هذا المساء .

* * *

عندما فتحت حواء صحراوي لإيفا بعلبكي الباب، فوجئت حينما رأتها في ثوب سهرة جميل يكشف عن الكثير من نهديها وكتفيها، وقد صفت شعرها، ووضعت بعض المساحيق على وجهها المثير، ورشت شيئا من العطر على نفسها. أحستْ حواء صحراوي لحظتها بشيء من الأسف بأنها لم تقم بمثل ذلك، بحيث ترتدي ثوباً خاصاً، وتتزين بمجوهراتها الثمينة، فلم يكن أمامها سوى الترحيب بها، والتوجه إلى الشرفة، حيث كانت الطاولة قد جُهزت بكؤوس صغيرة وببعض المكسرات التي أخرجتها من الثلاجة، بينما انتصبت القنينة في وسطها .

مضى أكثر من نصف ساعة منذ أن جلستا في الشرفة. كانتا قد شربتا كاسات عدة متتالية من شراب البطيخ، والذي كان يحتوى على نسبة كحول تصل إلى سبع عشرة بالمائة، لذا كانتا قد استرختا في الحديث، وشعرتا وكأنهما صديقتان منذ زمن بعيد .

كانت دوافعهما للتقرب من بعضهما البعض مختلفة، إذ كانت حواء صحراوي تريد أن تتخلص من حالة الإرتباك التي هي فيها منذ سنوات، والتي تعززت بوصول آدم التائه ومقتله، واختفاء جثته، وظهور شبحه، وأيضاً كي لا تفكر في الرجل الوسيم الذي تحرش بها في العبّارة ميرامار. أما إيفا بعلبكي فقد أعجبت بأناقة وأنوثة وجمال حواء صحراوي، منذ أول لحظة، وحينما عرفتْ منها بأنها خليجية، تضاعفت رغبتها للتعرف عليها،

فقد ظنتها واحدة من الأميرات الخليجيات .

كانتا قد شربتا لحد الآن نصف القنينة تقريباً خلال هذه الفترة القصيرة، وكأنهما كانتا تتقصدان ذلك كي تسترخيا قليلاً من توتر اللقاء الأول بتأثير الكحول الموجود في الشراب .

بعد أن تحدثتا عن الفندق ومستوى خدماته، وإمكانيات العلاج المتوفرة فيه، أحستْ إيفا بعلبكي بأنها لا تستطيع الصبر أكثر فسألتها بحذر مغلف بنوع من التلقائية والعفوية المصطنعة :

- مدام حواء.. لا أدري إن كان من حقي أن اسألك أم لا.. لكن يراودني هذا السؤال.. لماذا أنت وحدك..؟ ألست متزوجة..؟ أم ..

وقبل أن تكمل إيفا بعلبكي سؤالها، أجابت حواء صحراوي، بهدوء :

- أنا مطلقة.. تزوجت لفترة ليست بالطويلة.. وانفصلت عن زوجي ..

- وهل لديك أطفال..؟

- لا.. ليس لدي أطفال.. لم أشأ أن يكون لديّ منه أي طفل ..

- آها ..

انتظرت إيفا بعلبكي أن تواصل حواء صحراوي سرد قصتها، إلا أنها فوجئت بها تسألها :

- وأنتِ..؟

- أنا متزوجة.. هذا زواجي الخامس.. والرابع فعليا ..

- لم أفهم..؟

أحستْ إيفا بعلبكي بأن جليستها قد فوجئت حقا بما قالته، وأنها تبدو كتومة أو حذرة، ولن تتحدث لها عن أي من خصوصياتها إلا إذا أطمأنتْ اليها، ولكي تطمئنها وتكسب ثقتها فكرت بأن تروي لها قصتها أولاً، فقالت لها باسمة :

- لا تستغربي.. سأفهمك.. أنا متزوجة الآن وأعيش مع زوجي الرابع، لكن هذا هو زواجي الخامس، فقد تزوجت ذات مرة على الورق فقط.. أي لم يكن زواجاً فعلياً.. بالرغم من أنه دام سبع سنوات تقريباً ..

- لم أفهم..؟ لقد حيرتني أكثر.. كيف ذلك..؟

صمتت إيفا بعلبكي للحظات، نظرت إلى السماء المعتمة، ثم أخذت تروي حكايتها الغريبة، بينما كانت حواء صحراوي متلهفة لسماع مغامرة هذه المرأة التي أثارت إعجابها، وأحست نحوها بجاذبية غامضة .

* * *

– قبل كل شيء إيفا ليس اسمي الحقيقي، وإنما هو ترجمة لإسمي. اسمي حواء بعلبكي، وأنا مسلمة ولست مسيحية كما يوحي اسم إيفا. حين وصلت إلى ألمانيا طالبة اللجوء السياسي غيرت اسمي إلى إيفا. وهذه قصة طويلة سأرويها أيضاً. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. ولدتُ لعائلة بسيطة، فقيرة الحال، تتألف من أب وأم وخمسة أبناء في مدينة بلعبك. كنت الثانية بين الأبناء بعد أختي الكبيرة. في الخامسة عشرة من عمري تقدم إلى أهلي رجل فلسطيني يكبرني بخمس وعشرين عاماً طالباً يدي. حين سأله أبي عن عمره قال إنه في بداية الثلاثينات، وحين علقت أمي بأنه يبدو أكبر من هذا العمر، أجاب بأن ظروفه الصعبة وتنقله المستمر هو الذي جعل حاله تبدو هكذا، وأنه بسبب هذه الظروف قد فقد كل أوراقه. أتدرين..؟ أنا إلى الآن لم أفهم لماذا زوجني أبي إليه..؟ لم يكن غنياً، ولم يدفع لأهلي مالاً حتى أقول لنفسي بأنه اشتراني.. كان زواجي عادياً جداً، بل وأقل من عادي.. ومهري بائس.. لذلك أفكر أحياناً بأسباب مختلفة لكنها غير حاسمة، فمثلاً أفكر بأنهم زوجوني له لأنه كان مسؤولاً عسكرياً مهماً في تنظيم فلسطيني كبير، مما بث الخوف والفزع في قلب والديّ من انتقامه إذا رفضا تزويجي له..، وربما أرادا أن يتخلصا من البنات اللاتي دائماً يشكلن عبئاً أخلاقيا، ومبعث قلق لدى الوالدين..؟ وربما بسبب أن صديقاً له كان قد تزوج أختي الكبرى، وبالتالي أراد الأهل أن نكون، أنا وأختي، في تواصل من خلال زوجينا أيضاً..؟ وربما بسبب سمعته الطيبة، فقد كان مثقفاً، ويحاضر أحيانا في الندوات..؟ لا أدري.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. مع أول ليلة لي معه بدأ كابوسي الحقيقي.. فقد أسكنني في غرفة لا تليق بالحيوانات.. وكان لا يجامعني بل يغتصبني بعنف. لا أعرف سبب ذلك.. فلم أكن أتغنج أو أمانع أو لاأتجاوب مع رغباته، لكنه لم يكن يرتاح إلا بأن يكون عنيفاً معي.!! كان غيوراً جداً جداً.. كان يمنعني أن أتحدث حتى مع أخيه.. كان إذا خرج يقفل الباب خلفه بالمفتاح. كان يعتقد بأني سأهرب منه، أو أني سأخونه مع آخرين.. وكان يأمر بعض أتباعه ليحرسوا السكن الحقير والبائس الذي كنت أعيش فيه.. بعد فترة قصيرة انتقلنا إلى بيروت.. وفي بيروت صار عذابي مضاعفاً.. سكنت في منطقة برج البراجنة. في بيت بائس يتألف من غرفة أيضا وصالة أشبه بقبر.. إذا تعرضت بيروت والمخيم الفلسطيني للقصف الإسرائيلي كان يُجلسني معه في السيارة ولا يسمح لي بالتوجه إلى الملجأ.. وحينما كانت جاراتي يسألنه عن سبب عدم السماح لي بالذهاب إلى الملجأ، كان

يقول لهن صراحة وبغضب بأنه لا يريد أن يموت وأبقى بعده كي أتزوج غيره..! .... من سوء حظي أنني قد حملت منه.. وأنجبت ولداً.. فكرت ربما أن حاله سيكون أفضل بعد مجيء الولد، إلا أن الأمر صار أسوأ بكثير، إذ أخذني إلى أهله في الجنوب كي أعيش معهم هناك. وهناك بدأت رحلة عذاب أخرى...... ذات مساء جاءت أختي مع زوجها إلينا.. وأخبراني بأن والدي مريض جداً.. وأنهما سيذهبان إلى بعلبك وسيأخذاني معهما.. لا أعرف كيف أصف لك الوضع حينها.. فقد غضب زوجي بشكل مرعب وكأن الشيطان قد تقمصه، وأخذ يصرخ على زوج أختي ويشتم أختي، قائلاً بأنه لن يسمح لي بالخروج من البيت.... كانت أختي أكثر جرأة مني، لذلك تشاجرت معه، بل وتشابكتْ معه بالأيدي....... حتى أن أحد أعوانه أخذ يرمي الرصاص بين قدمي أختي مهدداً بقتلها لأنها رفعت يدها على قائده...... كان زوج أختي رجلاً مسالماً.. كانت أختي هي التي تقود معركتي معه.... زوجها كان يقول لها بأنني زوجته ومن حقه أن يفعل بي ما يشاء..! المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. في اليوم التالي ذهبا وتركاني مع إبني الرضيع في سجني.. حينها قررت الهرب من البيت.. كان هو قد كلف فتى مسلحاً بحراسة الباب ومنعي من الخروج...، إلا أني جمعت ما بقي عندي من مال، كما جمعت ما يمكن أن أخذه معي لابني في الطريق، ثم تدليت من النافذة وأنا أحضن طفلي... توغلت في البستان الذي كان يقع خلف غرفتنا من الخلف.... أخذت أركض على غير هدى... المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. أبتعد عن البيت.. بعد فترة من الركض وأتوقف لأخذ الأنفاس.. وصلت الطرف الآخر من البستان، ونزلت إلى الطريق العام، فأوقفت سيارة نقل نسميها باللبناني (سيرفيس).. وركبتها متوجهة إلى صور.. كنت أرتعد خوفاً من أن يكون قد رجع إلى البيت مبكرا ولم يجدني... ولأنه مسؤول عسكري فهذا يعني بأنه من السهولة أن يجدني، لاسيما في تلك السنوات حين كان للفلسطينيين كلمتهم في لبنان.. لكن الحمد لله لم يكن قد عاد إلى البيت.. من هناك توجهت إلى بيروت.. إلا أن نقودي كانت قد نفدت.... هناك في بيروت طلبت من أحد السائقين (الشوفيريه) أن يوصلني إلى بعلبك.. ووعدته بأن أهلي سيعطونه أجره.... ولأن السائق كان من بعلبك أيضاً ويعرف والدي فقد وافق.. لكن في تلك اللحظة رأيت ابن عمتي في كراج السيارات المتوجهة إلى بعلبك.. فحكيت له قصتي.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. حين وصلت أهلي مع ابن عمتي كان أهلي في حالة حزن كبير، إذ كانت أختي قد حدثتهم عن

وضعي وحالي مع زوجي، لذا قرر أهلي أن لا يعيدوني إليه مهما كلف الأمر.. لكن في الرابعة فجراً سمعنا طرقا عنيفاً على الباب الخارجي.. كنا نعرف أنه هو قد وصل.. كانت أختي في ذروة غضبها.. فتحتْ له الباب.. فرأت زوجي مع شخص آخر.. أراد الدخول فتصدت له أختي بالصراخ والشتائم.. ورفعت النعال لتضربه.. وتجنبا للفضيحة انسحب بعد أن طلب أهلي منه بأن يطلقني... بقيت عند أهلي ثلاثة أشهر تقريباً، كان يحاول خلالها أن يعيدني، لكني كنت قد هددت بالانتحار إذا ما أعادوني إليه.. وحين عجز بطريقة التهديد أن يستعيدني أخذ يتقرب مني ومن أهلي بطريقة ناعمة وهادئة.. كان يتقرب من أبي إذا ما ذهب أبي إلى المقهى أو المسجد.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. استغل ذات يوم ذهابي إلى السوبرماركات الذي يبعد قليلا عن بيتنا لشراء بعض الحاجات لطفلي، فدخل البيت وأقنع أبي وأمي بأنه سيشتري لطفلي بعض الحلوى.. كان طفلي حينها قد بلغ السنة تقريباً.. رق قلب والديّ له فوافقا على رجائه.. وحين عدت إلى البيت سألتهما عن ابني فأخبراني بما جرى.. لحظتها أخذت أندب وأصرخ وأشّد شعري، وقلت لهما بأنه خطف ابني.. لم يصدقا.. انتظرنا ساعات وساعات.. إلى أن تأكدنا في اليوم الثاني بأن الطفل معه في الجنوب.... كان يمارس ضغوطه عليّ من خلال الطفل.. لكني حينها كنت في الثامنة عشرة من عمري.. وكنت جميلة ومغرورة بجمالي.. فكانت أشواق الحياة تجذبني إليها أكثر من عاطفة الأمومة ..

ابتسمت حواء صحراوي لها ابتسامة حزينة وهي تستمع لهذه المعاناة الإنسانية، وقالت لها :

- إنك ما زلت جميلة..
- شكراً جزيلاً ..

صمتت إيفا بعلبكي قليلاً وكأنها تسترجع بعض التفاصيل، أو كأنها ترى ماضيها حياً أمام عينيها في تلك اللحظة، إلا أنها واصلت الحديث بعد ذلك،قائلة :

- كنت بعنفوان شبابي.. وكان ابن عمتي قد تقرب مني مستغلا حالتي النفسية والمشاكل التي أواجهها مع زوجي، وأحسست بالميل نحوه، وتعاهدنا على الزواج بعد طلاقي.. إلا أن الأمر لم يكن سهلاً.. زوجي كان قد انتقل إلى بيروت.. وخيرّني بين طفلي وبين حريتي.. ربما من المعيب أن أقول ذلك.. لكني في تلك الفترة، ومن شدة العذاب والقسوة والإهانات

التي تعرضت لها منه، ولغروري بجمالي، ولشدة الرغبة في الحياة.. اخترتُ حريتي.. ومع ذلك لم يطلقني.. في تلك الفترة تعلمت مهنة الحلاقة وتصفيف الشعر، وأخذت أعمل في أحد الصالونات.. ووفرت لنفسي مبلغاً جيداً من المال.. لكن شوقي لابني كان قاتلاً، خاصة حينما أذهب للنوم أو أكون وحيدة ....

- ألم تره أبداً..؟

- رأيته.. فبعد سنتين.. التقتْ أمي ذات يوم بزوجي صدفة في بيروت، كان قد يئس من عودتي إليه.. حدثته أمي عن شوقي لابني.. وصادف ذلك اليوم عيد الميلاد الثالث لابني.. فوافق على أن أراه.. ربما كان يفكر في الطفل أكثر مما كان يفكر بي..؟ وربما كان يفكر بأنه من خلال ذلك قد يفجر مشاعر الأمومة في نفسي فأعود إليه..؟ لا أعرف.. المهم.. حين جاءت أمي بابني لم أعرفه.. كان طفلاً هزيلا.. غير نظيف.. وكما نقول باللبناني كان (مشرشحاً).... والغريب إنه كان يبكي طوال الوقت يريد أباه.. لم يكن يعرفني ولم يود أن آخذه بين أحضاني.. بقي عندي أسبوعاً لكنه كان يشعر بالوحشة، حتى أنه أخذ يذبل.. فاستسلمت.. وأرسلته إلى أبيه، الذي فاتح أمي من أجل العودة إليه على الأقل من أجل الطفل.. لكني وكأن شيطانا قد تقمصني.. رفضت ذلك بشكل قاطع.... هو أيضاً لم يستسلم، فأخذ يماطل أكثر في موضوع الطلاق، لاسيما بعد ما تشمم أخبار علاقتي بأبن عمتي ونيتنا للإرتباط في ما بعد...... المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. لم أتزوج ابن عمتي... كنتُ أعمل.. وصرت أحصل على مبالغ جيدة من عملي فلم أكن في حاجة للإرتباط مجدداً.... ففي تلك الفترة انتشرت ظاهرة الهجرة إلى أوروبا وأميركا.. لذا قررت السفر أيضا.... حينها، وبعد ضغوط وتدخلات من شخصيات لبنانية وفلسيطنية يعرفوننا ويعرفونه قاموا بالتوسط لي عنده من أجل طلاقي.. وافق على الطلاق.... وهكذا حصلت على حريتي...... كنتُ حينها قد حصلت على جواز سفري، وعن طريق علاقات معينة ورشاوى حصلت على تأشيرة دخول إلى ألمانيا الديموقراطية.. وأخيراً.. وجدت نفسي في برلين الشرقية..... ولأني أساساً كنت متجهة للذهاب بلا عودة، فقد اتصلت بصديقة لي تعيش في برلين قبل سفري واستعلمت منها كل التفاصيل الخاصة باللجوء.. ومن (محطة فريدريك شتراسه) ركبت القطار المتجه إلى (محطة زوو غارتن).. وهناك استقبلتني صديقتي في برلين الغربية.. وبعد أيام من الراحة في بيتها.. ذهبتُ مع أخيها إلى مركز للجوء.... وهناك قدمت طلبا كلاجئة سياسية.. لكني بدلت أسمي من حواء

إلى إيفا.. كما يسمى باللغات الأوربية.. وهكذا صرت إيفا بعلبكي.. ومن هنا تبدأ قصة زواجي الثاني.. زواجي من ألماني ..

اندهشت حواء صحراوي حينما سمعت ذلك وقالت مستغربة :

- تزوجتِ رجلاً ألمانياً..؟ كيف ذلك..؟

- لا تستعجلي.. سأروي لك ذلك ..

ودون أن تسأل مضيفتها، أخذتْ قنينة شراب البطيخ وصبت لنفسها كأسا، وحينما أرادت تصب لحواء صحراوي مدّت تلك يدها وقالت :

- أنا أكتفي بهذا القدر.. وإلّا سأسكر ..

ابتسمت إيفا بعلبكي وقالت :

- الأيام وقساوتها دوختنا أكثر من الكحول يا صديقتي ..

وارتشفت ما في كأسها دفعة واحدة. نظرت إلى حواء صحراوي للحظات ثم سألت إن كان يمكنها أن تشرب كأساً أخرى، فأحست الأخرى بالارتباك وقالت بحرارة :

- يا آلهي.. كيف تسألين مثل هذا السؤال..؟ طبعاً يمكنك.. ودون أن تسأليني.. اشربي القنينة كلها ..

ابتسمت إيفا بعلبكي لها وقالت :

- ليس لهذه الدرجة.. وإلا ستعتقدين بأني مدمنة على الكحول.. أليس كذلك..؟

- أبداً.. نسبة الكحول فيه قليلة.. كما أنني شربت معك ربع القنينة تقريباً.. المهم.. خذي راحتك ..

- أنا مرتاحة جداً.. وإلّا ما حدثتك عن نفسي ..

- لقد تعاطفت معك.. مع معاناتك.. لأني مررت بتجربة تتشابه مع هذه في الجوهر.. وتختلف عنها في التفاصيل ..

- أنتِ.. أنت مررت بمثل هذه التجربة..؟

- نعم.. أنا.. لماذا تستغربين..؟

- ظننتك في سعادة كاملة ..

- السعادة..؟ لا أعرف لمثل هذه الكلمة من معنى سوى ما له علاقة بفترة طفولتي البريئة.. وبعض سنوات حياتي الجامعية ..

- لكن بالنسبة لي كان الفقر سر تعاستي.. لو كنا في حالة ميسورة لما تخلى أهلي عني.. ولو كنت أنا غنية لكنت أتحكم بوضعي ..

- الفقر والغنى ليسا دائما هما سر السعادة... للأغنياء حظهم الكبير من التعاسة يا صديقتي.. ألم تسمعي باسم الكاتب الروسي ليون

تولستوي ..

- نعم.. سمعت به ..

- لقد قال في بداية روايته (آنا كارنينا).. بأن العوائل السعيدة متشابهة في سعادتها، لكن العوائل التعيسة، كل منها تعيسة بطريقتها الخاصة ..

- صحيح.. كل منا تعيس بطريقته.. على الرغم من أن جميع النساء هن (آنا كارنينا) لكن ليس جميع النساء ينتحرن كما انتحرتْ هي.. أنا لم أقرأ الرواية لكني شاهدت الفيلم المأخوذ عنها.. فمعظمهن يستمرن في علاقاتهن... أو حتى في أكثر من علاقة، بينما الأزواج يعتقدون بأن نساءهم مثال الوفاء والعفة ..

- آها.. ألا تعتقدين أن الرجال يستحقون ذلك..؟ وأن الزوجات مضطرات لفعل ذلك بحكم تبعيتهن الاقتصادية للأزواج.. وإلا لكنَّ انفصلن عن أزواجهن..؟

- ربما.. أو أعتقد أن هذا هو الصحيح بشكل عام..، فأنا شخصيا لم أرتبط بابن عمتي عندما أخذت أعمل.. لكن ليس دائما هكذا ....

- يبدو أنك خبيرة بالنساء.. وبالمتزوجات خاصة..

- ليس تماماً.. لكني أعرف عشرات النساء اللواتي هن سيدات المجتمع.. ومن النساء اللواتي يشهد لهن الرجال قبل النساء بالشرف والعفة.. لكنهن في السر يعشن حياة أخرى.. حياة مليئة بالأسرار الجنسية.. ومع أشخاص لا يرتقون إلى مستوى أزواجهن.. لا جمالاً ولا ثقافة.... عموماً.. ما هو سر تعاستك أنت..؟ لو سمحت بالحديث طبعا ..

- أكملي قصتك أولاً.. وسأروي لك حكايتي في ما بعد ..

- طيب.. أين وصلنا..؟

- إلى الزوج رقم 2 . .

ضحكتا للحظات. ارتشفت حواء بعلبكي كأساً أخرى، واسترسلت في سرد قصتها :

- عشت في بيت صديقتي، على الرغم من أن الجهات الرسمية الألمانية خصصت لي سكناً في مبنى للاجئين منذ لحظة تقديم لطلب اللجوء. كان معي في الغرفة ثلاث فتيات، إثنتان من إيران والثالثة من سريلانكا. فتيات طيبات. عالم اللاجئين غريب جداً.. لو أردت أن أروي لك قصص اللاجئين من مختلف بلدان العالم لما انتهيت منها لأشهر.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. لم أتمكن من العيش مع الفتيات في الغرفة، لذلك

عشت مع صديقتي.. أحيانا كنت أذهب لآخذ حصتي من الطعام، وآتي بها إلى البيت عند صديقتي.. وبقيت هكذا لشهرين دون أن يتضح وضعي.. إلى أن تم فرز الأسماء.. فتوزعت الفتيات اللواتي كن معي في الغرفة.. تم توزيعهن على مدن بعيدة في ألمانيا الغربية.. بينما بقيت أنا في برلين.. لم تكن ألمانيا حينها متوحدة بعد.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. بعد أشهر جاءني الرفض من قبل محمكة اللجوء..، لكنهم منحنوني ما يسمى بحالة الإنتظار والصبر أو ما يُسمى بالألماني (دولدونغ).. وكان أخ صديقتي من الذين يتعاطون الحشيش.. فأخبرني ذات يوم بأن لديه صديقاً ألمانياً يتعاطى الحشيش مثله.. وهو على استعداد للزواج مني على الورق.. زواج رسمي وحكومي.. أستطيع على أساسه أن أحصل على الإقامة الدائمة وحق العمل، وكل الحقوق الأخرى.. ومقابل مبلغ ليس بالكبير من المال،لأنه يريد السفر إلى تايلاند.... حينها كان معي المبلغ الذي طلبه والذي حملته معي من عملي في لبنان.... وفعلاً ذهبنا إلى المحكمة وأجرينا معاملة الزواج.. وذات يوم وقفت معه ومع صديقتي وأخيها أمام مسجل عقود الزواج.. وصرت زوجة لرجل ألماني.. حينها.. وفي نفس اليوم أخذتُ عقد الزواج وقدمت طلبا لاستحصال الإقامة.. مع بعض الإشكالات الصغيرة.. لأني أدعيت بعد استرجاعي لجوازي من قبل دائرة اللجوء.. بأنه ضاع مني.. واعتماداً على أوراق اللجوء.. صرت إيفا بعلبكي.. بعد ذلك جرى كل شيء بسهولة ويسر. طبعا.. كان الزواج على الورق.. لأن زوجي.. الفتى الألماني سافر بعد أيام إلى تايلاند ..

توقفت إيفا بعلبكي لترتشف شيئا من كأسها التي كانت قد ملأتها مرة أخرى، خلال ذلك كانت حواء صحراوي تنظر إليها بتمعن.. ثم قالت بهدوء وكأنها تتجنب السؤال :

- ألم.. ألم.. أقصد ألم يمسك..؟
- لا.. كان زواجا على الورق ..
- وماذا جرى بعد ذلك ..؟
- لا شيء.. كان هو في تايلاند.. بينما أنا تمتعت بكل المزايا.. حيث سمحت لي دائرة المساعدات الإجتماعية بتأجير شقة صغيرة.. وأجرتْ لي مرتباً شهرياً.. كما أخذت أعمل في صالون للحلاقة بالأسود.. أي بشكل غير رسمي ..
- وكيف جرى زواجك الثالث..؟

نظرت إيفا بعلبكي إلى حواء صحراوي بتمعن لترى عمق التأثير الذي

تركته في نفسها من خلال ما روته، فانتبهت إلى أن حواء صحراوي كانت مأخوذة بها وبما روته، لذلك أحسّتْ بشيء من الزهو الداخلي، ثم قالت :

- أن تغلقي عينيك يا مدام حواء لا يعني أبداً أنك لن تري شيئاً.. فمن خلال عينك الداخلية ترين الأشياء.. تتصورينها.. وسواء أغلقنا أعيننا أم فتحناها.. سواء قرأنا، أم مشينا، نمنا أم حلمنا، سواء كنا في الظلمة أم النور.. ليلاً أم نهارا.. في أي فصل.. وفي أي مكان.. فأننا لا نكف عن مهمة وفعل النظر.. نحن نمارس فعل النظر في اليقظة والمنام.. نبحث عن الآخر.. والآخر يبحث عنا.. ومن خلال النظر.. وفعل النظر.. تبدأ الأشياء.. وهكذا وجدت زوجي الثالث ووجدني ..

- كيف..؟ لا أفهم..؟

- سأحكي لك.. لكن قبل ذلك أود أن أقول لك بأن الحرية عبء خطير.. ليس كل إنسان قادر على حملها.. إنها مثل الأمانة التي تحدث بها ربنا في القرآن بأنه عرضها على الجبال فخافتْ من حملها، إلّا الإنسان فقد قبلها وكان الإنسان ظلوماً.. جهولا.. أليس كذلك..؟ أنا أعتقد أن الأمانة هي الحرية التي حملها الإنسان.. لكنه كان جاهلاً بثقلها وعبئها.. فظلم نفسه ..

- آها.. هذا تفسير جديد.. وتعبير جميل: عبء الحرية! . .

- صحيح أني لا أحمل شهادة أكاديمية.. لكني قرأت كثيراً.. قرأت لجبران.. ونعيمه.. وإيليا أبو ماضي.. وسعيد عقل.. وطلال حيدر.. وسهيل أدريس.. وتوفيق يوسف عواد.. وحنان الشيخ.. ومن مصر للمنفلوطي.. ونجيب محفوظ.. ويوسف أدريس.. وإحسان عبد القدوس.. ونزار قباني.. وحنا مينه.. ودستويفسكي وتشيخوف.. وحين أجدت الألمانية انفتحت أمامي آفاق كبيرة.. فقرأت أشياء جديدة غير موجودة بالعربية أصلاً.. يعني يمكن القول إني أفهم.. وبصراحة.. الفضل يعود لزوجي الأول.. فقد كان بكل عنفه وقساوته رجلاً مثقفاً.. فقد كانت غرفتنا العارية مليئة بالكتب.. وكثيراً ما كنت أقضي وقتي في القراءة حينما كان يسجنني في الغرفة ويقفل بابها ..

أحست حواء صحراوي ببعض الحرج من ردة فعل إيفا بعلبكي، وإن كانت ردة فعل مهذبة، فقالت بنبرة فيها اعتذار :

- عفواً.. لم أقصد شيئا سلبياً بذلك.. لكن أعجبني حقاً تفسيرك للأمانة.. وحديثك عن عبء الحرية ..

نظرت إيفا بعلبكي إليها بطيبة، وأحست بأنها لم تقصد أن تسيء لها، فابتسمت لها وواصلت :

- عموماً.. لقد قلت لك بأني كنتُ أعمل حلاقة في صالون

للحلاقة.. وكان صاحب الصالون مصري الجنسية... اسمه قابيل الدهقلي.. وكان رجلاً وسيما كمعظم الرجال المصريين.. عملت لديه لأربع سنوات تقريباً.. أي بعد زواجي الثاني بأسابيع.. وكان يعرف قصتي كلها.. ويعرف أني متزوجة على الورق.. وكان للنظر الدور الأكبر في التقريب بيننا.. أعجبته.. وأعجبني.. لكني لم أفكر بالزواج منه في بداية الأمر.. لقد أردت الحصول على الجنسية الألمانية.. قدمت طلباً، لكن الجهات الرسمية كانوا يعرفون أنه لا يعيش في ألمانيا وإنما في تايلاند.. فرفضوا طلبي.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. تركت ألمانيا وهاجرت إلى أميركا.. لكني لم أستطع البقاء هناك طويلا.. فبعد ثلاثة أشهر رجعت ثانية إلى برلين.. ولم يكن أمامي سوى الرجوع إلى الصالون.. وإلى قابيل الدهلقي.. الذي فاتحني بالزواج منه.. فطلبت الطلاق من زوجي الورقي.. وبعد أشهر تمكنت من الزواج من زوجي الثالث.. لكنه الزوج الثاني فعلياً.. والذي أنجبت له ابنة ..

- وابنك من زوجك الأول...؟
- أوه.. ظننتك لا تتابعين قصتي جيداً ..
- كيف لا أتابعها..؟ ألا أستمع إليك..؟ إذا لا أتابع ما تقولين.. ولا أريد ذلك فلماذا أستمع إليك..؟
- ظننتك تجاملينني بالاستماع إلي ..
- أنا لا أجامل ..

صمتت إيفا بعلبكي لحظات حينما سمعت جملتها، وفكرت مع نفسها سريعاً بأن حواء صحراوي ليست امرأة سهلة.. لكنها شعرت نحوها بمودة لأنها صادقة في ما تفكر فيه وتقوله، فواصلت حديثها قائلة :

- بعد اجتياح بيروت من قبل إسرائيل انتقل طليقي إلى تونس.. وأخذ ابني معه ..
- ألم تريه كل هذه السنوات ..؟
- لا.. وإنما التقيته بعد خمس عشرة سنة تقريبا ..
- آها.. وكيف حصل ذلك..؟
- سأروي لك ذلك ..

بينما كانت إيفا بعلبكي تصب لنفسها شيئا من شراب البطيخ، كانت حواء صحراوي تجول ببصرها في عتمة الحديقة وحوض السباحة حيث بعض المصابيح الشاحبة والشموع التي تضيء بعض الطاولات الفارغة.. فجأة لمحتْ شبحين يتحركان ببطء، وبعض لحظات استطاعت أن ترى العجوزين العربيين اللذين التقت بهما عند دخولها إلى المصعد وهما يمشيان ببطء شديد حول

حوض السباحة. قبل أن تسأل صديقتها عنهما واصلت الأخرى قصتها، فقالت :

- ليس هناك فرق كبير بين البشر والحيوانات.. بل إن بعض البشر يصر على أن يبقى حيواناً في كل شيء.. ومنهم من يسعى إلى أن يتحول، أي يرتقي من حيوان زاحف إلى حيوان ماشي.. وبعض الناس يتحول من حيوان ماشي إلى طائر.. وبعضهم يسعى إلى أن يكون ملاكاً.. ومنهم من يبقى بين بين.. أي يسعى أن يكون إنسانا لكنه كثيرا ما ينسى ذلك؛ ليكشف عن حيوانيته.. وأنا نفسي لا أنزه نفسي عن حيوانيتي.. وأعتقد أن أكبر دليل على أن البشر هم حيوانات هو الجنس.. فالجنس هو الدليل الأكبر على حيوانيتنا ..

- الجنس..؟

- نعم الجنس.. فنحن لا نختلف عن الحيوانات في لهاثنا وراء الجنس.. هل انتبهت إلى أننا نستخدم في الجنس جهازنا البولي نفسه..!! الحيوانات مثلنا في هذا الأمر.. ونحن مثلها.. ولولا الجنس لما كنت أتزوج ثانية.. طبعا يمكنك أن تقولي بأنه ليس بالضرورة أن أتزوج من أجل أن أمارس الجنس.. لكني لستُ كذلك.. كيف أشرح لك ذلك..؟ أنا امرأة تحتاج لمن يقول لها بأنه يحبها.. وفي الوقت نفسه أحتاج إلى أن أرى الآخر يتعذب من أجلي.. أن أراه يحتاجني ويتوسلني.. هذا الأمر يُشبع كبريائي وغروري الأنثوي.. أنا أستعذب مشاعري الشخصية ومعاناتي في الحب وفي الهجران.. أكثر مما أستعذب الحب نفسه.. ربما أنا معقدة نفسياً.. ربما أنا أنانية.. لكن حاجتي لمشاعر الحب هي أكبر من فرحتي بالحصول على الحب والجنس..، لأنني ما أن أحصل عليه حتى يصير عبئا عليّ.. فأبدأ البحث عن حب جديد.. وحينما يتحقق لي ذلك أمله مجدداً.. أحب ألم الحب أكثر من الحب نفسه.. أحب أن أتعذب في الحب.. أجد معنى وجودي في عذابي أكثر من أي شيء آخر.. هل أنا مريضة..؟ لا أدري.. ربما........... المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. زواجي الثالث كان بحكم ظروف مختلفة.. حاجتي لرجل.. أعني بالمعنى الجسدي... وحاجتي للحب بالمعنى الذي شرحته لك.... بعد زواجي تركت العمل في صالون الحلاقة وصرت ربة بيت.. أعتني بابنتي وأعد الطعام وأهيئ البيت لراحة زوجي.. إلا أني بعد ثلاث سنوات وجدت نفسي في دوامة اللاجدوى.. بل صرت مليئة بالشكوك.. صرت أغار من أشباح نساء لا أعرفهن.. طوال النهار أفكر في ما يفعله زوجي في الصالون.. صحيح أن هناك عاملتين تعملان في

الصالون لكني لاأثق بالرجال.. فإذا لم يستطع أن يحصل على المرأة فعليا، فأنه يمتلكها وبشكل أعنف في خياله.. لكن ليس هذا ما أزعجني فحسب.. وإنما بخله أيضاً.. لكن كان بخيلاً جداً.. وأنت تعرفين أن البخل شيء ينفر المرأة من الرجل.. المرأة لا تحب الرجل البخيل حتى لو كان أجمل وأعظم رجل في العالم.............. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. لقد صحوت ذات صباح ووجدتُ نفسي وكأني لستُ أنا.. لقد وجدتُ في نفسي إندفاعاً للعمل مجدداً في الصالون.. أردت أن أعمل.. أن أصرف على نفسي وعلى ابنتي..... أن أكون مستقلة بنفسي.. كنتُ مندفعة لكي أحقق ما أريد بشكل قوي.. هذا الإندفاع كان سبباً لخلق مشاكل كبيرة بيني وبين زوجي قابيل الدهقلي انتهت بالإنفصال والطلاق.. لكن هذه المرة لم أكن وحدي وإنما معي طفلة صغيرة في الثالثة من العمر...................... أتعرفين..؟ إن القلوب أسرار مغلقة..، ولا تحطمها وتفك مغاليقها إلّا الكآبة.... نعم الكآبة والوحشة.. ثمة أناس لا يجدون معنى لحياتهم إلا في السعي إلى المتاعب والعيش في دوامة المشاكل.. يضيقون ذرعاً بالسلام والهدوء.. نقول عنهم إنهم يشترون المتاعب بالمال.. وأنا واحدة من هؤلاء.. أنا أحب أن أعذب نفسي.. وإلا لما أقدمت على الزواج الرابع ..

- ومتى كان ذلك.. هل تم بعد طلاقك مباشرة..؟

- تقريبا.. بعد سنة تقريباً.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. سأروى لك ذلك.. بعد طلاقي بأشهر قررت مع نفسي بأن أعيش حرة دونما زواج.. فانطلقت في مغامرات دمرتني.. لم تكن سهلة علي.. منحتني الكثير من المتعة.. لأني فعلت خلالها ما كنت أستحي أن أفعله مع أزواجي.. لكني انتبهت إلى أن حريتي الجنسية ليست سوى تمرد مأساوي، ليست سوى قفزة انتحارية إلى الهاوية.. لاسيما وأنا أربي طفلة صغيرة وأتحمل مسؤوليتها..... حاولت أن أنسى.. لكن هيهات.. النسيان بئر عميقة دون قاع، وليس هناك سوى الذكريات تحدق بعيون مليئة بالظلمة....... المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. عملتُ مرة أخرى في صالون للحلاقة.. هذه هي مهنتي التي أجيدها.. كان صاحب المحل لبنانيا مثلي.. اسمه آدم السمعان.. لا أدري ما الذي أعجبه فيّ.. مرة أخرى يفعل النظر فعله الساحر.. لقد عشقني.. لكني لم أشأ أن أرتبط به أول الأمر.. فكما قلت لك إنه مسيحي.. وفي القرآن ورد أن المسلمة لا ينكحها إلا مسلم.. أليس كذلك..؟

- هو كذلك كما أعرف ..

- لكن أليست هذه عنصرية..؟ ماذا لو أحبت امرأة مسلمة رجلاً

مسيحياً..؟ لماذا لا يمنع القرآن على الرجل المسلم الزواج من غير المسلمة، بينما منعها على المرأة..؟ المهم.. دعينا من الدين وتعقيداته وتناقضاته.. فقد أحبني هذا الرجل الذي اسمه آدم السمعان.. وكان يعاملني معاملة راقية ولطيفة.. سعى مرات ومرات بشكل لطيف إلى أن نكون معاً.. أن ينام معي.. لكني كنت أتشدد في موقفي كلما رأيته يتقرب مني بلطف.. إلى أن يئس مني فطلب يدي للزواج.. أراد أن يتزوجني... ويبدو أنه أراد أن يمتلكني بأية وسيلة حتى لو بالزواج.. وكنت، بالرغم من وسامته وجماله كرجل، أمنع نفسي من أن تتجاوب معه، لأني كنت أخاف من الرجال الوسيمين العزاب.. فأنا أعتقد أن لديهم علاقات متعددة.. وأنا بطبعي امرأة غيورة.. تحب المشاكل.. لكني امرأة مغامرة أيضا.. أنا مثل المقامر الذي يلعب الورق.. حين تتأجج رغبتي.. أضع مصيري بين يدي.. أتأملها مثلما يتأمل المقامر أوراقه التي بين يديه.. أبحث فيها عن حل قدريّ يقرر مصيري.. وهكذا.. وبلا تردد قررت الزواج منه.. واشترطت عليه أن يدخل الإسلام.. ولأنه غير متدين ولا متعصب فقد وافق بسهولة.. ويبدو أن قضيبه هو الذي دعاه إلى ترك دينه والدخول في الدين الجديد........ فالرجال عقولهم بين أفخاذهم.. المهم.. كي لا أطيل عليك القصة.. تزوجنا.. لكن مع مرور الأيام تعلقت به.. بل عشقته بشكل مأساوي.. نعم.. عشقته.. أنا التي كنت أرفضه في البداية صرت أعشقه.. بل وصرت أغار عليه من كل شيء .....

صمتت للحظات وكأنها تستذكر شيئاً، وكان التأثر عليها واضحاً، فحين كانت تتحدث عن أزواجها السابقين كانت نبرتها محايدة، لكنها في حديثها عن زوجها آدم السمعان كانت نبرة الأسى واضحة في صوتها. كانت حواء صحراوي تتأمل منتظرة أن تواصل حكايتها، أرادت أن تقول شيئا مواساة لها، إلا أن إيفا بعلبكي واصلت حديثها :

– أنا أحب أن أعذب نفسي.. أحياناً كان يتأخر مساءً في العودة إلى البيت، وحين يراني عصبية يدعوني للخروج معه إلى أحد المطاعم اللبنانية المعروفة في برلين، لكني كنت أعاند ولا أخرج معه بل أدعوه للذهاب وحده.. أما هو فلا يأبه لعصبيتي.. ولا لرفضي الذهاب معه، بل يستجيب لدعوتي بأن يذهب وحده.. وحين يفعلها ويذهب وحده، بينما أبقى وحدي في البيت، تبدأ معاناتي.. تنهشني الغيرة من أني لست معه الآن في المطعم.. وأتخيل أنه يجالس بعض معارفنا هناك، ويستمتعون ويمرحون بينما أنا غير موجودة بينهم، ولا أحد يذكرني.. فأحس بأني مهجورة

ومنسية.. وأظل أعذب نفسي.. وأنتقد نفسي على عنادي الفارغ.. لكني لا أكف عن تكرار مثل هذه المشاكسات التي تعذبني، والتي لا أستطيع مقاومتها........ صارت حياتي سلسلة من نوبات الغيرة المرعبة، ومن الاحتجاجات الدائمة والفارغة..... كنت أحيانا أتجنى عليه، وأختلق مشاكل وقصصا هو بريء منها.. وأعرف ذلك.. لكني أقنع نفسي بأنها موجودة.. وأتشاجر معه على أساس قناعتي التامة بأنها موجودة.. هل رأيت جنونا أكبر من هذا..؟ يقال إنه من العقل والتعقل أن نعرف حدود المعقول.. لكني تجاوزت كل معقول.. طبعاً الآن أقول ذلك.. بعد طلاقي منه.. وبعد إنجابي لولدين منه ..

- أنجبت ولدين وأنت في هذه الحالة النفسية ووسط كل هذه المشاكل..؟

- نعم.. لأني كنت أعرف أنه بريء من كل ما أنسبه إليه من خيانات.. بل لقد أقنعت نفسي بأن أثير غيرته.. فأخذت أتصرف بما يوحي بأن لي أسراري الخاصة.. لكني أكتشفت أنه لا يأبه لذلك.. أردت أن لا أفقده.. فأنجبت ولداً.. حياتي هدأت قليلاً.. لاسيما وأنه كان يعامل ابنتي معاملة طيبة جداً وكأنها ابنته.. ووضعت هدنة مع نفسي.. إلى أن ولدت ابني الثاني.. لكن بعد ذلك بدأ يتغير فعلاً.. لقد اخترق الهدنة بيننا، وبدأت أكتشف أنه يخونني فعلاً مع بعض السيدات اللبنانيات والألمانيات.. فانفجرتُ كالبركان.. لقد تأكدت من ذلك من خلال إحدى العاملات في الصالون، والتي صادقتها لدرجة كبيرة من أجل أن أتسقط أخبار الصالون وما يجري فيه.. إلا أنه هذه المرة لم يعد يعيرني أي اهتمام.. ولا أخفيك.. لقد كنت قاسية جداً معه.. ولم يحتملني أكثر.. فطلقني ..

- والأطفال..؟

- لم يترك الأطفال، بل كان يرعاني برغم ذلك.. وكان يتحمل مصاريفنا بمن فيهم ابنتي.. خلال فترة زواجي منه قدمت على الجنسية.. وحصلت عليها.. أتدرين.. بالرغم من أني تزوجت في ما بعد زوجاً آخر.. وهو الذي أعيش معه حالياً.. إلا أني أحببت آدم السمعان جداً.. وما زلت أحبه ..

- إذا كنت تحبينه فلماذا لم ترجعي إليه..؟

- قلت لك إني دمرت حياته.. جعلتها جحيماً.. كما أني تزوجت لأثبت له بأني ما زلت مرغوبة من الرجال.. وأنه ليس الرجل الوحيد في العالم ..

- وهل أحببت زوجك الجديد..؟

- لا أعرف.. لم يكن حباً.. كان مزيجاً من الرغبة الجسدية مع مشاعر الغيرة والحقد على النفس والآخر ومن مشاعر الشفقة.. علماً أن زوجي الأخير عراقي الجنسية.. كان صديقا لإحدى صديقاتي أو بدقة أكبر لربة عملي.. فقد عملت مرة أخرى في صالون لإحدى السيدات اللبنانيات المتزوجات.. وكان هو عشيقها.. وكان يزورنا أحيانا، حينما يكون قد اتفق معها على الذهاب إلى مكان ما.. وأخذ يزورنا أكثر، أي أنه كان يزورنا مرة في الشهر، فصار يزورنا كل أسبوع...... كان حينها يجلس في الصالون، ويتجاذب معنا الحديث إذا لم يكن هناك أي زبون.... وقد أعجبتني شخصيته.. وتأثيره الرجولي.. كنت أحس باستيقاظ الرغبة في جسدي عند رؤيته.. أشعر بحاجتي إلى الرجل.. أتعرق وابتل.. وحصل ذات مرة إنْ اضطرت ربة عملي إلى أن تكون مع عائلتها في سفرة قصيرة.. فصار يأتي كل مساء عند نهاية الدوام.. ويصحبني معه....... وذات مساء حدث الذي حدث بيننا.. في شقته.. واكتشفت أنه متعلق بي.. لكنه كان بدون أوراق.. مثلي بالضبط حينما وصلت برلين.. لم يُبد لي بأنه يفكر في تحسين ظروف إقامته.. بل أسكرني بقوته الرجولية وبكلام الحب وتوسلاته.... كنت قد تعبت من نفسي.. ولم يبق مني سوى ذاكرة تجتر الذكريات والأوهام عن الذات.... ولم أعد أستعذب توسل الآخر بي.. بل على العكس.. صرت أنا التي أستعذب الإهانة.. والتوسل إلى الآخر.. والشعور بأني ضحية.. كنت أرى نفسي فيه.. أتدرين يا مدام حواء.. الكل يفكر في كيف يعيش..؟ ولا أحد يفكر في السؤال عن لماذا نعيش..؟ لا أدري من قال ذلك..؟ قرأت ذلك في كتاب ما ذات مرة. كثيراً ما فكرت بالإنتحار.. حين أنظر لحياتي أجد أنني في دوامة.. أنا أخاف من العزلة خوفاً حقيقياً، أخاف أن أجد نفسي أمام نفسي، أخاف أن أفكر في نفسي، وأتهرب من مواجهتها بشكل مباشر، لذا ألوذ إلى المجتمع هرباً من الوحدة والعزلة، بل أحياناً أمشي وحيدة في الطرقات والأسواق كي أضيع في الزحام وأتماهى في ضجيج الحياة، لأن ذلك يشعرني بالأمان، لكنك لا تستطيعين أن تبقي طوال الوقت في الشارع، لذلك فأنا أجد في الرجل ملاذي وخلاصي وأماني ومعنى وجودي.. أتسمحين أن أدخن ..؟

لم يخطر في بال حواء صحراوي أن إيفا بعلبكي تدخن، فقالت بارتباك :

- طبعا.. طبعا ..

قامت حواء صحراوي قلقة، وهي مأخوذة بحكاية إيفا بعلبكي العاصفة، متجهة إلى الصالون لتأتي بمنفضة الرماد من على الطاولة، بينما مالت إيفا بلعبكي إلى حقيبتها وأخرجت علبة سكائر موضوعة في محفظة جلدية مزينة برسوم ونقوش فرعونية، وأخرجت سيكارة، وأشعلتها بولاعة على هيئة مسدس صغير .

حين عادت حواء صحراوي إلى الشرفة وضعت المنفضة على الطاولة المرمرية، وألقتْ نظرة إلى الأسفل فرأت العجوزين يجلسان حول إحدى الطاولات، بينماالشموع تضيء وجهيهما الشاحبين، اللذين بديا لها كوجوه الموتى .

كانت إيفا بعلبكي قد تعبت من سرد حكايتها، ومن استرجاع كل هذه التفاصيل المؤلمة، حيث تصارعت في أعماق نفسها مشاعر الإنحطاط والغيرة، والندم، مع الرغبة، والشوق، والحب اليائس. كانت تعرف أنها ليست وحدها من يعاني ويتألم، فللناس حكايات، وربما أشد هولا من حكايتها، وأنَّ أنين البشر يعلو في السماء ويتدفق في مجرى طويل بين مجرات السماء عسى أن يسمعها أحد هناك.. في اللانهاية الغامضة ..

جلست حواء صحراوي أمامها. كانت تعرف بأن عليها الآن أن تروي لها عن نفسها. لاحظتْ التعب وبعض تأثير الكحول على ملامح الضيفة، لكنها وجدت من غيراللائق أن تروي لها معرفة بنفسها، فقالت لها مبتسمة :

- أنا قصتي يا مدام إيفا قصيرة جداً.. ولا يمكن مقارنتها بقصتك.. لا أريد أن أكون بطلة.. لكن قصتي مختلفة نوعاً ما.. فكما قال تولستوي.. نحن نتشابه في السعادة.. لكننا نختلف في التعاسة.. فلكل منا مأساته.. ومأساتي بدأت مع الذين يرفعون شعار الله ويغوصون في الرجس والدنس ..

انتبهت إيفا بعلبكي لهذه المقدمة، وصحتْ وكأنها أفاقت لنفسها. نظرت إلى حواء صحراوي وسألتها بنبرة رجاء واضح :

- هل لديك شيئا من النبيذ؟

فوجئت حواء صحراوي لسؤالها. قامت مسرعة دون أن تجيب وفتحت الثلاجة الصغيرة في الصالون، فوجدت قنينة نبيذ أحمر، ودون أن ترى نوعيته، حملتها مع المفتاح إلى الشرفة.

الفصل العاشر: إصبع ميكائيل أنجلو

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة حينما غادرت إيفا بعلبكي، وهي في حالة انتشاء أقرب إلى السكر، جناح حواء صحراوي بعد أن شربت قنينة النبيذ كلها، إذ أن مضيفتها لم تشاركها الشرب حتى ولو من باب المجاملة .

كانت إيفا بعلبكي متعبة من سرد حكايتها الطويلة، لذلك أخذت تستمع إلى حواء صحراوي بلهفة وهي تروي حكايتها. روت حواء صحراوي لها الكثير من تفاصيل حياتها الشخصية مع أهلها، ودراستها الجامعية وحصولها على شهادة الدكتوراه، وعن زواجها من قابيل الموسى وطلاقها ومحاولتها الانتحار، ومراقبة أم هابيل لها، وعن صديقتها إيفا ليسنج..، وعن آلام ظهرها التي ظهرت فجأة مما دفعها إلى المجيء لهذ الجزيرة، لكنها تجنبت الحديث عن آدم التائه والكابوس الذي خلفه لها، وما جرى لها معه .

تأثرت إيفا بعلبكي جداً بحكاية مضيفتها، ولم تقاطعها خلال حديثها بتاتاً، فحتى حينما كانت تمر في لحظة تأثر وغضب داخلي من هؤلاء الذين كانوا يؤذون مضيفتها فأنها كانت تعبر عن غضبها من خلال إرتشاف النبيذ من الكأس الذي لم يفرغ طوال السهرة قط .

حين انتهت حواء صحراوي من حكايتها كانت إيفا بعلبكي قد صبت آخر ما تبقى من نبيذ في كأسها، وكانت قد انتشت واسترخت، وكان هذا واضحا من بريق عينيها اللتين كانتا تشعان بلمعان يشي بغضب مع رغبات منفلتة .

بعد أن انتهت حواء صحراوي من سرد حكايتها، توقفت عن الكلام منتظرة رد فعل ضيفتها التي نظرت إليها بصمت، وكان واضحا أنها تريد أن تقول لها شيئاً إلا أنها مترددة من قوله. انتبهت حواء صحراوي لذلك، فسألتها :

- يبدو لي أنك تريدين أن تقولي شيئا..

وجدت إيفا بعلبكي نفسها أمام دعوة صريحة للكلام، ولأنها كانت منتشية فقد قررت أن تقول من يدور في ذهنها في تلك اللحظات، وهي مأخوذة برغبة غامضة فيها الكثير من الشبق والتمرد، وقالت :

- صحيح.. أود أن أقول شيئا.. لكني مترددة ..
- مترددة..؟ لماذا..؟

نظرت إيفا يعلبكي إليها للحظات بصمت وكأنها تقرأ في وجهها إمكانية أن تقول حقاً ما يدور في ذهنها، ثم قالت :

- ربما سيزعجك.. أو سيحرجك ما سأقوله ..
- أبداً... لن أزعل أو أنزعج.. قولي ما تفكرين فيه حقاً ..

نظرت إيفا بعلبكي إليها بصمت للحظات وكأنها تزن الأمر في أعماقها، وأخيراً، وفي حمى نشوة النبيذ، انطلقت بالكلام قائلة :

- أعتقد أنك لست مريضة.. أقصد أن أوجاع ظهرك هذه ليست ناتجة عن مرض ..
- كيف..؟ ماذا تعنين بذلك..؟
- أعتقد إنك تحتاجين لرجل.. تحتاجين لرجل يضمك بين ذراعيه، ويكبس عليك بكامل جسده، وكما نقول باللبناني: (يطق عظامك).. تحتاجين لرجل يدخل فيك.. تحتاجين إلى ذلك الشيء المنتصب أن يخترقك.. تحتاجين إلى أن تصلي إلى اللذة.. إلى المتعة والنشوة المحرومة منها.. بعدها يمكن أن تسترخي أعصابك.. وعضلاتك.. وتذهب أوجاع ظهرك.. كيف لم تشخصي أنت ذلك..؟ أنت مثقفة.. وقد قرأتِ كثيراً عن الكبت ومشاكله.. الكبت يجنن النساء.. أنا كنت أعاني أعراضاً كالتي تعانين منها حينما كنت أنقطع عن الرجال لشهور ..

فوجئت حواء صحراوي من جرأة وصراحة إيفا بعلبكي، وكذلك أعجبها تشخصيها برغم وقاحته المكشوفة، وكانت تعرف أن إيفا بعلبكي لا يمكنها أن تتحدث معها بهذه الطريقة لو لم تكن قد شربت قنينة النبيذ وحدها. أما الضيفة فقد انطلقت، وكأنها قد انحدرت من مكان مرتفع ولا تستطيع أن تسيطر على طريقة انحدارها، فقالت :

- إنك غنية ومن عائلة غنية جداً، بيد أنك ترفضين الغنى كما تكرهين المال، لكن دون أن يكون لديك الاستعداد لتقبل حياة الفقر أو التخلي عن المال..!! أنت إنسانة طيبة وتلقائية في تعاملك، وتكرهين الوجاهات الإجتماعية، لكنك لا ترفضين التمتع بهذه الوجاهة في المجتمع، بل تستمتعين بها. أنت متناقضة كأية امرأة معاصرة.. تريدين أن تكوني حرة ومساوية للرجل، وتؤمنين بذلك بكل عقلك وكيانك.. وتطالبين أمك وأباك وزوجك بذلك..، لكنك في الوقت نفسه لن تقبلي أن لا تعاملي كسيدة، وتشعرين بالغضب الخفي إذا ما عاملك الرجل كمساوية له بالضبط، فلا يوليك الإهتمام كأنثى، ولا يفتح لك الباب حين تمرين، أو لا يسحب لك الكرسي حين تجلسين أو لا يتخلى لك عن مكانه في الطابور.... فأنت وإن

كنت ظاهرياً تبدين وكأنك امرأة قوية، عملية، مستقلة، تحمل شهادة أكاديمية رنانة، إلا أنك امرأة هشة، تحتاج للتبجيل والرقة الفائضة من قبل الرجل... أعذريني على ما أقوله.. لكننا النساء هكذا.. كتلة من التناقضات.. أنت مثلي في حاجتك لمن يحبك.. أو تحبينه.. لكنك أيضا لست مثلي.. أنا على الأقل صريحة مع نفسي.. أعرف أنني عبدة لشهوتي.. وعقلي بين فخذي.. فهو الذي يقود حياتي مهما حاولت أن أعطيها من معنى أو أغطيها بقناع الأخلاق والأهداف السامية.. لكنك أيضا في الجوهر لا تختلفين عني.. أنت امرأة مثلي.. ربما الفرق أنك لا تواجهين نفسك مثلي، وأنك لست صريحة مع نفسك مثلي.. كما أني أرى أن مشكلتك الحقيقية هو أنك تفكرين.. والتفكير نعمة.. لكنه نقمة كبيرة أيضاً ..

كانت حواء صحراوي تستمع إليها بانتباه شديد، بقلب عاقل وذهن طيب، دون أن تشعر بأية إساءة، فهي تعرف بأن إيفا امرأة علمتها الحياة أشياء ثمينة جداً عن النفس البشرية وعن عالم المرأة، وقد مرت خلال زيجاتها الرسمية المتعددة وعلاقاتها غير الرسمية بجحيم الرغبة المهول، وهي لا تقصد الإساءة لها بقدر ما هي تتحدث عن المسكوت عنه أحياناً، كما أنها ترى نفسها في مرآة هذا الدفق اللغوي وهذه الأفكار الصريحة..، لذلك ظلت صامتة تنظر إليها وكأنها تنتظر منها الاستمرار في الحديث، وهذا ما أدركته إيفا بعلبكي أيضا، لذلك استمرت قائلة :

- أنت ضائعة يا حواء.. لا تزعلي مني.. أنت ككل أبناء الشرق الذين يولدون في الغرب، فلا هم شرقيون، كما أنهم ليسوا غربيين بالكامل.. أنت تفكرين بطريقة غربية، أقصد بالمنطق الغربي.. بالعقلية الغربية لكنك مكبلة بقيود العادات والتقاليد والطبائع الشرقية..!! تحتكمين في سلوكك إلى قيم العشيرة والمجتمع الذي لا تعرفين منه سوى الحكايات، وبعض المشاهد التي تعرضها بشكل مزيف شاشات محطات التلفاز العربية.. حتى صرتِ شخصية مزدوجة، تعيش الصراع ما بين ما ترغب فيه وما يمكنها أن تفعله حقا...! الطبع.. العادات.. التقاليد هي درع السلحفاة الذي تنكمشين تحته، طالبة الحماية.. لكن ممن؟ أنت نفسك لا تعرفين.. انظري إليّ.. أنا الإنسانة البسيطة قياساً لك ولتعليمك ودراستك وشهاداتك العليا.. أنا هي هي.. أنا أعرف أنني لا أستطيع العيش بدون رجل.. يمكن للفتاة العذراء أن تعيش بدون رجل، لأنها لا تعرف معنى أن تكون مع رجل، ولم تذق اللذة التي يمنحها الرجل للمرأة.. لكن بالنسبة للمرأة التي التحمت برجل ولو لمرة واحدة في حياتها..، فأنها لا تستطيع العيش بدون قطعة اللحم تلك التي

يحملها الرجل بين فخذيه ..

أحست حواء صحراوي ببعض الحرج من طريقة كلام إيفا بعلبكي المكشوف في إشارتها لقضيب الرجل، فقالت بتردد وخوف وكأنها لا تريد أن تفضح نفسها، أو لا تود أن تكشف عما تشعر به، ولا أن ينزل مستوى الحوار إلى الحديث المكشوف، فقالت :

- لكن هذا ليس كل شيء في الحياة يا إيفا.. هناك أشياء أخرى مهمة غير اللذة.. هناك القيم الإنسانية، المبادئ، الصداقة، الحب، الكرامة.. وكل هذه الأشياء مهمة في الحياة، ويمكن للإنسان أن يضحي من أجلها بالكثير بما في ذلك لذته ومتعته ...

ردت إيفا بعلبكي بنبرة تأكيد وتحد، وقالت :

- أعرف.. أعرف.. أعرف هناك أشياء أخرى في الحياة.. هناك قيم.. وصداقة.. وكرامة.. ونجاحات.. أعرف ذلك.. لكن اللذة تبقى هي الهدف الأسمى في الحياة..، وبدون أي قناع مصطنع لضبط النفس، والتدرع بالأخلاق والدين، فأن الجنس.. أو لأصحح القول.. فأن اللذة هي المركز الذي يدور حولها مجمل حياة الناس، بل وحياة الإنسان من الداخل.. حتى رب العالمين.. حتى الله عز وجل.. يعد المؤمنين ويغريهم بالجنس.. بالحوريات والغلمان.. ألا يعد الله المؤمنين بالحوريات والغلمان..؟ ألا يدعو الرجال المسلمون في صلاتهم بأن يرزقهم الله ما يشاؤون من الحور العين..؟ ألم يثر القرآن مخيلة الرجال حين يتحدث عن الحوريات..؟ ألا يصف القرآن الحوريات بأنهن لا يعرفن العادة الشهرية.. وأنهن باكرات أبداً.. فكلما يفتحهن الرجل ويمزق بكارتهن.. تلتئم بقدرة الخالق مرة أخرى.. وكأن الخالق لا يعرف بأن إزالة غشاء البكارة يصاحبه الألم.. مسكينات حوريات الجنة! .. .

وبدون إرادة منها قالت حواء صحراوي :

- أستغفر الله من هذا الكلام.. ماذا تقولين..؟

انتبهت إيفا بعلبكي إلى أن مضيفتها استُفزت عندما أخذت تتحدث عن الحوريات والدين بهذه اللهجة التي تبطن السخرية، فحاولتْ أن تكبح نفسها، لذلك استمرتْ في حديثها دون أن تقترب من الجنة والحوريات، فقالت :

- أنا آسفة إذا ما شعرت بالاستفزاز.. لم أقصد ذلك.. لكني أردت القول بأن الجنس هو هدف أسمى في الحياة.. علماً أنه ليس كل فعل جنسي يعني الحصول على اللذة.. نحن نصل إلى اللذة الحقيقية حينما

نطلق سراح الروح والجسد، فنفعل بالجسد ما نشاء في لحظتها، ونتكلم بالكلمات التي تعبر عن رغباتنا الحقيقية.. الجنس ليس للتناسل كما تقول الأديان أو كما يعظ البعض ليل نهار.. فهذه إحدى فوائده من أجل استمرار النسل والحياة.... الجنس هدفه الوصول إلى اللذة والمتعة التي هي سرنا الغامض.. أحيانا أفكر بالرغبة وكأنها هاوية سوداء لكنها تتقد بحقل جاذبية غامض ومظلم... وهذه الرغبة لن تهدأ إلا بالوصول إلى اللذة.. فهي التي تمنحنا شيئاً من التوازن النفسي.. فحتى العلاقة التي بين الرجل والمرأة إذا لم تصل إلى الذروة.. لكليهما.. فأنها تسبب بمرور الوقت انهيارا عصبيا.. أنا أعرف نساء صرن يكرهن الجنس والرجال أيضاً.. وصارت حياتهن جحيما لأنهن لا يصلن إلى اللذة أو الذروة مع أزواجهن.. بعضهن أخذن عشاقاً غير أزواجهن فقط من أجل أن يصلن معهم إلى الذروة..، ومنهن من تدرعن بالأخلاق والحلال والحرام بل وتحولن إلى متدينات هربا من رغباتهن اللحوحة.. ونسبة كبيرة اعتمدن على أصابعهن لحل مشاكلهن، هذه الإصبع الساحرة التي تغنيك عن العالم والرجال، ولو للحظات.. لكن مع الأسف هذه الحالة تدفع النساء إلى الانهيار العصبي والعقد النفسية والمبالغات في كل شيء.. أنتِ مثلاً.. لا تزعلي مني مدام حواء.. إذا لم تنتبهي لنفسك.. فستدمرين حياتك.. ولأنك امرأة مثقفة.. تقرئين وتحاولين أن لا تهربي من مواجهة نفسك، أقول لك: إنك لست مريضة.. وهذه الأعراض التي تعانين منها هي أعراض امرأة محرومة من الرجل.. شخصياً مررت بمثل هذه التجربة حينما كنت وحيدة بدون رجل لسنوات.. أعذريني إذا كنت قد تجاوزت في كلامي.. فأنا أحببتك من اللحظة التي رأيتك فيها.. وبعد أن سمعت قصتك... لم أستطع ألا أقول لك ما قلته.. لقد كنت أغلي طوال الوقت من الغضب والألم ..

- لا عليك.. كلامك منطقي.. أنت تتحدثين عن أشياء حقيقية.. وبالمناسبة.. كلامك علمي جداً.. هناك الكثير من العلماء الذين يؤكدون على ما قلته أيضاً.. لكن برغم ذلك.. ليست اللذة هي كل شيء.. بل يمكن للذة أن نحصل عليها من خلال اشياء أخرى.. أي نعوض عنها بالمتعة الفنية والجمالية.. وبمتع أخرى في الحياة.. كما أن الإنسان يمكنه أن يتنازل عن اللذة الجنسية معوضاً إياها بإشباع شهوة المال وشهوة السلطة والهيمنة.. أليس كذاك..؟

أحست إيفا بعلبكي بأنها ليست مهيأة لمثل هذا النقاش الذي خرج عن كونه حديث امرأتين عن رغباتهما وحياتهما إلى حديث فكري، فأرادت

أن تنسحب بطريقة مهذبة دون أن تبدي أية إشارة لتراجعها عن النقاش، فقالت :

- هذا صحيح.،. لكن كل هذه المتع هي محاولة تعويض عن المتعة الأساسية وهي اللذة الجنسية.. بل إننا نحاول أن نقمعها بشكل مباشر وغير مباشر عن طريق الوعظ الديني.. والأخلاق.. والتقاليد.. وحتى عبر الفن والأدب .. ربما نقمعها من خلال العادات والتقاليد والأخلاق والدين.. لكن للعادات والتقاليد دورها في تنظيم حياتنا أيضاً يا إيفا، فهي تمنح ذواتنا التائهة في المكان والزمان.. في التاريخ والجغرافيا هوية شخصية وخصوصية قومية.. ناهيك عن أن الفن والأدب يعلو بالرغبة الجنسية المكبوته ويتسامى بها ويمنحها الكثير من الجمال.،. أي أنه يؤنسن العزيزة الحيوانية ..

نظرت إيفا بعلبكي إليها نظرة متأملة لكنها مليئة بالود والشفقة، وقالت بنبرة محايدة وكأنها تسايرها ولا تريد أن يتوتر النقاش بينهما، فقالت :

- هناك أشياء أكاد أعترف لك بصراحة بأني لا أفهمها بالكامل.. لكني لا أريد أن أقف بالضد منك.. وربما أنت تعرفين أشياء لا أعرفها أنا.. ربما أنت تعرفين الكثير من الأشياء والأفكار من خلال الكتب ومن خلال دراستك.. لكني أعرف أيضاً أشياء كثيرة من خلال تجربتي، لذا أسالك.. ألا تعتقدين أنك من خلال دفاعك عن العادات والتقاليد تحاولين أن تقنعي نفسك بأنك في الجانب السليم..؟ وأن ما تفعلينه أو تعيشينه هو الصحيح.. بمعنى من المعاني أنك تهربين من مواجهة نفسك بشكل صريح..؟

- ربما.. نعم.. وربما لا.. أنا مقتنعة بأن التقاليد والعادات تساعد الإنسان أحياناً في تنظيم حياته بل وحتى مشاعره الداخلية.. بما فيها حياته الجنسية.. كما أن هناك غرائز فوق اللذة.. مثل غريزة الأمومة ..

- الأمومة..؟ ربما.. فهي الوحيدة التي يمكن أن تمنح لذة توازي اللذة الجنسية من أجل استقرار المرأة النفسي.. نعم.. أنا مستعدة للتخلي عن جميع الرجال من أجل أبنائي.. عموما.. لا أريد أن تأخذي عني نظرة سيئة.. فقد مررت في حياتي بفترات كنت فيها متدينة.. كنت أصوم وأصلي.. وأقرأ القرآن.. لكن تجربتي كانت مرة جداً.. لا سيما بعد أن تعرفت على بعض النساء العربيات المسلمات والمتدينات، بل وكانت بينهن ألمانيات أسلمن بعد أن تزوجن رجالاً مسلمين.. وأستطيع أن أروي لك عنهن وعن تجربتي معهن أشياء تدعك تكفرين بكل شيء له علاقة بالدين ..

- ليس إلى هذه الدرجة يا إيفا.. فهناك أناس متدينون عن إيمان حقيقي.. وهم يفعلون الخير من كل قلبهم.. ربما أنت تتحدثين عن هؤلاء الذين يبالغون في كل شيء.. في الدين والدنيا... بحيث يصبح كل شيء حراماً ..
- نعم.. نعم.. أقصد هؤلاء.. لكن هؤلاء يعتقدون أنهم هم على الصراط المستقيم.. وأنهم الفرقة الناجية وجميع الناس بما فيهم المسلمون الآخرون ممن ليسوا معهم وعلى شاكلتهم هم كفار ويعيشون في الجاهلية ..
- أعوذ بالله..
- لماذا تتعوذين بالله.. هم يعتمدون على القرآن والسنة.. ويأتونك بعشرات الأحاديث التي تسند رأيهم ..
- هذه هي اجتهاداتهم ورأيهم.. وليس ذلك صحيحاً بالضرورة ..

ابتسمت إيفا بعلبكي وكانت النشوة قد فرت منها بعد هذا النقاش، فقامت عن كرسيها، وقالت بمودة :
- هذا رأيهم..؟ لا تزعلي مني يا مدام حواء.. لستُ هنا لأناقش في الدين.. لقد طارت نشوة شراب البطيخ والنبيذ بمجرد مرور هؤلاء في ذاكرتي ..
- لا عليك يا مدام إيفا.. لكل منا تجربته في الحياة.. وكما يقول المسيحيون: كل منا يحمل صليبه ..
- ربما أنت محقة.. كل منا يحمل صليبه..

نظرت إلى ساعتها اليدوية، ثم قالت:
- نعم.. لقد تأخر الوقت.. عليّ الذهاب.. صديقتاي ستسألان عني.. وربما ستستغربان اختفائي المفاجئ.. فقد تركتهما في السوق وجئت لأضع ما اشتريته في الغرفة على أن أرجع لهما لنذهب إلى مقهى قريب لقضاء السهرة ..
- هل هن لبنانيات أيضاً؟
- واحدة لبنانية والأخرى عراقية.. لكنهما تعيشان في ألمانيا.. على أية حال هذه أروع أمسية قضيتها في إسكيا..
- على الرحب.. أنا أيضاً استمتعت برفقتك.. لاسيما وهذه أول ليلة لي في هذه الجزيرة..
- ستستمتعين بها.. هي جزيرة ساحرة.. كما أننا سنكون معاً..

سنلتقي عند الفطور صباحاً..

- أكيد..

عند الباب ودعت بعضهما البعض بالقبل، واتفقتا على اللقاء صباحاً في المطعم.

* * *

الآن حواء صحراوي وحدها في الشرفة. أطفأت المصباح. جلست في العتمة وهي تفكر في كلام إيفا بعلبكي، وصراحتها، ودقة بعض ما قالته في ما يخصها. أحست بنفسها تتحدث مع ذاتها بصوت عال، بحيث كادت تسمع صوتها يدوي داخل رأسها: نعم.. أنا أتهرب من قناعاتي.. لقد ولدت وترعرعت في بريطانيا وأوروبا.. ولا أعرف عن بلادي إلا مشاهد قليلة، وذكريات باهتة.. وصوراً لوالدي.. وصورا لي من فترة طفولتي هناك التقطت أثناء زيارات الأهل إلى بلادهم، لكنني لا أتذكر منها شيئاً.. أنا أعد نفسي باعتباري بريطانية، لكنني أيضا عربية مسلمة.. وأن علاقتي بالعادات والتقاليد هي جزء من الطقوس التي تعودت عليها في البيت فقط.. لذلك فأن تجليات الإسلام الذي أعرفه فيه شيء من الأسطورة.. إنه أشبه بالحلم.. أشبه بهوية غائبة ومغيبة.. هوية مفروضة عليّ، هوية لم أخترها، وإنما قُدر لي أن أكون كذلك من خلال ولادتي لأبوين مسلمين. أنا ألتزم بطقوسه وعاداته ليس من باب قناعتي بها، وإنما بحكم العادة والتقاليد ومحبة بوالديّ، لكنني مرعوبة من بعض القضايا التي تملؤني بالتناقض، فأنا لا أفهم كيف سُمح للرجل أن يتزوج أربع نساء..؟ ويمكنه أن يجمع بين أكثر من واحدة في آن واحد..؟ ثم ما قصة (وما ملكت أيمانكم..) هذه..؟ أنا لا أفهم لماذا يجب أن يُمنح الأبن ضعف البنت في الميراث..؟ أنا لا أفهم لماذا تُقطع يد السارق.. ولا يتم معالجة أسباب السرقة؟ أنا لا أفهم لماذا يًسمح للرجل بأن يتزوج من غير المسلمة بينما المسلمة لا يمكنها ذلك..؟ أنا لا أفهم كيف يختار الله اليهود كشعبه المختار في الكتب اليهودية المقدسة، بينما يقول للعرب كنتم خير أمة أخرجت للناس..؟ وماذا عن باقي شعوب الأرض..؟ أليس هناك تناقض في ذلك..؟ أنا لا أفهم لماذا يجلد الزاني والزانية مائة جلدة، على أن يشهد على ذلك أربعة شهود..؟ كيف يتم هنا إقرار واقعة الزنا..؟ من أين يمكن المجيء بأربعة شهود..؟ أترى يتم الزنا أمام أربعة رجال على الأقل كشهود..؟ أهو زواج..؟ وكذا الأمر في المحاكم حيث تقف امرأتان مقابل رجل واحد..، ماذا لو أن جريمة حدثت أمام امرأة واحدة، وهي الشاهد الوحيد عليها؟ ولماذا ينشغل رب العالمين في كتابه

المقدس بالحياة الشخصية لنبيه..؟ لماذا يتدخل في تطليق امرأة من زوجها ليزوجها لنبيه..؟ أترى من نسل هذه المرأة ولدت أمة.. أم تناسل الأنبياء كما عند ابراهيم ويعقوب..؟ أم أنه يتدخل في حل مشكلة عائلية ليمنح صك براءة لهذه أو تلك..؟.. وما عن الجنة.. ما معنى وجود نهر من العسل وآخر من اللبن والثالث من الخمر..؟ هي لا تستطيع تصور نهر من عسل..؟ ونهر من خمر.. ونهر من لبن..؟ من أين تنبع وأين تصب هذه الأنهار في الجنة..؟ وإذا ما آمنا بذلك فهذا يعني أن على جميع أهل الجنة أن يسكنوا على جانبي هذه الأنهار..؟ فليس من المعقول أن هذه الأنهار متداخلة في ما بينها..؟ وهذا يعني أن أهل الجنة موزعون على ثلاثة أماكن: بعضهم على جانبي نهر الخمر، وبعضهم على جانبي نهر العسل، والبعض الآخر على جانبي نهر اللبن..؟ وليس هناك من أماكن أخرى..؟ ثم أهناك طبقات بين أهل الجنة بحيث هناك من يملكون القصور وهناك المشردون الذين بالكاد قد دخلوا الجنة..؟ وما هو الفرق بينهم حينئذ..؟ أيملك أغنياء الجنة من الحوريات والغلمان أكثر من فقراء الجنة..؟ يا ربي.. أكاد أجن.... لقد قرأت القرآن.. وتوقفت عند هذه الإعتراضات.. التي ملأتني بالتناقضات والشكوك... قرأت كتب تفسير القرآن، معظمها، بل الأشهر بينها.. لاسيما لهذه الآيات التي ملأتني بالشكوك.. لكني وجدتها تبريرية وغير مقنعة للعقل السليم والحديث.. صحيح أن معظم هذه الأسئلة والاعتراضات ليست من عندي فقط وإنما هي اعتراضات بعض علماء المسلمين في العصور الإسلامية المزدهرة، واعتراضات المستشرقين، وبعض الطليعيين، ونقاد الأديان، لكنها أيضا أسئلتي، بينما هذه المرأة الجريئة، إيفا بعلبكي، أيقظت في شكوكي الخامدة مثل جمرات متقدة تحت الرماد.. وقد نفخت هذه المرأة على رمادي فاتقدت شكوكي من جديد .

قطعتْ سلسلة أفكارها التفاتة منها للأسفل، حيث رأت العجوزين ينهضان من طاولتهما التي تضيئها الشموع، ويبتعدان متجهين إلى داخل الفندق. فكرت بهما للحظات. سألت نفسها عن سرهما، إذ كانا حزينين، يتكئ كل منهما على الآخر، كشبحين بائسين .

أحست بحزن لاإرادي يتسرب شيئا فشيئاً إلى عالمها الداخلي. غادرت الشرفة متجهة إلى غرفة النوم. أثناء مرورها أطفأت النور في الصالة .

* * *

في غرفتها أخذت تنزع ثيابها. وبرغبة غير مفهومة نزعت كل ما

عليها. وقفت عارية أمام المرآة. تأملت جسدها. سألت نفسها: ما الذي يجري معك يا حواء..؟ من أنت..؟ أخذت تتأمل وجهها، نهديها المثقلين، حلمتها البنية النابضة، بطنها الملساء، وما تحت بطنها. دلتاها المنتفخ قليلاً، والذي تجنبت النظر إليه طويلاً لأنها ما أن وصلت نظراتها إليه حتى قفز وجه الرجل الايطالي الوسيم من المجهول وصار يملأ سماء ذاكرتها، رافقه تذكر لحظات شعورها وهو ملتصق بها من الخلف فأحست بالتهيج. هربت من الحالة التي وجدت نفسها فيها بأن ألقت بجسدها على السرير.. وشيئا فشيئا أخذت تسحب الشرشف لتغطي نفسها، لكنها كانت تخاف عريها، فالعري يدفعها للتفكير بالجنس، فتتهيج، وكثيرا ما كان ذلك يصاحبه حالة عصبية وصداع حاد. صحيح أنها كانت أحيانا تعتمد على إصبعها للتخلص من هذه التوترات الجنسية، لكنها كانت تكره ذلك لأنه يُشعرها بشيء من الابتذال وتشعر بعد ذلك بالذنب وكأنها اقترفت شيئا كريهاً، كما كانت تشعر بعد ذلك برغبة أكبر، وقد مرت بفترة كانت تمارس ذلك يومياً بل وأحيانا عدة مرات في اليوم الواحد، مما كان يسبب لها توتراً عصبياً دائما. أخرجت كفها من تحت الشرشف. رفعت يدها للأعلى وأخذت تتأمل كفها التي عادة ما تداعب نفسها بها. أخذت تفرد أصابع كفها، وتوقفت بنظرها عند الإصبع التي تستخدمها عادة. أحست بهذه الأصبع وكأنها كائن حي منفصل عنها. وكأن لهذه الأصبع عينين تنظر بهما إليها. لم تنتبه لنفسها، إذ برزت أمام عين ذاكرتها لوحة الخليقة للفنان الإيطالي ميكائيل أنجلو، وبالتحديد تلك الكف، وحركة الأصبع فيها والتي تؤكد لمسة الإله لآدم. فكرت بهذه الأصبع التي بها منح الله لآدم، وبها يضغط على زناد المسدس أو البندقية عند إطلاق الرصاص، وبها يتم التهديد، وبها يتسحضر اللذة من بئر غامضة محاطة بحقول مغناطيسية .

أحست حواء صحراوي بتصاعد أمواج الرغبة في داخلها، وحضور لحظات التصاق الرجل الإيطالي بها من الخلف عند صعود العبّارة (ميدمار)، بل صارت تذهب بخيالها إلى أبعد من ذلك، فتتخيله قد أولجه فيها. فجأة، لكي تقطع على نفسها هذه التخيلات الجارفة، وتتخلص من الحالة التي هي فيها، نهضت عن السرير. فتحت الخزانة وأخرجت بيجامتها. اقتربت من الطاولة التي وضعت عليها مخطوطة رواية متاهة الأشباح، والكتب التي حملتها معها. أخذت المخطوطة ورمتها على السرير. ارتدت بيجامتها. استلقت، غير أن رغبتها لم تهمد، ولكي تهرب من نفسها، أخذت

المخطوطة مقلبة صفحاتها، متوقفة عند الفصل الذي انتهت إليه. بدأت تقرأ بصمت إلا أنها لم تكن تفهم شيئاً مما تقرأ. توقفت عن القراءة. نهضت عن السرير. نزعت بيجامتها ثانية. فتحت الخزانة ثانية وأخرجتْ برنسا، ثم توجهت إلى الحمام .

بعد ربع ساعة عادت إلى غرفتها. كانت أكثر هدوءاً. لقد أخذت حماماً بارداً، كما داعبت نفسها بأصبعها متخلصة من هذا التوتر، عبر التوغل في أحلام يقظتها مع الرجل الإيطالي الوسيم، ومع أنها لم تتعرف إليه، ولم تحدثه أكثر مما حدثته على سطح الباخرة، لكنها أحستْ أنه امتلكها برغم محاولتها عدم الإعتراف بذلك .

كانت في برنس الحمام، فنزعته عنها. لبست البيجاما ثانية. ألقت بنفسها على السرير، وأخذت مخطوطة الرواية لتواصل القراءة فيها:

متاهة الأشباح

11

جحيم الفيلسوفة حواء الناصري

ربما استطردتُ كثيراً في حديثي أيها القاريء الكريم.. لذا سأختصر لك الأحداث، لكي لا تعتقد بأنني غريب الأطوار.. أرى الماضي في الحاضرأو المستقبل في الماضي.. وأخلط بينهما. المهم.. بعد خمسة أعوام من الأحداث التي ذكرتها سابقاً كنت قد أنهيت الجامعة منذ سنوات، وسجلت في الدراسات العليا.. لم أحصل على عمل.. ولم أكن بحاجة إليه أصلاً.. في السنة الخامسة بعد الحرب المقدسة التي شنها العالم على البلاد.. التقيت الفيلسوفة ذات يوم.

ففي تلك السنوات عصفت أحداث هائلة بالبلاد، حيث اندلعت الحرب ضد العراق، وتم تدمير وسحق الجيش العراقي في الكويت، بعد ذلك انتفض الجنود، ثم التحق الناس بهم، واندلعت انتفاضة فوضوية، كانت المعلومات عنها قليلة جداً، حيث كانت تصلنا أخبار وشائعات متقطعة. وعرفنا بعد ذلك بسحقها بشكل وحشي. وفُرض حصار عالمي على البلاد. صارت الحياة أكثر بدائية، ووحشية، وخواء، رافق ذلك انكسار للدولة وسقوط هيبتها في الحضيض، دون أن يقلل ذلك من عنفها ورعبها. كان الناس يُساقون إلى الذبح وهم صامتون.. إنه صمت الحملان المستسلمة لموتها المؤكد.. كان الحصار قد دمر البلاد.. أفقد الناس آخر ما تبقى من

تمايزهم عن الحيوانات.. وأقصد هنا صفة الخجل.. لقد فقد الناس هذه السمة.. صار الناس لا يستحون من السرقة والتزوير والرشوة والدعارة والوصولية والغيبة والنميمة.. وكل الصفات السلبية، بل صارت تفسر على أنها ذكاء وهمة وشجاعة وإخلاص للبلاد.. كان الناس خلال تلك السنوات يمشون في الشوارع وهم سكارى وما هم بسكارى من هول الحصار شديد .

المهم.. بعد خمس سنوات من إختفاء صديقي آدم الواسطي، وإمحاء المنزل الكبير على أثر صاروخ أعمى سقط عليه. واحتراق أم قابيل تحت أنقاضه.. بعد تلك العواصف الهوجاء التي مرت بالبلاد والعباد.. التقيت صدفة، في شارع المتنبي، الفتاة الفيلسوفة، صديقة آدم الواسطي. كنتُ قد استأجرت غرفة في فندق رضوان الذي يقع على التقاطع ما بين الشارع العام والاستدارة إلى شارع المتنبي. هناك في ذلك الفندق التقيت بالمرأة الهاربة مع عشيقها المراهق، أي أم آدم الواسطي.. لكن كيف هذا بينما أحداث هروبها جرت قبل خمس سنوات من ذلك الوقت..؟ كيف تعاد الأحداث نفسها، بنفس الأشخاص بعد خمس سنوات..؟ هل هذا يعني بأن صديقي وأم قابيل لا يزالان على قيد الحياة..؟ كيف ذلك وقد رأيت المنزل قد أمحى من الوجود ولم يبق منه سوى حفرة عميقة..؟

لا أطيل عليك يا قارئي.. لقد رأيت الفيلسوفة في شارع المتنبي وهي تقلب كتبا مستنسخة، معروضة على الأرض.. كانت قد هزلت، واختفت تلك البراءة الغامضة التي كانت مثل برقع وهمي يغطي وجهها. لم أنتبه إليها أول الأمر. كانت تقف إلى جانبي، وقد أثارتني يد تمتد لتأخذ كتاباً يضم مختارات من شعر لوركا. حينما نظرت لصاحبة اليد التقت نظراتنا. كانت مفاجأة لكلينا. شحب وجهها، لكن عينيها اتقدتا بوهج غامض. لا أعرف كيف تجرأت فسألتها، دون أن أبدي بأني عرفتها :

- أنت محظوظة.. أردت أن أمد يدي للكتاب لكنك سبقتني.. هل تحبين لوركا..؟
- لوركا.. الشاعر القتيل.. أهناك من لا يحبه..؟
- نعم.. هناك من لا يحبه..؟
- من لا يحب لوركا..؟
- القتلة ..

ارتعشت ملامحها. ثمة رجفة هزت جوانب شفتيها الشهيتين. ظل ابتسامة حزينة خفيفة غطت ملامحها. أسبلت جفنيها إلى الأسفل وقالت بهدوء ووضوح تام :

- ما زلت كما كنت.. لم تتغير ..

أدركت لحظتها بأنها عرفتني، وأنها تشير إلى تلك السنوات التي مرت، بالرغم من أننا حينها لم نتعارف بشكل شخصي، لكني كنت أعرف بأن بيننا آدم الواسطي، حبيبها. في تلك اللحظة انبثق في ذهني ذلك المشهد وهي تختفي في سيارة المخابرات قرب بوابة الجامعة.. فسألتها :

- وأنتِ..؟

ارتبكت. أحسست بأن ثمة إنكساراً هائلاً حدث في حياتها، وأنها في هذه اللحظة تحاول عبر زجاج المرايا المحطمة في أعماقها أن تستجمع صورتها المهشمة، لكنها تجرحت دون فائدة، لذا قالت بعد لحظات، بنبرة يائسة :

- أنا.. أنا قد ضعت..
- كيف..؟

كان البائع العجوز يستمع لحوارنا، وأدرك أننا نعرف بعضنا والتقينا صدفة عنده، فظننا عاشقين افترقا، لذا حاول أن يلهي نفسه بترتيب الكتب ليتيح لنا فرصة الحديث. انتبهت للأمر، وكانت بي رغبة أن أعرف منها مصير صديقي آدم الواسطي، فسألتها :

- هل أنت وحدك..؟
- هنا.. نعم..
- هل لديك بعض الوقت كي نتحدث..؟

نظرت إليّ بارتباك، وقالت :

- نعم.. لكن أين..؟
- لنمض أولاً من هنا ..

دفعت لصاحب الكتب ثمن الكتاب. توجهت بها عبر سوق السراي المزدحم. وخلال مشينا تبادلت معها بعض الجمل التافهة عن الإزدحام، وعن شراء الناس للكتب المستنسخة.. وكأن كلاً منا يجري في داخله حواراً عن هذا للقاء ونتائجه. كانت تمشي أمامي، فتأملتها من الخلف. أعجبتني. كانت قد صارت أكثر نضجاً. كنت خلال زحمة السوق أحاول الالتصاق بها بحجة الزحمة. فجأة سألتني :

- إلى أين نمضي..؟

لم أجد لحظتها سوى أن أجيب بشكل مرتبك :

- أحاول أن نخرج من هذه الزحمة.. كي نتكلم بشكل هادئ.. أنا شخصيا أعيش غير بعيد من هنا ..

- غير بعيد من هنا..؟ أين..؟
- في فندق رضوان في شارع المتنبي ..
- آها ..

فجأة برقت في ذهني فكرة غريبة، فقلتلها :

- هل أنت جائعة..؟
- ماذا تقصد..؟
- أقصد نذهب إلى المطعم المقابل لفندقي القريب.. نجلس في قسم العوائل.. نطلب طعاماً.. ويمكننا أن نتحدث بهدوء دون إزعاج ..

صمتت للحظات ثم أجابت :

- فكرة جيدة.. لكني غير جائعة ..
- لا ضير.. أنا ايضاً غير جائع.. لكن يمكننا على الأقل أن نتحدث دون إثارة أية شكوك ..
- تعتقد ذلك..؟
- نعم.. أعتقد ذلك ..

كانت مرتبكة. مترددة في الذهاب معي إلى المطعم. ولكي لا أدع لها فرصة للتراجع والإعتذار سألتها :

- هل لديك أخبار عن صديقي آدم الواسطي..؟

صُدمت حينما سألتها عنه، وكأني صفعتها، فقالت :

- ألا تعرف..؟
- ماذا أعرف..؟
- لقد أُعدم قبل خمس سنوات ..
- ماذا..؟

كانت إجابتها أكبر من أصفها كصفعة أو كرصاصة أو طعنة سكين.. فهذه أوصاف تافهة ومتخلفة.. لقد أحسست بأن بوابة من بوابات الجحيم المهولة قد بدأت تنفتح مع هدير مرعب. أجبت صارخاً :

- كيف..؟ ماذا تقولين..؟

نظرت إليّ بمودة وطيبة لأول مرة وكأنها أدركت عمق ألمي لسماع الخبر وقالت :

- ظننتك تعرف..
- من أين لي أن أعرف..؟ لقد ذهبت إلى المنزل الكبير الذي كان يسكنه فرأيت قد صار حفرة..؟ كان هو قد اعتقل بسبب التحقيق في انتحار فتاة تسكن المنزل..

- ماذا..؟ انتحار فتاة..؟ لم أسمع بهذا.. أيّة فتاة..؟

لحظتها أدركت بأنها لم تعرف عنه مثلما عرفتُ أنا عنه، كما أدركتُ أيضاً بأنها تعرف عن مصيره أشياء لم أعرفها أنا بالرغم من محاولاتي خلال السنوات التي تلت أن أصل إلى أي خبر أو معلومة بسيطة عنه سواء من خلال الطلبة في الجامعة أو بحثي الخاص، لذلك تولد لدى كل منا فضول لمعرفة ما خفي عنّا، وكأننا بذلك نحاول أن نستعيد ذواتنا التي كانت ذات يوم، لذا حاولت أن أثير فضولها أكثر، فقلت :

- إنها قصة طويلة.. لا سيما بعد حادثة مقتل أمه ..
- مقتل أمـه..؟
- لنذهب إلى المطعم ..
- لكن ..
- إذا لم يعجبك المطعم.. فلنذهب عندي في الفندق ..
- ماذا ستقول إدارة الفندق عني..؟

انتبهت إلى أنها موافقة ضمنياً، لكنها محرجة من إدارة الفندق، فقلت لأسهل الأمر :

- من هذه الناحية لا مشكلة لديك.. هم يعرفونني جيداً.. ويثقون بي ..
- لا.. لا.. يفضل أن نجلس في المطعم على أن نذهب عندك ..
- كما تشائين.. الفندق مقابل المطعم بالضبط ..
- لكن يجب أن لا نتأخر كثيرا ...
- طيب ..

كنت خلال هذه الحوارات المتقطعة قد التصقت بها مرات عدة، ومرة منهن التصقت بها بحيث أنا نفسي شعرت بالإحراج.. حين صرنا خارج سوق السراي انعطفنا ناحية المتحف البغدادي، ومن هناك التففنا ناحية محل حلويات الصمدي المجاورة للفندق، ودخلنا مطعم الأمير .

* * *

صعدنا إلى الطابق الثاني المخصص للعوائل. لم يكن هناك سوى رجل وامرأة قد اتخذا زاوية في ذلك المكان الذي لم يكن طابقا كاملاً، وإنما جزء من الطابق قد حول إلى زاوية مربعة لإستقبال العوائل. لم نكن جائعين، لكننا طلبنا وجبة طعام لذلك اليوم في قائمة الطعام. كلانا كان متوتراً، فهذه أول مرة أجلس معها، وكلي توجس ومشاعر مضطربة. قلت لها مازحاً لتلطيف الجو بأن العاملين في المطعم ربما سيظنوننا زوج وزوجة،

فارتبكت أكثر وخفضت رأسها إلى الأسفل، ناظرة إلى غطاء الطاولة وقد ارتسمت على وجهها برغم ذلك ابتسامة خفية لكنها قاسية .

لا أعرف كيف أصف لك يا قارئي مشاعري في تلك اللحظات. هل الإنسان عدواني بطبعه..؟ لا أدري.. فكلما كنت أرى الإرتباك يتجلى على محياها كنت أحس بعنفوان رجولتي، ويتصاعد بشكل خفي نسغ سري يؤجج رغبتي الجنسية فيها، ورغبة غامضة في السيطرة الكاملة عليها. كنت أستغل لحظات التفاتها لتأمل المكان أو انخفاض رأسها للأسفل ارتباكاً، كي أتأمل جسدها وصدرها ووجهها .

أدركتُ أنها صارت امرأة ناضجة وليست تلك الفتاة البريئة، المتوحشة، التي يصطدم فيها خفر الأنوثة بشطحات الرجولة، فقد كانت نشيطة سياسياً وفكرياً، ولديها اهتمامات غير عادية بالسياسة والفكر، ويكاد المرء ينسى حينما تتحدث بأنه أمام أنثى. نعم.. نعم.. أذكر أننا، أنا وصديقي آدم الواسطي، لم نكن ننظر إليها كأنثى وإنما ككائن مفكر، كتلة من التأمل والتفكير الذي لا علاقة له بالأنوثة.. لذلك كنا نسميّها بالفيلسوفة، لكنها الآن امرأة تشع بالأنوثة وتجذب أي رجل إلى مدارها الغامض. ولكي أقود الجلسة وأهيمن عليها فاجأتها بالأسئلة :

- ما هي قصة إعدام صاحبنا..؟ كيف عرفتِ ذلك..؟

ارتبكت قليلاً. التفتت وكأنها تخاف أن يكون أحد ما قد سمع سؤالي أو سيسمع إجابتها. بعد لحظات قالت :

- لقد عرفتُ ذلك من خلال... من خلال أصدقاء مشتركين بيننا آنذاك.. لقد أخبروني بأنه أعدم مع عدد من الطلبة والطالبات الذين أعتقلوا لنشاطهم السياسي ..

- لكنه لم يُعتقل لأسباب سياسية..؟

- ماذا تقول..؟

- الذي أعرفه بأن ثمة فتاة قد انتحرت في المنزل الكبير حيث كان يسكن، وقد تركتْ الفتاة رسالةً جاء اسمه إلى جانب أسماء أخرى فيها، بأنها بسببهم أقدمت على الانتحار.. فأخذوه للتحقيق معه.. ولكن بعد أيام إندلعت حرب الخليج.. وسقط صاروخ عشوائي على المنزل فدمره وترك حفرة عميقة في الأرض.. لكن كما أذكر حينها كان هو في التحقيق.. بعدها لم أعرف عنه أي شيء برغم محاولاتي العديدة ..

حينما كنت أتحدث انتبهت إلى أنها كانت تنظر إلى فمي منذهلة. كان الدم يصعد شيئا فشيئا إلى وجهها ليورد وجهها الشاحب، وبدأت

الحياة تعود إليه شيئاً فشيئاً. لم أكن أعرف سر هذا الأمر، لكنها سألتني بلهفة :

- هل أنت متأكد من ذلك..؟ أقصد متأكد من أنه قد تم اعتقاله بسبب انتحار الفتاة.. وليس لسبب آخر..؟

- نعم أنا متأكد ..

نظرت إليّ صامتة وكأنها تريد قراءة أسرار وجهي، ورددت سؤالها :

- هل أنت متأكد.. مئة في المئة مما تقول..؟

- نعم.. مئة في المئة.. لقد زرته في المنزل خلال تلك الأيام وعرفتُ من أم قابيل كل شيء..؟

- أم قابيل..؟ من هي أم قابيل..؟

- أم قابيل صاحبة المنزل الذي استأجر غرفة في منزلها ..

قطع حوارنا مجيء عامل المطعم وهو يحمل صينية الطعام. أحسست بأن ثمة تحولاً طرأ على الفيلسوفة، فقد صارت أكثر انطلاقا في الحركة وفي النظر إليّ رغم عدم ارتيابها الواضح من المكان. لم نكن جائعين لكننا ولكي نزيل الريبة بدأنا بالأكل وكأننا كنا ننتظر الطعام، لاسيما وأن بعض الرواد الآخرين قد وصلوا خلال فترة حديثنا .

لم تمر لحظات حتى عاد الشك يخزُ عقل الفيلسوفة من جديد، فسألتني :

- لكن لماذا إذاً تمت تصفيته لو كان الأمر مجرد حادثة انتحار..؟

- كما أقول لك.. أنا متأكد من سبب اعتقاله لأني كنت على تواصل مباشر مع هذه القضية ..

- هل هذا يعني أنه لم يُعتقل بسبب وشاية سياسية أو ما شابه..؟

- أبداً ..

فجأة، أخذت كفي إلى شفتيها وطبعت قبلة قوية عليها، قبلة عرفان وشكر. لم أفهم الأمر، فسحبت يدي قائلاً :

- ماذا تفعلين..؟

- أقبل يدك لأن أرحتني من قضية كانت تخنقني على مدى سنوات ..

- أية قضية..؟

التفتت إلى ما حولها، وقالت :

- أنت متأكد بأن ذهابي معك إلى الفندق لن يسبب لي ولك أية

مشكلة..؟

- أجلً ..

لكنها بعد أن تفوهت بذلك صمتت وكأنها تسرعت في قول ذلك. كانت ساهمة النظرات وكأنها تتجول في عالمها الداخلي. أخذت نظراتها تتجه إلى الفراغ، ثم رفعت رأسها ونظرت إليّ قائلة :

- لا.. لا.. من غير اللائق أن آتي معك إلى الفندق.. أتعرف أنني لحد هذه اللحظة لا أعرف اسمك ..
- ولا أنا.. أنا لا أعرف اسمك أيضاً.. أنا اسمي آدم.. آدم البغدادي ..
- آدم.. أنت أيضا اسمك آدم..؟
- نعم.. كلنا آوادم.. وأنتِ؟
- أنا حواء... حواء الناصري ..
- عاشت الأسماء.. حواء ..
- كنت أسمع عنك الكثير من آدم.. كان معجباً بك جداً.. وكان يعجبه فيك تحررك الفكري.. وحبك لدوستويفسكي وهنري ميللر ..
- حبي لدوستويفسكي وهنري ميللر..؟
- نعم.. كان يحدثني عن تحليلاتك الغريبة لدوستويفسكي.. وتحمسك لهنري ميللر ..
- غريب.. كنا نتحدث بشكل عام.. ليس فقط عن دوستويفسكي وهنري ميللر.. وإنما عن آخرين كذلك ..
- كنتُ أود حينها أن أتعرف عليك أيضا من شدة حماسه لك.. لكن لم تكن الأجواء مناسبة.. وقد وعدني بأن نلتقي معاً.. لكن لم يحدث ذلك... وربما كان ذلك أفضل مما لو كان قد حدث فعلاً .
- ماذا تقصدين..؟
- لا شيء.. عموماً.. ها نحن نلتقي بعد أكثر من خمس سنوات.. لكن بدون آدم ..
- نعم.. هذا مؤسف ..
- أما زلت معجبا بدوستويفسكي.. وهنري ميللر؟

حينما تأملتها وهي تسألني عن دوستويفسكي وهنري ميللر اكتشفت فجأة وكأني أمام إحدى شخصياته التعيسة..، لكني لم أستطع بالضبط إلى أية شخصية من شخصياته قريبة هذه المرأة الغامضة التي تجلس أمامي. قلت لها وذهني مشغول بتصنيف شخصيات دستويفسكي النسوية :

- ربما هو يبالغ في ذلك.. لكني من المؤكد ما زلت مولعاً به.. لكني لستُ معجباً بكل أعمال هنري ميللر إلى الدرجة التي حدثك بها عني.. هل قرأت ربيع أسود أو مدار الجدي ورامبو وزمن القتلة لهنري ميللر.. أعتقد أنها أفضل أعماله ..
- قرأت ربيع أسود.. كتاب مستنسخ.. اشتريته مؤخرا من شارع المتنبي ..
- وما رأيك.. فيه..؟
- في مَن..؟
- في هنري ميللر.. أقصد في الكتاب ..
- إنه فضائحي... لكنه مثير.. لكني استمتعت ب ......

لم تكمل حديثها، إذ فجأة شحب وجهها، وارتعبت ملامحها، وهي تنظر لما وراء رأسي.. في الجهة المقابلة لها بمواجهة السلم. التفتُ لأرى سبب شحوبها، فرأيت رجلاً أنيقاً ومعه فتاة جامعية، كان واضحاً من زيها الجامعي. ارتبك الرجل حين رآها أيضاً. لكن ثمة رغبة وقحة كانت قد ارتسمت على وجهه. فجأة لمست كفي وقالت :

- لنمضِ إلى الفندق فهو أكثر أمانا من هنا .

فوجئت. مسني هاجس خوف للحظة من طلبها المفاجئ، لكني في الوقت نفسه فرحت. لم أصدق ما سمعته منها، وكأن مجيء هذا الرجل الذي أرعبها وجوده في المطعم جاء لإنقاذي وتسهيل مهمة وصولي إليها، وجلوسي معها في مكان منفرد ومغلق مثل غرفتي في الفندق. لم أجبها وإنما نهضت مباشرة لمغادرة المطعم. وبينما كنت أنزل وهي أمامي التفتُ إلى الرجل فرأيت علامات الغضب ترتسم على وجهه لمغادرتنا بهذا الشكل المفاجئ، ولم يكن بمقدوره أن يفعل أي شيء فقد كان يرافق فتاة جميلة .

* * *

كانت حواء الناصري مرتبكة وخائفة. لم تكن تعرف ماذا تفعل وهي تقف وسط الغرفة. دعوتها للجلوس على سريري، وأخذت كرسيا قرب طاولتي وجلست قبالتها. لم نكن نعرف كيف نبدأ. فالجو كان مشحوناً بمشاعر مختلطة لا نعرف إلى أين ستقودنا. وجدت من المفيد أن أسالها عن شيء مشترك بيننا إلا وهو تفاصيل إعدام صديقي آدم الواسطي، وسر خوفها من هذا الرجل الذي دخل المطعم مع الفتاة الجامعية. وقبل أن أقول شيئا سألتني:

- ألا يدخل علينا أحد..؟

- لا طبعاً.. كيف يدخل علينا أحد..؟ إلا إذا طلبت من الشاب القروي الذي يعمل في الاستعلامات أن يأتينا بشيء.. ماذا تحبين أن تشربي..؟

- لا شيء.. لا شيء.. أنا لا أستطيع أن أبقى هنا طويلاً ..

صمتتْ للحظات وأخذت تتنقل بنظراتها بين جوانب الغرفة وكأنها تفكر مع نفسها، فسألتها :

- قبل أن أسألك عن صديقي آدم الواسطي أود أن أسألك عن الرجل الذي دخل المطعم قبل قليل.. لماذا ارتعبت حين رأيته..؟

صمتت للحظات قبل أن تجيبني. كانت تنظر إلى حقيبتها اليدوية التي وضعتها على السرير، ثم التفتتْ إليّ قائلة بهدوء :

- لأنه ضابط في الأمن.. ولأنه هو الذي حقق معي حين اعتقلوني قبل سنوات ..

- اعتقلوك..؟ قبل سنوات..؟ متى..؟

- قبل حرب الكويت بأيام ..

أحسستُ حينها وكأن خمس سنوات تكثّفت في لحظة خارقة، إذ استحضرتُ لحظتها ذلك المشهد الذي رأيتها فيه وهي في سيارة المخابرات بعد خروجها من مطعم الكلية، فقلت لها بحرارة :

- أذكر ذلك اليوم جيداً.. وكأنه يحدث الآن أمام عينيّ.. لقد جئتِ ذلك اليوم إلى الكلية.. دخلتِ المطعم.. أعتقدُ أنكِ كنتِ مثلي تبحثين عن آدم الواسطين، الذي كان قد اختفى منذ فترة قبل ذلك.. حين خرجتِ تبعتك.. لكني لم ألحق بكِ.. وحين صرتِ في الشارع رأيتك داخل سيارة بيجو بيضاء وسط رجلين.. وحين انطلقتْ السيارة أخفضوا رأسك إلى الأسفل.. أليس كذلك..؟

كانت تنظر إليّ بعينين مفتوحتين على آخرهما ومليئتين بالدهشة، وقالت باستغراب :

- نعم.. نعم.. هذا ما حصل بالفعل.. لقد جئتُ باحثة عنه.. إذ كان قد اختفى... كنا متفقين على مواعيد محددة للقّاء.. فإذا حدث طارئ ولم يتم اللقاء الأول فهناك موعد آخر محدد أيضا. لكنه لم يأت في اللقاءين بل ولمواعيد أخرى.. وكان الجو السياسي متوتراً جداً.. وكان بعض زملائنا قد تم اعتقالهم، ومع الأسف استشهد بعضهم من جراء التعذيب، والبعض الآخر إنهار ولم يستطع تحمل التعذيب.. فوقع على التعهد بعدم ممارسة السياسة، وخرج. من بين هؤلاء من بقي ضميره حيا، إذ أرسل بطرق ملتوية أخباراً عن انهياره وتحذيراته لنا بالاختفاء.. وكان اسمي مطلوباً

كما يبدو، وكذلك آدم الواسطي، الذي كنت اسميه (الكوتاوي) وليس الواسطي، فقد كان يكره كلمة (واسط).. يقول إنه يحب اسم مدينته الأصلي: الكوت، لأن واسط مدينة بناها الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي، وهو يكره الحجاج كثيراً ..

كنت أستمعُ إليها محاولاً تخيلها وهي في التحقيق والتعذيب، مستعينا بمشاهد بعض أفلام التعذيب، فقلت لها :

- وهل عذبّوك..؟

ابتسمت ساخرة، لكنها سخرية مليئة بالألم، وقالت :

- إنهم لا يعذبون الإنسان فحسب، وإنما يدمرونه أيضاً.. يحطمونه من الداخل.. يسقطونه في الحضيض الأبدي ..

كانت تتحدث وأذنها ترصد أية حركة في الممر، وكان ارتباكها واضحا، وكأنها تورطت بالمجيء إلى الفندق، ويبدو أن رعبها من ضابط الأمن هو الذي دفعها للمجيء إلى الفندق دونما أي تفكير، لكنها الآن وقد ابتعدتْ عن المطعم، فقد بدأت تشعر بنتائج وجودها في غرفة رجل بفندق من الدرجة الثالثة، لذا فكرتُ بأن أبعث الطمأنينة في نفسها، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي من التوغل في معرفة تفاصيل اعتقالها، فسألتها :

- إذن كيف أطلقوا سراحك..؟

- كيف..؟ ليس هناك سوى طريق واحد عليك أن تختاره في سجون هؤلاء الخنازير النتنة.. إما الموت تحت التعذيب والإعدام، وإما السقوط السياسي ..

- هل هذا يعني.. أن.. كِ..؟

نظرت إلى وجهي مباشرة وقالت والألم يعتصرها :

- نعم.. قلها.. لماذا ترددت..؟ نعم.. أسقطوني سياسياً.. لكني لم أكن أتوقع همجيتهم وسفالتهم إلى هذه الدرجة.. مثلما لم أكن أتصور بأنني ضعيفة إلى هذا الحد.. كنت أتصور نفسي قوية.. وكنت أحلم ببطولات نساء ثوريات في التاريخ.... لو كنت أعرف بأني لا أستطيع تحمل التعذيب؛ لكتبت تعهدي بعدم ممارسة السياسة وخرجت فوراً... لكنني كنت مأخوذة برومانسيتي الثورية.. صمدت لأيام معدودة.. تحملت فيها الضرب والإهانات والشتائم أول الأمر.. ثم تصاعد الأمر إلى درجة الإغتصاب وممارسة كل السفالات الجنسية التي لا يمكن للعقل أن يتصورها معي.. أتدري ماذا فعلوا بي..؟

بقيتُ صامتاً لا أعرف بماذا أجيبها، لذلك واصلتْ هي كلامها المشحون

بالألم :

- السفلة، الخنازير القذرة.. هؤلاء بالوعة البراز والجيفة.. هؤلاء كانوا يسألونني عن زملاء لي في الكلية.. بل كانوا يسألونني عن طالبات وطلاب لا أعرفهم.. يذكرون لي الأسماء وحينما كنت أنكر معرفتي بها يعتقدون أني صامدة ولا أريد الإعتراف على أحد.. فيعذبونني.. كانت هناك أسماء لفتيات عرفت في ما بعد أنهن التحقن بالأنصار الشيوعيين في كوردستان.. وبعضهن اختفين في المدن الأخرى، وكذا الأمر مع بعض الطلبة الذين سألوني عنهم.. حيث عرفت في ما بعد بأن بعضهم هاجر بطرق مختلفة إلى خارج البلاد.. بل إن بعضهم عبر الحدود مشياً على الأقدام.. إلى أن جاءت لحظة السؤال عن آدم الواسطي، كما تسميه أنت، حينها كنت فعلاً صامدة من أجله.. بل إنني فرحت جداً، برغم العذاب الذي واجهته قبل ذلك حينما سألوني عنه، لأني حينها تأكدت من أنه غير معتقل وغير موجود لديهم وإلا لِمَ سألوني عنه.. كنت أتحمل العذاب من أجله.. لكنهم استخدموا معي أساليب دمرتني، وحطمت معنوياتي..... هل رأيت الرجل الذي دخل المطعم..؟

- نعم.. رأيته.. ورأيت كيف ارتعبت عند رؤيته ..

- هذا هو الضابط الذي حقق معي.. وهو أول من اغتصبني.. لقد بدأ معي بالهدوء والكلام اللطيف الإنساني عن ثقافتي.. وجمالي.. وعن أخوالي وأعمامي.. وكيف أن عائلتي ابتعدت عن السياسة بعدما عرفت بأنها مضيعة للوقت.. وأخذ يؤكد لي بأن أكبر دولة كان يحكمها من نراهم قدوة لنا قد انهاروا وتحطمت امبراطوريتهم، فلماذ نكابر نحن وكأننا سنستطيع أن نصمد بوجه الزمن الزاحف كعاصفة هوجاء......... وحينما لم ينفع معي كلامه.. صفعني على وجهي مرات عدة.. وألقاني على الطاولة التي أمامه.. وكما في الأفلام.. اغتصبني.. لم أكن أستطيع المقاومة.. لا أدري كيف أشرح لك ذلك.. لقد كنت أتوقع الإغتصاب.. وكنت استغرب أنهم لم يغتصبوني كل هذه الفترة.. لذا كنت مهيئة لذلك.. بل كنت قبل ذلك أتخيل نفسي وهم يغتصبونني.. ولكنني لم أكن اتصور هذا المشهد.. لذلك حينما ألقاني على الطاولة وسحبني إلى حافتها.. ونزع عني سروالي لم أفعل شيئا.. كنت مستسلمة.. حتى هو قد استغرب استسلامي ..

صمتتْ للحظات. كانت عيناها متقدتين بالشبق والألم واليأس. خمنت حينها أنها تسترجع تلك اللحظات. لكني انتبهت لنفسي بأن عضوي قد انتعظ من خلال تخيل المشهد الذي تحدثت عنه، وكانت بي رغبة في

مضاجعتها. فجأة ترقرقت عيناها بالدموع ونزلت دمعة من إحدى عينيها. أخذت كفاها ترتعشان، وثمة رجفة مرت على شفتيها وجوانب فمها .

لا أدري كيف حصل ذلك، فلم أخطط للأمر، إذ أني وبدون إرادة مني وجدت نفسي أجلس إلى جانبها على السرير، وأحيطها بذراعي وأضع رأسها على كتفي وكأني أحتوي ألمها وأحميها. أخذت تنشج بدون نحيب أو بكاء، وإنما من خلال ارتجاف جسدها وتوتره الواضح وأنينها المكتوم. كانت هي تنشج، بينما أنا أصارع نفسي، فقد كان التصاق جسدها بجسدي بهذا القرب، وبهذه الوضعية حيث يحتك فخذانا وينضغط أحد نهديها على جانبي. بينما كنت أشم رائحة أنوثتها المثير. وبدون أي تفكير، استدرت قليلا إليها وأخذت وجهها بإحدى كفيّ، بينما أحطتها بذراعي الأخرى.. وأطبقت على شفتيها بقبلة محمومة. تجاوبت معي بحرارة وكأنها كانت تنتظر هذه المبادرة مني. كانت تلهث، ثم أخذت تقبلني من رقبتي ووجهي، وتمد يدها لتفك قميصي.. وهي تلهث وتقول :

- أريد أن أمنح نفسي لمن يستحقني.. أريد أن أكون معك.. خذني.. أرجوك خذني.. خذني بالقوة.. اضربني.. اصفعني.. نعم اصفعني ..

وبدون أي كلام نهضت عن السرير ودفعتها إلى الخلف، ووقفت أمام جذعها الأسفل.. لكنها توسلتني أن أصفعها قبل ذلك.. ترددت لكنها توسلتني بنبرة مليئة بالشبق وهي تناديني بأن أصفعها.. لا أدري من أين جاءتني هذه القسوة والسادية، لأني صفعتها فعلاً، بل وأحسست بالنشوة وأنا أصفعها ثانية وثالثة.. كانت تشعر بالنشوة من أثر صفعاتي لها، وتتصاعد حالتها الشبقية، وتطلب مني أن أخترقها بقوة. خلال ذلك كنت أنا أتخيل كيف تم اغتصابها، لكن ذلك تداخل في ذهني مع مشهد مثير وغريب تحدث عنه هنري ميللر في كتابه (ربيع أسود) حينما زار الأرملة ليعزيها بوفاة زوجها.. هكذا أولجته فيها.. فأخذت تلهث بشبق وتصيح :

- سيد قابيل!

سيد قابيل.. سيد قابيل.. أرجوك.. خلصني من عذابي ..

كنت كالمجنون. أدخل عنيفا فيها، لكنني كنت وكأني أدخل في بئر مظلمة.. أهوي في فراغ.. ولم أشعر بالمتعة، بينما كانت هي مندفعة لتتشبث بي بكل جسدها. كانت ترتجف تحتي من اللذة وتخور كالذبيحة.. وتردد بين فترة وأخرى كلمات متفرقة وغير مترابطة: اضربني.. اصفعني.. اشتمني.. أنا أستحق ذلك.. أنا الحقيرة.. موتني.. ريحني... وفجأة ارتجفتْ ارتجافة قوية وكأنها صُعقت بتيار كهربائي.. ثم انطفأ كل شيء .

استلقيت إلى جانبها متعباً، ومستاءً أولاً من تصرفي، ومن ثم لعدم تلذذي كثيراً بالممارسة التي كنت أتشوق إليها، وكذلك لأنها لم تكن معي، فقد نطقت بإسم قابيل مرتين.. لم نتحدث لدقائق.. أسبلت تنورتها على عريها. فجأة تذكرت ما نطقت به أثناء الممارسة فسألتها وأنا مستلق إلى جانبها :

- من هو قابيل سيد قابيل الذي كنتِ تنادينه أثناء الممارسة..؟
- أنا.. أنا ناديت سيد قابيل..؟
- نعم ..

صمتت للحظات ثم قالت بغضب مكتوم :

- إنه الضابط الذي رأيناه في المطعم ..

أحسستُ بتيار خفيف من الغيرة يتصاعد في نفسي، فقلت :

- ولماذا تنادينه أثناء الممارسة..؟

لم تجبني لدقائق، فقلت لها بنبرة فيها غضب مكتوم وغيرة واضحة :

- لم تجيبيني عن سؤالي..
- لأنه كان عشيقي ..
- ماذا..؟
- لأنه عشيقي ..
- لكنكِ قلت لي بأنه هو الذي اغتصبك..؟ ألم تقولي لي ذلك..؟
- نعم.. هذا صحيح.. لقد قلت لك ذلك.. إنه أول من اغتصبني.. لكنني صرت عشيقته برغم ذلك ..
- لا أصدّق ذلك ..
- بل صدقه..
- متى حدث ذلك.. كيف..؟
- حدث ذلك في المكان الذي اعتقلت فيه ..
- لكن كيف تقبلت أن يكون عشيقك ضابط في جهاز الأمن.. وهو الذي اغتصبك ..
- يبدو أنك يا آدم لا ولن تريد أن تصدق ما قلته لك.. أو ما سأقوله ..
- أنا استناداً لما قلته استغربت ذلك.. وربما ما ستقولينه سيفسر لي الأمر ..

صمتت للحظات ثم بدأت تروي لي كيف صارت عشيقته، فقالت وكأنها تتحدث عن مخلوق آخر أو كأنها تستعيد شريطا فليمياً :

- برغم اغتصابي بقيت صامدة ولم أنهار أو أعترف على آدم الواسطي.... بيد أن الضابط قابيل.. وهذا اسمه.. صار يأتيني في زنزانتي الإنفرادية كل ليلة تقريباً.. حاولت بعد ذلك أن أقاومه.. لكن أليس هذا غريباً..؟ لم أقاومه لحظة اغتصابي بينما أقاومه الآن..؟ أعتقد أنني كنت في أعماقي محتاجة لتبرير وضعي، كنت محتاجة لمن يقسو عليّ كي أجد العزاء في استسلامي.. ويبدو أنه أدرك حالتي لذلك كان يشل حركتي بالصفعات.. فاستسلم.. وبعد أن ينتهي مني ويغادر زنزانتي.. كنت أشعر براحة نفسية بأنني قاومته، وأبرر استسلامي بأنه كان أقوى مني، وأنه شلني بصفعاته..!!! غريبة هذه النفس البشرية.. أليس كذلك..؟

لم أجد ما أعلق به. كنت منذهلاً من صفاء تحليلها لنفسها. إلا أنها استمرت بالحديث قائلة :

- لقد تحولت من مناضلة.. إلى معتقلة مريضة نفسياً تنتظر جلادها كي يغتصبها..؟ نعم.. نعم.... صرت أنتظر مجيئه كل ليلة.. بل أستغرب إذا ما تأخر ليلة ما.. أتدري مستوى الإنحطاط الذي وصلته..؟ أنت لا تستطيع تصور ذلك.. بل لا تستطيع أن تتفهم سر اعترافي لك بكل هذه الأشياء المخجلة الآن.. أنا أشعر بالراحة وأنا أهين نفسي أمامك وأعريها.. ربما لأنك شاهد على الفتاة التي كنتها ذات يوم..... عموما.. كنت غارقة في مستنقع البراز والنتانة القاتلة.. صرت لا أعرف الليل من النهار.... وصار الجنس يخرجني من وحدتي في تلك العتمة.. لكن ذات مرة جاءتني امرأة شرطية.. كانت تحمل معها ثيابا نظيفة.. أخذتني إلى غرفة الحمام.. وهناك تحممت لأول مرة خلال شهر ونصف تقريبا.. كنت أقيس الزمن تقريباً من خلال دورتي الشهرية.. بيد أني لم أستطع التحمل أكثر.. هل تعرف محللاً نفسياً اسمه فيلهلم رايش..؟

فوجئت لهذا القطع في سردها لحكايتها، فقلت باستغراب :

- نعم.. قرأت له كتاباً أعتقد اسمه: استمع أيها الرجل الصغير.. ماذا عنه..؟

- لا شيء.. لا أدري لماذا تذكرته في هذه اللحظة.. لقد قرأت له كتاباً مترجما عن اللذة وعن الدافع الجنسي.. لكن لا أدري ما علاقته بما أتحدث عنه.. المهم.. صرتُ أجد في الجنس ملاذاً من الوضع الذي أنا فيه.. صرتُ أحس من خلاله بأني أعيش.. وانني موجودة في هذه الحياة، فعدا ذلك كنت مهملة ومنسية في تلك العتمة الموحشة.. ومع أني كنت أكره الحالة التي وصلتها، إلّا أن شعوري بأني ضحية كان يمنحني شعوراً عميقاً

بالمواساة ....

فجأة صمتت. كانت تحدق في نقطة ما بالسقف. سألتها وأنا متوتر، وأنفاسي مليئة بالخوف والأسى بتأثير هذه الاعترافات الخطيرة :

- وماذا بعد..؟

التفتتْ إليّ وكأنها انتبهت لوجودي، وقالت وكأن هذا الإنقطاع المفاجئ لم يكن :

- لم يستمر هذا الحال طويلاً.. إذا جاء ضابط آخر وبدأتْ رحلة أخرى.. إلا أنني لم أُعجب هذا الضابط الجديد، لذا بعد مرات قليلة اغتصبني فيها، سلمني لبقية أعوانه، الذين بعضهم كان سادياً.. إذ كانوا يدخلون أشياء غريبة في داخلي.. كما بدأوا بسؤالي عن آدم الواسطي مجدداً.. وحينما أنكرت علاقتي به جاءوا بإحدى زميلاتي التي لم أكن أعرف أنها معتقلة في المكان نفسه.. ويبدو أنها كانت قد انهارت، بل وصارت تتعاون مع الأمن.. فأخذت تحدثني عن لا جدوى البقاء في المعتقل.. وأن كل شيء قد انهار وتم إكتشاف التنظيم، وأعتُقل معظم الزملاء.. وإن مكابرتنا لن تجدي نفعاً فقد اعترف بعض الذين كنا نعتبرهم قادتنا الأبطال.. بل اتضح أنهم وكلاء أمن منذ أن كانوا معنا ويقودوننا....! وأنني إذا لم أخرج من هذا المكان وأعطيهم ما يريدون من معلومات فأني سأتحول إلى قطعة من الإسفنج لإمتصاص منيهم القذر........... المهم..... في لحظة ضعف ما.. طلبتُ أن يأتوني بالضابط السيد قابيل الذي اغتصبني.. وهو نفسه الذي رأيناه في المطعم اليوم.. واعترفتُ له بكل شيء.. وأعطيته المعلومات التي يريدونها عن آدم الواسطي... لكن أتدري ما هو الوضع العجيب الذي كشف عن عمق سقوطي في الحضيض..؟

لم أكن أعرف كيف أجاريها بالإجابة عن تفاصيل رحلة الجحيم هذه، فقلت :

- لا. لا أدري ..

استدارت نحوي، واتكأت على ذراعها، وقالت :

- ما أثار استغرابي أنه لم يكن يريد أن يضاجعني.. وحين قام يريد الخروج وجدت نفسي أتوسله.. أساله لماذا لا يريد أن يغتصبني..؟ استغرب من سؤالي.. وأراد أن يمضي.. قائلاً بأنه يغتصب اللاتي يكابرن ولا يتعاونَ مع الأمن.. وأنت قد إعترفت وأثبتِ حسن نيتكِ بالتعاون مع الحزب والثورة.. لذا فلا داع لاغتصابك...!! .... أتعرف.. لحد الآن لا أعرف كيف أفسر الوضع الذي كنت فيه.. ربما لا تصدق ذلك أبداً، بل

ربما لا يصدقه أي عاقل.. أتدري.. لقد صرت أتوسله بأن.. بأن.. بأن.. بأن يغتصبني.. بالرغم من الأمر لم يعد اغتصاباً.. وإنما مضاجعة عادية.... لكنه رفض متحججاً بضرورة تواجده في اجتماع آخر.. صرت هائجة كالنمرة.. أتوسله بأن يضاجعني.. لكنه صار عصبياً.. وبصق في وجهي.. قائلاً بأنه ليس كلباً يلعق ما ولغ الآخرون فيه.. وأنه كان يضاجعني حينما كنت له وحده.. أراد أن يغادر الغرفة.. لكنه عاد فجأة وقال لي :

- سأخرجكِ من هنا.. وسأضاجعك دائماً.. لكن بشرط..

توسلته بأني مستعدة لأية شروط يضعها، فقال لي :

- أن تتعاوني معنا.. أي تتحولين إلى وكيلة أمن.. وعين لنا على أعداء الحزب والثورة ..

- لكني لا أريد ان أكون وكيلة للأمن ..

- أنت مجبرة على التعاون معنا، وإلا ستكونين تحت المراقبة في الرواح والمجيء.. كما سيكون من الصعب عليّ الإلتقاء بك ..

- لا.. لا أستطيع الإبتعاد عنك.. أنا موافقة ..

صعقتني هذه الإعترافات من امرأة تعترف بأنها وكيلة للأمن..، بل أحسستُ أني تسرعت بدعوتها إلى الفندق، بل وحتى في مضاجعتها.. ويبدو أنها أدركت ما فكرتُ فيه، فقالت :

- لا تخف.. كان هذا قبل خمس سنوات.. وليس الآن ..

- وكيف خرجت..؟

- ببساطة.. وقعت على التعهد بعدم ممارسة السياسة.. وتعهد آخر بالتعاون مع الأمن.. على أن يكون هو صلة الارتباط بي ..

- وكيف تخلصتِ منه..؟

- لم أتخلص منه.. بل صرت ألتقيه في شقة كان قد استأجرها لكلينا حينما يريد أن يضاجعني.. كنت ألتقيه مرتين أسبوعيا ..

- وهل كنت تتجسسين لهم..؟

- نعم.. كنت أتسقط الأخبار.. وكنت أحيانا أضيف من عندي معلومات غير صحيحة.. لكن أتدري كيف كان إختبارهم لي لمعرفة مصداقية المعلومات التي أزودهم بها..؟

كنت منذهلاً مما أسمع، فقلت كالأبله :

- لا ..

- كان عليّ أن أزوده بمعلومات عن أعمامي وأخوالي ..

- آها.. وماذا فعلت..؟

- زودته بمعلومات عامة.. بعض منها صحيح.. ولم أكن أخاف عليهم لأنهم قد تركوا السياسة ..
- والنتيجة..؟
- النتيجة كانت خطيرة.. لأن بعض معلوماتي كانت مزيفة.. وقد اكتشفوا ذلك ..
- كيف..؟
- لقد اتضح أن أحد أخوالي هو وكيل أمن أيضاً.. كان قد إنهار سياسياً.. وصار وكيلا للأمن دون أن تعرف العائلة.. وكان يزودهم بما يحتاجون من معلومات.. وقد تأكد عشيقي ومسؤولي الأمني بأني لم أزوده بالمعلومات الصحيحة.. لذا عاقبني بعدم مضاجعتي لأسبوع.. كدت أجن خلاله.. فقد صار الجنس هدفي في الحياة.. أريد إشباع رغبتي التي لا تنطفئ بأي شكل.. الغريب لم تكن لديّ أية رغبة بإقامة علاقة خارجية مع غيره.. عموماً.. إن كشفه لي عن تعاون أحد أخوالي مع الأمن دمرني.. فعلى الرغم من أني كنت أعيش في بيتي.. أنا وأختي الأرملة التي عرفتْ بمصيبتي.. إلا أني صرتُ أشعر في كل لحظة، وطوال الأيام، نهاراً وليلاً، بأني مراقبة.. وأن هناك عيوناً في الظلام تراقبني.. هناك نظرات الآخرين.. لاسيما أخوالي. لأن عشيقي لم يقل لي أي من أخوالي، وهم ثلاثة، يتعاون معهم، وكانوا هم يزوروننا يومياً تقريباً.. كنت أشعر وكأني ضيفة في منزلي ..
- وكيف تجاوزت كل هذا الوضعية..؟
- لم أتخلص منها إلا بعد أن حملتْ منه ..
- حملت منه..؟
- نعم.. فبرغم احتياطاتي.. وأخذي لحبوب منع الحمل.. إلا أنني حملت ..
- وماذا فعلت للتخلص منه..؟
- أخذني إلى عيادة طبية.. فأجرى لي عملية إجهاض.. لكن الطبيب لم يكن منتبهاً لذا سبب لي تلفاً في الرحم.. اضطررت على إثره أن أزيل الرحم أيضا.. ومع زوال الرحم انقلبت حياتي ..
- كيف..؟ لم أفهم..؟
- ابتعد هو عني.. لأنه صار يقرف من مضاجعتي.. ويقول لي وكأنه يدخل في فراغ.. ولم يعد يستمتع معي.. كما أني صرتُ أهدأ بكثير مما كنت عليه.. وفوق كل هذا لم أكن وكيلة للأمن بشكل رسمي.. فقد كانت الورقة التي وقعت عليها للتعاون مع الأمن في جيبه فقط.. وكان

يستخدمها للضغط علي.. لذلك قرر تركي.. واعترف لي بذلك.. ومزق الورقة أمامي ..

لحظتها أدركت لماذا لم أستمتع بالممارسة الجنسية معها، وكيف أني كنت أشعر وكأني أسقط في الفراغ، فقد كانت بلا رحم.. لكني أردت أن أتخلص من الوضع الذي أنا فيه، فقد أتيت بوكيلة أمن إلى غرفتي.. صحيح أنها كانت مناضلة.. بل وفيلسوفة كما كنا نسميها، لكنها الآن وكيلة أمن..!! لذلك ولكي أنهي الحالة التي وجدت نفسي فيها سألتها :

- وماذا بعد..؟

- لا شيء.. مررت بفترة عصيبة.. نفسيا وعائليا.. لأني سألت بشكل غير مباشر عن صديقي آدم.. لكنه لم يجبني.. وذات مرة أخبرته بأني سمعت بوجود آدم الواسطي في بغداد مع آخرين.. أذكر حينها غضب مني جداً.. وقال لي بأني أعطيه معلومات مضللة.. لأن آدم الواسطي قد تم أعدامه مع آخرين.. وهو متأكد من ذلك ..

وجدت شيئاً من التناقض في كلامها، فسألتها :

- لكنك قلت بأنك عرفت ذلك من خلال بعض الأصدقاء والمعارف ..

- نعم... لأني لم أثق بك أول الأمر حينما التقينا عند بائع الكتب.. كما أني لم أثق به أيضاً.. لذلك.. بعد أن انقطعت علاقتنا.. حاولت الوصول لبعض المعارف المشتركين بيننا والذين هجروا السياسة مثلي.... وعرفتُ منهم بأنه قد أُعدم مع بقية من رفاقه ورفيقاته ..

- وماذا فعلت بعد ذلك..؟

- اعتكفت في البيت.. لم أخرج لمدة سنة تقريبا.. إلا المجيء إلى المتنبي لشراء وجبة من الكتب المستنسخة.. ثم أعود إلى البيت ثانية.. وأبقى إلى أن أنتهي من قراءة ما اشتريته.. فأرجع لبيع الكتب التي قرأتها لأشتري بثمنها كتباً أخرى.. وأحيانا كنت أبادل ما لدي من كتب بكتب جديدة ..

لا أدري كيف غمرني شعور من التعاطف معها. فقبل لحظات كنتُ أخافها، وفي لحظات أخرى أحتقرتها لابتذالها، لكني الآن أشعر بالشفقة نحوها، وغمرني شعور بالتقرب منها، فقلت لها :

- لدي سؤال..

- ما هو..؟ اسأل..؟

- لماذا قبلت يدي اليوم في المطعم..؟

- لأني كنت أعتقد بأني السبب في إعتقال آدم الواسطي، ثم إعدامه..، لكن اتضح أنه أُعتقل لأسباب أخرى وليس بسبب اعترافي ..
- نعم.. ليس بسببك.. لكنه بقي في المعتقل.. برغم براءته من عملية الإنتحار..
- المهم ليس بسبب اعترافي عنه ..
- وماذا تفعلين الآن..؟ كيف تعيشين..؟
- لا أفعل شيئا.. أعيش محنة سقوطي.. مجتمع منحط.. مجتمع رعب.. مجتمع لا تستطيع أن تخمن من هو وكيل الأمن والمخابرات بينهم.. كلهم بعثيون.. المجتمع كله صار بعثياً.. حتى المعارضون لا تستطيع أن تعرف من منهم المعارض الحقيقي ومن هو وكيل الأمن.. لأن المعارضين الحقيقيين صعدوا للجبال أو تركوا البلاد.. أما البقية فهم مشبوهون بلا إستثناء.. لذا كنت مدمرة.. لكنني أواسي نفسي بما أراه من دمار حولي.. مشكلتي الوحيدة كانت اعترافي على آدم الواسطي.. كنتُ أعيش عقدة ذنب كبرى.. لكنك ساعدتني اليوم على تجاوزها.. وأنا اشكرك جداً على ذلك.. لن أنسى لك ذلك ما حييت.. ولا أعرف كيف أكافئك ..

نظرت إليّ نظرة مليئة بالألغاز وكأنها تشير بأنها على استعداد لكي تكون لي دائماً.. شعرت لحظتها بمشاعر لطيفة نحوها.. لذلك قررتْ مع نفسي أن أتواصل معها، وربما أجعل منها عشيقة لي. خلال هذه الأثناء سمعتْ حركة في الممر. خافت هي من ذلك. خرجتُ بهدوء إلى الممر فرأيت الفتى القروي وهو يحمل بطانيات من إحدى الغرف، فذهبت إليه، وطلبت منه أن يأتيني بالطعام من المطعم المقابل، فارتبك متحججا بأنه لا أحد في الفندق غيره، فقلت له بأني سأجلس في الإستقبال لحين رجوعه.. أقنعته بذلك.. حينها استطعت أن أخرجها من الغرفة وأجلسها في باحة الإستقبال باعتبارها تبحث عن غرفة للمبيت.. وخلال ذلك اتفقت معها على التواصل في موعد حددناه.

حين جاء الفتى القروي فوجئ بوجودها فأخبرته بأنها تبحث عن مكان للمبيت ولم أستطع أن أحدد إن كان هناك مكان للمبيت أم لا..؟ قال لها الفتى القروي بأنه ليست هناك أية غرفة فارغة.. وحينما نزلتْ تبعتها.. استغرب الفتى القروي ذلك وصاح خلفي بأن الطعام سيبرد، فقلت له بأن يأكله.. فقد فقدت شهيتي.. فأخذ يضحك خلفي ظناً منه بأني تركت الطعام من أجل ملاحقة المرأة. وفعلاً كنت قد خرجت معها .

12
أشباح حديقة الزوراء

كنت قد اتفقت مع حواء الناصري بأن نلتقي في اليوم التالي. كان موعدنا في حديقة الزوراء.. الغريب أنها جاءتني وهي تضع حجاباً على رأسها. حين التقيتها أمس كانت غير محجبة، لم أعرفها حين أقبلت نحوي إلا حينما صارت على بعد ثلاثة أمتار تقريباً. حين سألتها عن سبب ذلك قالت أن الحجاب صار نوعا من الحماية، وأنها تضعه كي يمنحها بعض الحصانة من تخمينات المخبرين المنتشرين في الحديقة .

مشينا بين دروب الحديقة مترامية الأطراف.. كانت ودودة جداً معي وكأنني عشيقها منذ زمن بعيد. تحدثنا طويلا عن أيام الجامعة.. أحسستُ بانتمائنا إلى ذاكرة تكاد تكون مشتركة.. حدثتها عن حياتي.. عن خوائها ولا جدواها، وعن عطالتي عن العمل، واعتمادي الاقتصادي الكامل على ثروة أهلي، وما تساعدني به أمي سراً بعيداً عن رعاية أبي الرسمية بصرف مبلغ شهري كمصرف جيب لي.. حدثتها عن شكوكي.. وكوابيسي.. وعن ازوداجيتي.. وعن تشوشي الفكري الذي لا أجد له تفسيراً. حدثتها عن قصة هروب أم آدم الواسطي مع فتى مراهق.. كان ذلك في العام 91 قبل حرب الكويت.. حدثتها عن تفاصيل مقتل الأم كما عرفتها من أم قابيل.. صُدمت.. لم تكن تستطيع أن تتصور ذلك.. لكن ما فاجأني أنها كانت حاقدة على الأم.. وقالت بأنها تستحق المصير الذي لاقته.. تذكرت لحظتها موقف أم قابيل منها أيضا.. بينما كنت أتوقع منها تضامنا مع هذه المرأة المسكينة.. فعلى الأقل هي امرأة مثقفة.. ومتحررة.. وتستطيع أن تفهم الدوافع الغامضة لتلك المرأة التي تحدت المجتمع وهربت مع فتى مراهق يصغر ابنها في العمر.. هل كانت تحتاجه جنسياً..؟ لو كان ذلك فلِمَ الهرب.. كانت تستطيع ذلك بشتى الوسائل.. شخصيا.. لحد الآن لا أستطيع أن أفسر ذلك الأمر.. لكنها استغربت أكثر حينما حدثتها بأن هذه الحادثة نفسها جرت أمامي في فندق رضوان نفسه قبل عام تقريبا.. أي في العام 1995 .. أي بعد أربع سنوات تقريبا.. لم تستطعْ أن تفهم ذلك.. أحست بأني مشوش لا أكثر.. حدثتها عن أم قابيل صاحبة المنزل الكبير.. طبعاً لم أحدثها عن تفاصيل علاقتي بها.. فتلك ذكريات جارحة بالنسبة لي.. بالكاد تجاوزتها وشفيت

منها.. أخبرتها بأننا كنا نتحدث عنها ونسميها بالفيلسوفة.. ابتسمت حين أخبرتها بذلك.. لكن فجأة غمرها الحزن .

طلبت منها أن تتحدث عن نفسها مؤكداً لها بأني لا أعرف عنها الكثير سوى ما حدثتني به أمس، لكني انتبهت أنها كانت تحاول أن لا تتحدث كثيراً عن نفسها. لم يكن الأمر تواضعاً منها وإنما أحسست وكأنها تكره ذاتها.. لكني عرفت منها بأنها ولدت في الناصرية، ثم انتقلت مع أختها لتعيش عند أخوالها في بغداد. هنا أحبت شاباً كان يعمل ميكانيكيا في شارع الشيخ عمر.. وتزوجته بالرغم من معارضة والديها وأبناء عمومتها في الناصرية.. والداها توفيا في حادث اصطدام سيارة على طريق كربلاء أثناء زيارة الأربعين الحسينية، وأن أختها تركت الدراسة بعد أن شعرت بالحمل.. إلا أن الكارثة كانت حينما سقط زوجها صريعاً في الجبهة أثناء الحرب مع إيران تاركا لها طفلاً هو الآن في السابعة من العمر، وأن أختها كانت تعيش من عملها في الخياطة البيتية التي صارت لا تدر إلا النزر اليسير من المال، لذلك توجهت للطبخ وصنع الكبة لتبيعها إلى مطعم قريب صاحبه أحد أصدقاء العائلة، وأنها ترفض الزواج من أجل ابنها الذي تحلم بأن يصير طبيباً .

لا أدري لماذا كانت تحدثني عن أختها..؟ كنتُ أسألها عن نفسها إلا أنها تجيبني بكلمة أو جملة، ثم تعود لتحدثني مطولاً عن أختها هائلة الجمال، والإنسانة الرائعة التي غدر الدهر بها، والمثقفة التي كان يمكن لها أن تكون ذا شأن لو أنها لم تترك الدراسة الجامعية في السنة الأولى لتتزوج وتحمل.. وأنها تجد فيها نقاءها الضائع ومثالها الحي الذي افتقدته في السياسة، وقد اقترحتْ بأن تعرّفني عليها، لأنها تريد أن تسعد أختها وتخرجها من هذه الدوامة المعلونة التي تدور فيها دون إرادتها.. لم أفهم حينها ما المقصود بذلك، فأجابتني بأنها تريد لأختها أن تتعرف على بشر آخرين أنقياء ومثقفين.. فأختها برغم من أنها لم تواصل دراستها الجامعية إلا أنها قرأت كل الكتب الجامعية والمقررات التي تخصها، وكذلك كانت تقرأ كل الكتب الفلسفية والأدبية التي كانت هي تحملها، بل وكانت تستعير بعضها من آدم الواسطي.. حينها فوجئت، فسألتها أن كانت تعرف آدم الواسطي، فأجابتني بنعم.. لقد كانت أختها تعرفه من خلالها.. فقد عرفتها عليه، والتقيا حينها في حديقة الزوراء.. وتحدثا طويلاً وصار صديقاً لها.. كان يرسل اليها الكتب عن طريقي.. قالت بأن أختها كانت حينها قد فقدت زوجها..، وكانت حزينة جداً مع طفل رضيع.. لذلك تعلقتْ بشكل لا

إرادي بآدم الواسطي ..

أخبرتُها بأني كنتُ أظنها هي على علاقة مع صديقي آدم الواسطي، فروت لي بأن الأمر أعقد من ذلك بكثير.. فقد بدأت علاقتها مع آدم الواسطي من خلال العمل السري التنظيمي الطلابي.. وتعلّقا ببعضهما.. نشأت علاقة طيبة ورومانسية بينهما.. كان هو يحبها.. وكانت هي تميل إليه.. لكنها حينما رأت أن أختها الأرملة أخذت تتعلق به دون إرادتها، ووجدت هي في ذلك إنقاذاً لها من حزنها وفقدانها لزوجها انسحبت بشكل لا يثير ريبة آدم الواسطي، وخففت من اندفاع علاقتهما الشخصية، كي تترك لأختها المجال للتواصل معه... كانت تؤكد لي بأنها فعلت ذلك لأن أختها كانت تحتاج لرجل يهتم بها، أو تهتم به..، فليس المهم عند المرأة أن يهتم بها الرجل فقط، وإنما أهم من ذلك أن تهتم هي برجل ما، فهذا يمنح حياتها شيئا من المعنى.. حتى لو كان هذا الاهتمام من طرف واحد.. أي مجرد وجود وهم رجل..!! إلا أن الأمور تعقدت حينما اعترف لها آدم الواسطي بأنه يحبها هي..، وأنه يريد أن يتزوجها..!!. حين أخبرته بميل أختها إليه صُدم لأنه لم يفكر بها أكثر من اعتبارها أختاً له، وفي أحس الأحوال كأخت لحبيبته..، وأنه غير مسؤول عن مشاعرها نحوه.. وبرغم ذلك حاولت أن تقنعه بأن يتواصل مع أختها ويوليها بعض الإهتمام..، لكنه على العكس ابتعد عنها بالكامل.. حتى أن أختها ظنتْ بأنها هي وراء ذلك، وأنها تغار منها لذا أبعدته عنها..! لم تكن تعرف الحقيقية.. لقد كان هناك سوء فهم كبير في الأمر.. لم يتم إيضاحه إلا بعد أن خرجت من المعتقل بأشهر.. وعرفت مصير آدم الواسطي المأساوي .

حدثتني بأن أختها امرأة جميلة ومثيرة جداً، وأنها ذات قلب كبير.. وأن وجودها يمنح حياتها معنى.. هي وابنها سبب وجودها في الحياة، وإلا كانت قد انتحرتْ هي منذ زمن.. خاصة بعد خروجها من المعتقل.. لقد احتوتها هذه الأخت، وتفهمت وضعها بعد أن حدثتها عما جرى لها في المعتقل من اغتصاب وتعذيب .

طبعا لم تتحدث عن وضعها النفسي وتعلقها بمغتصبها.. لكنها صرحت لها بأنها لم تعد عذراء.. وأنها سقطت سياسياً بعد أن وقعّتْ على تعهد بعدم ممارسة السياسة، وألا ستعرض نفسها للإعدام.. وقد ساعدتها كثيرا في تجاوز محنتها السياسية والفكرية.. بل صارت ترعاها كما ترعى ابنها الصغير الذي سماه أبوه آدم تيمناً بجده.. لكنها بعد أن تجاوزت وضعها.. انتبهت للوضع الذي فيه أختها.. حياتها المليئة بالحرمان والكبت.. والوحدة القاتلة .

أخبرتني بأنها عاشت أوقاتاً عصيبة بعد خروجها من المعتقل.. راودتها أفكار غريبة عن لاجدوى الحياة، وعقمها، وعدم التوازن ما بين المعاناة التي يعيشها الإنسان في الحياة وبين لحظات السعادة النادرة والقليلة التي يحصل الإنسان عليها في مقابل ذلك.. كانت تشعر بالإرهاق الدائم.. حتى ولو لم تبذل أي مجهود يُذكر.. كانت تشعر بالإحباط والإضطرابات في النوم، وتعيش يأساً وتشاؤماً هائلين!....

روت لي بأن هذه الحالات التي وصفتها تتعرض لها أختها أيضاً.. لكن أختها تعيش في هذا الوضع بشكل دائم..، بينما تعيشها هي بشكل موسمي..، وأحيانا على شكل فورات مفاجئة.. لاسيما في فصليّ الشتاء والصيف.. حيث يخنقها شعور بالذنب والندم الكاسح..، وتسقط تحت هيمنة شعور بأنها تافهة وسيئة ومنحطة..، وتتقمصها فكرة مهووسة بأن ثمة عقاباً ما ينتظرها..، بل تشعر برغبة حارقة بالوصول إلى لحظة العقاب تلك..!!.. تشعر بالكراهية لنفسها..، وتلوم نفسها على كل ما حدث ويحدث لها ولأختها وطفلها.. تشعر أنه كان من الأفضل لها ولعائلتها لو أنها ماتت تحت التعذيب.. على الأقل لصار للعائلة شيء تستطيع أن تفتخر به، وأن تطهر نفسها به من شعور الذنب الجماعي، والعار الإجتماعي والسياسي الي تجد نفسها فيه. خنقها شعور بأنها قبيحة ومنفرة..، وصارت تشعر بالعجز من إتخاذ أي قرار.. لكن حينما تنتابها هذه الحالات.. فهي على خلاف الكثير من المرضى النفسيين المشابهين لها، تشعر بالهوس الجنسي والهياج الدائم..، حتى أنها صارت تمنح جسدها لأي رجل من أجل إشباع رغبتها وإذلال نفسها.. وقد حدث هذا معها بعد ابتعاد عشيقها ضابط الأمن عنها.. صارت تتجول في شارع المتنبي.. ابتدأ سقوطها الأخلاقي من شارع المتنبي.. هناك ابتدأت أولى مغامرات الضياع الجنسي.. هناك تحرش بها شاعر معروف.. فذهبت معه إلى مكتبة أحد أصدقائه حيث ضاجعها على أكوام من الكتب التراثية والفكرية المرصوفة والتي كانت أشبه بالسرير.. ثم صار صاحب المكتبة حين يراها يدخلها إلى هناك.. ثم صارت تذهب مع كل من يتحرش بها ليمارس معها في غرفة ما أو في السيارة أو حتى في زاوية شارع فارغ.. أو داخل مطبعة أوفندق.. بل وصل بها الحال في نوبات هوسها وهياجها الجنسي أن تتحرش هي بمن يستطيع أن يطفئ لهيب رغبتها المتأجج ..

لكنها صارت في الوقت نفسه تفكر في أختها.. ورغباتها المكبوتة.. وحاولت أن تزحزها عن موقفها بأن تتزوج.. فرفضت الأخت رفضاً قاطعاً..

لأنها تريد أن تكرس حياتها لابنها.. فأخذت تغويها بأن تقيم علاقة ما مع رجل ما كي يمنحها اللذة، وهناك الكثيرون ممن يريدون أن يقيموا علاقة معها وأولهم صاحب المطعم الذي يلتهمها بنظراته.. لكن الأخت كانت ذات شخصية وكبرياء.. فهي ترفض أن تدع أياً كان من الرجال أن يلمسها.. وحينما تجرأت بكلام مفضوح مع أختها بأنها تحتاج لرجل يشبع جسدها ويدخل فيها.. رفعت النعال في وجهها وهددتها بأنها ستضربها إذا ما تجرأت بالحديث معها عن ذلك، واخبرتني بأنها فوجئت بموقف أختها العنيف، التي أخذت تشتمها بأقذع الألفاظ وتؤكد لها بأنها لا تريد أن تتحول إلى ساقطة ..

حدثتني بأن أختها هذه رومانسية... تنتظر من تراه لائقا بها.. وهي لا ترى أحداً.. لذلك حدثته بأنها تود أن تعرف أختها عليه، وستهيئ هي كل شيء من أجل أن تقترب منه ويقترب منها، وهي تتمنى عليه أن يضاجع أختها.. وهي شخصياً لا تمانع في أن يضاجع كلتيهما، فهي تحب أختها أيضاً.. وحين سألتها فقط من أجل الأستفسار وليس من أجل الموافقة بأن أختها قد رفضت فكرة أن تكون مع رجل، فأخبرتني بأن هذا صحيح، لكنها ذات يوم دخلت على أختها في الغرفة بشكل مفاجئ فوجدت قد وضعت كفها ما بين فخذيها وتعصرعليها بقوة.. وكانت تلهث والعرق يغطي جبينها.. بعد ذلك وكأن قناع الكبرياء الأخلاقي كان من زجاج.. لأن الأخت أخذت تسألها عن حياتها الجنسية... وأحست بأن الأخت الكبيرة كانت تستلذ حينما تروي لها شيئا من مغامراتها.. وحينما انتبهت لذلك أخذت تروي لها تفاصيل ما يجري معها.. وكانت ترى الإثارة والرغبة المكبوتة في عيني أختها.. وصارت الأخت أكثر رقة معها وتساهلا في هذا الموضوع.. حتى صارت إذا سكتت ولم ترو لها شيئا تشاكسها بمرح سائلة عن مغامراتها الجديدة.. لذلك أكدت لي بأن أختها مهيأة الآن لكي تمنح نفسها لرجل.. وهي لا تريد لأختها أن تسقط مثلها.. لكنها تريد لها أن ترتاح مع عشيق يروي جسدها الجميل والمحروم ..

كيف أروي لك يا صديقي القارئ ما جرى.. حينها بدأت أقتنع بالفكرة.. لاسيما وأنا شخصيا أخاف من الأمراض الجنسية.. وكنت مرتبكا من قصة الهووس الجنسي لدى حواء الناصري.. فربما كثرة علاقاتها ستسبب لي مرضاً جنسياً.. ووجدت في أختها بالنسبة لي عرضاً مغرياً .

غريب أمر الرجال.. تصور أني كنت أفكر أن أذهب بحواء الناصري

معي إلى البيت. أمي كانت مريضة جداً، إذ كانت ترقد في سريرها ولا تستطيع الحركة إلا للضرورات القصوى.. وأبي كان قد أعتزل كل شيء تقريباً، وصار لا يخرج من غرفته إلا لقضاء حاجته، فصرنا لا نتقابل إلا صدفة، ويحدث هذا مرة كل شهر أو شهرين، ناهيك أن غرفتي تقع في الممر الذي يقود إلى باحة الدار، أي بإمكان أي شخص أن يدخل غرفتي ويخرج منها دون أن يمر في الدار أصلاً، لذلك فقبل أن تصل كنت أفكر بأصطحابها معي إلى البيت القريب، فمنطقتنا ليست ببعيدة عن الزوراء، لكنها منذ أن حدثتني عن أختها هربت رغبتي فيها!!..

هي نفسها كانت تتوقع أن أمارس معها.. كانت تنتظر ذلك، وكانت تلمح بأن نذهب بعيداً عن الأنظار، نختار مكان أفضل من المكان الذي جلسنا فيه..، لكني تحججت بضيق الوقت.. اتفقت معها أن تأتي بأختها في اليوم التالي وفي نفس المكان لأتعرف عليها فربما لا أعجبها أو ربما ترفض المجيء أصلاً.. لكنها أكدت لي بأن أختها فعلا لا تعرف ما تخطط هي له، لكنها متأكدة من أنها ستوافق رغماً عنها.. طبعاً لم يفتني أن أسألها عن وضعها هي، وهل هي مراقبة أم لا..؟ فأخبرتني بأن الوضع السياسي متفكك، وليس هناك سيطرة على حركتها .

روت لي أشياء مهولة عن مجتمع الساقطين سياسياً والذين يُعاد تأهيلهم لكي يسايروا أهداف الحزب والثورة كما يقال لهم.. كما حدثتني عن عالم المثقفين من خلال مشاهداتها في شارع المتنبي، والرعب الذي يهيمن على بعض المثقفين الذين من خوفهم صاروا هم من يتوجه لمديح السلطة.. لكنها في الجانب الآخر حدثتني عن نساء بطلات صمدن أمام التعذيب واستشهدن وأعدمن، وهناك منهن من التحقن بالثورة المندلعة في جبال كوردستان مع فصائل الأنصار المعارضة.. كانت تروي ذلك وكأنها تحلم وتتحدث عن أشياء رومانسية.. ثم فجأة تصمت وتصاب بالكآبة وكأنما تعي حالها .

* * *

بلا مقدمات أو ديباجة طويلة أقول لك يا قارئي بأنني إنسان فقد الإحساس بالفرح، فالأشياء عندي بلا لون أو طعم أو رائحة كما يوصف الماء في الكيمياء، بل حتى البشر بالنسبة لي يدورون مثل الأشباح، أو مثل ممثلين يؤدون دورهم ويقولون حوارهم في مسرحية مملة في قاعة خالية من الجمهور .

أعرف بأني أنتظر الموت. الموت الذي لا أعرف متى سيأتي، وأين

سيفاجئني، وكيف سيكون؟. هذا الإحساس بحتمية الموت يرافقني دائما، وهو ما ينغص عليّ فرحتي بالحياة والأشياء. لكن ليس الإحساس وحده ما يفقدني الإحساس بالفرح، وإنما تجربتي الحياتية، وما أستشعره مما يجري حولي، وعزلتي، وقراءاتي الكئيبة.. كلها ساهمت في اقتلاع جذور الفرح من حديقة حياتي المليئة بالأشجار الميتة .

ربما هناك ما يضيف لهذه الأسباب مجتمعة، هو أنني وبعد عدة سنوات، أي بعد احتلال البلاد من قبل الأميركان، وبعد وساطة قامت بها حواء الناصري من خلال ضابط الأمن قابيل الذي صار في العهد الجديد من قادة أحد الأحزاب الدينية الموالية لإيران، والذي صار مسؤولاً جديدا في وزارة الداخلية.. حصلت على وظيفة إدارية ليست لها علاقة بتخصصي وشهادتي. كنت حينها في الأربعين من العمر، وما ساعدني أن المؤسسة التي عُينت فيها هي هيئة تُعد من مؤسسات البلاد الجديدة التي شكلها الأميركان.. وأخيراً أتيحت لي فرصة للشعور بأني موظف وأعمل.. لكن،مع الأسف، ما رأيته هنا، من قبل المسؤولين الجدد أخمد جذوة ذلك الشعور الذي يدفعك للنظر إلى نفسك بشكل محترم، فقد فقدت لذتي وفرحتي بالعمل.. فهذه ليست مؤسسة وإنما مستنقع نتن وقذر.. وهؤلاء المسؤولون الجدد لا يفرقون عن المسؤولين في العهد السابق إذا لم يكونوا أسوأ منهم بكثير .

* * *

أعتقد يا قارئي أن كلامي هذا ليس له علاقة بما كنت أحدثك به.. فقد قفزت لأكثر من عقد من الزمان.. بينما أنت تنتظر مني أن أروي لك ما جرى مع أخت حواء الناصري..، أليس كذلك..؟

لا أريد أن أبرر لك هذا الإنتقال، لكنني محبط ويائس.. وربما هذا سيدفعك إلى تكوين رأي مسبق عني، بيد أني لست محبطاً ويائساً فحسب، وإنما أنا إنسان مليء بالمرارة. تلك المرارة التي لم يستطع المال ولا النساء ولا الوجاهة الإجتماعية والعلاقات أن تخفف منها .

صحيح أنا يائس، إلا أن يأسي ليس ذلك اليأس الذي يصيب الروح بالشلل وإنما على العكس من ذلك، أنا يائس يأساً يمنحني الوضوح، ذلك الوضوح الذي يدفع الى الشعور بالتعالي على المغريات وعدم الانجرار وراء أوهام الحرية.. إنه اليأس المضيء .

لم أوفق في التوضيح صديقي القارئ، بل زدت الأمر غموضا وتشرنقت على نفسي بينما كان مقصدي هو الكشف عنها. نعم إنني، من خلال ما

أرويه هنا عن نفسي وعن الآخرين، أحاول الكشف عن اللامعنى الذي يحيط بنا وبالأشياء، عن عبث الكثير من أصناف المعاناة البشرية، عن لاجدوى السعي البشري واللهاث وراء السراب، فلا زالت حكمة صاحبة الحانة تدوي عبر آلآف السنين، حينما قالت لكلكامش بأن سعي الانسان وراء الخلود ليس إلا عبثاً، فمصير الانسان مقدر سلفاً وليس له سوى أن يحتضن المرأة التي يحب، ويدلل طفله، ويملأ بطنه بالطعام، ويغسل جسده، ويمشط شعره، ويلبس الثياب النظيفة... وليس أكثر .

لكن هذا المصير نفسه هو الذي ملأ حياتي بالمرارة، فالمرأة، والملابس النظيفة، والطعام، لم تمنحني الفرح والبهجة التي هي قسمة الإنسان من السعادة...!

كثيرا ما أسأل نفسي عن السبب الذي جعل مني هذا الإنسان الذي فقد الفرح من الأعماق.. ربما خيبتي بالأشياء.. بالحياة والصداقات والأفكار والمبادئ.. وربما لتأملي يوميات الفعل البشري، من أكل وإنتظار ومشي باتجاه العمل أو المدرسة أو البيت.. وكذلك الوقت الذي نقضيه في النوم، وفي الانتظارات الطويلة، وعند قضاء الحاجة من تبول وتغوط.. بل وحينما أتأمل مراحل حياة الانسان، أجد أن حياة الإنسان من خلال عمره تبدو تافهة، فالطفولة تمتد لسنوات، والصبا، ثم الشباب، وحينما تأتي مرحلة النضج يكون الإنسان قد شارف القمة وبدأ بالانحدار نحو النهاية من الجهة الثانية من تلال العمر المنخفضة .

لكني، وبرغم هذه المرارة التي تفيض في أعماق روحي، فأنني أمارس حياتي بأقنعة مختلفة، أحاول أن لا أكشف عمّا يجول في نفسي، ولا عن قناعاتي أمام الآخرين، إلا في ما ندر، وبالتحديد للمقربين مني، وهم إثنان: حواء الناصري قبل أن تختطف مع ابن أختها، ليعثروا على جثتيهما مع جثث أخرى بعد أسبوعين في منطقة تستخدم كمكب للنفايات على مشارف بغداد، وذلك بعد تفجير مرقدين مقدسين لإمامي الطائفة الكبرى في البلاد.. وكذلك الأخت الكبرى والدة الطفل القتيل آدم، التي انقطعت أخبارها عني..،والتي ماتت في انفجار سيارة ملغمة قرب المطعم الذي كانت تعد له بعض أصناف الطعام، بعد سنتين من مقتل ابنها وأختها .

بصراحة شديدة، حاليا، ليس لدي أحد.. لا أحد مقرب مني.. المقربون مني ليسوا سوى الأشباح.. أشباح من عرفتهم خلال حياتي وهم قلة.. شبح آدم الواسطي، وشبح أم قابيل، وشبح الفتاة المنتحرة.. شبح حواء الناصري، شبح أختها وشبح ابنها آدم الصغير.. شبح أمي، وشبح أبي.. أما من الأحياء

فلا أحد.. لا.. لا.. ربما أنا نفسي المقرب الوحيد من نفسي. لا.. ربما أنا نفسي لستُ مقرباً من نفسي!

أنا إنسان مقنّع.. ولكثرة أقنعتي صرت لا أعرف أين وجهي وأين قناعي..! أقنعتي جميعها هي جزء مني، هي شكلي الخارجي، هي الوجوه المتعددة لشخصيتي، لكنها ليست ذاتي، بالرغم من أنها ليست غريبة عن ذاتي أيضا. هل أنا لستُ أنا..؟ طبعا لا، فأنا أنا، فوجهي هو أنا، وقناعي هو أنا أيضاً.. وهذا الأمر لا أعتقد يخصني أنا وحدي، وإنما يخص كل الناس، بل هو جزء من مهزلة الوضع البشري .

أحيانا أفكر في أن الحياة لعبة كبيرة، ومملة، وأن الإنسان كائن وحيد، مسكين، وهش، كائن ضعيف يخاف من العزلة، وأن حياته لا تعني أي شيء حينما يكون وحده، بل إن كل القيم الاجتماعية والقوانين لا تعني شيئا حينما يكون الإنسان وحده، وأن أقنعتنا ما هي إلا وسيلة لتقارب بعضنا من بعض، لأن الوجه الحقيقي لذات كل منا مخيف، بحيث ليس كل منا يمتلك القوة كي ينظر إلى وجهه الحقيقي، وإلى ذاته .

أحيانا تزعجني أقنعتي، فأنا أعرف أنها أقنعة، بينما ينظر الآخرون إليّ من خلالها وكأنها وجهي الحقيقي، مع علمي بأنهم يرتدون أقنعة أيضا. لكن ربما ستفكر يا صديقي القارئ بأنني حين أكتب أضع قناعاً.. لا.. أبداً... ففي الكتابة وحدها أسعى إلى نزع كل أقنعتي وأن أبقى بوجهي.. لكن هل الكتابة هي وجه الكاتب الحقيقي أو قناعه أيضاً..؟ لا أدري.. لقد ضاعت روحي بين وجهي وقناعي..

* * *

ربما استطردت في حديثي السابق يا صديقي القارئ.. وربما أنت في شوق لمعرفة ما جرى في موعد اليوم الثاني الذي اتفقت فيه مع حواء الناصري بأن تأتي فيه مع أختها.. وهذا يعني أن أرجع بك إلى أكثر من أثنتي عشرة سنة.. نعم.. نحن الآن في السنة السادسة من الإحتلال.. بينما كنت قد التقيت حواء الناصري في العام الخامس بعد الانتفاضة الشعبية في محافظات العراق الجنوبية.. المهم.. ما لنا وللتاريخ الآن..؟

في اليوم التالي، وفي الموعد المتفق عليه بيننا، كنت أنتظرهما في المكان المتفق عليه. لمحت حواء الناصري تقود صبيا في حدود السادسة أو السابعة، ومعها امرأة باهرة الجمال ترتدي العباءة العراقية السوداء وتشد الشال الأسود الذي تسميه العراقيات بـ (الشيلة) على رأسها. ما أن اقتربتا وصارتا على أمتار مني حتى صُدمت واندهلت، وتشنجت كل أوصالي بحيث

لم أستطع الوقوف لاستقبالهما كما يفترض برجل. لقد كانت أمامي تقف أم آدم الواسطي.. تلك المرأة التي رأيت صورتها في غرفة آدم الواسطي في المنزل الكبير، والتي رأيتها في فندق رضوان قبل سنة من الآن تقريباً. فأنا لا أخطئ في مثل هذه الأمور، بدليل أني كنت قد انتبهت لخال صغير على طرف جانبي لشفتيها، وكنت قد تأملته في الصورة، وحينما رأيتها في الفندق.. ما الذي يجري معي..؟ فهذه المرأة رأيت صورتها في العام حينما دعاني آدم الواسطي لزيارته في غرفته أول يوم لتعارفنا.. وحينما اختفى وذهبت إلى مكان سكنه وعرفت ما جرى لأمه، ذهلت لأني كنت قد رأيت هذا الحادث الذي سيجري في المستقبل بعد أربع سنوات تقريبا في تلك اللحظات.. ثم تكرر المشهد نفسه بعد أربع سنوات، أي عام قبل أن ألتقي حواء الناصري.. حيث رأيتها.. وقد تحدثت عن ذلك سابقاً.. لكني الآن أقف أمامها.. باعتبارها أخت حواء الناصري الكبرى، والتي قدمتها لي بنفس الإسم.. أم آدم.. لكنها أيضا قدمت الصبي بأنه آدم..!!.. لم أدر ما أفعل.. وكيف أتصرف.. بينما كانت أم آدم تنظر إلى وجهي وكأنها تدرس ملامحي، أو كأنها تعرفني.. مدت يدها وصافحتني .

برغم الإرتباك الذي كان نتيجة سيل تداعيات السنوات الماضية.. وارتباكي الكبير من الموقف.. إلا أني كنت منبهراً بجمالها، بأنوثتها الطاغية، وبذلك الحزن الذي يلقي بغلالة غير مرئية من السمو على وجهها الأنيق وعلى نظراتها وكل حركة منها .

لا أعتقد أن أم آدم كانت تعرف شيئا عن نية حواء الناصري، التي يفترض أنها أختها، في أن تربطنا بعلاقة عاطفية، إذ كانت تتصرف ببراءة، وعلى سجيتها. في البداية كانت متحفظة في التعامل معي، فلم تتكلم سوى بضع كلمات، بل إنها تحدثت مع ابنها أكثر مما تحدثت معنا.. لكنها كانت تراقبني وكأنها مشغولة بقراءة أفكاري...، إلا أن حواء الناصري كانت بارعة في تنفيذ مخططها، إذ وجدت حجة بأخذ الصبي آدم لتريه حوض الأسماك .

لم يكن أمامنا سوى أن نمشي في درب مظلل بالأشجار، بعيد عن أعين زوار الحديقة. كنتُ مرتبكاً وكانت هي أكثر جرأة مني، فسألتني وهي تنظر بتركيز في وجهي :

– لماذا تتجنبني..؟ لماذا ارتعبت عند رؤيتي..؟ هل تعرفني سابقاً..؟ هل أذكّرك بشخص ما..؟

أربكني سيل أسئلتها أكثر، لكني كنت مأخوذاً بجمالها وأنوثتها.. وكانت

ثمة رغبة قوية تسري بسرعة في خلايا جسدي، منحتني الجرأة في أن أتحدث معها بكل ما يجول في نفسي، فقلت لها :

- من أنت..؟

نظرت للحظات صامتة في وجهي. ابتسمت.. ثم قالت :

- أنا أم آدم ..

ابتسمت لهذه الإجابة الغامضة.. فقلت لها :

- أي آدم منهم.. فأنا أيضا اسمي آدم.. والذي أنا متأكد منه هو أنك لست أمي..!

- أنا أم آدم.. آدم الذي رأيته مع حواء.. ابني آدم الذي ذهب لبحيرة الأسماك ..

- ألم نتقابل سابقاً في مكان ما..؟

صمتت لحظات وكأنها تخبرني وتفكر إن كان عليها أن تخبرني بهويتها الحقيقية أم تستمر بهذه اللعبة الغامضة معي. لم تجبني وإنما سألتني قائلة :

- هل تعتقد أننا تقابلنا سابقاً..؟

- أنا الذي أسأل.. هل تقابلنا سابقاً..؟

- لا أدري.. ربما نعم.. وربما لا ..

- أنا رأيت وجهك في مكان ما.. وقابلتك بعد سنوات في مكان ما.. لكن كل ذلك لا يُعقل ..

- لماذا.. لماذا لا يُعقل..؟

- لأنك يُفترض أن تكوني أمّاً لصديقي آدم.. آدم الواسطي ..

تهربت من نظراتي، فأدارت وجهها لتجول بنظراتها في أجواء المكان حولها، وقالت وهي تستدير بوجهها نحوي :

- أنا أم آدم.. نعم.. لكن ليس آدم الواسطي.. وإنما آدم الشيخلي.. آدم الواسطي أعرفه.. كان زميلا لحواء في الجامعة.. لكنه أعدم كما فهمت من حواء.. هل تعرفه..؟

- إنني أكاد أجن ..

- لماذا..؟

- لأن المرأة التي رأيت صورتها قبل سنوات في غرفة صديقي آدم الواسطي، لكنها قُتلت.. بل ذُبحت كالنعجة غسلاً للعار.. هي أنت ..

- ذُبحت..؟ يعني أنا ذُبِحت..؟! لو كنت أنا هي فكيف أقف أمامك الآن..؟

- نعم ذبُحتْ.. أو ذُبحتِ.. وبعد أربع سنوات التقيتك في فندق رضوان.. ويفترض أن هذه الحادثة، أقصد حادثة ذبحك.. قد جرت قبل أربع سنوات من ذلك.. لكنك الآن هنا ..

ابتسمت لي ونظرت إلي بمودة وهي تقول بمرح :

- لكن ها أني أقف أمامك.. لا مذبوحة.. ولا مقتولة.... فما هو رأيك..؟

- لا أعرف ..

كنت سعيداً بهذا الحوار معها، وبالرغم من أني كنت في إرتباك شديد من رؤيتها أمامي، إلا أني كنت أقنع نفسي بأنها ليست هي، وغمرني فرح غامض بأنها أنكرت أنها هي.. أنها لم تتركني مستغرقا في حواري مع نفسي إذ سألتني :

- هل أنت صديق آدم الواسطي..؟

- نعم.. لفترة قصيرة تعارفنا.. إلا أنه أعتقل.. ثم كما أخبرتني حواء بأنه أُعدم مع بقية من رفاقه ورفيقاته ..

ارتسمت ملامح الحزن على وجهها وقالت :

- أعرف ذلك.. لكن ما الذي دفعك للتفكير بأني أمه..؟

- لأنك هي.. أقصد لأنك تشبهينها جداً وكأنك هي ..

صمتت للحظات. رفعت رأسها للأعلى وألقت نظرة بانورامية إلى السماء، ثم إلى الأشجار وكأنها تشاغل نفسها عني، وقالت بحزن :

- هل أعجبتك..؟

- من..؟

- المرأة التي تحدثت عنها ..

- نعم.. أنها خارقة الجمال.. مثلك ..

أحنت رأسها إلى الأسفل وارتسمت ابتسامة ودودة لكنها حزينة على وجهها، وقالت :

- ماذا..؟ هل أحببتني من أول نظرة كما يُقال..؟

- لا أدري.. ربما ..

- هل تحبني أم تشتهيني..؟

- لا أعرف بالضبط.. لا. لا. أنا أحبك.. نعم.. أحبك ..

- هل تحبني أم تحب تلك المرأة..؟

- أحبك أنت.. لقد أحببتها منذ أن رأيت صورتها..، لكنها كانت أم صديقي.. وكم حرقتني الغيرة من ذلك الفتى المراهق الذي هربت معه ..

- حدثني عنها ..

حدثتها عن كل ما له علاقة بها، كيف تعرفت على آدم الواسطي وحواء، وكيف دعاني لغرفته فرأيت الصورة التي تضم أمه وأخته.. وسردت قصة هروب أمه مع الفتى المراهق، والنهاية الفاجعة لتلك المغامرة، وكيف أني رأيت كل ذلك بعد أربع سنوات مجدداً.. لكن الذي فاجأني هو أن موقفها كان يختلف عن موقف أم قابيل وموقف حواء الناصري، إذ أخذت تدافع عن الأم المسكينة ولم تدنها أو تتشفَ بالمصير المرعب الذي لاقته، بل أذكر أنني حينما حدثتها عن رفض الأم أن يقوم ابنها بذبحها، لأنه بذلك سيدمر حياته ومستقبله، ولو بالحبس لأشهر قليلة وفق قانون غسل العار، فأنه سيُدمر نفسيا مدى الحياة لأنه قام بذبح أمه.. فإذا كان الآن شابا ومأخوذا بمشاعر الشرف والغيرة وغسل العار، فأنه حينما يكبر وينضج، فأنه سيتعذب كثيراً.. فهي أمه.. وليس في الحد الديني أو القانوني ما يبيح القتل والذبح لها حتى ولو كانت زانية.. أذكر جيداً أن عينيها اغرورقتا بالدموع.. وكانت مستغربة مثلي من موقف آدم الواسطي.. عند هذه النقطة التقينا.. أحسسنا بالقرب من بعضنا .

دار الحديث بعد ذلك بيننا عن القراءة والكتب والأدب.. فوجدت أمامي امرأة ذات كبرياء عال ووعي بذاتها.. وبجمالها، وبدورها كأم.. لم تكن امرأة سهلة كحواء الناصري.. بل على العكس كانت ذات شخصية تفرض الإحترام على المقابل.. حدثتها عن بعض الكتاب والروائيين.. حينها لم أجد سوى أن أعترف لها بأنني عشقتها.. وبأني أجدها أكثر نضجاً من أختها.. فابتسمت لي بمودة كبيرة. فكرت حينها بأنها فرحت بتمييزي لها عن أختها، لاسيما وأنا قد اعترفتُ لها بأنني لم أكن أتوقع بأن أجد نفسي قريباً منها إلى هذا الحد.. ووجدت نفسي أسابق الزمان والمكان، فقلت لها بشكل مفاجئ وكأني لا أريدها أن تفلت مني :

- أود أن أسألك شيئا قبل أن تصل أختك ..

نظرت إليّ نظرة متأملة وعلى وجهها إبتسامة غامضة وكأنها تعرف ما أود قوله، فقالت بدلال أنثوي :

- أسأل ..

- أنا إنسان وحيد في هذا العالم.. أحتاج لإنسانة تكون قريبة مني.. موضع أسراري وهمومي وأفكاري المجنونة..

- وماذا بعد..؟

- هل أنت على استعداد لتكوني هذه الإنسانة..؟
- أنا..؟
- نعم أنت ..
- هذا مستحيل ..

صُدمت لإجابتها، فقلت منفعلاً ومحبطاً :

- لماذا مستحيل..؟

صمتت للحظات كانت ثقيلة ككابوس الوجود نفسه، ثم قالت :

- أنا روح تائهة.. وهائمة في ظلمات هذا العالم الذي يسترخي تحت ضوء الشمس.. أنا أيضا أحتاج لروح تشاركني وحشتي ..
- لكنك لم تجيبيني.. هل تقبلين أن تكوني هذه الإنسانة..؟
- وهل تقبل أن تكون هذه الروح..؟
- نعم ..
- هذا مستحيل.. أنت لا تعرف ماذا تقول..؟ أو ماذا تطلب يا آدم..؟

صدمتني إجابتها وأحسست بحنق يجتاحني وبشعور بالإهانة والتصغير، فقلت وأنا أكاد أختنق من الغيظ :

- ماذا تقصدين..؟
- لأن ما سأقوله لك ربما سيصدمك..
- أبداً.. أنا على استعداد لسماع الحقيقة مهما كانت قاسية ..

ابتسمت لي بطيبة وقالت :

- كلكم تقولون ذلك.. لا فرق.. رجالاً ونساء.. لكنكم تهتزون وتنهارون وتلوذون بالفرار من مواجهة الحقيقية عند أول جملة تسمعونها.. كلمات الحقيقة تكاد تكون كصب الرصاص في الإذن.. أو كنقاط السم وهي تقطر في الدم وتمتزج به.. الحقيقة نور يعمي الأبصار.. لا نستطيع مواجهته ..
- جربي.. وسترينني ذلك الإنسان الذي يتحمل مواجهة الحقيقة حتى لو أُصيب بالعمى ..
- لماذا أنت واثق من نفسك..؟
- لأني أعرف نفسي ..

ابتسمت لي بحب وقالت :

- أتعتقد أنك تعرف نفسك..؟ هيهات.. هيهات.. لا يستطيع الإنسان أن يعرف نفسه.. يُخيل إليه أنه يعرفها ..

- إنك تحيرينني.. قولي ما لديك أرجوك.. أنا أكاد أنفجر.. لم أعد أطيق نفسي ..

فأجابتني بإبتسامة طيبة وقالت شيئاً أذهلني، بل وكأنها صبت جردل ماء مثلج على رأسي :

- أنا لستُ أخت حواء الناصري ..
- ماذا..؟
- حواء الناصري ليست أختي ..
- من هي إذاً.. ومن أنت..؟

ابتسمت لي بمودة وقالت :

- لا تخف يا آدم ..
- أنا لا أخاف.. لكني منذهل.. ثم إذا لم تكوني أخت حواء الناصري فمن أنت إذن..؟
- أنا أم آدم ..
- أي آدم.. حيرتني..؟
- آدم الواسطي ..
- مـا ذا...؟
- سأشرح لك كل شيء ..
- متى..؟
- سأكون عندك ..
- كيف ..
- ألم أقل لك أنا روح هائمة ..
- مـاذا..؟

حينها لمحت حواء الناصري قد أقبلت مع الصبي.. كانا على بعد خمسين مترا تقريباً.. ركض الصبي نحونا فتعثر وتدحرج ساقطا على الأرض.. تحركت نحوه لأساعده بالنهوض.. لكني فجأة التفت خلفي.. فلم أجد أحداً.. ذهلت لحظتها.. وحين نظرت أمامي.. كانت المفاجأة الأخرى.. إذ لم أجد أحداً أيضاً.. ارتعبت. فجأة وجدتني في غرفتي، وسمعتُ طرقاً على الباب. ثم دخل أبي.. فوجئتُ لأن أبي لم يدخل غرفتي أبداً .

* * *

حين وصلت حواء صحراوي إلى نهاية الفصل كانت تحس بالنعاس، لكنها كانت متشوقة لمواصلة القراءة لتعرف ما جرى لآدم البغدادي، وما سر هذه الأرواح الهائمة.. وفكرت لحظتها في آدم التائه، وسألت نفسها، ربما

أن ما تراه هو شبح آدم التائه أيضا.. روحه الهائمة في الظلمات رغم شمس النهار الساطعة.. فواصلت القراء:

متاهة الأشباح

13

رسالة الشبح الحزين

لم يدخل أبي غرفتي قط. لذلك فوجئت حقا حينما رأيته داخلاً. كان حزينا، قلقاً، نظراته تكشف عن توتر داخلي كثيف، وعن خوف غامض يسعى إلى أن يسيطر عليه، وكان يحمل بيده ظرفاً كبيراً مغلقاً. نظر إليّ نظرةً مليئة بالتساؤل، بل لأول مرة أشعر أن نظرته تخلو من الحقد الدفين. أراد أن يقول شيئاً. فتح فمه وتأهب للكلام، لكنه فجأة صمت، وماتت الكلمات في أعماقه قبل أن تولد على شفتيه .

وضع الظرف الكبير على الطاولة وخرج دون أن يلتفت. قفزتُ مسرعاً إلى الطاولة. أخذت الظرف. قلبته بين يديّ، أردت معرفة مرسله، لكن الظرف كان خالياً من أية كتابة. فتحته بسرعة، وسحبتُ ما فيه. كانت رزمة من الأوراق، وثمة أوراق منفصلة ومعها دفتر قليل الأوراق، قرأت على صفحته الأولى عنوانا كبيراً:

متاهة الشبح الحزين .

راودني إحساس غامض بأن المرسل هي تلك المرأة، أم آدم، التي صرتُ لا أعرف أرأيتها في الحلم أم قابلتها في الزوراء فعلاً، فأنا لا أذكر ذلك جيداً، بالرغم من أني أتذكر كل تفاصيل اللقاء. رجعت إلى سريري. جلست على حافته. أخذت الأوراق القليلة المنفصلة، وبدأت أقرأ ما فيها :

رسالة من شبح حزين

صديقي آدم البغدادي

تحية من شبح حي تحية من العالم الآخر تحية من العالم اللامرئي تحية من تلال الموت لا لا تحية من أعماق الحياة الميتة

الحياة يا صديقي هي الموت وهو غارق في النوم ما أرويه ليس حكاية سحرية، وليس نصاً أدبياً، بل هي حكاية لا يعرفها أبناء الحياة الموتى فقط الذين يعرفون كل شيء وبالتحديد هؤلاءالذين يقفون على البرزخ ما بين الحياة والموت

ذات يوم شاهدت فيلما عن الغجر، فيه يسأل العاشق حبيته الغجرية: إلى أين ترحلون..؟ أجابته: نحن نمضي إلى أقاصي العالم.. فسألها: ثم ماذا..

ماذا ستفعلون بعدها..؟ فأجابت: سنرجع ثانية لنرحل مرة أخرى إلى الأقاصي... هكذا أنا.. أتحدث معك من الأقاصي.. الأقاصي التي تشكل منطقة الحياد بين الحياة والموت.. لكن آه من اللغة.. هي شفعيتي وبلواي، فهي عاجزة عن البوح بآلام الوردة.. هي لا تفهم أنين الأشجار في الليل.. ليس فيها مفردة تعبر عن النسيان غير النسيان .

يقال إن ضوء العادلين والمنصفين يمنح الفرح ومصباح الأشرار سينطفئ.. كل هذا قبض ريح. ضوء العادلين توهج للمعاناة ومصباح الأشرار وخز في العيون .

* * *

ها أنا أسطّر لك شيئا من كتاب الألم لكن بعد فوات الأوان. إنه مثل إحترام، ورد إعتبار، يأتي متأخراً.. متأخراً جداً. لكن ما معنى كل هذا..؟ بل ما معنى أن تكون مثل شمعة في زنزانة، تنطفئ ذبالتها شيئا فشيئا دون أن تمنح العزاء لسجين، لأن في الزنزانة رجل ميت..؟ هل تفهمني..؟ لا أعتقد .

أنا صديقك آدم الحزين.. آدم الواسطي. ربما تفاجأ بوجود هذه الأوراق بين يديك.. ربما تفاجأ أن أخاطبك الآن وبعد كل هذه السنوات..؟ أظننتني حيا..؟ أظننتني ميتا..؟ لا يهم أن أكون حيا أو ميتا. لا يهم.. فالحياة موت والموت حياة... أتدري يا صديقي.. أنا أشفق على نفسي وعليك أيضاً .

أكتب إليك بعد أن عرفت من حواء الناصري أنك موجود، ومنها أيضاً عرفتُ بأنك بحثت عني كثيراً. لا تستغرب. فأنا على تواصل دائم مع حواء الناصري.. وسمعت أنك ألتقيتها مؤخراً.. صحيح أنها انهارت في المعتقل، ووقعت على ورقة التعهد بعدم ممارسة السياسة إلا في إطار الحزب القائد.. لكنها لم تتخل في أعمق أعماقها عن أفكارها وقناعاتها ..

أتدري أن حكيما صينيا قال ذات مرة بأن العظمة ليست أن لا تسقط أبداً، وإنما أن تنهض كلما سقطت..!! فليست مشكلة أن تكون حواء الناصري قد انهارت تحت هول التعذيب والإغتصاب، المهم أنها تماسكت في ما بعد، ولم تنبذ أفكارها وقناعاتها التي كانت تؤمن بها قبل ذلك.. لكنك تعرف أيضاً بأنها لم تخرج سليمة الروح، بل هي مدمرة نفسياً، وعلى حافة الجنون.. هي في قاع الظلمات.. وهي لم تجد حولها سوى التلال المظلمة والآفاق المدلهمة المخيفة.. إنها واحدة من هؤلاء الذين ليس أمامهم سوى ثلاثة دروب لا غير: الإنتحار، الجنون، والسقوط الأخلاقي. ولأنها تحب أختها

أم آدم وابنها كثيراً لذلك.. لم تنتحر.. ووجدت في السقوط الأخلاق جنوناً.. وعقاباً نفسياً لنفسها التي لم تصمد .

ليس كل إنسان قادراً على تحمل التعذيب الجسدي.. الوجع والألم الجسدي شيء مريع بل مهول.. فالألم.. والوجع الجسدي هو لغز من ألغاز الحياة.. بدليل أننا عند إجراء أية عملية جراحة أو قلع السنّ أو حتى خياطة جرح مفتوح.. نواجه الأم ولغزه وجها لوجه.. فإذا تم تخديرنا، حينها حتى لو تم شق الجسد أو خياطة الجراح المفتوحة أو قلع الأسنان، فأننا لن نشعر بالألم.. بينما وخز دبوس صغير ربما يجعلنا نقفز متراً في الهواء في الحالات الاعتيادية .

الألم.. الألم.. الألم الجسدي هو لغزنا.. لذا فأياك الحكم على الناس الذين عُذّبوا في السجون ولم يتحملوا فاعترفوا بأحكام أخلاقية وسياسية.. بل عليك أن تحتكم للحالة الإنسانية.. عليك أن تنحني أمام الذين صمدوا، واستشهدوا تحت التعذيب الوحشي.. هؤلاء هم الأبطال الحقيقيون.. وليس القادة الذين يدفعون الناس إلى الموت ليحصدوا في ما بعد النياشين والمدائح! أما من هو تحت التعذيب.،فيكفيه ما عاناه من تعذيب، وما يعانيه من وخز الندم والشعور بالذل والمهانة .

* * *

صديقي آدم البغـدادي ..

هل تدرك ما معنى أن يتم لف حياتك بالزمن مثلما يتم لف المومياء بشرائط القماش المنقوعة بالمواد الحافظة؟ الزمن هو تلك الشرائط التي تغطي أجسادنا وتمحو ملامحنا تحتها. هل تعرف ما معنى وجودنا على هذه الأرض..؟ لسنا سوى غيمة صغيرة تافهة فوق محيط متلاطم .

هل تستطيع أن تدرك معنى أن تكون سجيناً في زنزانة مظلمة.. مظلمة.. مظلمة.. حيث لا يمكنك أن ترى كفك لو رفعتها أمام عينيك، ولا تحس بوجود جسدك، بل لا تدرك من نفسك سوى عينين تحدقان في الظلمة، وكأنك غير موجود. هكذا أنا، وهكذا كنت. منحدِر بقوة نحو وادي الضياع .

أتدري يا صديقي آدم.. أنهم بعدما أخذوني للتحقيق عقب انتحار جارتي الفتاة المراهقة في المنزل الكبير بأيام، تحول التحقيق الجنائي إلى تحقيق سياسي. حينها، لا أخفيك، راودتني بعض لحظات الضعف النفسي، فكرت فيها بأنه ربما أنت من كتب لجهاز الأمن تقريراً عن توجهاتي السياسية ونشاطي، وذلك من أجل أن تفوز بأم قابيل التي كنت أرى

نظراتك الشبقة تجاهها حينما جئتني لأول مرة، كما رأيت ذلك حينما رويت لك عن علاقتي بها.. أو لتستغل غيابي، فتقيم علاقة مع أم الفتاة المنتحرة التي تبحث عن شاب يضاجعها، أو حتى لتقيم علاقة مع حواء الناصري التي كنا نسميها معاً بالفيلسوفة..، لكن الأمور أخذت مساراً آخر.. وعرفت حينها أنك بعيد عن كل هذه الأوهام.. إذ أخذوا يعذبونني ويسألونني عن أشياء لا يعرفها غيري وربما حواء الناصري.. كما لم يأت اسمك في التحقيق السياسي أبداً ..

عرفت في ما بعد بأن الفيلسوفة هي التي أعترفت عليّ.. لذلك أغلقوا ملفي الجنائي ولم يبق سوى التحقيق السياسي.. وبعد التعذيب والضرب المبرح والحرب النفسية، أخذوني ذات يوم إلى قاعة وجدت فيها بعض رفاقي وآخرين رأيتهم لأول مرة، رجالا ونساء، وقفنا جميعنا بانتظار شيء مجهول .

هل تعرف يا صديقي البغدادي.. ما معنى الانتظار في قاعة مترامية الأطراف وكأنها ملعب رياضي، بينما لا ترى أمامك سوى رفاقك ورفيقاتك المشوهين من التعذيب الجسدي والنفسي.. وهم محاطون برجال يحملون السلاح يتوزعون بكثافة في مواجهة هذه الأجساد المعذبة؟ لا تفكر لحظتها سوى بالإعدام.. فمن المعروف أن السلطة الحاكمة في البلاد تعدم الناس على الشبهات، فكيف إذا وجدت أدلة على نشاط المعارضين لها..؟

وبعد انتظار مرعب وثقيل جداً جاء ضابط برتبة عالية، وبيده ملف فيه أوراق.. نظر إلينا وعلى وجهه بسمة الشيطان.. بدأ كلامه وكأنه واعظ في مسجد بأننا دمرنا أنفسنا بخيانتنا الوطن والحزب والثورة.. وأننا يجب أن نشكر الرئيس القائد لأنه أنقذنا من الموت بالحكم علينا مدى الحياة على أن نثبت إخلاصنا وندمنا.. من خلال أن نكون حقلا للتجارب الكيماوية..!! ثم أخذ يتلو علينا قرارات محكمة الثورة التي حكمت علينا بالإعدام رميا بالرصاص بتهمة الخيانة العظمى، والعفو الرئاسي بتخفيض الحكم إلى السجن المؤبد مع إثبات الولاء للوطن وللقائد الضرورة .

نقلونا إلى سجون مختلفة.. لم تكن سجوناً. ولا مستشفيات.. لا أعرف.. كنا نذهب صباحاً ونعود مساء.. مقيدين طوال الوقت.. يسحبون دمائنا.. يجرون بعض التجارب.. لكني لم أواصل معهم مصيرهم المرعب .

لا أدري كيف وصل أهلي إليّ.. والدي وأعمامي بالتحديد. لا أدري.. فذات ليلة كنت فيها نائما في زنزانتي المظلمة، صحوت على قلقلة المفتاح في القفل.. دخل سجاني الشرطي ضخم الجثة.. كان مرتبكا على غير عادته..

أخذني وكأنه يختطفني.. أدخلني إلى غرفة الضابط الخفير في تلك الليلة.. ووجدت هناك شخصاً يكاد يشبهني.. كان بعمري تقريبا.. كان معصوب العينين.. مكبل اليدين.. يرتعش خوفا.. ويبدو أنه قد بال على نفسه من الرعب.. إذا كان بنطاله مبتلاً ..

عصبوا عيني واقتادوني.. أدخلوني ممرات وسحبوني إلى أروقة.. وأخيرا شعرت ببعض البرودة والهواء العليل.. فعرفت أني في مكان مفتوح.. ثم دفعوني إلى داخل سيارة انطلقت بسرعة مغادرة المكان.. بعد دقائق امتدت يد لترفع العصابة عن عيني.. عندها رأيت والدي يجلس إلى جانبي.. وعمي يسوق السيارة .

أول وهلة لم أصدق ما رأيت. لكني فهمت في ما بعد بأن والدي عرف باعتقالي للتحقيق معي في ما يخص مسألة انتحار الفتاة، وأن الأمور تدهورت حينما وصلت إلى الجهة التي تحقق معي عن معلومات سياسية نتيجة اعتراف حواء الناصري.. فتدخَل أعمامي، وكان أحد أعمامي عضواً بارزا في الحزب بمدينتي،، ولديه علاقات قوية جداً مع المسؤولين في بغداد، بحيث استطاع أن يصل إليّ.. وعرفتُ بأنهم دفعوا مبالغ كبيرة جداً للضباط وللمراتب العسكرية الدنيا، بحيث أخرجوني من زنزانتي، بعد أن ألقوا القبض على ذلك الشاب المسكين الذي كان في طريقه إلى بيته وسجنوه بإعتباره أنا، آدم الواسطي. وبعد أشهر سمعت أن الشاب مات من جراء التجارب الكيماوية التي أجريت عليه باعتباره آدم الواسطي. وتم استخراج وثيقة وفاة بالأمر. وهكذا تم إعدام آدم الواسطي في سجلات الدولة .

أنا آدم الحزين.. أنا اللاشيء.. الكائن اللاموجود.. الميت الحي.. لم أفكر يوماً أن أكون بطلاً.. أقولها لك يا آدم البغدادي.. من مات فعليه أن يستمر في رقدته الأبدية.. فالحياة أشد رعبا من الموت.. لكن أليست الحياة هي الموت وهو يحلم.. هي حلم الموت والعدم!..

ها أنا أبوح لك بأسراري.. ستجد شيئا من عبث الوجود هذا في مخطوطتي:

متاهة الشبح الحزين .

* * *

وضعتُ أوراق آدم الواسطي المعنونة: رسالة من شبح حزين جانباً. كنتُ منذهلا. وبدأ قلبي بالخفقان السريع، وأحسستُ بعرق بارد يغطي جبيني. تفجرت الأسئلة في أعماقي. إذاَ آدم الواسطي حي يرزق، ولم يُعدم، فكيف قالت لي حواء الناصري بأنه أعدم..؟ كيف عرف عنواني..؟ أين هو

الآن..؟ هل هو على تواصل مع حواء الناصري..؟ إذا كان على تواصل معها فهل يعرف أنها نامت معي..؟ هل قالت له ذلك..؟ هو يعرف بسقوطها السياسي لكنه يقول بأنها نهضت مجدداً.. أيعني هذا..؟ لا.. لا.. لقد اعترفت لي بأنها كانت وكيلة أمن..؟ وأنها كانت عشيقة ضابط هناك..؟ أيعرف هو كل هذا..؟ أيكون قد دون قصته في الدفتر الذي يحمل عنوان: متاهة الشبح الحزين .

أخذت الدفتر وقلبّته بين يديّ متصفحا. كان نصا طويلا.. لا هو بالشعر ولا بالرواية.. نص منفلت بلا ضفاف. وضعته جانبا. أخذت رأسي بين كفيّ مفكراً.. لم أجد ما يفسر لي اي شيء، بل إزداد غموض الأشياء حولي.. فكرتُ ربما سأجد بعض الإجابات في النص. أخذت النص لأقرأ فيه:

متاهة الشبح الحزين

* * *

قبل أن ينتهي الفصل في مخطوطة الرواية توقفت حواء صحراوي عن القراءة، إذ كانت في غاية النعاس، وشعرت أنها داخل متاهة حقيقية، كما عليها النهوض مبكراً للبدء بالعلاج. فكرت مع نفسها بأنها لم تعد تستوعب ما يجري من أحداث ربما بسبب تعبها ونعاسها. طوت المخطوطة، ووضعتها على الطاولة إلى جانب السرير. ومدت يدها إلى زر الكهرباء الموجود عن رأسها. ضغطت عليه فغرقت الغرفة في الظلام .

الفصـل الحـادي عشـر: شبح حواء مقدسي

كان يوماً حافلاً بالنسبة لحواء صحراوي. حين نزلت إلى المطعم. كان خالياً تقريباً. وحين أنهتْ فطورها وتوجهت خارجة التقت بالعجوزين العربيين وهما يدخلان. أومأت لهما برأسها مرحبة. توجهت بعد ذلك إلى القسم الطبي الخاص بالعلاج. هناك تحدثت مع الموظفة الإدارية حيث بينت لها أنواع العلاج الموجودة في الفندق، وملأت لها بطاقة خاصة بها. وأوصتها بمقابلة الطبيب المختص الذي سيحدد طبيعة العلاج، لكن قبل ذلك عليها أن تعود إلى غرفتها وتنزع كل هذه الملابس ولتأت شبه عارية ومغطاة ببرنس الحمام .

حين كانت تنتظر في الفسحة الصغيرة أمام غرفة الطبيب كانت هناك امرأتان إيطاليتان تتحدثان بصوت عال. سلمت عليهما بالإنكليزية فأجابتا بالإيطالية، وعندما جلست سألتها إحداهن بالإيطالية، فلم تفهم، لكن المرأة أخذت تردد كلمات تشير إلى هويات قومية وشعوب وبلدان، ففهمت منها أنها تسألها عن أصلها وقوميتها، فأجابت حواء صحراوي بأنها عربية، وبرغم ذلك أخذت المرأة، التي كانت تشبه الممثلة اليونانية إيرين باباس كثيرا، تتحدث معها بالإيطالية، فقالت لها حواء لتفهمها بانها لا تتكلم الايطالية: نو ايتاليانو.. إلا أن المرأة لم تأبه لذلك إذ واصلت الحديث معها بالايطالية، بل إن المرأة الأخرى بدأت التوجه إليها بالكلام أيضا. استغربت حواء الوضع، وانتبهت إلى أن الإيطاليين يحبون الكلام، والتدفق السريع فيه، ولم يكن أمامها سوى أن تخرج كتابها الذي جلبته معها والذي كان يضم السونيتات الكاملة لشكسبير لتقرأ فيه ولتقطع سيل هذه الثرثرة الإيطالية عنها، فقد أحست بأنه هذه اللغة صارت تحاصرها .

فتحت كتابها. أخذت المرأتان تحدقان بغلاف الكتاب. بدأتا تتحدثان في ما بينهما. حواء كانت تعرف أنها موضوع حديثهما، لكنها كانت لا تريد أن تتواصل معهما بأي شكل. فتحت الكتاب لا على التعيين فوجدت أمامها السونيت 77 والتي وضع المترجم لها عنوانا بالعربية هو:

الكتـابة والـزمـن. كانت تقرأ الأبيات بالإنكليزية ثم تقرأ ما يقابلها بالعربية :

,wear beauties thy how thee show will glass Thy
,waste minutes precious thy how dial Thy
,bear will imprint mind;s thy leaves vacant Thy

: taste thou mayst learning this book this of And
show truly will glass thy which Wrinkles The
;memory thee give will graves mouthed Of

مرآتك ستُريك كيف ستذبل محاسنُك،
والساعة الشمسية كيف تضيع دقائقك النفيسة،
والصفحات البيضاء ستحمل نقش عقلك،
ومن هذا الكتاب، لعلّك تتذوّق هذه المعرفة :
إن التجاعيـد التي سـتكشفها حقاً مرآتك
لقبـورٍ فاغرة ستمنحك العِظَـة وتـذكّـرك .

لم تستطع أن تواصل قراءة السونيت لأن ممرضة جاءت من الممر ودعت المرأتين للذهاب معها، وفي تلك اللحظة بالذات خرج الطبيب بنفسه من الغرفة المقابلة منادياً السنيورة حواء صحراوي.. فتبعته داخلة إلى مكتبه .

* * *

جربت أولى جلسات الطين البركاني. كانت رائحته كريهة جداً مثل الغائط البشري أو مثل بيض متعفن. حين دخلت رواق العلاج بالطين البركاني ارتبكت لأن هناك ثمة رجلاً يرتدي برنساً أيضاً ينتظر دوره، كما كان هناك المشرف على العلاج الذي عرفته من خلال ملابسه .

كانت هي في برنسها الحريري الثمين، ولا ترتدي أسفله سوى قطعتين للإستحمام، سروال السباحة وحمالة الصدر. استرخت قليلاً حينما رأت امرأة بملابس بيضاء تخرج من إحدى الغرف وتنادي باسمها. عرفت أنها المشرفة على علاجها، فذهبت معها. في غرفة العلاج تعرت بالكامل واستلقت على السرير المغطى بشرشف من النايلون، إلا أن المشرفة على العلاج طلبت منها الاستلقاء على البطن. طلت ظهرها كله ورقبتها بالطين البركاني، ثم انقلبت على ظهرها، فطلت صدرها وكتفيها وأطرافها وكفيها، وشدت جسدها بغطاء من النايلون، ولفتها به، وألقت عليها بطانية ثقيلة، ثم برمجت الجرس لمدة عشرين دقيقة وخرجت .

ظلت حواء صحراوي مستقلية كالمومياء على سريرها ملفوفة بالنايلون ومغطاة بالطين ذي الرائحة الكريهة جداً، لا تستطيع القيام بأية حركة. وليس أمامها سوى الانتظار، لكنها أثناء ذلك انتبهت إلى أن الطين كان

بارداً جداً حينما مس بشرتها، إلا أنه الآن بدأ يشع حرارة وأخذت تشعر بحرارته تسري في جسدها .

فكرت في تلك اللحظات بالمومياءات الفرعونية الملفوفة بقطع أشبه بشرائط الشاش الطبية، وانهمرت في ذهنها التداعيات عن الإنسان البدائي الذي كان برغم المشقة وقساوة الحياة والوساخة والوحل والطين والقذارة، أكثر حرية من الإنسان المتحضر المعاصر.. الحضارة الحديثة دمرت مناعة الإنسان وحصانته ضد نوائب الطبيعة وقساوتها، فهي بتوفر الخيرات والطعام والتطور التكنلوجي، ووسائل السفر والإتصال، وتطور الصناعة، وبالتحديد ظهور الأقمشة الحريرية والصوفية والقطنية والجلدية جعلته أكثر نعومة، بل إن الحياة المعاصرة بأخلاقها الخائفة ودياناتها المحافظة وضغطها على الإنسان وكبتها القوي لغرائزه، كل ذلك صير الإنسان كائناً هشاً، وضعيفا، لا يستطيع تحمل طين بركاني يتم علاجه به!

قطع تدفق هذه التداعيات دخول المشرفة على العلاج إلى الغرفة. سألتها بالإيطالية إن كان كل شيء على ما يرام.. لم تفهم معنى الكلمة لكنها من طبيعة النبرة عرفت ذلك.. فقالت بالإنكليزية: أو كي.. ومضت المشرفة إلى حوض بانيو مجاور وأخذت تملأه بالمياة.. وأثناء ذلك رن الجرس إيذاناً بانتهاء المدة المقررة، فأخذت تنزع عنها الأغطية.. وساعدتها على النهوض وهي تشعر بأنها في مستنقع من الغائط، وأدخلتها المشرفة إلى زاوية الحمام وأخذت ترشها بالماء المتدفق من أنبوب مطاطي، فأزالت بذلك كل ما علق بجسدها من طين ووحل بركاني، ثم ساعدتها بالدخول إلى الحوض الجانبي حيث استلقت في الماء المعدني الساخن والمتدفق من الحنفيات الجانبية. ظلت على هذه الحالة لمدة ربع ساعة، إلى أن أنهضتها المرأة الأخرى وهي تغطي جسدها بمنديل كبير. طلبت المرأة منها أن توقع على البطاقة الخاصة بها والتي تتضمن تأريخ الجلسة وطبيعة العلاج .

بعد الانتهاء من علاج الطين البركاني توجهت إلى حوض السباحة الخاص والمتفرع من جناح العلاج. وجدت ثمة عجوزاً إيطالية تسبح وحدها في الحوض الصغير. حين نزلت إلى الحوض أحست بدفء المياه ورائحتها الكبريتية المختلفة. كانت تعرف بأهمية التواجد في هذه المياة الكبريتية. هكذا ظلت لساعة تقريبا في هذا الحوض. بعد ذلك قامت متوجهة عبر ممر الحديقة الذي يقود حوض السباحة الكبير، ومنه إلى قاعة الطعام ومنها إلى المصعد .

حين صارت في غرفتها دخلت غرفة الحمام مباشرة. ألقت ببرنسها

وثوب السباحة ودخلت تحت الدش لتغسل جسدها بأنواع الشامبو العطرة التي حملتها معها، على الرغم من أن الفندق قد وفر العديد من القناني الصغيرة التي يمكن استخدام ما فيها لمرة واحدة.

* * *

كان المطعم هادئاً. ليس هناك سوى القليل من الرواد، فمعظم السيّاح لا يحجزون برنامج الطعام الفندقي بالكامل، وإنما يتواجدون عند الفطور الصباحي والعشاء، إذ أنهم يفضلون الأكل في مطاعم المدينة أو أنهم يشاركون في الجولات السياحية التي تقترحها الشركات السياحية لزيارة مواقع الجزيرة الأخرى، أو ساحل نابولي، أو الجزر القريبة، أو زيارة المدينة بومبي التي اندثرت تحت رماد بركان فيزوف، لذلك لا يتواجدون في فترة الغداء بالفندق، ومن يتبقى منهم فيه فأنه بإمكانه أن يحجز لنفسه وجبة خفيفة عند حوض السباحة .

حين جلست حول مائدتها انتبهت إلى أن محل النساء العربيات الثلاث فارغ. أخذت لنفسها شيئاً خفيفا من البوفيه المفتوح، وطلبت سمكاً، وقنينة ماء. حانت منها التفاتة نحو حوض السباحة فرأت إيفا بعلبكي في ثياب السباحة متمددة على سرير ترتفع فوقه مظلّة تقيها من الشمس. قررت أن تذهب إليها بعد الغداء. فجأة انتبهت إلى العجوزين وهما يجلسان في الجانب الآخر من حو ض السباحة حيث الظل، بينما على رأس كل منهما قبعة من القش .

* * *

حين وصلت إلى حوض السباحة وهي في برنسها الحريري وعلى رأسها قبعة مكسيكية، ووقفت أمام إيفا بعلبكي، قفزت الأخرى مرحبة بها، وداعية إياها إلى السرير المجاور لها والذي ما زال خاليا .

نزعت البرنس الحريري. فتألق جسدها في وهج الشمس، وتوجهت أنظار بعض الرجال من الأماكن الأخرى إليها. فقد كان جسدها فتياً، شهيا، مثيراً، ذا حضور جنسي واضح، بل حتى إيفا بعلبكي لم تستطع أن لا تتأمل تناسق هذا الجسد الفياض بالرغبات المكبوتة .

تمددت على السرير فبادرت إيفا بعلبكي بتقديم علبة من مرهم واق من ضربات الشمس، فشكرتها وأخرجت ما لديها من مراهم متنوعة للجسد وللوجه .

حين انتهت من مسح جسدها بالمراهم الواقية نظرت إلى الجهة الأخرى المقابلة من الحوض فلمحت العجوزين وهما جالسان حول طاولة في

الظل بالقرب من الحوض. أحست بشيء غامض يلف شخصية هذين العجوزين. التفتت إلى إيفا بعلبكي وسألتها بطريقة تبدو عابرة، لكنها كانت من الداخل تنم عن فضول كبير :

- مدام إيفا.. ما قصة هذين العجوزين.. إنهما لا يسبحان أو حتى يستلقيان تحت الشمس؟

رفعت إيفا بعلبكي جسدها قليلاً فرأت العجوزين، فاسترخت ثانية وقالت :

- إنهما هنا لتغيير الجو.. أنا أعرفهما.. حواء وآدم مقدسي.. لبنانيان من أصول فلسطينية. من القدس.. لكنهما يعيشان منذ أكثر من أربعين عاماً في برلين.. هو أستاذ جامعي متقاعد، وهي ربة بيت. تزوجا على كبر.. وكان لديهما ابن وحيد مات في حادث مأساوي.. حادث تصادم سيارات ..

- يا للمسكينين ..

اعتدلت إيفا بعلبكي جالسة حينما رأت تعاطف حواء صحراوي مع العجوزين، فأخذت تروي لها عنهما أكثر، قائلة :

- كان آدم مقدسي قد وصل ألمانيا شاباً.. وهو من عائلة ميسورة.. درس الفلسفة والآداب في جنوب ألمانيا في جامعة فرايبورغ.. ثم أكمل دراسته العليا في فرانكفورت ثم برلين.. وحينما حصل على الدكتوراه تم تعينه أستاذاً في جامعة برلين الحرة. تزوج امرأة ألمانية، أستاذة جامعية مثله.. إلا أنها توفيت بعد أكثر من عشر سنوات بالمرض الخبيث، دون أن يرزق منها بأطفال.. كان يحبها جداً.. لذلك ظل سنوات منعزلاً عن الحياة الإجتماعية.. ليس لديه سوى محاضراته، وكتبه التي كان ينشرها في بيروت والمغرب العربي.. بعد سبع سنوات أو ثمانٍ.. أي حينما كان في بداية الأربعين من العمر، ارتبط بطالبة ألمانية كان يشرف على اطروحتها لنيل الدكتوراه. كانت تصغره بخمس عشرة سنة تقريبا.. لكن هذه التجربة صدمته جداً.. إذ لم يكونا منسجمين.. ربما كانت حاجتها للنجاح وللإستفادة منه دافعا لها للزواج منه، وربما عزلته وحاجته للمسة أنثوية في حياته هي العوامل التي جمعتهما، فتزوجا. لكن هذا الزواج انتهى بما يشبه الكارثة التي كادت تذهب بعقله وتلقي به في هاوية الجنون، فقد اكتشف أن هذه المرأة كانت لعوباً، وأنها جعلت منه مهرجا أمام أقرانه من الأساتذة وأمام طلبة الجامعة، فقد كانت ذات علاقات جنسية متشعبة مع الأساتذة ومع الطلبة، خاصة طلبة الدكتوراه الذين يشرف على أطاريحهم الأكاديمية، وقد كان يستلم من بعض الطلبة العرب رسائل تنبيه عن سلوك

زوجته، وحينما كان يواجهها، كانت تبرر له ذلك بأن الآخرين يحسدونه على حياته العائلية، ويحاولون أن يدمروا حياته من خلال زرع الشك في نفسه، بل وتمادت في تبريراتها بإتهام بعض الأساتذة من أصدقائه، بأنهم كانوا يتحرشون بها ويحاولون إقامة العلاقات معها، لكنها صدتهم، ولم تنته قصته مع هذه الزوجة الثانية إلا بعد أن وصلته رسالة مجهولة، تؤكد له خيانة زوجته، وتدعوه للتأكد من صحة الإدعاء بالذهاب إلى شقة محددة، في نورنبيرغ شتراسه، وحدد له رقم المبنى، ورقم الطابق، ورقم الشقة، مع تحديد للتاريخ وللوقت أيضاً..... وفي اليوم الموعود، وقبل الوقت المحدد بساعة، كان هو في الكازينو التي تقع مقابل البناية، جالساً في أعماقها بحيث لا يمكن لأحد أن يراه بسهولة بينما هو يرى كل من يمر في الشارع، ويدخل أو يخرج من المبنى... وقبل الموعد بخمس دقائق لمح زوجته تدخل المبنى.. أراد أن يلحق بها، لكنه صبر قليلاً، وبعد ربع ساعة دخل المبنى، صاعداً إلى الطابق المحدد. وحين صار أمام الشقة المحددة وقرأ اسم العائلة على الباب، عرف أنها تعود لطالب عربي من تلامذته. شاب مصري يدرس الماجستير ويعد بحثا عن علم الأخلاق..... أراد أن يرجع، فقد تأكد من صحة المعلومات، لكنه مرة أخرى شكك في هذه المعلومات، محتجاً بأنه لم يرها في موقف مشبوه، فربما كانت قد جاءت لغرض آخر.. وربما هي ليست في تلك الشقة وإنما في شقة أخرى.. فمن أين له أن يتأكد..؟.. استجمع ارادته، وشكوكه، وضغط على جرس الباب........ ربما يحتاج المرء طبعا لمخيلة سينمائية ليتصور ملامح الدهشة والخوف التي ارتسمت على وجه الطالب المصري حينما فتح الباب ورأى أستاذه، وزوج عشيقته العارية في غرفة النوم يقف أمامه........ لم يتردد الأستاذ آدم مقدسي من الدخول إلى الشقة منتهزا ارتباك الطالب وتلعثمه، ولم تكن الشقة واسعة فقد كانت تتألف من باحة صغيرة تقود إلى غرفة النوم الوحيدة، لحظتها قفزت زوجته صارخة وهي تلملم نفسها لتغطي عريها بالشرشف القذر الذي كان على السرير، لكنها استجمعت نفسها ووقتها وقالت له بوقاحة، بأن هذا تصرف غير لائق منه.. كيف يقتحم عليها خلوتها، ويدس أنفه في خصوصيّات حياتها، ويتبعها كجاسوس أحمق...

لقد انفصل عن هذه المرأة بعد مشاكل وجلسات في المحاكم، خسر فيها الكثير، ونزعت منه الكثير، وبرغم من أن ألمانيا دولة علمانية، ودولة حق وقانون كما يقال وكما تسمي نفسها، إلا أن القاضي كان منحازاً إلى جانب الزوجة الألمانية ضده. هذه التجربة دمرته بشكل حقيقي، لكنه لم

ينهار، بل واجه الأمر بالذهاب إلى بيروت والزواج من امرأة في منتصف الثلاثين، لبنانية من أصل فلسطيني أيضاً، ويبدو أنها من أقاربه. وهي زوجته هذه التي اسمها إيفا مقدسي .

كانت حواء صحراوي مأخوذة بطريقة سرد إيفا بعلبكي لحكاية الأستاذ آدم مقدسي وتركيزها على التفاصيل، فسألتها :

- لكن من أين تعرفين كل هذه التفاصيل..؟

ابتسمت لها إيفا بعلبكي، قائلة :

- هذا بسيط.. لأني عرفت كل هذا وأكثر من هذا بكثير من زوجته التي ترينها أمامك.. عرفت ذلك من حواء مقدسي، فقد كانا جاريّ في فترة من الفترات. حينما عشت وحدي بعد طلاقي الثاني.. بل كنت أشرب القهوة معها كل صباح، ونتحدث.. فحدثتني عن تفاصيل كثيرة، بل أنا أعرف تفاصيل حياتهما ومأساتهما كلها ..

- هل تعرفين ابنهم الذي مات؟

- طبعا أعرفه.. رحمة الله على روحه.. لقد جنت أمه بعد رحيله ..

- هل هي مجنونة..؟

- لا طبعاً.. هي سيدة العاقلات.. لكنها أيضاً غير طبيعية ..

- كيف..؟

- السيدة حواء مقدسي ابنة عائلة ارستقراطية هاجرت إلى الأردن ثم إلى لبنان في بداية التهجير في العام 48 . هذه المرأة يا صديقتي نموذج غريب ونادر.. ربما كان يمكن أن تتخيليها قبل مائة عام وليس في وقتنا الحاضر.. فهي من نساء أيام زمان.. فبالرغم من أنها ترتدي الملابس المدنية الحديثة، وتنتقل بين البلدان بالطائرات، إلا أنها وكأنها لا تعيش في عصرنا.. فهي امرأة طيبة جداً.. طيبة لحد السذاجة.. طيبة لا تجدينها إلا في الشخصيات الرومانسية.. امرأة متناقضة أيضاً.. فهي تؤمن بالسحر، بكل ألوان السحر، الأسود والأبيض.. تؤمن بالأشباح.. بكل أنواع الأشباح.. بالظلال.. وبكل أنواع التعاويذ وبالفأل وتزور العرافين أحياناً.. تقرأ الفنجان كل صباح.. بل وفي كل مرة تشرب القهوة فيها.. هي تؤمن بأن الأرواح موجودة.. وتعيش معنا في عالمنا الأرضي.. تؤمن بالجن. بالجن الأزرق.. والأحمر.. بالجن المؤمن والكافر.. كما تؤمن إيماناً مطلقاً بالحسد والعين المالحة.. بالفأل السيىء وبحسن الطالع.. تؤمن بتأثير الصدقات على دفع البلاء.. وتؤمن بتقديم الأضاحي لراحة أرواح الموتى من الأهل والأحبة.. تؤمن بأن في

القطط أرواحاً غامضة لذا يجب تجنب القطط.. حواء مقدسي هذه طباخة ماهرة، لا يعلى على فنها في الطبخ، لكنها لا تأكل مما تطبخ إلا قليلاً إذ تكتفي أحيانا بما تأكله عند تذوق الطعام لمعرفة نسبة الملح أو البهارات فيه.. كانت تحس بالشبع حينما ترى زوجها وابنها المرحوم قابيل يأكلان بشهية.... هي قليلة النوم أصلاً، لكنها بعد وفاة ابنها الوحيد صارت تجبر نفسها على النوم كي تراه في الأحلام.. وحينما تنهض من نومها توقظ زوجها لتخبره بأن قابيل جاءها في النوم وأيقظها قائلاً بأن تعد القهوة لأبيه.. ورغم أن شقتها مليئة بالكتب إلا أنها لا تجد وقتاً للقراءة.. بل تكون هوايتها أحيانا هو تصنيف الكتب حسب الحجم ونوعية التجليد واللغة.. وبالرغم من أنها محافظة في سلوكها وعقليتها إلا أنها تتابع أخبار الجيران، لكنها لا تنتقد أياً كان حتى لو كان سلوكه لا يتفق مع قناعتها.. بل تكتفي بالدعوة لصاحب الشأن بالهداية والمغفرة.... كانت مولعة بابنها قابيل.. فقد ولدته على كبر.. وبعد سنوات من مراجعة الأطباء.. فقد كانت في الأربعين حين ولدته.. وحين مات في الحادث كانت على مشارف الستين، وقد كان ذلك قبل أربع سنوات..... كانت تخاف عليه لحد مضايقته وتشديد الخناق عليه.. لكنها في الوقت نفسه كانت تهابه.. وكان قابيل شاباً رائعاً.. كان باراً بوالديه جداً.. كان يحضنهما أحيانا وهو يقول لهما بأنه سيكون وحيداً جداً بعد رحيلهما عن هذا العالم.. وسوف يشتاق لهما جداً.. جداً.. فهو ابنهما الوحيد.. لكن لا أحد كان يتوقع ضربة القدر الغاشمة، بحيث يموت الابن في حادث تصادم سيارته بشاحنة كبيرة وهو في التاسعة عشرة من عمره..، بينما كان ينتظر انتهاء العطلة الصيفية للبدء بحياته الجامعية..............................

الآن في برلين، وفي مقبرة للمسلمين في شارع يُسمى كولومبيا دام، شأنها شأن بقية المقابر الألمانية المزينة بالأشجار والزهور، ثمة قبر مرمري، عليه صورة لفتى في مقتبل العمر، وكُتب بخط عريض اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته، يزوره بشكل دائم هذان العجوزان، حتى أني استغربت أول الأمر حينما قابلتهما هنا، لكن كما يبدو أن الأم مريضة بالمفاصل لذا جاءا إلى هنا للعلاج ..

كانت الدموع قد ترقرقت في عينيّ حواء صحراوي وهي تسمع قصة هذين العجوزين الحزينين، لكن الفضول لم يفارقها فسألت :

- لكن هل هي ترى ابنها الميت فعلاً أو هي في حالة تشوش نفسي..؟

- لا أدري بالضبط.. لكنها أحيانا تتصل بي صباحا لتخبرني بأن قابيل زارها وأخبرها بأنه سعيد في عالمه الآخر، وهو لا يريدها أن تحزن، بل يوصيها بأن تعتني بأبيه.. وأنه معهما ولا يفارقهما بتاتاً. كنت أول الأمر أظنها تهذي، لكني بمرور الوقت آمنت بأن الأمر صحيح، إذ أنها تحسنت كثيرا، وحزنهما هو أنهما يشتاقان إليه بينهما، وليس أن تراه في صورة ضبابية هلامية دخانية.. تقول لي أحيانا بأنها تشعر بلمسات كفه على كتفها، فتلتفت لتراه مبتسماً لها. وهي يداعبها أحيانا.. لكنه دائما يوصيها بالإعتناء بوالده لأنه يعرف بأنه حزين جداً على فراقه، لكنه يكظم ذلك الحزن في أعماقه كي لا يزيد من حزنها .

- والأب.. هل يرى شبح ابنه أيضاً..؟

- أول الأمر كان لا يصدق ذلك.. كان يعتقد أن زوجته ترى ذلك نتيجة حزنها وانهيارها النفسي.. لكنه بعد سنة من ذلك بدأ هو أيضا يشعر بحضور روح ابنه أو شبحه.. لكنه لا يتحدث عن ذلك أبداً... لقد أخبرتني مرة بأن الأب أيقظها من النوم ذات فجر.. وأخبرها بأنه رأى ابنه قابيل واقفا عند رأس السرير ينظر إليهما بحزن، لكنه حين انتبه إلى أن والده قد استيقظ فجأة أخذ يبتسم له، حينها لم يصدق الأب ذلك، وحينما أراد أن يلمس شبح ابنه.. اختفى.. بل صار الأب لا ينام كثيراً.. وينظم الساعة على مواعيد الفجر ليستيقظ عسى أن يرى شبح ابنه.. لكنه أكد لها بأنه رآه مرات حينما يدخل غرفة المكتبة، فيراه جالسا خلف طاولة الكتابة.. أو يراه واقفا وهو يتصفح كتابا قد استله من رف الكتب، لكنه ينظر إلى والده.. يبتسم له، ثم يختفي.. لم يحصل أن تحدث معه أو اقترب منه كما يحصل مع الأم... الأم قلقة على الأب وصحته.. تقول إنه حزين جداً جداً على ابنه.. وهي تفاجئه أحياناً يبكي وحده في المكتب بمرارة.. بحيث يهتز جسده الهرم النحيل مثل سعفة.. يبكي بصمت كي لا تسمعه.. حتى أن شبح ابنها نبهها إلى ذلك مرات عدة، وأخبرها بأنه حزين لوضع والده وحزنه عليه .

لم تتمالك حواء صحراوي نفسها، فسالت دمعتان من عينيها على خدها، أحست بالحرج قليلاً لذلك وضعت النظارة السوداء على عينيها. انتبهت إيفا بعلبكي لحزنها. وتأثرت لتأثر صديقتها، وشعرت نحوها بمحبة كبيرة. وقالت :

- لم أكن أعرف أنك رقيقة القلب وطيبة إلى هذه الدرجة.. ما كان عليّ أن أروي لك هذه القصة الحزينة ..

- على العكس.. أنا التي سألتك... لكني أشفق على كل الأمهات والآباء الذين يفقدون أحبتهم.. الفقدان شيء صعب للغاية.. وهذان العجوزان البائسان يدوران في متاهة الحزن والانتظار.. ليس هناك من معنى لحياتهما وهما في هذا العمر سوى انتظار ساعة الرحيل من هذا العالم.. ليلتقيا بابنهما.. أو على الأقل ليختما هذا الحزن المر والمقيم في أعماقهما ..

نظرت إيفا بعلبكي إليها نظرة رقيقة ومتأملة، وقالت :

- نعم أنت محقة.. الفقدان شيء صعب.. أحيانا حينما يذهب أبنائي ليلة نهاية الأسبوع إلى الديسكو أو أي مكان لقضاء الوقت مع أصدقائهم.. ويتأخرون إلى الساعات الأولى من الفجر.. أظل أنا ساهرة لا يأتيني النوم.. أتقلب موجوعة.. ويحدث أحياناً أن أتخيل أنهما تشاجرا وتم طعنهما بالسكاكين من قبل بعض الزعران.. أو حدث لهما حادث ما.. عندها تنزل الدموع من عيني وأحس نفسي كالمجنونة.. ولا يهدأ لي بال إلى حين أسمع قلقلة المفتاح في قفل الباب.. حينها أحس بالسلام والراحة.. لا أعرف يا حواء.. ما سر الأمومة والأبوة هذه..؟ فنحن نحمل بأطفالنا دون أن نخطط لذلك.. أي نحن لحظتها في حمى الشهوة والرغبة ونسعى إلى اللذة.. لكن حينما نحمل.. ويولد أطفالنا تختلف الدنيا.. ويصبح للحياة معنى آخر ..

- هذا صحيح ..

انشغلت حواء صحراوي عنها بمتابعة العجوزين في الجانب الآخر من حوض السباحة، كما انتبهت إلى اقتراب رجل في الأربعين من السرير الفارغ الذي يقع إلى جانبها ليتمدد عليه، وقبل أن يصل قامت من سريرها وتوجهت إلى حوض السباحة، وهي تقول لإيفا بعلبكي :

- الجو حار.. علي أن أبرد جسدي قليلاً ..

- نعم.. الجو حار.. هذا رائع.. ستسمر أجسادنا بسرعة.. أنا سانزل بعدك أيضا. أحتاج لبضع دقائق أخرى ..

كانت حواء صحراوي قلقة. تحس بمشاعر مختلفة ومتناقضة في أعماقها.. مشاعر قلق وحزن ويأس واحتقار لتفاهات الحياة، وغضب من الأمومة المفقودة، ومن فقدان الإرادة الحرة لممارسة الحياة بدون أية قيود أخلاقية واجتماعية ضاغطة. ألقتْ بنفسها في حوض الماء، وكأنها بذلك تطفئ النار التي أخذت تتأجج في أعماق.. لا.. ما معنى الأعماق.. كل شيء يدور في رأسها في جمجمتها هكذا كانت تفكر بينما مس جسدها الماء وبدأت تغوص إلى الأعماق .

الفصل الثاني عشر: المسبح المهجور

حين غطست حواء صحراوي تحت الماء في حوض السباحة انبثقت في ذهنها ظلال أفكار مشتتة تخص الأشباح، فقد رأت شبح آدم التائه، كما أن مخطوطة روايته تحمل اسم (متاهة الأشباح)، وهي تتحدث عن الأشباح، عن أبطال عاشوا وماتوا لكنهم يظهرون كأشباح، وها هي صديقتها إيفا بعلبكي تتحدث لها عن العجوزين اللذين يريان شبح ابنهما المتوفي، بل إن الأم إيفا مقدسي تتحدث مع شبح ابنها.. فهل الأشباح موجودة حقاً..؟

أطلت حواء صحراوي برأسها من تحت الماء أحست برعشة تسري في جسدها بالرغم من حرارة الجو. لم يكن هناك أحد. كان المسبح فارغاً من رواد الفندق بالكامل، بل بدا لها الفندق كله وكأنه مبنىً مهجور. تلفتت إلى ما حولها. كانت هناك أرجوحة فارغة لم تنتبه لها سابقاً تتحرك وتطلق صريراً مخيفاً ناتجا عن حلقاتها الصدئة، بينما كانت جميع الأسرّة المفروشة تحت الشمس فارغة من جميع جهات حوض السباحة دون أية إشارة لإستخدامها من قبل أحد. وحدها كانت في الحوض. أحست بالرعب. غطست برأسها في الحوض مرة أخرى كي تقطع المسافة المتبقية أمامها للوصول إلى حافة الحوض. أحست برعب هائل حينما أحست بكفين تمسكان قدميها من الخلف وتمنعانها من السباحة والغوص. أحست بأن تنفسها يكاد يتوقف وأنها صارت أشبه بالمشلولة، وكرد فعل على حالها في تلك اللحظات استنهضت كل قوتها التي حركها الرعب المفاجئ فدفعت بنفسها إلى الأعلى .

حينما صار رأسها ثانية فوق سطح الماء تنفست بقوة وأخذت تعب الهواء بقوة. تناهى إلى سمعها ضجيج رواد المسبح. أحست وكأنها أفاقت من كابوس مخيف، وسرى في جسدها استرخاء لذيذ مصحوب بدهشة غامضة حينما رأت رواد المسبح يتمددون على الأسرة في الشمس وهناك من يقفز إلى حوض السباحة. ظلت للحظات ساكنة سكوناً خارج الزمان والمكان. لحظات لم تفكر قط بأي شيء، ولم تحس بأي شيء، ولم ترغب في أي شيء. لا خوف ولا رغبة، لا حزن ولا فرح. لا ماض ولا حاضر ولا مستقبل. لم تكن سوى عين تنظر، إذ أن الكون حولها كان غارقاً في الصمت المطبق. كانت موجودة وغير موجودة، أحست وكأنها عدم ينظر إلى العدم .

فجأة، وكأنما هي ماكنة تم تشغيلها بالضغط على زر التشغيل،

أحست بتدفق الحياة فيها. التفتتْ فرأت صديقتها إيفا بعلبكي تقف على حافة الحوض لكنها مترددة في القفز، لذلك توجهت نحو الدرج القصير الذي ينزل إلى الحوض، ومنه دخلت الحوض وقفزت إلى الماء .

ظلت هي للحظات عند حافة الحوض. رجعت إلى حيث الدرج من الطرف الآخر من الحوض. حين مست قدماها أرضية الحوض أخذت تخطو في الماء إلى أن وصلت الدرج. صعدت خارجة من حوض السباحة. كانت إيفا بعلبكي منشغلة بالسباحة لكنها التفتت إليها فرأتها تلبس برنسها وتضع علب المراهم في حقيبتها التي حملتها معها. أشارت إليها بيدها وهي في الحوض إلا أن حواء صحراوي لم تلتف إليها ولم تنتبه لها. غادرت المكان وكأنها تريد الهرب. ظلت إيفا بعلبكي تتبعها بنظراتها وهي تستغرب تصرفها، لكنها لم تأول الأمر وتفسره بأي شيء، بالرغم من أنها استغربت ذهاب حواء صحراوي بهذه السرعة فهي لم تمكث إلا قليلاً في المسبح، بينما يأتي الكثير من زوار الفندق مبكرين من أجل الحصول على سرير فارغ في الشمس .

* * *

لا تدري حواء صحراوي لماذا تلاشت رغبتها في البقاء في المسبح لفترة أطول والإستلقاء تحت الشمس، كما انتبهت لطريقة مغادرتها المسبح دون أن تودع إيفا بعلبكي، لكنها أقنعت نفسها بأنها ستلتقيها عند العشاء .

بعد أن أخذت حواء صحراوي حماماً دافئاً، ارتدت بيجامتها واسترخت على السرير. ظلت ممدة للحظات لا تفكر في أي شيء. فجأة أظلم كل شيء.. أحست نفسها وكأنها ترى نفسها من بعيد في مشهد فوقها.. في سقف الغرفة.. وكأن سقف الغرفة تحول إلى شاشة كبيرة.. رأت نفسها في غرفة مظلمة.. كانت ترقد في الفراش.. كانت نائمة.. أحست بظل غير مرئي لشخص دخل الغرفة.. هبوب لحركة في الظلمة.. أرادت أن تنهض لكنها أحست وكأنها مشلولة لا تستطيع الحركة.. سألت بفزع: من هناك..؟ لكنها لم تسمع صوتها.. كررت السؤال لكنها كانت تقول كلاما لا يتجسد في صوت مسموع. أحست بنفسها تطير في الهواء وهي على وضع الإستلقاء الذي كانت فيه.. فجأة.. فزت حواء صحراوي على صوت الهاتف وهو يرن. كانت ما تزال وكأنها في عالم بعيد.. تسمع رنين جرس الهاتف ولا تستطيع أن تسيقظ بالرغم من أنها فزت من غفوتها الغريبة .

ظل الهاتف يرن للحظات دون أن تنهض إليه أو تمد يدها على الأقل لأخذ سماعة الهاتف فهو ليس ببعيد عنها، ثم بتكاسل مدت يدها

وأخذت السماعة، كانت تظن أنها إيفا بعلبكي ربما، إلا أن الصوت الذي سمعته كان وكأنه زرقة أبرة قوية وخزتها وبث الحياة والعافية في جسدها. كانت إيفا ليسنج على الطرف الآخر، فأخذتا تتبادلان التحايا والسؤال عن بعضهما البعض بحرارة، وكأنما لم تكن ثمة جفوة بينهما :

- آسفة.. لم أكن بالأمس موجودة فقد كانت لدي جلسة عمل مع المخرج والمنتج.. وكذلك حضر الممثل الذي سيؤدي دور هيثيكليف ..
- هل هو ممثل معروف..؟
- نعم.. إنه ممثل نمساوي مشهور في أوروبا والبلدان الناطقة بالألمانية.. كما مثل بعض الأدوار في هوليوود.. وهو من الممثلين الواعدين جداً.. اسمه آدم آدمز ..

ضحكت حواء صحراوي، وعلقت :

- ما هذه اللعنة..؟ أنّى اتجهنا نجد آدم يلاحقنا ..

فضحكت إيفا ليسنج وقالت :

- يبدو أنه قدرنا.. بالمناسبة.. أتدرين من أتصل بي ليلة أمس..؟
- من..؟
- آدم ..
- آدم.. أي آدم..؟
- كم آدم نعرف نحن..؟ آدم التائه طبعا ..

فصرخت حواء صحراوي دون إرادة منها :

- مـاذا..؟

انتبهت إيفا ليسنج إلى أن صرخة صديقتها لا تحمل نبرة التعجب صافية بل ثمة شيء من الخصوصية، فسألتها بعد ثوانٍ :

- لماذا صرخت مستغربة هكذا..؟

فقالت حواء مستدركة وكأنها انتبهت إلى أنها فضحت نفسها :

- لأني استغربت الخبر ..

صمتت إيفا ليسنج للحظات ثم سألت بنبرة استفهام واتهام مبطن :

- ألم يكتب في رسالته بأنه غادر لندن راجعاً إلى ألمانيا..؟
- في رسالته إليك.. نعم.. لكن هل تحدثت معه..؟
- لا.. لم أكن موجودة ..
- وما أدراك إنه هو..؟ أترك رسالة لك يؤكد أنه هو..؟
- لا.. لكن في الإستعلامات قالوا لي بأن ثمة شخصاً اتصل بي، لكنه لم يترك اسمه ..

- وكيف عرفت أنه هو..؟
- لأنه تحدث مع موظف الاستقبال بالألمانية.. وكذلك كان الاتصال من ألمانيا.. لكن كما قال لي موظف الاستعلامات بأن الرقم الذي اتصل منه يبدأ بمفتاح مدينة برلين ..
- آها.. يعني هو ليس في ميونخ..؟
- لا.. ليس في ميونخ.. أعتقد أنه في برلين ..

صمتت حواء صحراوي للحظات محاولة أن تستجمع شتات نفسها وأفكارها، فقد كان هذا الخبر صاعقاً لها وتحتاج إلى بعض الوقت كي تستوعب ما سمعت وتجد له تفسيرا منطقياً. انتبهت إيفا ليسنج لطول فترة الصمت التي امتدت بينهما فسألت :

- هلو.. أأنت هنا..؟

ارتبكت حواء صحراوي للحظة ثم قالت بصوت فيه نبرة إصطناع للهدوء :

- نعم أنا هنا.. لقد قمت لتشغيل المكيف فالجو حار هنا ..
- أحسدك.. هنا لاحقني المطر أيضاً.. فقد أخذت السماء تمطر طوال النهار ..
- إذاً تعالي.. لا تحتاجين للحجز.. لدي جناحي هنا ..

تفاجأت حواء صحراوي من نفسها لطلبها من صديقتها بأن تأتي إلى إسكيا. انتبهت إلى دوافعها الغامضة في أنها تريد منها المجيء لتبعدها عن إحتمال لقاء آدم التائه، رغم إحساسها بأن ثمة شيئاً غامضاً في كل هذه القصة. انتبهت لنفسها ولصراعها الداخلي، فهي تريدها أن تأتي وفي نفس الوقت لا تريد ذلك، لأنها تحتاج كي تكون وحدها.. تحس بحاجتها الشديدة إلى العزلة. أخرجها من تأملاتها الداخلية صوت صديقتها وهي تقول لها :

- رائع.. جداً.. شكراً لك على الدعوة.. لكن للأسف لا أستطيع ذلك ..
- لماذا..؟
- لأن لديّ جلسات عمل.. حول الرواية والسيناريو ورؤية المخرج الجديدة في تفسير الرواية ..
- ومتى تنتهي هذه الجلسات..؟
- لقد أنهينا إحدى هذه الجلسات اليوم صباحاً.. بالمناسبة لديه رؤية مهمة في تفسير شخصية البطلين.. كاتي وهيثيكلف ..
- كيف..؟

- إنه يركز على اللذة والألم باعتبارهما قطبي الحياة ..
- اللذة والألم..؟
- نعم.. اللذة والألم.. إنه حديث طويل لا يمكن شرحه بالتلفون.. لكني أختصره لك بالتالي: فهذا المخرج يرى بأن السعادة هي غاية البشر في هذه الحياة.. الجميع يصبو إليها ..

قاطعتها حواء قائلة :

- هذا صحيح. وطبيعي جداً أن يسعى الناس إلى السعادة.. هذه من البديهيات وليست اكتشافاً ورؤية خاصة كما تقولين ..
- ليس الأمر كذلك.. إن فكرته هي مفتاح تحليله لرواية (مرتفعات وذرينغ).. فهو يرى بأن كاتي وهيثكليف كانا يسعيان إلى سعادتهما من خلال إشباع رغباتهما وتحقيق لذتهما دونما أي احتكام للأخلاق الدينية الريفية.. ولذاتهما كانت لذات جسمانية وليست لذات عقلية ..
- وكيف توصل إلى ذلك والرواية ليست فيها أية مشاهد فاضحة أو حتى موحية ..؟ !
- لا. لا. هو يعتقد بأن أميلي برونتي كاتبة رومانسية.. كما أنه من أخلاقيات المجتمع الريفي هو التحفظ الشديد والكتمان في مثل هذه الأمور لاسيما والكاتبة هي امرأة.. وبالتالي فأن إشارات قليلة عن ترعرع الإثنين معاً منذ سنوات الطفولة والمراهقة في منطقة معزولة.. حيث كانت إشارات الكاتبة بأن كاتي وهثيكليف كانا لا يفترقان قط. وكانا يقضيان الوقت معا.. يعني أن اكتشافاتهما للجسد بدأت من خلال تجربتهما الخاصة.. وبما أن وسائل الإتصال والدراسة العلمية ووسائل التثقيف في المسائل الجنسية لم تكن متاحة.. فقد كانا يلتقطان خبرتهما الجنسية من تناسل الحيوانات المحيطة.. لاسيما وأنهما كانا يتحدثان عن الزواج ..
- ثم ماذا..؟ لا أجد في ذلك رؤية خاصة ..
- استمعي أولاً.. هو يرى بأن اللذة الجسدية أفضل من اللذة العقلية.. لكنه يرى من جهة أخرى بأن الآلام الجسدية أسوأ بكثير من الآلام العقلية.. ومن هنا كانت معاناة هيثيكلف وكاتي.. فقد كانت اللذة تعني غياب الألم لكنها أيضا مرتبطة به.. اللذة هي هدف كل رغبة.. والوصول إلى اللذة قد يكون مؤلماً.. لا سيما بعد أن سمع منها نصف حديثها الذي لم يستكمله بأنها تفضل الزواج من أدوار الذي طلب يدها.. وحينما سألتها مديرة المنزل عن هيثيكليف قال بأنه ليس من مستواها.. أي أن المجتمع المحافظ حاول أن يضفي طابعه الأخلاقي على اللذة.. وهو في

الجوهر طابع إجتماعي.. أي ربط اللذة.. أي إشباع الرغبة بالمصلحة الاجتماعية وبالأخلاق والدين.. أي تحقيق لذة عقلية.. لأن لذة كاتي الجسدية وموضع رغبتها هو هيثيكليف.. وبالتالي فأن حرمانها من لذتها الجسدية.. وموضوع رغبتها الذي يتجسد في حبيبها هيثيكليف سينتج ألما هائلا لها.. لذلك فأن المخرج يريد التركيز على اللذة الجسدية باعتبارها هي سعادتها ..

صمتت حواء صحراوي للحظات وهي تتأمل ما قالته صديقتها، فسمعت الأخرى تسألها :

- هلو... أين أنت..؟
- أنا هنا إيفا.. أحاول أن استوعب فكرة المخرج وتحليله للرواية.. هي وجهة نظر ممتعة لكنها قابلة للنقاش ..
- كيف..؟
- السعادة لا ترتبط باللذة بالضرورة، وبالتحديد باللذة الجنسية.. على العكس.. البوذية ترى السعادة في محو الرغبات.. والعفة.. والوصول إلى الصفاء وهو منتهى اللذة الروحية.. ناهيك، أننا لو رجعنا إلى الرواية التي ناقشناها مراراً مع آدم التائه الذي كان من المغرمين بها، نرى أن هيثكليف كان يجد لذة في تعذيب نفسه.. وكاتي كانت تجد لذة في إذلال نفسها أمامه.. أي أن جوهر اللذة لم يكن في الذروة الجنسية.. وإنما في أرواء رغبة شعورية محددة ..
- هذا طرح جميل.. سوف أطرحه للمناقشة في الجلسة القادمة.. بالرغم من أن التحليل النفسي يرى في مثل هذه المشاعر المازوخية والسادية تحويلا في موضوع اللذة، لكن مهما كانت التفسيرات.. فالسيناريو قائم على تجسيد اللذة الجسدية الجنسية وعلى ألم الحرمان منها.. لأن الوصول إلى هذه اللذة يصحبه الألم ..
- على أية حال.. حاولي أن تنجزي ما لديك بسرعة.. فأنا هنا لفترة أخرى لا تقل عن أسبوعين.. ويمكن أن تطول.. سأكون بانتظارك ..
- سأحاول.. هذا شيء رائع.. ربما بعد يومين سأنتهي من هذه الجلسات.. لكن ماذا عن آدم التائه..؟
- ماذا عنه..؟
- علي أن أراه وأقابله لأفهم منه سر مغادرته لندن ..
- هل تذهبين إليه في برلين..؟
- لا أعرف ..
- على أية حال سأكون بانتظارك.. وسلمي لي عليه إذا ما تحدثت

معه ..

- بالتأكيد.. وسأخبره بأنك في إسكيا ..
- حاولي الحصول على رقم هاتفه.. كي أتصل به أنا أيضاً ..
- سأفعل ..
- سأكون بانتظارك.. متى تتصلين ثانية..؟
- لا أدري ..
- من الأفضل أن تتصلي في الليل.. لأني قد أكون صباحاً أو عصراً عن حوض السباحة ..
- طيب.. أسعدني الحديث معك ..
- وأنا أيضا.. سأكون بالانتظار ..

حين وضعت حواء صحراوي سماعة الهاتف في موضعها ظلت مسترخية على وضعها في السرير. مدتْ يدها وسحبت وسادة الريش الطويلة ووضعتها تحت رأسها وكتفيها. أخذت تفكر بما قالته إيفا ليسنج عن اتصال آدم التائه بها. سألت نفسها: كيف يمكن ذلك..؟ ألم يكتب لها بأنه كتب لإيفا ليسنج بأنه يغادر لندن إلى ألمانيا كي يضللها وليبرر سبب إختفائه، لأنه سيبقى في لندن.. وطلب منها أن لا تخبرها بذلك..؟ فكيف هو الآن فعلاً في ألمانيا..؟ كيف يمكن ذلك..؟ ألم تره قتيلاً في الشقة..؟ هل يا تُرى تواصل إيفا ليسنج اللعب معها من أجل التغطية على جريمتها، من خلال التأكيد بأن آدم التائه موجود في ألمانيا، لذلك فلا حديث عن إختفائه ولا عن جريمة قتله..؟ ومن يا تُرى ذلك الذي رأته في مطار هيثرو..؟. أيكون ذلك هو شبح آدم التائه..؟

ظلت على تلك الحال لفترة لا تدري كم طالت لأنها غرقت في النوم وهي على وضعها ذاك .

* * *

حين أفاقت من غفوتها انتبهت للساعة الجدارية فعرفت أنها نامت في حدود الساعة. تمطت على السرير طاردة ما تبقى من نعاس وخدر فيه. نهضت من السرير متوجهة للصالة. فتحت الثلاجة وأخرجت قنينة ماء سكبتها في الدورق الكهربائي وضغطت على رز التشغيل. وأخذت من الصينية المجاورة على الطاولة كوبا وأكياساً من شاي اللبتون. وأعدت لنفسها كأسا من الشاي. حملت كوب الشاي إلى الشرفة ووضعته على الطاولة. عادت إلى غرفة نومها وحملت مخطوطة رواية متاهة الأشباح، وعادت ثانية إلى الشرفة .

أخذت ترتشف الشاي وتنظر إلى حوض السباحة الذي امتلأ برواد الفندق. لمحت صديقتها إيفا بعلبكي التي ما زالت في المسبح ومعها صديقتيها اللبنانية والعراقية، إلا أن عينيها استقرتا، لا إراديا، على جسد امرأة متمددة على السرير في جانب الحوض الموازي لجلستها على الشرفة. كان جسد المرأة مثيرا بشكل ملفت، وكانت المرأة تقرأ في كتاب سميك لم تستطع أن تتبين عنوانه. جاء رجل في سروال السباحة فوقف عند رأسها وتحدث معها. ثم جلس قربها. كان ظهره إليها. أخذ يحدث المرأة المستلقية. فجأة. وكانما كانت هي مدار حديثهما، إذ التفت الرجل الجالس عند المرأة ملتفتاً إليها. ناظراً إلى الشرفة حيث تجلس. أحست بأن أنفاسها تكاد تتوقف، فقد كان هو نفسه الإيطالي الذي تحرش بها في الباخرة. كان يحدق إليها بوقاحة. وأحست وكأن وجهه صار قريبا عليها في الشرفة. ارتعبت. وأحست بالإرتباك والخجل. أحست وكأنها تشرق بالشاي. أرادت أن تبعد الكوب عن فمها فانسكب شيئاً من الشاي على الطاولة. ارتبكت. حين نظرت ثانية إلى المسبح وإلى المرأة. رأت المرأة ما تزال متمددة في موضعها، لكن الرجل قد اختفى .

فكرت أن رغباتها الغامضة وحاجاتها الجنسية ربما هي التي هيأت لها مثل هذه الرؤى الغريبة، لكن كيف لها أن ترتوي من اللذة. أتظل معتمدة في استحضار اللذة على أصبعها..؟ إلى متى سيستمر ذلك، بينما هي تحتاج إلى جسد حي.. إلى رجل.. تحتاج إلى من يُسمعها كلاماً جميلاً، وأفكاراً ذكية ويتميز عليها بالحضور والقوة والفكر. شخص بجمال الرجل الايطالي وبذكاء آدم التائه .

ظلت سادرة في تحليلها لنفسها، إلى أن تعبت، فأخذت المخطوطة، وبدأت تقرأ من حيث انتهت البارحة:

متاهة الأشباح

14

نشيد الشبح الحزين

لقد آن الأوان ..
لقد أخضرت أوراق الأبجدية ..
إذن ..
لهم الأنبياء ولنا المصاحف والتعاويذ والكتب الصفراء ..
لهم الليل يقودوننا فيه إلى المعتقلات.. وإلى المقابر الجماعية.. ولنا

شمس الظهيرة الحارقة

لهم ضفاف دجلة والفرات ولنا هجير الصحراء وغبار رياح السموم الخانقة ..

لهم الشوارع العريضة التي تسير فيها مواكبهم ولنا الأزقة والأرصفة المحفورة ..

لهم النبرة العالية ولنا الصوت المبحوح ..

لهم اليقظة والإستنفار الدائم.. ولنا الكوابيس والأحلام ..

لهم النوم المريض.. ولنا الموت الرحيم ..

لهم المنطقة الخضراء.. ولنا البلاد المظلمة ..

* * *

أنا العدم الموجود القادم من العدم.. أنا اللاشيء القادم من اللاشيء.. أنا ظل العدم.. اللاشيء المتشييء.. المتجه إلى العدم واللاشيء.. لا ماضٍ لدي.. ولا ماض للعدم.. لكن العدم الحاضر.. والعدم المتجه إلى العدم.. أيتجه العدم إلى العدم..؟

أنا الشبح الحزين ..

أنا بقرة الحكمة السوداء التي تتوهج في عينيّ طمأنينة الموت ..

ليس لنا سوى هذه الحياة ..

ليس لنا سوى الإحتفاء بالحب والرغبات المحرمة ..

لا ينتظرنا سوى الضجر ..

نهرب من أنفسنا إلى الحياة ...

الموت في أعماقنا ينظر إلينا بعينين متقدتين مثل فهد أسود في ليل الأعماق المظلمة ..

إندفعت بكل جنوني نحو الحياة.. هبطت مغامراً إلى أعماقها الجهنمية الملتهبة.. ودخلت مغاراتها المظلمة.. مأخوذاً بنشوة العلم.. بارتعاشة الجمال اللازوردية.. بلذة الحب.. وبتجليات الكشف وطموح الأسئلة.. لكني لا أذكر الآن من جنوني سوى جنوني... ذكريات محنطة عن الجنون.. ذكريات ميتة عن الحياة .

قادني الدين إلى الإلحاد.. والإلحاد إلى الإيمان.. فأكتشفتُ نور ذاتي في الوجود المرئي واللامرئي.. وبين تديني وإلحادي تترامى مجرات من الأسئلة المضيئة والمطفأة..

وبين إلحادي وإيماني تتراقص مجرات من النور الحليبي..

وتتـلاطـم محيطات من الضوء الأسود .

لستُ بطلاً..
الأبطال الحقيقيون ينامون في القبور الجماعية..
تحت قبور بلا شواهد..
الموتى وحدهم هم الأبطال..
الموتى وحدهم من يحملون الزهور الذابلة ويمضون إلى كرنفال الحقيقة .

فتشت عن معنى للحياة فلم أجده إلا في الحب.. لا.. ليس المعنى في الحب.. لكن الحب هو الوسيلة الوحيدة لنواجه بها ضجر الحياة .

* * *

ذات يوم دخلت المرآة وجدت نفسي في متاهة الزئبق، وحين خرجت كنتُ شبحاً زئبقيا. أنا آدم الحزين.. حلمت ذات يوم بوطن جميل.. حلمت بالحب والصداقة والجمال.. لكني لم أجد سوى بلاد تُساق إلى الذبح كما تساق البقرة إلى المسلخ.. أدخلوني زنزانة ووضعوا قناعا على رأسي.. وحين فكوا القناع الصدئ عن رأسي بعد سنوات.. لم يكن هناك رأس ولا وجه.. كان القناع يغلف الفراغ .

كل الأنهار تجري إلى البحر والبحر ليس بملآن. إلى المكان الذي جرت منه الأنهار إلى هناك تذهب راجعة. كل الكلام يقصر. لا يستطيع الإنسان أن يُخبِرَ بالكُل. العين لا تشبع من النظر، والأذن لا تمتلئ من السمع.. لا النفس تشبع من الرغبات ولا القدرة كافية لذلك..، الكل لا شيء.. الكل شيء غير مرئي.. قال الشبح الحزين ..

* * *

أصغ إليّ يا قارئ هذه الصفحات.. أنت قد تبحث عن إثمي وتفتش على خطيئتي.. وها أنذا أقول لك: لم تكن أيامي أياماً.. لقد كنت ظلاً تائها في أرض الموت.. ظلاً مهاناً وذليلا.. لقد أعدموا اسمي.. نعم أعدموا اسمي.. - بل أعدموا إنساناً.. أعدموا لاشيئا آخرَ بدلاً عني.. أعدموا سوسنة الأودية. كلنا آثمون.. لا أبرياء هنا سوى الأشجار .

سأفتح لك كنوز التجارب الفاسدة.. عندها ستتمنى الطوفان ليُغرق هذا العالم العفن.. ستجد رهطاً من الأدباء التعساء، الخانعين، المطيعين، المتملقين، والمنافقين.. يتشبثون بسفينتك الوهمية.. لكنه التاريخ المزيف مرة أخرى سيجيء.. سينظر إلى الجميع بعينيه الناعستين.. سيبرئ الجميع.. القتلة وضحاياهم.. وما دام هناك النسيان فالحياة ستكون ممكنة. الحياة فاكهة النسيان .

* * *

من أجل الحب نقتل الآخرين.. وباسم الحب نشن الحروب.. باسم الحب نوقد جحيم الإنتقام! بل باسم الحب نكره ونحقد ..

أه من الأحلام.. لقد ذبلت الورود في حديقتي وهي تحلم بالطيران.. الفراشات ماتت قبل أن تصل إلى الشمعة وهي تحلم بالحرية.. كم من الحنين أحنى شجرة الرمان ..

كم من الفنارات انطفأت في ليل الخيانة.. كم من الموانئ تحطمت من هول أمواج بحر الظلام العاتي ..

كم من المنعطفات المظلمة والمليئة بالدخان في أودية الجحيم.. كم من الضجر في الفردوس .

لست إلهاً... أريد الرحمة.. لا القرابين.. أريد الحنين لا الصلوات الذليلة المنافقة ..

يا لخيبة الذهب وهو في عتمه.. مرعوباً من مطاردة البشر له ..

* * *

ألقيتُ الدفتر جانباً.. لم أكمل القراءة.. أخذتُ أفكر بهذه الأوراق.. مَن أتى بها يا تُرى..؟ أيعقل أن يكون صديقي آدم الواسطي..؟ أو شبحه كما يقول..؟ أو هي لعبة من الأشباح التي رأيتها والتي التقيتها في متنزه الزوراء.. ولا أدري إنْ كان ذلك في الواقع أم في المنام..؟

أردتُ أن أذهب إلى أبي وأسأله عن الشخص الذي سلمه هذا الظرف الغريب، لكني لا أتحدث معه منذ سنوات، بيد أني وجدت نفسي منقاداً مرة أخرى لقراءة ما جاء في الدفتر، فقد أراد صاحبها أن يخبرني بقصته. فتحت الدفتر ثانية وواصلت القراءة :

* * *

ربما لم تفهم شيئاً مما تقدم في هذه الأوراق.. قد تفكر بأني أهذي.. لا.. لكني سأنتقي لك شذرات من تجربتي في الغياب.. أقصد في السنوات التي عشتها بأسماء أخرى أو بلا أسماء بعد أن تم إعدام شاب برئ نيابة عني.. أنا الشبح الحزين..! ستسأل نفسك عن سبب تسميتي لنفسي بالشبح الحزين. سأقولها لك ببساطة.. لأنني ميت .

تندهش.. وتستغرب.. وتعتقد أنني أكتب بلغة شعرية ممزوجة بالفلسفة واللغة الرمزية والاستعارية.. لا.. لا.. إنني ميت فعلاً.. والذي يحدثك هو شبح آدم الواسطي الحزين.. شبحي.. لا تخف.. أنت لا تؤمن بالأشباح ربما.. طيب.. لكن هذا لا يعفيني من أن أقول لك بأنني شبح آدم الواسطي..

أتريد أن أوضح لك ذلك..؟ لا أستطيع.. لكنك تستطيع أن تسأل نفسك إنْ كنتً تحس بوجودي وتشعر بي أو حتى تراني محسوساً..؟ ستقول لي بأنك إنسان علمي ولا تعترف بوجود الأشباح، وأنها ليست سوى هلوسات عقول مريضة.. وأنك تعيش في عصر العلم، حيث الحديث عن الأشباح ليس سوى حماقة وخرافة وهلوسة.. لكني أقول لك بأن لكل عصر حماقاته، زخرافاته وأكاذيبه.. حتى في عصر العلم هناك حماقات علمية وخرافات علمية وأكاذيب علمية.. أسمعت بالخرافات العلمية عن لعنة الفراعنة التي رافقت فترة استكشافات الإهرامات ومقابر الفراعنة في وادي الملوك..؟ أو الحماقات عن حضارة قارة الأطلانطس التي غرقت في البحر..؟

على أية حال.. وجودي ينبثق من إيمانك، فإن كنت تؤمن بالأشباح فأنا موجود..، وإن كنت لا تؤمن فهذا يعني أن حتى هذه الوريقات التي بين يديك هي غير موجودة لأنها أوراقي.. وبما أنها موجودة فأنت موجود أيضا.. وأنا موجود.. وإذا هي غير موجودة فهذا يعني ربما أنت أيضاً غير موجود..! إذاً.. لنترك مسألة وجودي أو لاوجودي.. وأكون أو لاأكون.. فليس هذا هو السؤال.. فأنا لستُ هاملت وأنت لست شكسبير.. أليس كذلك..؟

* * *

أنا آدم الواسطي راعي العزلة. أعتقلت لوشاية عابرة غير مقصودة كتبتها فتاة يائسة وهي تودع الحياة انتقاما من أهلها، من أبيها العاجز بذلة أمام خيانات زوجته وابنته، ومن أمها التي تدخل الغرفة مع عشيقها وأمام أعين زوجها والجيران، بل وتبحث عن شبابها الضائع في أحضان الطامعين في جسدها الفياض بالرغبات المحرمة، ولما يئست من ذلك، فلم تبال حينها من أن تزوجها إلى عشيقها. لقد أرادت أن تؤلمهم، وهي تعرف أنها بموتها ستؤلمهم جداً، بل تحطمهم، لذلك أقدمت عليه ناسية أنها بذلك تخسر حياتها وشبابها، وتفارق هذا الوجود الحلم، هذا الوجود الكابوس، بطريقة مؤلمة. وأنهم مهما حزنوا عليها إلا أن ذلك لا يدوم لأنهم سينسونها بعد فترة مهما طالت .

لقد ذكرَتْ اسمي ربما عرضا، وربما أرادت من وراء ذلك أن تحملني تأنيب الضمير، وأنا على ثقة بأنها لم تكن تعرف أنها ستؤذيني من وراء ذكر اسمي عرضا كسبب من أسباب خيبتها التي دفعتها إلى الإنتحار.. كانت فتاة طيبة لم تكن تعرف أن البشر ليسوا إلا قروداً متطورة.. نعم.. نحن أحفاد الشمبانزي.. أو أبناء عمه.. لسنا ملائكة ولا أبالسة.. نحن قرود.. أنا لا أمزح.. ولا أشتم أحداً بقولي هذا، ولا أهين البشرية..، فقد ثبت علمياً

أننا نشترك مع الشمبانزي بأكثر من 96% من جيناتنا النشطة، أي أن القرابة بيننا وبين الشمبانزي أوثق بكثير من القرابة بين الفئران والجرذان.. هل تصدق ذلك..؟ أنا أصدقه.. بل إن جسدنا قد تطور عن الشمبانزي لكن طبائعنا كبشر ظلت مثل طبائع القرود .

على أية حال، ربما أنت لا تستطيع أن ترى هذه الحقيقة، ولا تريد أن تراها، وربما لا تستطيع أن تراها، فهي من السطوع والوضوح بحيث تستفز أعيننا فلا نستطيع مواجهة نورها الساطع .

الأشباح لا تحب الشروح المستفيضة.. لذلك سأختصر لك.. أخذوني القرود التي يبدو أنها لم تتطور إلى الإنسان بعد، ومارسوا معي كل ما يمكن أن تقوم به الحيوانات في الغابة. إلى أن وصل الخبر لعائلتي، وهم قرود أيضا، وتم إنقاذي بصيد إنسان عابر، كان يمشي في طريقه، فاعتُقل من قبل رجال الأمن، وأتوا به إلى الضابط الذي كان قد استلم من أهلي ثمن إطلاق سراحي، فاستبدله بي، وأطلقني.. نعم.. كل شيء جائز في دولة القرود .

كان هذا في أيام ذلك النظام، وقد تكرر الأمر بعد سقوط النظام ومجيء الأميركان وقيام نظام جديد صار فيه ضحايا نظام القرود هم الذين يحكمون، لكنهم صاروا أسوأ من نظام القرود السابق، فهؤلاء شلة من الخنازير النتنة.. لا تستغرب فأنا لا أشتم.. فنحن والخنازير نكاد نكون أخوة.. ألا نستخرج الأنسولين لملايين البشر من الخنازير.. لأنه مطابق لأنسولين البشر.. كما أن مركبات جسمه وأخلاطه قريبة منا.. بل هناك خطوات لاستخدام كبده في عمليات جراحة الكبد البشرية ونقل كبد الخنزير إلى الإنسان.. وربما قلبه.. أي بشر بقلوب خنازير.. ومرة أخرى فبعض وجوه النظام الجديد نتنة نتانة الخنازير.. والبعض الآخر قرود.. لكنهم قرود متخلفة وليست بمستوى ذكاء الشمبانزي. لا تبتسم. أنا لا أشتم أحداً.. ولا أريد أن أكون مرحا.. فلست سوى شبح حزين .

* * *

منذ لحظة خروجي من عتبة السجن وإغلاق بوابته خلفي.. صرت بلا هوية.. الشاب الذي سيق من الشارع بدلاً عني صار هو آدم الواسطي.. والدي وعمي.. كانا فرحين ومرتبكين في الوقت نفسه، بل كانا خائفين أيضا. كانا قد حملا بعض قطع الملابس.. وعملا لي هوية مزورة.. بدلت ثيابي في السيارة.. ووضعت الهوية الجديدة التي تحمل صورتي في جيبي، وسلماني مبلغا كبيراً من المال، وأخذاني إلى كراج النهضة .

كانت البلاد في حالة فوضى وارتباك بعد تدمير الجيش العراقي في الكويت، وسحقه وهو ينسحب، ثم انتفاضة الجنود، وما تبعها من انتفاضة.. والقمع الذي استخدمته الحكومة ضدها.. وبقاء النظام في الحكم.. ومحاولاته أن يفك من قبضته قليلا على نفوس الناس.. ربما كل هذه الأشياء مجتمعة.. والتي لم أشهد أي منها لأني كنت عشية الحرب تقريبا في المعتقل.. ربما كل هذه الأشياء ساعدتني في التنقل بيسر وسهولة بين محافظات البلاد.. لاسيما وان لدي ما يكفي من المال .

والدي وعمي ودعاّني وكأنما يريدان الهروب مني بأي شكل. حتى أبي وجدته وكأنه تخلص من هم كبير، فأهم شيء بالنسبة له كان هو أني حي ولم أُعدم. كانا يعرفان إنْ انكشف أمري فسيعدمان، لذلك أوصياني بأن لا أقترب من محافظتي، ولا أتصل بهما بأي شكل من الأشكال لفترة سنة على الأقل، لذلك عليّ تدبر أمري، لاسيما وأن لديّ الآن مبلغ كبير يكفيني لسنتين من العيش المعتدل. بل وبعد فرض الحصار على البلاد وغياب السلع من الأسواق استطعت أن أعيش أطول فترة ممكنه بهذا المبلغ لاسيما أني قد اشتغلت في ما بعد .

ربما ستسغرب إذا ما عرفت بأني سافرت لحظتها إلى البصرة. بقيت هناك ثلاث ليال. كنت لا أذهب إلى الفنادق إلا بعد منتصف الليل. أقضي نهاري كله في السينمات والتجوال على الكورنيش أو الجلوس في مقهى أو التجول في سوق الهنود، وهكذا يستمر الحال إلى ما بعد منتصف الليل بقليل فأدخل فندقاً متواضعاً. ربما ستسأل لماذا؟ لأن على أصحاب الفنادق جميعا أن يسلّموا قائمة بأسماء النزلاء إلى دائرة الأمن ليلياً .

كنت ليلياً أبحث عن فندق للمبيت فيه، أدخله بعد منتصف الليل، ومعي دائما الحجة نفسها، حجة لا تثير الريبة، وهي أني وصلت البصرة في هذا الوقت المتأخر من الليل وأنا أحمل أخبارَ محزنةٍ عن وفاة عم لي في حادث مروري، لكني وصلت الآن ولا أريد أن أقلق عائلته، إبنته الحامل وزوجته المريضة، في مثل هذه الساعة من الليل، لذا قررت المبيت في الفندق إلى الصباح، بعدها أتوجه لهم. طبعاً كنت أكسب بهذه الحجة تعاطف أصحاب الفنادق الذين كانوا يؤكدون بأن التعليمات تدعو إلى عدم استقبال أحد بعد تسليم قوائم النزلاء. طبعاً كنت ليلاً أختار فندقاً جديداً .

هكذا بقيت في المدينة ثلاث ليال، وفي مساء الليلة الرابعة سمعتُ بالصدفة، وأنا أتعشى في أحد المطاعم الشعبية للمشويات، من إثنين من رواد المطعم وهما يتحدثان بشكل واطئ بأن هناك تعليمات بتشديد الرقابة

في هذه الأيام، إذ وصلت معلومات سرية عن هروب بعض الذين ساهموا في الإنتفاضة ضد النظام ووصولهم إلى البصرة. أحسست لحظتها بالخطر، أنهيت طعامي بسرعة، وتوجهت بعد ذلك مباشرة إلى كراج السيارات. ومن محاسن الصدف أني وجدت سيارة كانت تنتظر راكبها الأخير كي تنطلق. لم يكن يهمني إلى أين تتجه السيارة. حين وصلت قربها سألت الفتى المساعد للسائق عن توجه السيارة، فقال لي: إلى السماوة، فصعدت. وعلى الرغم من أن لدي هوية بإسم شخص آخر.. إلا أني كنت أتجنب أن يصل هذا الأسم إلى دائرة الأمن وتبدأ التفتيش عن خلفياته.. فأنا لا أعرف من هو صاحب الإسم الأصلي، فهذه الهوية لا يخصني منها سوى صورتي،.. بالرغم من أن الاسم الأول هو اسمي أيضا .

آدم الراعي.. هكذا كان الإسم الموجود في هوية الأحوال المدنية. من مواليد الديوانية. والعمر نفس عمري .

* * *

حين بدأت السيارة بالتحرك أخذ جاري في المقعد الذي إلى جانبي يردد الشهادتين. حين نظرت إليه مستفهما ومستغرباً أوضح لي بتلقائية بأنهم سيمرون بطريق تل اللحم المريب.. ثم أن الطريق مليء بقطاع الطرق الذين يسلبون السيارات. ولا نعرف إنْ كنا سننجو من ذلك. الأمر بيد الله. ولا أعرف كيف أن الحظ قد رافقني تلك الليلة، إذ لم يعترضنا أحد .

حين وصلنا انتبهت إلى أن المدينة كانت فارغة تماماً، بل بدت وكأنها مدينة هجرها أهلها بعد كارثة مروعة. الشوارع مظلمة وخالية إلا من بعض أعمدة المصابيح الكهربائية المتباعدة والتي تنطفئ وتضيء وكأنها ذبالة شمعة تلفظ أنفاسها الأخيرة .

بعض المسافرين نزل كان عند مداخل المدينة، وبعضهم عند بعض ساحاتها، وحين توجهت أخيراً إلى كراج السيارات لم يكن فيها سواي. كان سائق السيارة ينظر إليّ من خلال مرآته الأمامية. أحسسته خائفاً مني، ومليئاً بالتساؤلات. لم يكن يعرف أني خائف مثله أيضاً. فأنا لا أعرف إلى أين أذهب. وليس من علامة للحياة في هذه المدينة الشاحبة. فجأة سألته إن كان يعرف فندقاً قريبا ورخيصاً. شعرت أن الحياة رُدتْ إليه، فقال بحيوية بأنه يوجد فندق قريب من الكراج، ثم تجرأ وسألني إن كنت غريباً عن المدينة، فأجبته بنعم، ولكي أزيل شكوكه أخبرته بالقصة ذاتها، في أن عمّاً لي توفي بحادث في البصرة اليوم، وجئت إلى عائلته لأخبرهم قبل

أن يصلهم الخبر بطريقة أخرى، لكنه فاجأني بالسؤال عن عائلة عمي واسمه، فهو من المدينة نفسها ويعرفهم كلهم تقريباً..؟ لا أدري كيف قدحت في ذهني إجابة أنقذتني، إذ قلت له إن عمي وعائلته لا يسكنون السماوة وإنما في قضاء السلمان، وإن علي الذهاب إليهم صباحاً، فأطمأن لإجابتي وتبرع بأخذي بالسيارة إلى الفندق .

وقفت أمام باب الفندق البائس. فندق الأمير. نظرت إلى ساعتي فرأيت أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل بربع ساعة. تقدمت من باب الفندق الحديدي الصدئ. فتحت الباب فأصدر صريراً مزعجاً، ووجدت نفسي أمام سلّم طويل يصعد بشكل حاد. أخذت أصعد درجات السلّم ببطء شديد وكأني أريد أن لا أصل بسرعة. وبرغم ذلك حين وصلت أعلى السلّم كانت ربع ساعة أخرى قد مرت. ولم تكن هناك مشكلة كبيرة في المبيت، فلم يلح الفتى الذي كان في إستعلامات الفندق ساهراً عليّ بالأسئلة، لكنه برغم ذلك كان ينظر إليّ نظرات مريبة أثارت الشك في نفسي .

تلك الليلة لم أنم. تطلعت من النافذة الوحيدة في الغرفة البائسة فرأيت أشباح مدينة. أحسست بالوحشة والخوف، واسترجعت في ذاكرتي تظرات فتى الفندق المريبة. نهضت عن سريري الذي كانت روائح المني والبول تتصاعد منه، برغم الشرشف الجديد الذي فرشه الفتى على السرير عند دخولي الغرفة. وقفت قرب باب الغرفة أتنصت لما يجري في الممر .

كان الصمت مهيمناً على الممر، والفندق، والمدينة. رجعت إلى سريري. استلقيت عليه دون أية رغبة في النوم. فجأة، سمعتُ وقع أقدام لأكثر من شخص في الممر.. أصخت السمع.. كانت الخطوات تقترب من غرفتي.. فجأة توقفت.. كانت عند بابي تماماً.. أحسست بالرعب. راودتني خلال ثوان أفكار مرعبة.. كنتُ على يقين بأن فتى الفندق إتصل بالأمن ليأخذوني.. لكن بعد لحظات ابتعدت الخطوات واختفت .

لم أستطع النوم.. كنت مرعوباً.. بقيت يقظاً ومتأهباً لأية مفاجأة.. اقتربت من النافذة الوحيدة وأخذت أدرس إمكانية الهرب من خلالها إذا ما اقتحموا الغرفة عليّ. كان الفجر قد بدأ يقبل بخيوله الصامتة البيضاء. كنت قد دفعت ما عليّ حين جئت، لذلك خرجت من غرفتي بهدوء وحذر، وحين مررت بالاستقبال لم أجد أحداً. نزلت السلم وكأني هارب من سجن. فتحت الباب وخرجت إلى الشارع. كان ثمة هدوء حزين ومريب يهيمن على الشارع. لا نأمة تُسمع سوى هدير يقبل من فرن مخبز قريب. وقفت عند باب الفندق للحظات. لم تكن في ذهني أية فكرة عن أي

شيء سوى أن أهرب من هذا الفندق،ومن هذه المدينة فوراً. تلفّت حولي، لكن يحدث أحيانا أن تكون قد نطقت بكلمة في موقف ما، وهذه الكلمة تحدد دون إرادة منك مصيرك وكأن حكم القدر. فقد استذكرت ما أجبت به السائق ليلة أمس حينما سألني عن اسم عائلة عمي الذي أدعيت أنه مات بحادث اصطدام سيارة، إذ ذكرت أنه ليس من السماوة وإنما من قضاء السلمان. وهكذا.. وجدت نفسي لاإرادياً استذكر ملامح الطريق التي مرت خلاله السيارة التي أقلتني إلى الفندق، وتوجهت إلى جهة كراج السيارات. حينها وجدت نفسي أفكر، وبدون معرفة بالسبب، بالسفر إلى قضاء السلمان وهي شبه مدينة إشتهرت بالقلعة التي تقع على مشارف الصحراء بين العراق والسعودية، والتي تحولت إلى سجن شهير في تاريخ العراق السياسي سُمي نقرة السلمان .

* * *

لا أريد أن أصف الهواجس التي انتابتني وأنا في الطريق إلى ذلك المنفى المهجور، فقد ازدحمت في ذهني كل الحكايات والأقاصيص والقصائد والأغاني التي تحدثت عن نقرة السلمان، ذلك السجن الرهيب، الذي صار المكوث فيه ولو ليوم واحد جواز سفر لدخول التاريخ السياسي. لكنني لستُ ذاهبا إلى القلعة السجن، فقد تم إلغاؤه رسميا لكنه ظل يُستخدم في ما بعد بشكل سري، وإنما أنا ذاهب إلى.. لا أدري إلى أين... فأنا لا أعرف المدينة ولا أدري إن كان فيها فندق أصلاً..! لكن، أحيانا المصادفات العابرة تغير أقدارنا ومصائرنا،. فقد كانت صدفة غريبة حينما لم أجد في كراج السيارات سوى سيارة بيك آب تود التحرك. لم تكن تلك سيارة لنقل المسافرين، وإنما سيارة عابرة أراد صاحبها أن يأخذ معه راكبا كي يحصل منه على أي مبلغ بدل أن يذهب فارغاً. وهكذا، وخلال الطريق دار الحديث بيني وبين السائق، لكنه كان حديثاً محرجاً، إذ أن السائق فكما بدا لي من أهل تلك المنطقة، ولذلك فأن الإدعاء بالذهاب إلى عائلة عمي لا ينفع .

منذ أن أقلعت السيارة انتبهت إلى أن السائق رجل بسيط، طيب الملامح، لكنني لم أكن أطمئن لأي كان. كان تلقائياً، وفضولياً لكن ليس بريبة وبلجاجة، كان يود أن يستعلم مني بطريقته التلقائية عن هدفي من السفر إلى قضاء السلمان، هل لدي أقرباء هناك..؟ هو يعرف الجميع، كما أن معظم سكان تلك المنطقة يكاد يكونون من عشيرة واحدة أو عوائل متقاربة تعرف بعضها بعضاً، ولم يكن أمامي سوى أن أبحث عن حجة

جديدة، فقلت له إنني كاتب أريد أن أكتب كتاباً عن حياة الصحراء وعن تاريخ قلعة السلمان. استغرب كلامي لكنه لم يفسره بشكل مريب، إذ أنه لم يخبئ شيئاً من شكوكه، إذ سألني إن كنت من السياسيين الهاربين..؟ صُدمت من سؤاله الصريح، فنفيت ذلك بحدة، فأخذ يشرح لي بأنه قبل شهر من ذلك الوقت تم ألقاء القبض على سيارة فيها بعض السياسيين الهاربين الذي أرادوا التوجه إلى السعودية عبر حفر الباطن. فأخبرته بأني لستُ هارباً.. ويبدو أنه أرتاح لي.. لأنه بعد فترة قليلة بادر بدعوتي إلى الذهاب معه، ما دمت أريد أن أكتب عن الصحراء والقلعة، فهو وعائلته يعيشون في منطقة قريبة، ويمكنني أن أخرج مع أخيه الأصغر منه عندما يذهب للرعي. وهكذا ذهبت معه .

عشت مع أهله على مشارف الصحراء. بيت قديم وحيد كنخلة في صحراء. هو وزوجته وطفلاه، وأمه وأبوه،وأخوه الذي في العاشرة من العمر. لكنها أيام لا أكثر .

أستقبلوني بترحاب أخجلني. عصر ذلك اليوم نفسه خرجنا إلى البراري القاحلة. ومن بعيد رأيت القلعة الرهيبة. طلبت منهم أن نذهب إليها، لكني وجدت رعباً في عيونهم. أخبروني بخطورة الإقتراب منها مساءً.. بل الخروج إلى البراري بشكل عام، لأني سأكون عرضة للذئاب، بل والأشد رعبا من ذلك أكون عرضة لملاقاة الأشباح والجن. لحظتها لم أصدقهم .

في اليوم الثاني خرجت مع الأخ الأصغر. توغلنا بعيداً في تلك البراري القاحلة. توجهنا نحو القلعة. في الطريق إليها حدثني الأخ الصغير عن مقبرة جماعية عثر عليها على مسافة ليست ببعيدة عن القلعة. حينها رأى مجموعة من الكلاب تجتمع في مكان ما.. نادى أخاه الأكبر وذهبا إلى هناك، طردوا الكلاب التي كانت شرسة ووقفت بعيدا عنهما.. فرأوا جثثا بشرية لنساء وأطفال ورجال تنهشها الكلاب.. كانت ممزقة والكلاب قد نهشت معظمها. رجعا إلى البيت وأتيا بأبيهما معهما.. وحملوا الآلات التي تساعدهم على الدفن.. وهكذا حاولوا جاهدين طمر ما تبقى من جثث بالتراب .

ذهبت معه إلى مكان المقبرة.. لكن يبدو أن الكلاب وربما الذئاب قد حفرت في الأرض لإستخراج ما تبقى من الجثث، لأني رأيت بقايا فروة شعر أشقر، وعظام متناثرة، فقرات متلاصقة لبقايا عمود فقري، وشروالاً كورديا مطمورا في التراب. بعد ذلك توجهنا إلى القرية التي كان هو مترددا في الذهاب إليها، لكنه استجاب لرغبتي الكبيرة وإلحاحي .

حين دخلنا القلعة.. وكانت مهجورة. سمعت صراخا يأتي من القاعات. سألت الفتى إن كان ثمة أناس فيها، فأخبرني بأنها مهجورة الآن، وقد ألغيت كسجن، لكنها أستخدمت أثناء الحرب العراقية الإيرانية كسجن للكورد الفيليين، حيث سجن فيها ما يقارب السبعمائة شخص، كانت تجرى عليهم التجارب الكيمياوية، وكان هناك فرن مشتعل دوما تحرق فيه جثث الذين يموتون منهم، وعرفوا من خلال حراس القلعة الذين كانوا من أبناء القضاء، بأن السلطات تسحب دماءهم لترسلها إلى الجبهات، إلى أن تم أخذهم جميعاً إلى جبهات القتال، لإستخدامهم كدروع بشرية. لكن الصرخات بقيت تجوب في قاعات القلعة، بل إنهم ليلاً كانوا يصحون على العويل والصراخ القادم من جهة القلعة .

حين رجعنا صادفنا رجلاً نحيلاً فارع القامة يتجه نحو القلعة. شحب وجه الفتى حينما رآه. ظننته يعرفه. حين تجاوزناه حانت مني التفاتة نحوه، فهالني ما رأيت. كانت قدما الرجل بأظلاف. سألت الفتى لكنه لم يجبني فقد كان يرتعد من الخوف بل إنه أطلق ساقيه للريح من الخوف، ووجدت أنه مسني بخوفه فأخذت أركض أيضا خوفاً، وحينما التفت أثناء ركضي، رأيت الرجل الغامض يقف وهو يضحك. كان صوت ضحكاته الساخرة تصلني برغم المسافة البعيدة التي صارت بيننا .

حينما أخبر الفتى أهله بالجني الذي التقيناه أخذوا يبخرون البيت، لكنهم لم يرتعبوا، وإنما أخذوا يوبخونه على أنه ذهب إلى القلعة، والأنكى من ذلك أخذني معه. وحينما وصل الأخ الكبير، الذي كان قد سافر بسيارته إلى المدينة القريبة، سألني إن كنت قد استفدت من وجودي بينهم، فشكرته جداً، لكني في تلك الليلة أعدت مع نفسي كل مشاهداتي، وبالتحديد أسئلة الأخ، فأحسست بشيء غير مريح، وقررت مغادرتهم، في اليوم التالي. لكني أردت أن أتحقق مما رأيت قبل مغادرتي، أهناك جن فعلاً..؟

تلك الليلة لم أنم. وبعد أن تأكدت من أن الجميع قد رقد. خرجت من الغرفة المخصصة للضيوف إلى العراء. كنت خائفا لكني في الوقت نفسه كنت مدفوعا بفضول أقوى من الخوف نفسه. مشيت لمسافة مائة متر بعيداً عن البيت. وهناك كانت المفاجأة. لقد سمعت أصوات عرس وموسيقى وصخب في الصحراء. ضجيج وضرب على الدفوف وأصوات مختلطة وضحكات. كل ذلك كان على مسافة قريبة، لكني لم أكن أرى أحداً قط. شعرت برعشة تسري في جسدي. خفت.. تراجع فضولي أمام وقع المفاجأة.

فجأة أخذت أركض نحو البيت. وحين صرت على بعد عشرين متراً منه. أخذت أنتقد نفسي على جبنها. أخذت أحرض نفسي لكي تتماسك قليلاً، فأخذت أمشي على عجل. فجأة أختفت الأصوات، لكن تعالى صراخات الألم والحزن والصراخ بشكل عال جداً. كانت الأصوات المعذبة تأتي من القلعة المهجورة .

عدت لغرفتي .

ألقيت بنفسي على الفراش وغطيت رأسي من شدة الخوف، وكأني طفل صغير. لا أدري كيف نمت. حين صحوت. كانت العائلة ما زالت نائمة باستثناء الأم وزوجة الأبن اللتين كانتا تعدان الفطور .

بعد الفطور، أخبرت الإبن الكبير بضرورة سفري. إنزعج متصوراً بأنهم قصروا في خدمتي، وسألني إن كنت غير مرتاح من وجودي بينهم، فشرحت له بضرورة سفري. استنجد هو بالعائلة عارضا عليهم طلبي بمغادرتهم، فانزعجوا بمحبة، وتوسلوني بالبقاء لأيام أخرى، لكنني كنت أزداد إصراراً على السفر كلما ألحوا هم عليّ بالبقاء. كانت تلك الأيام القليلة التي عشتها بينهم تجربة هائلة بالنسبة لي، تغيرت خلالها الكثير من مفاهيمي وعقائدي ونظرتي إلى الأشياء والكون .

* * *

الدرويش الأخرس

بقيت لأشهر أتنقل بين المدن العراقية والأقضية والنواحي بهذه الطريقة. صرت أعرف البلاد محافظات وأقضية ونواحي مثلما أحفظ قصيدة أنشودة المطر للسياب، إلى أن تعبت من السفر والتنقل والترحال فأجرت غرفة في منطقة الأورفلي ببغداد .

منذ رحلتي إلى قضاء السلمان لم أحلق شعر رأسي، بل تركت لبس البنطال، وأرتديت الدشداشة العراقية. صرت كالدراويش المخبولين. صاحبة النزل امرأة مسيحية أرمنية كانت تنظر لي وكأني من أولياء الله الممسوسين. وبالمناسبة.. منذ يوم رحيلي من نقرة السلمان قررت ألاّ أتكلم. أدعيت البكم. حين طرقت الباب على بيت صاحبة النزل الأرمنية كانت تحدثني وتسألني وكنت أجيبها بالإشارات. أشفقت علي وأعطتني غرفة كانت تستخدمها كمخزن لأشياء مهملة. نظفت تلك الزاوية المثلثة والمنحنية السقف بحدة بسرعة. وضعت فيها بعض الأقفاص الخشبية وشددتها، فصارت كالسرير. وفرشت عليه فراشاً قديما متهرئاً. كانت امرأة فاضلة. كتلة من الأمومة والحنان والطيبة. وكانت شفقتها وحنانها رائعين.

كنت لا أتحدث مع أحد. أذهب إلى المخبز القريب أشتري خبزا، وكذلك أمر على الدكان القريب الذي يقع في فرع جانبي ينفتح على شارع السعدون فأشتري منه الجبن والخضروات. لا أتحدث مع أحد. بل كنت أحيانا لا أخرج من زاويتي لأيام. كنت مرعوباً .

علاقتي مع العالم كانت من خلال الصحف. أحيانا كنت أتجول في الشوارع. أشتري بعض الصحف. أذهب إلى بائع الخضروات أشتري كمية من الخضروات وألفها بالصحف، كي لا أثير انتباه صاحبة النزل، وكأنما هذه الصحف حصلت عليها من بائع الخضروات .

كانت البلاد قد حوصرت دوليا. وكان الناس في الشوارع سكارى بذهولهم. لكن ذلك الوضع أفادني كثيراً.. فقد صار ارتداء الحجاب والدشاديش، وعدم الاهتمام بالملابس والمظاهر الخارجية مسألة طبيعية بالنسبة للعراقين، بل صار عدم الذهاب إلى الحلاق وإطالة الشعر مقبولا، فلم يكن لدى الناس ما يمكنهم أن يشتروا به الخبز فكيف بالملابس الجديدة؟! صار بالإمكان أن ترى الناس يتحدثون مع أنفسهم وهم يمشون وحدهم في شارع الرشيد أو السعدون، أو ترى بعض الناس ينفجر غاضبا ويسب ويلعن دون أن يكون هناك من يشاجره. وهكذا عشت في ذلك البيت لأكثر من سنتين .

ذات صباح ربيعي، ذات جمعة، وجدت بي رغبة عارمة في المشي. توجهت إلى ساحة التحرير، ومنها إلى ساحة الطيران، ومنها مررت بشارع الشيخ عمر، ومشيت إلى الكفاح، ثم وصلت الصدرية، وقنبر علي، لكني رجعت ثانية إلى أن وصلت التقاطع الذي يقود إلى ساحة الخلاني. توجهت إليها، وانحدرت في شارع الجمهورية متجها نحو الشورجة، ومنها إلى شارع الأمين، حيث المقهى الذي يرتاده أهل مدينتي، ولا أدري كيف قادتني خطاي إلى دروب الحيدرخانه الضيقة حيث كنت أسكن حينما كنت طالبا جامعيا قبل اعتقالي. حينما دخلت الزقاق الذي كنت أسكن في أحد منازله أحسست بسرعة قلبي ينبض بصوت مسموع بالنسبة لي، وثمة عرق بارد يغطي جبيني. لم أجد المنزل الذي كنت أسكن فيه. وجدت حفرة كبيرة وبيوتا مهدمة إلى جانبها .

أحيانا يحدث أن تكون هناك لحظات خارقة في حياة الإنسان. لحظة تتعطل فيها حياة بكاملها. دقيقة توازي عمليا دقيقة ضوئية بالمعنى الأنشتايني أي دقيقة يمكن أن تقطع خلالها ملايين الكيلومترات. لحظة خارقة. وهذا ما عشته وأنا في ذلك الزقاق. أحسست أني أغادر الشخص

الممسوس المشرد والتائه. أحسست أنني عدت إلى نفسي. أحسست أني أولد من جديد كأنني كنت فاقداً لذاكرتي وها أنا أستعيدها، على الرغم من أني لم أفقد ذاكرتي قط، لكني كنت قد عطلتها قصداً، ثم تعطلت تلقائياً، لذلك وجدت نفسي كالمحموم أتوجه إلى شارع المتنبي .

كنت مأخوذاً بالكتب. بعض الباعة استغربوا هيئتي المريبة. دشداشتي الوسخة، وشعري الطويل الأشعث، واهتمامي الثقافي، إذ كنت أقلب الكتب الفكرية والفلسفية وبعض الدراسات الأدبية. المهم، اشتريت بعضها. استغرب بعض الباعة من وجود هذه الكمية من المال معي، إذ كنت أحمل مالي معي دائما .

حملت كتبي. اجتزت شارع السراي، وعبرته إلى شارع النهر. اشتريت لنفسي دشداشة جديدة، وبنطالا وقميصا وحزاما وزوج حذاء مع الجواريب. رجعت إلى المتنبي. وصعدت باتجاه شارع الرشيد. وقبل أن أصل إلى فندق رضوان الذي له ذكريات جارحة في ذاكرتي، دخلت حماماً رجاليا. اغتسلت جيداً. شذبت شعري. لبست ملابسي الجديدة. وخرجت. حين وصلت الفندق قررت هجر الغرفة التي كنت أعيش فيها سابقاً، وصعدت إلى فندق رضوان .

* * *

العشق المحرم

لفندق رضوان قصة مؤلمة في حياتي. في هذا الفندق تم القبض على زوجة أبي مع فتى مراهق هربت معه. قيل لي في ما بعد بأن أخوتها ذبحوها. كانت بمثابة أم لي. تزوجها أبي حين كُنتُ في السادسة من عمري. هي تصغر أبي بخمس عشرة سنة. امرأة جميلة جداً. أنجبت له ابنة هي أختي الوحيدة من أبي. كانت امرأة فوارة بالحياة، على عكس أبي الهادئ الساكن مثل مياه بحيرة في مغارة. حين تفتحت رجولتي لم أكن أجد امرأة جميلة أمامي غيرها. عشقتها بصمت، وأعرف أنه عشق محرم، لأنها بمثابة أمي. لكنني لم أستطع أن أبعدها عن أن تكون موضوعاً لرغبتي المتقدة. بحسها الأنثوي عرفت هي ذلك. أعجبها الأمر، أخذت تتقرب مني أكثر. كنت أحس بميلها إليّ واهتمامها الإستثنائي بي، بأكلي ومشربي، وملابسي، ومصروف جيبي. كنت أخاف مسها والاقتراب منها. وقد حصل ذات مرة أن احتاجت مساعدتي لرفع ماكنة الخياطة التي تملكها من موضعها. لا أعرف ما الذي حصل حينها، وكيف، إذ مست ذراعي ذراعها، وجسدي جسدها. أتقدنا كلانا. لكني كنت أحب أبي كثيرا، لذلك ضغطت على نفسي. كنت

أتهرب من التواجد في البيت قدر الإمكان. أحسست بمعاناتها، لكنها ذات مرة جاءتني إلى غرفتي، كانت أختي في المدرسة وأبي في العمل. سألتني عن سبب تهربي من البيت ومنها. نفيت ذلك، لكنها كانت امرأة مجربة، وأكثر شجاعة وجرأة مني، فقالت لي بأني أحبها وهي تعرف ذلك، وهي تحبني أيضا، فغضبت وقلت أن هذا لا يجوز فهي بمثابة أمي، فقالت هي تعرف ذلك وهي لا تطلب مني سوى رؤيتي، فهي لا تستطيع أن تعيش بدون أن تراني، وهي لن تتجاوز حدودها أكثر من أن تراني .

وهكذا مرت السنين. وفعلا، لم يحدث أي فعل طائش بيننا، سوى هذا العشق المحرم الذي استمر ينفلت منا بنظرة متقدة وكلمات دافئة، وإهتمام مبالغ فيه وكأنه تفريغ رغبة ملحة، إلى أن أنهيت الثانوية وتم قبولي في الجامعة ببغداد، وكان علي السفر إلى بغداد وترك مدينتي .

كانت خلال فترة تقديمي للجامعة حزينة جداً، وحينما ظهرت نتائج القبول وتم قبولي في كلية الآداب قسم اللغات، أصيبتْ بكآبة، وتقلبات عصبية لم تستطع السيطرة عليها. كانت مضطرة أن ترتدي أقنعة أمام أبي وأختي. وحدي كنت أعرف بمعاناتها الهائلة، بينما كنتُ أنا فرحا لتخلصي من هذا الوضع القاتل، ممنياً النفس بمن سأقابلهن من فتيات الجامعة وبغداد عموماً .

وفي تلك الليلة المشؤومة، ليلة سفري، جاءت لترتب لي حقيبتي. لم يشك أحد بتواجدها في غرفتي، فهي بمثابة أمي، لكنها لم تستطع أن تسيطر على نفسها، إذ احتضنتني بقوة، وقبلتني من شفتي قبلة قوية، أشعلت النار في جسدي، حينها أحسست بسريان الرغبة في جسدي من خلال تحسسي لجسدها بجسدي، ولكي لا أقع في المحظور دفعتها، وهربت من الغرفة، بل ومن البيت .

لم تودعني لتحججها بأنها طريحة الفراش. كنتُ سعيدا بذلك، لأني بقيت محافظا على احترامي لنفسي ولأبي. الغريب أني لم أحقد عليها، بل رثيت لها، وقبل أن أذهب مضيت إليها، وكان أبي وأختي معي، دخلت غرفتها. كانت في فراشها كئيبة. فوجئت بدخولي، لكن وجود أبي وأختي ساهما في ضبط حركة كل منا. انحيت لها مقبلا رأسها، مؤكدا لها بأني لا أستطيع السفر دون رؤيتها وتوديعها، فأخذت تبكي بحرقة وحنان. أنا وحدي كنتُ أعرف سر تلك الدموع ومعانيها .

* * *

كنت أزور مدينتي مرة في الشهر، أذهب ليومين فقط. كانت تعد أيام

وصولي عيداً عائليا فأجد ما لذ وطاب من الأكل. حتى أن أختي كانت تشاكسني مازحة بأن آتي أسبوعيا كي يتنعموا بكل هذه الأطايب من الأطعمة. وكانت قبل أن أغادر البيت تضع في جيبي نقوداً قد وفرتها هي بطريقتها الخاصة دون معرفة أبي وأختي، لكني صدمتها بإنقطاعي المفاجيء من زيارتي الشهرية لهم .

كنت قد سكنت في منزل كبير في الحيدرخانة. ذلك المنزل الذي تحول إلى حفرة. وكنت أيضا قد تعرفت على فتاة من الناصرية لكنها من سكنة بغداد، وكنت قد التحقت بالنشاط السياسي الذي جرني إلى مأساتي .

لم تستطع زوجة أبي التحمل، فجاءني شاب ذات يوم إلى الجامعة. شاب من جيراننا. شاب مراهق. هو نفسه الذي ألقي القبض عليه معها. هذا الشاب أخبرني بانه جاء من طرف زوجة أبي، ليؤكد لي بأن أبي مريض، وأن عليّ زيارتهم. قلقت جداً. فزرتهم في نهاية الأسبوع الذي تلى ذلك. حين سألت الفتى عن سبب مجيئه هو، فأخبرني بأنها أعطته مبلغا من المال للسفر ومبلغاً له لأداء هذه المهمة .

عند زيارتي اكتشفت بأن أبي بصحة جيدة، لكنها كانت كذبة منها من أجل زيارتهم. لم أنزعج كثيرا، لأني حقا كنت مشتاقاً لرؤيتهم، لكني كنت منزعجا من إرسالها لهذا الفتى المراهق الذي قد يعرض سمعتها وسمعة العائلة للخطر. يبدو أنها استمتعت بغيرتي التي كانت نبرة صوتي تشي بها دون إرادتي وبلاوعي مني، وهددتني مازحة بأنني إذا لم أستجب لها على الأقل من خلال زيارتي لهم، فأنها ستأتيني بنفسها إلى بغداد. ويبدو أن الغيرة كانت قد أخذت تأكلها، لأنها أحست أيضا بأن توقفي عن زيارتهم ناتج عن انشغالي بنساء بغداد. في تلك الزيارة بدت لي وكأنها على وشك أن تفضح نفسها ولم تعد تستطيع السيطرة على نفسها، فقد جاءتني إلى غرفتي بملابس شفافة. كنت أرى جسدها وكأنها عارية أمامي بالكامل أمامي. جلست على سريري. أُحرجت جداً. وكنت قد وجدت في صاحبة المنزل أم قابيل عشيقة أطفئ معها رغباتي الجنسية كلها، ناهيك عن بعض المداعبات مع صديقتي حواء الناصري، التي كنت ألقبّها بالفيلسوفة، لذلك كنت بارداً معها جداً. حين أردت مغادرة البيت أمسكت بيدي ثم نهضت فاحتضنتني من الخلف. كنت أحس ببطنها وأسفل بطنها ونهديها على ظهري. وكانت ملتهبة .

لست النبي يوسف لكي أعرض عنها بسهولة. كنت أعيش لحظات رهيبة. التفتُ نحوها وأردت دفعها إلى السرير، لكن لا أعرف ما الذي

حدث. ففي تلك اللحظة وجدت نفسي أكرهها. لا أعرف أي خاطر ورد في ذهني بأنها تضاجع الفتى المراهق. لا أعرف ذلك، وليس لدي أي دليل، سوى شهوتها التي لا تستطيع السيطرة عليها، فصفعتها على وجهها ورميتها على السرير. فوجئت هي بصفعي لها. نظرت إلي للحظات ثم أخذت تتوسلني بأن أصفعها مرة أخرى، فصفعتها مرة أخرى، لكنها طلبت المزيد، فصفعتها مرة أخرى، وفجأت أخذت كفي وانهمرت عليها بالقبلات، وأخذت تمص أصابعي. أحسست بالتقزز، فتركت الغرفة والبيت، بل وغادرت المدينة عائداً إلى بغداد .

* * *

مرت أشهر على ذلك. لم أزر أهلي. جاءني الفتى المراهق إلى الجامعة مرة أخرى، وأخبرني بأن زوجة أبي الآن في بغداد. جاءت لتزورني لأني انقطعت عن زيارتهم، وهما الآن في فندق رضوان. فأخبرته بأني سأزورهم في الفندق .

* * *

لا أعرف بالضبط ما الذي جرى في الفندق..؟ لم أذهب إليهما مباشرة.. كانت لدي محاضرات، ثم حضرت اجتماعا سريا مع أصدقاء لي، وتمشيت بعض الوقت مع حواء الناصري وأختها الأرملة أم آدم، التي يبدو أنها ونتيجة لفراغها العاطفي وحاجتها الجنسية المكبوتة وجدت فيّ ضالتها، فصرت حبيبها رغم أنفي... المهم.. حين وصلت إلى الفندق كانت المأساة قد وقعت، فقد اتهم صاحب الفندق زوجة أبي والفتى بأنهما هاربان، وأن خلوتهما غير شرعية، لذلك تم اقتيادهما إلى الشرطة، ومن ثم تم ترحيلهما إلى مدينتي .

حينما جاءني أبي ليخبرني بالأمر، لم أستطع أن أشرح له بأنها كانت تحبني، وكنا على علاقة محرمة لكننا لم ننجرف معها، وأنها جاءت لرؤيتي. ظننت أنها ستجد لنفسها عذراً مقنعاً، إلا أنني عرفت في ما بعد بأنه تمت مضاجعتها عنوة في الفندق من رجل أمن كان هناك، ومن ثم من إثنين من رجال الأمن جاءا للتحقيق معها في الفندق قبل اقتيادها.. عرفت ذلك بعد أن سكنت في الفندق. ويبدو أن اغتصابها من أكثر من شخص دفعها لتقبل مصيرها باستسلام الخاسراليائس، لأني عرفت أن رجال الأمن اغتصبوا الفتى المراهق أيضا، ودفعوهما للتوقيع على محاضر تؤكد اعترافهما بالزنا وبالهروب معاً من الكوت .

حين كنتُ في الكوت علمتُ أن أخوتها قرروا ذبحها غسلاً للعار.

حاولت أن أراها مدعيا بأني الأولى بذبحها لأنها بمثابة أمي، لكن لا أحد سمح لي برؤيتها. عرفت أنها كانت مستسلمة لمصيرها وصامتة صمت الحملان قبل الذبح. لم تقل أي شيء لأي أحد، لا لأبي، ولا لأخوتها، بل إن ابنتها رفضت أن تزورها. وهكذا تم ذبحها .

حين عدت إلى بغداد، إلى منزلي حيث أسكن رأيت كارثة أخرى، فالفتاة المراهقة التي أحبتني، قد انتحرت، وتركت رسالة ذكرت اسمي صدفة فيها. لقد أخبرتك يا صديقي عن ذلك، وعن كل ما جرى في ما بعد .

* * *

الموت الجديد

ربما أنا كاتب سيىء.. فأنا لا أعرف طرق السرد الصحيحة، إذ تراني أقفز على الأزمنة، وأقدم أحداثا على أحداث، وأزمان على أزمان. لا يهم..، فلست كاتباً محترفاً، ولا أنوي أن أكون كذلك بتاتاً. ما يهمني أن أروي شذرات من سيرتي. سيرة الشبح الحزين .

لم أسكن فندق رضوان سوى أسبوع واحد. بعد ذلك أجرت غرفة في منطقة قنبر علي. بعد ثلاث سنوات تقريبا من سكني هناك، التقيت بصديقتي الفيلسوفة. لم تعرفني حينها. رأيتها في المتنبي. مشيت خلفها إلى أن وقفت عند بائع كتب يبسط كتبه على الأرض. لكن صدمتي الأكبر كانت حينما رأيتها تقف مع صديق لي تعرفت عليه لفترة قصيرة، لفترة أسابيع قبل اعتقالي للتحقيق معي. صديقي أذكر أن اسمه كان آدم البغدادي .

تابعتهما وهم يمشيان عبر سوق السراي، وينعطفان على شارع الرشيد ليدخلا مطعما هناك. بقيت انتظرهما على مسافة قريبة من المطعم. لا أعرف كيف أشرح لك، فبينما أنا واقف جاء أثنان من رجال الأمن، وسألاني عن بطاقتي الشخصية، فأخرجت البطاقة التي أحملها والتي تحمل اسم: آدم الراعي .

اقتاداني معهما. طلبا مني أن لا أبدي أي اعتراض، وأن أذهب معهما بهدوء وبدون أية شوشرة. وفي مكتب الأمن، عرفت كيف أن القدر يسخر من البشر، فقد أدركت على الفور بأني أعتقلت من أجل أن أكون بدل شخص آخر محكوم عليه بالإعدام، استطاع أهله أن يرشوا المسؤولين!

هكذا، في فجر بغدادي مريب، تم إقتيادي إلى غرفة الشنق. تمت قراءة اللائحة التي تتضمن جريمتي التي بسببها قررت المحكمة الحكم علي

بالشنق حتى الموت. كان اسمي اسما آخر، ليس آدم الراعي، ولا آدم الواسطي اسمي الأصلي، وإنما آدم أبو الهيل، وهو تاجر قبض عليه بتهمة التلاعب، وبأمر من رئيس الدولة الذي أراد امتصاص نقمة الناس في ظل هذا الحصار الجائر، فأصدر حكما على بعض التجار الذين قبض عليهم بهذه التهمة، وهكذا ببساطة تم شنقي .

هل انتهى كل شيء..؟

لا ..

* * *

كان حبل المشنقة مثل ومضة برق ذات وجع آني. وجدتني في عالم أبيض.. أبيض.. وجدت نفسي فجأة في صحراء نقرة السلمان.. كما التقيت بالشاب الذي أعدم بدلا عني في السجن كان لا يجيبني.. لم أكن أعرف بأن للأشباح عواطف أيضا، فهي تكره وتحب أيضاً. كنت أتنقل بطريقة لا أفهمها عبر العوالم المرئية وغير المرئية. مرة وجدت نفسي في متنزه الزوراء. هناك التقيت بزوجة أبي، لكن هذه المرة كان معها صبي صغير.. لا.. الصبي كان مع صديقتي حواء الناصري. ومرة أخرى التقيت بآدم البغدادي .

أنا حزين جداً.. حزين على نفسي.. على زوجة أبي.. على الفتى الذي أعدم بدلاً عني.. حزين على كل هذا الحشد من الأشباح الذين التقيتهم في شوارع بغداد.. ولا أدري إن كنت أنت يا صديقي.. يامن تقرأ هذه الوريقات شبحاً أيضاً..؟!

* * *

حين انتهيتُ من قراءة هذا الدفتر العجيب أصبت بالصدمة، إذ اكتشفت بأن جميع المعلومات التي عرفتها عن قصة زوجة أبي صديقي آدم الواسطي أو آدم الراعي والذي شُنق بإعتباره آدم أبو الهيل كانت غير صحيحة، فهي لم تهرب مع صبي مراهق.. وإنما جاءتْ الغيرةُ بها لتراه بنفسها في بغداد. وهي ليست أمه وإنما زوجة أبيه. شعرت بالألم والخديعة.. فنحن دائما نعرف جزءاً من الحكاية. الحكاية كاملة ومن جميع جوانبها. كما اكتشفت بأني لم أحتل تلك المكانة في نفسه كما هو كان بالنسبة لي، فهو لم يتحدث عني سوى بكلمات عابرة. استغربت لأنه كان موجودا حينما التقيت حواء الناصري،. بل تأكد لي بأن ما كان في متنزه الزوراء لم يكن حلماً لأنه يتحدث عنه في دفتره أيضاً.. وإنه كان معنا هناك،. لكن ما حيرني أكثر هي من قدمتها حواءالناصري لي بإعتبارها أختا لها، هل هي شبح أيضاً..؟ ومن هي أصلاً..؟ هل هي أختها أم زوجة أبي

صديقي الشبح..؟

* * *

أحست حواء صحراوي عند الانتهاء من هذا الفصل بأنها تائهة حقاً في زحمة تلك الأحداث الغريبة والمتناقضة. تركت المخطوطة على الطاولة، ونزلت بهدوء في أعماق نفسها تتلمس دربها في تلك الغابات المتشابكة والمظلمة .

الفصل الثالث عشر: المولع بدانتي

كانت حواء صحراوي تضع اللمسات الأخيرة لاستكمال زينتها حينما سمعت رنين جرس الهاتف. أسرعت إلى السماعة فأخذتها. على الطرف الآخر كانت موظفة الاستعلامات التي أخبرتها بأن مندوبة المكتب السياحي تود الحديث معها، ثم جاء صوت المندوبة مرحبة بها وأخبرتها بأنها ستنتظرها في اللوبي. رشت حواء صحراوي العطر على نفسها. تأملت نفسها في المرآة. وخرجت .

* * *

في الصباح المبكر من اليوم التالي كانت حواء صحراوي تقف أمام باب الفندق وهي تنتظر الباص التابع للمكتب السياحي الذي سيقلها في رحلة سياحية إلى سواحل نابولي. كان الهواء نقياً ومنعشاً وفيه لمسة لذيذة من البرد. كانت وحيدة في ذلك الشارع الذي ما زال مسربلاً في النوم، لكنها لم تنتظر طويلاً، فبعد سبع دقائق ظهر الباص قادماً من الفرع الجانبي القريب. توقف الباص أمامها. نزل السائق الأنيق وسألها بالإيطالية عن بطاقتها. لم تفهم ما قاله لكنها أعطته تذكرة الحجز التي استلمتها أمس من مندوبة المكتب السياحي بعد أن دفعت ثمنها. فتح السائق لها باب السيارة فصعدت. كان عدد الراكبين قليلاً، بحيث لم يتجاوزوا السبعة. جلست قرب النافذة في المقاعد القريبة من مؤخرة صالون السيارة .

ظلّ السائق يدور في جزيرة إسكيا من فندق إلى آخر ليجمع السيّاح الراغبين بالمشاركة في هذه الرحلة. امتلأ الباص بالركاب. لم يبق سوى المقعد الذي خلفها وآخر إلى جانبها لكن من الجهة الأخرى .

كانت مهمة الباص أن ينقل الركاب إلى الميناء، ومن هناك يركبون الباخرة العبّارة التي ستقلهم إلى نابولي حيث ينتظرهم باص آخر ليواصلوا رحلتهم. كان تجوال الباص بين فنادق الجزيرة بالنسبة لها ممتعاً فمن خلال ذلك كانت تستكشف معالم المدينة وطبيعة فنادقها، وتأكدت من أنها نزلت في واحد من أرقى الفنادق في الجزيرةً .

فجأة توقف السائق عند فندق في الطريق إلى يقود إلى الميناء. كانت هي تنظر إلى الجانب المطل على جهة البحر حيث البواخر التي تمخر المياه ذهابا وإيابا لتنقل الناس إلى نابولي أو العكس. لم تنتبه إلى من صعد. كانت قد ملت النظر إلى الصاعدين، لكنها انتبهت بعد أن تحرك الباص إلى أن الراكب الجديد قد جلس في المقعد الذي خلفها مباشرة

بحيث أحست بركبتيه وهما تضغطان على ظهر مقعدها، إلا أنها لم تلتفت فقد وصلوا إلى الميناء .

حين وصلوا وبدأوا بالنزول، كان أمامها بعض الأشخاص الذين يسدون الممر الضيق في السيارة، وحين صار بإمكانها أن تمر تحركت للنزول، إلا أن امرأة بدينة كانت أمامها تعثرت قليلاً، فلم يكن من حواء صحراوي سوى أن تتراجع قليلاً بشكل مفاجئ، لكنها فزت مستغربة، فقد وجدت نفسها تتراجع لتصطدم مؤخراتها بحوض رجل. أدركت ذلك من طبيعة التماس الذي حصل بينهما. التفتت إليه لتعتذر، فهالها الموقف، إذ وجدت الرجل الإيطالي الوسيم خلفها مباشرة. غضبت من نفسها، لأنها لم تنتبه لوجوده في السيارة أصلاً، وخلال ثوان بدأت تسأل نفسها: متى صعد..؟ أيمكن أن يكون هو آخر من صعد السيارة حينما كانت هي تنظر إلى البواخر في البحر..؟ أهو نفسه الذي جلس خلفها مباشرة وضغط بركبتيه متعمدا على مقعدها من الخلف..؟ إستاءت من نفسها لأنها هي التي دفعت بنفسها إليه.. كيف سيفسر هو الأمر..؟ أيمكن أن يعتبر ذلك تحرشا منها به..؟ سألت نفسها كل هذه الأسئلة وهي تنزل من السيارة لتقف مع بقية الركاب الذين التفوا حول مندوبة الشركة التي قابلتها أمس .

انتبهت إلى أن الرجل الوسيم وقف قبالتها، لا يبعد نظره عن وجهها الجميل، مبتسما لها بجرأة وكأنه صديق قريب، ملقيا عليها نظرات مليئة ببوح وقح.

* * *

كانت الباخرة ضخمة جداً، لذلك استغربت حواء صحراوي أن تُستخدم للنقل بين الساحل والجزيرة، فهي من البواخر التي يمكنها أن تمخر عباب البحر في رحلات طويلة، إلا أنها ما أن دخلتْ عبر فتحتها التي تشبه فتحة مغارة، حتى استغربت هذا الكم من البشر الذين كانوا في داخلها، وخمنت أن هذه الباخرة ربما تُستخدم في هذا الوقت من النهار بالذات لنقل أكبر عدد من أبناء الجزيرة من الموظفين إلى جانب السائحين الذين عليهم الانطلاق من ميناء نابولي ليواصلوا رحلاتهم السياحية .

لم تجد مكانا فارغا على سطح الباخرة، فنزلت إلى الصالة الكبيرة التي كانت مكتظة بالناس أيضاً، بل لاحظت أن البعض منهم كان يقف عند المنعطفات والأعمدة الداخلية. وجدتْ بالصدفة مقعداً منزويا إلى جانب امرأة مسنة، بدتْ لها نائمة. جلست، ففتحت المرأة عينيها، ثم أغلقتهما لتواصل نومها .

انتبهت إلى أن ثمة زحمة وطابورا يمتد على الجهة الأخرى من مكانها. كانت مقهى - بوفيه لبيع القهوة والشاي والمعجنات. أرادت أن تنهض لشراء أي شيء تفطر به، لكنها فكرت بأنها لو تغادر مكانها فربما سيأتي من يحتله مباشرة. ظلت جالسة لربع ساعة تقريبا، لكنها لم تستطع أن تقاوم رائحة القهوة والمعجنات الساخنة القادمة من جهة المقهى، لذلك قررت أن تبتاع لنفسها قطعة من الكروسان وفنجان قهوة .

ما أن استلمت حواء صحراوي القهوة في كوب فليني صغير وقطعة الكروسان ملفوفة بالورق الخفيف حتى حانت منها التفاتة نحو مقعدها. ارتبكت. كان الرجل الوسيم الإيطالي قد جلس على مقعدها، ولم يكن منها إلا أن تتوجه إلى جهة أخرى من الصالة دون أن تثير انتباهه. لم تكن متأكدة إن كان هو قد تقصد بالجلوس في مقعدها، وأنه سُيظهر فروسيته إذا ما رجعت، فينهض تاركا المقعد لها، أم أنه لا يعلم بذلك، وأن الأمر كان محض صدفة..؟

خرجت من الصالة إلى المساحة المفتوحة في مؤخرة الباخرة، وقفت إلى جهة جانبية. كانت النوارس تحلق بالقرب من الباخرة وهي تطلق أصواتاً غريبة، وكان مشهد ابتعاد الباخرة عن الساحل يمنحها شعوراً جميلاً، شفافاً وحزيناً، كما كانت تشعر بنداوة نسيم البحر حين يلمس وجهها، بينما كان صوت تلاطم الموج على جانب الباخرة يمنحها نشوة داخلية سرية، وتحرك فيها مشاعر شبقية غامضة .

أخذت تنظر إلى خط الزبد الأبيض الذي تخلفه الباخرة وهي تشق البحر. زبد كثيف يتصاعد وكأنما يفور أمام عينيها مباشرة، لكنه سرعان ما يخف شيئا فشيئاً إلى أن يتلاشى على سطح البحر. كانت تشعر بأنها خفيفة وغير موجودة إلا من خلال عينيها، ومن خلال تفكيرها التي كانت تحس وكأنه يرتبط بعينيها أو في منطقة قريبة منهما. وجدت نفسها تستعيد أفكاراً كانت قد ناقشتها مع نفسها مراراً وقرأت عنها كثيرا، لكنها أفكار تقود إلى أسئلة مفتوحة تنتظر إرواءها بإجابات جديدة.. كانت تسأل نفسها: هل أنا حواء صحراوي متجسدة بهذا الجسد.. أي هل أنا جسدي.. هل أنا هذا الكيان المتمثل بجسدي..؟ أو أن ذاتي ليست لها علاقة بجسدي البايولوجي الظاهر..؟ أو أنا ذاتي وجسدي في آن واحد..؟ لكن لو كانت ذاتي في جسدي، فلماذا لا أستطيع التحكم بجسدي..؟ لماذا لا أستطيع التحكم في كيمياء جسدي وعملياته الداخلية في الهضم والتنفس وحركة الدم والنبض والتبول والتغوط.. والدورة الشهرية، والإنفعالات اللاإرادية..؟ أنا،

أقصد أنني بذاتي، بتفكيري الذاتي، لا أستطيع التحكم بجسدي، ولا توجيهه داخليا، فهو يتحرك ويتصرف بمعزل عني، وكأني حاسوب مبرمج مسبقاً للقيام بعمليات محددة، بينما ذاتي حاضرة عندما أريد أن أقوم ببعض الأفعال الخارجية كالمشي والركض والسباحة والكتابة والقراءة.. والتفكير.. لكنني لا أستطيع الطيران حتى لو أردت ذلك..؟ أترى أنا حرة فعلاً..؟ أترى أنا صاحبة جسدي حقاً..؟ أما أنا ماكنة تفكير.. وذاتي تتجلى في عملية التفكير فقط..؟

أفاقت حواء صحراوي من تأملاتها مع نفسها على صوت فتاة إيطالية تصرخ بمرح على صديقها الذي كان يرفعها إلى الأعلى طالبة منه أن ينزلها على الأرض. كانت الفتاة تضحك وتصرخ معارضة لكن الفتى كان يرفض ذلك، لكنه استجاب لها واحتضها ثم بدأ يغمرها بالقبل. تلفتت حولها من الجهة الأخرى فرأت بعض الركاب يصورون مشاهد البحر، ويصورون بعضهم بعضا، ورأت رجلاً يتكئ على السياج، وهو ينظر بتأمل إلى حافة السفينة وهي تشق البحر، وبدا وكأنه هائم مثلها في التفكير، لكن ربما بأشياء أخرى وهموم لا تعرفها هي.. تلفتت لا إراديا باحثة عن الرجل الإيطالي الوسيم، فربما هو قد غادر الصالة ليتبعها. لم تجده. فأحست بشعور غامض بين الإرتياح والخيبة .

انتبهت إلى حركة بعض الراكبين وهم يتركون أماكنهم ويتوجهون إلى داخل الصالة. حينما تلفتت رأت أن الباخرة قد دخلت إلى حوض الميناء. بقيت واقفة في مكانها ولم تغادر سطح الباخرة إلى أن استقرت في الميناء وسمعت إرتطام صوت البوابة وهي تنفتح لتستلقي على حافة رصيف الميناء .

كانت تتجنب أن ترى الرجل الإيطالي الوسيم وتحتك به، ليس لأنه لا يعجبها، على العكس فهو من الأشكال التي تثير فيها رغبات دافئة، حيث تبدأ أعماقها تتحرك، لكنها كانت تعرف نفسها جيداً، فمثلما يمكن للمهندس المعماري أن يرى البناء مكتملاً وهو ينظر إلى مساحة الأرض الفارغة التي يمكن أن يقام عليها المبنى، لذلك فهي تعرف إلى أي إتجاه ستمضي علاقتها لو أنها قابلته مرة أخرى، وحصل بينهما أي تواصل.

* * *

كان رصيف ميناء نابولي العريض مزدحماً بالسيارات التابعة للمكاتب السياحية العديدة، التي تجمع السيّاح قربها، حسب مشاركتهم بالرحلات. وكانت مجموعتها مخصص لها الباص المرقم 11 الذي يحمل أسماء مدن

ساحل نابولي: بوسيتانو، آمالفي، سورينتو .

كان السائق يتكلم الإنجليزية بطلاقة مع لكنة إيطالية، وبسرعة إيقاع اللغة الإيطالية. لم تستوعب أول الأمر ما يقوله لكنها بعد لحظات وجدت نفسها تتعود على طريقة كلامه. أوضح لهم بعض تفاصيل الرحلة، وأين سيتوقفون لتناول الغذاء، ومتى يرجعون إلى الميناء ليعودوا إلى جزيرة إسكيا .

انتبهت حواء صحراوي إلى أنها كانت منشغلة عما يقوله السائق بالبحث عن الرجل الإيطالي الوسيم الذي لم يكن موجوداً ضمن مجموعتهم المتحلقة حول السائق، استدارت متلفتة في ما حولها فلم تعثر له على أثر، فانشغلتْ مع نفسها سائلة عن سر غيابه .

بدأ أفراد المجموعة يصعدون إلى السيارة. جلست هي في المقعد الأول إلى جانب النافذة، وجلست امرأة أميركية مسنة على مشارف السبعين من العمر إلى جانبها. كانت المرأة مع ابنتها وزوج ابنتها اللذين احتلا المقعد المجاور، وقد انتبهت إلى أنهم يتحدثون باللهجة الأميركية .

كانت السيارة قد امتلأت بالركاب تقريبا، إلا أن السائق لم يتحرك، وإنما وقف ليعد الجالسين، ثم أعلن بالمايكريفون الذي أمامه بأن عليهم إنتظار شخصين آخرين حسب القائمة التي لديه. لم يكمل السائق جملته حتى صعد الرجل الإيطالي الوسيم إلى السيارة ومد يده إلى امرأة في الخمسين من العمر، جميلة وأنيقة، لكنها تحاول أن تظهر بأقل مما هي عليه من خلال طبيعة ملابسها وحركاتها وضحكتها المرحة. أخذ الرجل الوسيم يتحدث مع السائق بالإيطالية، ثم التفت إلى بقية الركاب متحدثاً بالإنكليزية معتذراً بمرح عن التأخير .

إغتاظت حواء صحراوي من نفسها، ليس غيرة، وإنما لأنها شعرت بالغيرة معتبرة غيرتها غير مبررة وعلامة على ضعفها، فهذا الرجل كما خمنت هو من الإيطاليين الذين يصطادون النساء في مواسم السياحة، وقد حاول معها، وها هو قد أوقع واحدة في شباكه .

أخذت حواء صحراوي تقنع نفسها بأن ما حصل هو من حسن حظها، فربما كانت قد أقامت علاقة معه، بينما هو لا يستحق ذلك ليس من باب الشكل وإنما من باب الأخلاق الرجولية. أحست بأن هذه الأفكار والمشاعر قد خففت عنها كثيراً، وقررت مع نفسها أن تطوي صفحته في ذهنها ولا تشغل نفسها به .

ما أن بدأت السيارة بالتحرك حتى بدأ السائق الإيطالي بالحديث.

ظلت هي تنظر من خلال النافذة الأمامية والجانبية إلى معالم مدينة نابولي، وتقرأ علامات المرور على الطريق العام، والتي معظمها كانت تشير إلى مدينة بومبي التي دمرها انفجار بركان من جزيرة قريبة. لكنها انتبهت إلى أن السائق كان يتحدث بلا إنقطاع وكأنه يحفظ ما يقوله حفظاً، بما فيها النكات التي تتوسط حديثه عن معالم المدينة أو الطريق، أو مدينة نابولي وساحلها .

* * *

أحست حواء صحراوي بعد ساعة من بدء الرحلة، وبعد أن تركوا مدينة نابولي، وتجاوزوا مدينة بومبي، وبعد أن بدأت السيارة تسير في الطريق الجبلي الساحلي، بأن ثمة عالماً جديداً ينفتح أمامها. صحيح أنها زارت الكثير من بلدان العالم، الأوربية وغير الأوربية، لكنها لأول مرة ترى هذا المشهد الفردوسي الباهر .

زرقة البحر اللازوردية، والأفق المفتوح على الضباب، وهذه المدن الصغيرة التي تبدو وكأنها لوحة رسمها ساحر مهووس بالألوان، وكل هذه الأناقة والترتيب في كل منعطف جبلي، وكل منحدر، دفعتها إلى حالة شعورية تداخلت فيها الأفكار بالإنفعالات، إذ أحست بالحضور الحي لتاريخ الحضارة الرومانية .

كانت حواء صحراوي قد درست تاريخ الحضارة الإغريقية، وتعمقت في مسرحها المأساوي العظيم، عند تحضيرها لإطروحة الدكتوراه عن شكسبير، فدرست أسخيلوس، سوفكليس، ويوربيدس بعمق، كما هي تعرف ملاحم هوميروس، ودرست الفلسة اليونانية جيداً، لذلك كانت تنظر إلى الحضارة الرومانية نظرة دونية، فهي في نظرها لا ترتقي إلى الحضارة اليونانية، وهي ليست أكثر من حضارة عسكرية غزت العالم القديم، لكنها الآن بدأت تستوعب معنى أن تهيمن على العالم في ذلك الزمان، دون أن تملك وسائل الإتصال اللازمة ولا أسلحة الدمار الحربية، بل تشيد حضارة تركت معالم لها في كل بقاع الأرض!!..

نعم.. نعم.. إن الإيطاليين أصحاب حضارة عريقة.. فكل شيء منظم.. لقد شقوا الجبال الوعرة، وبنوا الطرق في أشد الأماكن خطورة، وحفروا الأنفاق الطويلة التي تخترق الجبال، وأعادوا نحت وتقطيع بعض الأماكن الجبلية كي يمكنهم الإستفادة منها للزراعة، وأوصلوا كل مستلزمات الحضارة إلى أبعد نقطة في تلك السواحل الجبلية، بل بنوا القلاع العالية المنيعة والقصور الرحبة فوق القمم والذرى الشاهقة، كما شقوا قنوات تصريف

المياه إلى كل هذه المدن، والقرى، والأماكن .

تذكرتْ تعليقا لأحد الكتاب الأميركان على الرومان بأن أول ما يفكرون فيه عند تأسيس المدن هو مد شبكة لتصريف المياه.. حضارة تفكر بالغائط قبل أي شيء. حضارة أرضيه وجسمانية، مرتبطة بالطعام وملذات الحياة، لذلك تفكر بالجانب الآخر من كل هذا الانغماس بالأرضي والحسي .

فجأة أخذت تفكر بالكاتب الذي قرأت له هذا الرأي حول الرومان. لم تتذكره مباشرة. انشغلت للحظات بالتفكير في ذلك.. من كان ذلك الكاتب..؟ ظلت تضغط على ذاكرتها وتحاصرها كي تتذكر، لكن لا فائدة .

خرجت من عالم تأملاتها ومحاولتها تنشيط ذاكرتها على صراخ الركاب البهيج، ووقوف معظمهم ليرى إلى جهة البحر، فقد أعلن السائق عن مرورهم بالقرب من فيلا الممثلة الإيطالية الشهيرة صوفيا لورين، وأخذ يحدثهم عن ثمن الفيلا الذي بلغ عشرات الملايين من الدولارات .

كانت حواء صحراوي تشعر بتدفق مشاعر خاطفة تمنحها لذة وتهيجاً لذيذا. تمنت لو أنها كانت تعيش في إيطاليا، وفي إحدى مدن هذا الساحل الخلاب بجماله حيث البحر والشاطئ الرملي والجبل المغطى بأشجار الليمون والزيتون وعرائش الكروم. صحيح أنها زارت معظم دول العالم، وتقريبا جمييع الدول الأوربية، وعاشت في بعضها لفترات طويلة، كما إن إنكلترا بلد جميل، لكنها أحست بالإنبهار من جمال ساحل نابولي. وأخذت تفكر وتخطط مع نفسها حول إمكانية الانتقال للعيش في إيطاليا .

كانت حواء صحراوي في عزلة عن بقية الركاب، تستمتع بكل تفصيل صغير تمر به، وبكل منعطف، وكل منظر خلاب ينكشف أمامها، وكانت تعيد صياغة كل مشاهداتها إلى أفكار ومشاعر خاطفة، ولم تفق من حالتها تلك إلا على صوت السيارة وهي تتوقف على جانب من الطريق، حيث أعلن السائق بأن أمامهم ساعة من الوقت لتناول وجبة الغذاء التي تدخل ضمن الحجز، والإسترخاء قليلا، لكي يصلوا بعدها إلى مدينة سورينتو، التي ستكون آخر مدينة يتوجهون إليها، ليعدودوا بعدها إلى جزيرة إسكيا .

* * *

كان المطعم يتألف من صالة تقع على جانبها طاولة الاستعلامات والبار والقهوة، ومن الجوانب الأخرى بعض أماكن الجلوس القليلة وبيانو وعلى مقربة إشارة تقود إلى غرفة الحمامات النسائية والرجالية، ومن الجانب الآخر كانت تقود إلى شرفة كبيرة تطل على البحر القريب، وتشرف على الشاطئ الرملي الذي بنيت قربه عددا من الفنادق والمباني التي

تحولت إلى شقق سكنية وبيوت للأثرياء .

حينما دخلوا إلى المطعم توجه الجميع مباشرة إلى الشرفة، التي لم تكن خالية لهم، إذ كانت مجموعة أخرى من السيّاح قد سبقتهم إليها. معظم الركاب الذين كانوا معها جلسوا حول مائدة طويلة تشكلت من رصف عدد من الطاولات إلى جانب بعضها. انتبهت إلى أن الرجل الإيطالي الوسيم جلس إلى جانب المرأة التي صعد السيارة معها، بل إن علاقتهما قد تطورت أثناء الطريق كما بدا لها، فها هو يضع يده على كتفها بطريقة أليفة جداً .

فتشت عن مكان تجلس فيه فلم تجد. إلا أنها انتبهت إلى وجود طاولة لإثنين على طرف الشرفة، لكن رجلاً يجلس على كرسي حولها. ترددت قليلا، فربما هناك شخص ما معه، ذهب إلى المرافق الصحية، لكنها انتبهت إلى عدم وجود أية صحون للطعام أو الشراب مقابل الكرسي الآخر الفارغ، وهذا يعني أنه غير محجوز لأحد، فتوجهت إلى الطاولة لتسأل الرجل الجالس هناك إن كان المقعد شاغراً .

كان الرجل يجلس بمواجهة البحر، فلم تر منه سوى ظهره ورأسه من الخلف، وكان قد علّق على طرف كرسيه حقيبة صغيرة مفتوحة تبرز منها كراسة لأوراق رسم متوسطة الحجم .

قبل أن تصير بمواجهة الرجل، رأت على طاولته كتاباً برتقاليا ضخما استطاعت أن تقرأ عنوانه بالعربية (الكوميديا الإلهية - الجحيم)، فأحست بقلبها يخفق بسرعة، حتى أنها كادت تسمع نبضات قلبها .

حين صارت بمواجهته، انتبهت إلى أنه رجل في منتصف الأربعين، شرقي الملامح، يضع نظارة على عينيه. ارتبك هو لرؤيتها، وأحس بأنها تريد الجلوس، لذا تحرك بكرسيه قليلا قبل أن تسأله، إلا أنها لم تتأخر من السؤال فقالت له بالإنكليزية :

- عفوا.. هل المكان محجوز..؟
- لا.. أبداً.. تفضلي بالجلوس ..

قال جملته الإنكليزية بطريقة صحيحة نحويا لكن بلكنة واضحة. وبينما هي تجلس جاء النادل ليسألها عن طلبها، وخيرها بين نوعين من الطعام، فحانت منها التفاتة إلى صحن الطعام العائد للرجل المقابل فرأت أنه لم يمس منه إلا القليل لكن كما هو واضح قد اكتفى، فطلبت صحنا من القريدس المشوي. انحنى النادل اليها قليلاً قائلاً لها بصوت خافت بأن سعره سيكون أغلى من ثمن وجبة الطعام المتفق عليها مع المكتب

السياحي، فأخبرته بأنها ستدفع الفرق، فرحب بذلك وسألها إن كانت تشرب شيئا..؟ لا تعرف هي لماذا جاءتها الرغبة بشرب النبيذ، فطلبت كأساً من النبيذ الأحمر الجاف من نوع (شانتي). أبدى النادل عدم معرفته للإسم، فسألها ثانية فأكدت له الاسم ثانية، إلا أنه سرعان ما أبدى ملامح من عرف ما تقصد، فقال لها بأنها تقصد نبيذ (كيانتي)، فهو يسمى هكذا بالإيطالية. لم تشأ ان تدخل معه في مناقشة حول النبيذ، فوافقت على ما قاله النادل .

كان الرجل الذي يجلس قبالتها يتابع النقاش بينهما، فأخذ النادل صحن الطعام، وسأله بالإيطالية إن كان يود قهوة أم عصير، فأجابه بإيطالية سلسة بأنه يود عصير الليمون .

نظرت هي إليه باستغراب، فهذا الرجل يتحدث الإيطالية بسلاسة، وهو كما تظن عربي من خلال الكتاب الذي يقرأه، لكن هيئته غريبة، فيها مزيج من الفوضوية والكلاسيكية المنقرضة. انتبهت ثانية لكراسة الأوراق في حقيبته المفتوحة فخمنت أن يكون رساماً، لكن تولد لديها إنطباع بأنه إنسان منعزل، إنطوائي، فقد انتبهت إلى أنه كان يتهرب من نظراتها إليه، وكأنه متضايق بأن تشاركه الطاولة امرأة، استغربت ذلك، فهذا ليس من طبائع الرسامين حسبما تظن. أما هو فقد كان مرتبكا من جمالها الباهر الذي أقلقه وبث الإرتباك في نفسه. أحست هي بالضيق من نفسها لما سببته له من ارتباك، ووجدت نفسها لا إرادياً تسأله بالعربية :

- هل حضرتك عربي..؟

ارتسمت علامات الدهشة على ملامحه، فأجاب بالعربية وعلى وجهه ابتسامة عريضة، لا تتناسب مع الارتباك والانقباض الذي كان عليه قبل لحظات :

- أنا عراقي... وأنت..؟
- أنا خليجية.. أقصد أنا إنكليزية المولد.. لكن عربية الأصل.. من الخليج ..
- هل أنت في سياحة هنا..؟
- نعم.. جئت إلى جزيرة إسكيا.. وأنت..؟
- أنا أعيش هنا منذ سبعة عشر عاماً ..

خلال هذه الفترة القصيرة كان النادل يحمل صينية، حيث وضع صفيحة ساخنة عليها قطع القريدس المشوي، وصحن سَلّطة من الخضروات والجبن، مع كأس النبيذ، على الطاولة، متمنيا لها شهية طيبة .

حينما كانت حواء صحراوي منهمكة بالأكل، أخرج الرجل الذي يجلس قبالتها كراسته الورقية، وأخذ يخطط فيها بسرعة خارقة، وبانتباه كبير. لم تمض سوى دقائق حينما انتهت هي من الأكل. انتبه هو إلى ذلك حينما وضعت الصحون على بعضها وأزاحتها إلى جانب من الطاولة، وأخذت ترتشف شيئا من النبيذ .

منذ أن أخرج كراسته ليخطط فيها، لم يطرأ على ذهنها بأنه يمكن أن يرسمها، لأنه لم ينظر إليها مثلما يفعل الرسامين عادة حينما يرسمون شخصاً يجلس أمامهم، لذا كانت مسترخية في جلستها. هذا الاسترخاء أيقظ في نفسها رغبة في أن تحادثه. بررت هي ذلك لنفسها بأنه ربما الفضول، لأنه من نفس البلد الذي جاء منه الكاتب آدم التائه، وربما هو يعرفه، فوجدت نفسها تسأله :

- هل تعرف كاتبا عراقيا اسمه آدم التائه..؟

فوجئ هو من سؤالها. توقف لحظة عن التخطيط. نظر إليها. كانت هي تعتقد أنه يفكر في الإجابة، بينما كان هو يدرس ملامح وجهها أكثر، فقال :

- مَن..؟
- آدم التائـه ..
- لم أسمع به قط ..

قال ذلك واستمر في تخطيطه. ظلت للحظات صامتة، وكأن شيئاً من خيبة قد أصابها، فأرادت أن تقاومه بالسؤال أكثر، فقالت له :

- لديه رواية مطبوعة باسم (كوابيس القنفذ) وأخرى باسم (المرأة المجهولة) أو (متاهة آدم .. (

توقف عن التخطيط، وقال لها، وكأنه أدرك إهتمامها وقلقها، فلم يشأ أن يكون لامبالياً، فقال بنبرة جادة :

- غريب..!! لم أسمع بهذا الاسم ولا برواياته قط.. بالرغم من أني أعتبر نفسي من المتابعين الجيدين للأدب ..

استغربت حواء صحراوي من تلقائية الحوار بينهما دون أيما تلكؤ من قبلهما، لكن استغرابها الأقوى كان في عدم معرفة هذا الرجل الذي يبدو فناناً وقارئا جاداً باسم الكاتب آدم التائه. فسألته :

- ربما كونك مهاجراً من العراق منذ فترة طويلة لذا لم تسمع به..؟
- هذا صحيح.. ربما.. لكني من المتابعين الجيدين لما يطبع وينشر

في الداخل أيضا.. نحن الذين خرجنا من العراق منذ نهاية السبعينات نتابع معظم ما يُكتب في الداخل ..

- الكاتب آدم التائه غادر العراق منذ سنوات.. هو كما أعرف يعيش حالياً في ألمانيا ..

ارتسمت ملامح الانتباه على وجه الرجل، وقال وكأنه يحاول أن يستذكر وجوهاً وأسماء في ذاكرته، وقال بهدوء :

- غريب.. أنا على إتصال بالأدباء والفنانين العراقيين في ألمانيا.. وأعرفهم كلهم تقريبا.. لكني لم أسمع باسمه.. هلا ذكرت لي اسمه مرة أخرى رجاءً..؟

ارتسمت ملامح أمل على وجهها وكأنها صياد أحس بحركة في صنارته، فقالت بلهفة وترقب :

- آدم التائه ..

نظر الرجل إلى وجهها نظرات غائبة وقال :

- أعرف في ألمانيا كاتبا اسمه آدم لكني لا أعرف اسمه الكامل.. لكن في كل الأحوال ليس التائه.. مرة ذكروا لي اسمه ولقبه.. هو لقب مستمد من محافظته.. لكني لستُ متأكداً منه.. الناصري، الواسطي، العراقي، البغدادي.. لا أذكر بالضبط ..

- ماذا قلت.. ماذا كان آخر لقب ذكرته..؟

- البغدادي ..

- غريب.. أتدري.. أن بطل رواية الكاتب آدم التائه الذي أسأل عنه اسمه آدم البغدادي.. وهو كاتب أيضا.. لكنه يعيش في العراق ..

نظر الرجل إليها من خلال نظراته السميكة متفحصاً، وفي عينيه قلق وارتياب. انتبهت هي لذلك فسألته :

- ماذ هناك.. هل قلت شيئا غير دقيق..؟

- أبداً.. لكني استغرب ما تقولين.. فهذا الكاتب آدم.. والذي أميل إلى أن لقبه البغدادي.. لديه رواية اسمها متاهة آدم أو المرأة المجهولة ....

صمت لحظة، ثم قال فجأة وقد ارتسمت على ملامح وجهه علامات انتباه واضحة وقال :

- مهلا.. مهلاً.. هذا منتهى الغرابة.. الآن أنا قد تذكرت.. فبطل رواية متاهة آدم للكاتب آدم البغدادي الذي حدثتك عنه اسمه آدم التائه.. وهو كاتب أيضا ..

- ماذا تقول..؟

- هذه هي الحقيقة.. وهذا يعني أن كاتبك هو، ربما، شخصية وهمية.. شخصية روائية غير موجودة في الواقع ..
- كيف..؟ ماذا تقول..؟ أنا أعرفه شخصياً، وأنت تقول لي إنه غير موجود..؟ إن البغدادي هو ربما شخصية وهمية.. فهو بطل إحدى روايات آدم التائه ..
- عفواً.. الآن كما يبدو لا أحد يعرف من يكتب عن من..؟ عموماً.. لم أقصد أن أنفي وجود كاتبك.. لكن.. هذا الذي تقولينه أشبه بالمتاهة ..
- هي متاهة فعلاً ..

صُدمت حواء صحراوي. أحست أنها لا تستطيع مواصلة الحديث، بل أحست بالخوف الخفي من مواصلته، لأن كان ثمة شعور غامض في أعماقها يهمس لها بأن ستُصدم بأشياء قد تخلخل هدوء عالمها الذي كانت هذه الرحلة صفحة جديدة، جميلة وهادئة، فيه، لذلك أحست بإنطفاء فضولها لمعرفة أي شيء عن آدم التائه من خلال هذا الشخص المجهول، ولكي لا تواصل الحديث أخذت تنظر إلى البحر الذي تتدرج ألوانه ما بين الأخضر اللازوردي واللون الأزرق، وحينما أرجعت بصرها عن مشهد البحر نظرت إليه، وجدته ينظر إليها نظرة مليئة ضبابية مليئة بالغموض.. لكنها وجدت نفسها تلقي بنفسها في خضم الحديث معه، وكأنما بذلك تتخلص من محاولة تهربها، مثل الحيوان الذي يهرب من مطارده، لكنه حينما يحاصر فلا يجد من منفذ سوى أن يلقى بنفسه مهاجما صياده، فسألته مجاملة :

- هل أنت رسام..؟
- نعم ..
- وماذا ترسم..؟
- ماذا أرسم.. أرسم لوحات ..
- أقصد ما هي موضوعاتك؟ ..
- عملياً أعيش من التخطيط والكاريكاتير الذي أمارسه في الساحات.. لكني أرسم أعمالاً زيتية ..
- وماذا ترسم الآن..؟ أراك منهمكا منذ فترة بالتخطيط ..
- أرسمك.. أقصد أرسم تخطيطاً بسيطا وسريعاً لك ..
- لي..؟
- نعم.. انتظري للحظات ..

تسمرت نظراتها عليه من الدهشة، فلم يكن ينظر إليها بشكل خاص

عندما كان يرسم.. كيف رسمها وهو بالكاد كان ينظر إليها..؟ لم تمض سوى لحظات، حتى قطع الورقة من الكراسة وقدمها إليها. انبهرت لهذا التخطيط الجميل، الذي فيه الكثير من تأثير دافنشي في تخطيط الوجوه. قالت بانبهار وبأنفاس متقطعة :

- هذه أنا..؟
- نعم.. أنت.. لكن كما أراك أنا ...
- شكراً جزيلاً لك.. هل لي أن أحتفظ بها..؟
- هي لك ..
- وكم عليّ أن أدفع لك..؟
- هي هدية مني ..
- لا.. لا.. هذا غير مقبول.. فأنت تعمل.. وهذا عمل وجهد ..
- لكنك لم تطلبي مني ذلك.. أنا بادرت برسمك.. وأنا الذي عليّ أن أشكرك ..
- إنك تخجلني ..
- لا أبداً.. أرجو أن يكون التخطيط قد أعجبك..
- إنه مذهل.. هناك تخطيط شهير لدافنشي لرأس فتاة ..
- نعم أعرفه ..
- إنك قدمتني بشكل جميل ..
- إنك أجمل من التخطيط بآلآف المرات.. أنت الحياة.. والتخطيط فن.. والحياة أهم وأجمل ..
- لكن الفن أبقى ..
- الفن حنين إلى المثال.. محاولة لاقتناص الزمن ..
- لذلك يهرم الإنسان.. بينما لحظة الإبداع لا تشيخ ..
- أتمنى أن أبقى بعد سنوات كما أنا في هذا التخطيط.. الذي سيبقى كما هو بعد سنوات ..
- إنك فيلسوفة.. اسمحي لي أنا أقدم لك نفسي.. أنا آدم.. آدم الغفاري ..
- أهلا وسهلا.. أنا حواء صحراوي ..
- أهلا وسهلا.. تشرفنا ..

مدت إليه يدها مصافحة فأخذها وهز عليها برفق. قالت له :

- أراك تحمل كتابا باللغة العربية معك.. ماذا تقرأ..؟
- الجحيم.. لدانتي ..

- دانتي..؟
- نعم.. دانتي.. أنا مولع بدانتي ..

نظر إليها وأخذ يقرأ بالعربية أبياتا من الجحيم كان يحفظها :

«هنا الطريق إلى مدينة العذاب.. هنا الطريق إلى الألم الأبدي.. أيها الداخلون.. إطرحوا عنكم كل أمل .. »

نظرت إليه بتأمل، وهي تفكر بهذا الإنسان الغريب الذي ظهر إليها وكأنه قادم من العدم ليقرأ لها في هذا المطعم النائي، المطل على البحر أبياتاً من جحيم دانتي.. دانتي الذي شغلتْ نفسها معه ذات عام لتكتب عملها السنوي ضمن مقررات التحضير للدكتوراه عن علاقته بالأدب العربي، وعلاقة الكوميديا الإلهية برسالة الغفران لأبي العلاء المعري.. كانت ثمة مشاعر من الحنين والتردد تجتاحها، فقالت له :

- أعتقد هذه من الإنشودة الثالثة من الجحيم.. أونفيرنو.. أليس كذلك..؟

نظر إليها بتعجب، ثم أخذ يتفحصها بنظرته محاولاً أن يشخص هذه المرأة باهرة الجمال التي تجلس قبالته، وكأنها شخصية هاربة من رواية رومانسية لمؤلف مجهول. أجابها بهدوء وتأييد مع ابتسامة المستسلم :

- نعم بالضبط.. نعم.. إنها من مطلع الإنشودة الثالثة من الجحيم أو الأونفيرنو.. وقد رسم العظيم ديلاكروا لوحة هائلة عن الجحيم مستعينا بهذه الأبيات ..

التفتت دون إرادة منها نحو الطاولات الأخرى فرأت الرجل الإيطالي الوسيم ينظر إليها بفضول وغيرة. غمرتها موجة من مشاعر الفرح، لأنها انتبهت إلى أن نظراته كانت تشي بغيرة قوية لم يستطع أن يكتمها، وهذا ما شجعها أن تتواصل بسلاسة أكثر في حديثها مع الفنان آدم الغفاري، ليس لإستمتاعها بالحديث معه فحسب، وإنما لإشعال غيرة الرجل الإيطالي الوسيم، لكنها لم تنتبه إلى أن جليسها آدم الغفاري التفت إلى الجهة التي كانت تنظر إليها فخمن بوجود شيء ما بينها وبين الرجل الإيطالي الوسيم. فجأة، دخل السائق، وقال معلنا أن على ركّاب السيارة رقم 11 ان يتفضلوا إليها، إذ أنهم سيتحركون خلال عشر دقائق. أحست بإنزعاج من إنقضاء الوقت بهذه السرعة. ابتسم لها بإحباط واضح وقال :

- يبدو أنكم ستغادرون خلال دقائق.. أهذا هو سائقكم..؟
- نعم هو.. على أية حال.. كانت فرصة طيبة للقاء بحضرتكم.. ومرة أخرى ألف شكر على هذا التخطيط الجميل ..

- لا شكر على واجب.. وبالمناسبة.. أنا كتبت تليفوني على حاشية في ظهر التخطيط. ورجائي أن تتصلي بي دون أي تردد إذا ما احتجت إلى أي شيء ما دمت في إيطاليا.. اتصلي في أي وقت دون أي إحراج ..

- شكراً جزيلا لك.. هذا من فيض لطفك.. شكرا جزيلا ..

قالت ذلك بحزن، ثم رفعت كأسها وقالت :

- بصحتك أستاذ آدم الغفاري ..

رفع الفنان آدم الغفاري كأس العصير وقال :

- في صحتك.. وصحة دانتي ..

ابتسمت وقالت :

- في صحة دانتي .

ظلا ينظران لبعضهما للحظات بصمت مشحون بالإنفعالات المتضاربة وبالتحسر لقصر هذا اللقاء العفوي. في أعماق نفسها كانت هي تعيش صراعاً، بين أن تعطيه رقم هاتف الفندق أو هاتفها في لندن.. وبين أن تطوي صفحة على هذا اللقاء غير المتوقع أو المخطط له. حينما قررت أن تعطيه الرقم انتبهت إلى أن بقية الركاب معها قد نهضوا وبدأوا بمغادرة المكان فاعتبرت ذلك إشارة وفأل بأن لا تعطيه الرقم. نهضت ومدت يدها مصافحة مودعة له، بينما استمر هو في جلسته. اتجهت إلى الاستعلامات لكي تدفع فرق الطعام .

* * *

منذ لحظة خروجها من المطعم ولحين عودتها إلى الفندق لم تفارق تفاصيل هذا اللقاء مخيلة حواء صحراوي، لقد كانت منشغلة مع نفسها، حتى وهي تتجول في سوق مدينة سورينتو الضيق والجميل، وتحاورها، وهي تصل إلى قناعة بأن الحياة ليست سوى مجموعة من المصادفات المتناقضة، الجميلة والقبيحة، السعيدة والمحزنة، لكنها توقفت عن سؤال لم تجد أية إجابة له ألا وهو لماذا تلتقي دائما برجال عراقيين، مثقفين، كتّاباً وفنانين، وأنهم يظهرون في حياتها لفترة وجيزة ويختفون بطريقة محزنة وفجائية..؟ أيمكن أن يكونوا أشباحا..؟ لماذا لا يعرف هذا الفنان المثقف الذي قابلته في المطعم صديقها الكاتب آدم التائه، بينما استذكر كاتباً آخر يحمل اسم أحد الأبطال في رواية متاهة الأشباح التي ما زالت تقرأ في مخطوطتها.. والموجودة حاليا في غرفتها..؟ ولماذا تعرفت إلى رجلين عراقيين، أحدهما كاتب والآخر فنان، وكلاهما يحمل إسم آدم..؟

كانت حواء صحراوي مليئة بالهواجس وهي تمشي في الممر متجهة إلى

جناحها، وحينما وضعت المفتاح في قفل الباب مرقت في ذهنها خاطرة بأنها ستجد شخصاً ما ينتظرها في غرفتها: الرسام آدم الغفاري أو الكاتب آدم التائه، أو حتى الرجل الإيطالي الوسيم. بدون إرادة منها همست مع نفسها: بسم الله الرحمن الرحيم .

أشعلت الضوء مباشرة. نظرت بتوجس إلى الصالة فلم تجد أحداً، أسرعت إلى غرفة النوم فلم تر أي أحد أيضا. ألقت حقيبتها، والتخطيط على السرير، ودخلت إلى غرفة الحمام لتغير ملابسها استعداداً للعشاء .

كانت حواء صحراوي مكتظة بالمشاعر المتناقضة. كل هذا السيل من المناظر الطبيعية الساحرة، وهذا الكم من المعلومات التي تدفقت من فم السائق عن الأمكنة وعن إيطاليا، ونابولي، والساحل الساحر، ومعالم كل مدينة وكل قرية، وكل كنيسة أو جبل يمرون به، إلى جانب هذا اللقاء الغامض مع آدم الغفاري، دفعها للتفكير بأنها تحتاج لشيء من الهدوء كي تسترخي، وتستقر حالتها النفسية والعصبية، فقد كانت قد قرأت عما يُسمى بظاهرة ستندال التي تصيب السيّاح، خاصة الذين يزورون إيطاليا، لشد ما يرونه من آثار ومواقع غاية في الجمال، وما يتراكم لديهم من معلومات، بحيث يشعرون بشيء من التشويش النفسي .

قبل أن تنزل إلى صالة الطعام لتناول العشاء، ألقت بنفسها على السرير لتسترخي قليلا.. لكنها لم تكن تتوقع بأنها ستغط في نوم عميق.

الفصل الرابع عشر: الفراشة واللهب

أفاقت حواء صحراوي من غفوتها الطويلة فرأت أن الساعة قد تجاوزت الثامنة مساءً. كان يغمرها إحساس بالراحة الجسدية، ويطغى السكون على ذهنها؛ فهي لا تفكر بأي شيء، كأن ثمة هواء يملأ جمجمتها ويضغط على جانبي رأسها. مدت يدها والتقطت التخطيط الذي قام به آدم الغفاري. ظلت تتأمله. أعجبها جداً. فكرت أنها ستؤطره بشكل جميل بعد رجوعها إلى لندن.

نهضت بتثاقل وهي تحمل التخطيط بيدها متوجهة إلى الصالة. وضعت التخطيط على الطاولة مسنوداً إلى المرآة. ملأت الدورق الكهربائي بالماء لتعد لنفسها كوبا من القهوة النسكافيه لأنها تشعر بأنها لم تصحُ بعدُ تماماً. فكرت في الوقت نفسه أن تأخذ حماماً دافئا كي تستعيد نشاطها، إلا أنها انتبهت إلى الوقت، فربما لن تستطيع أن تلحق بفترة العشاء التي ستمتد إلى التاسعة .

بعد أن انتهت من شرب قهوتها نهضت متجهة إلى غرفة النوم. نزعت ملابسها واتجهت إلى غرفة الحمام؛ لتتحمّم، ثم تذهب إلى أحد المطاعم الجيدة الموجودة في الشارع نفسه، على جانبي الفندق .

* * *

حين انتهت حواء صحراوي من زينتها كانت الساعة تشير إلى التاسعة إلا خمس دقائق، لذلك لم تفكر بالهبوط إلى الطابق الأرضي، حيث المطعم، وإنما توجهت إلى خارج الفندق .

كان الشارع يضج بالحياة. الأضواء التي تبعث البهجة في النفس، وجموع الناس، من مختلف الأعمار، سواح وطليان، يسيرون بإسترخاء ومرح. كان واضحا أن الجميع جاء إلى هذه الجزيرة ليستمتع بجمال طبيعتها، ويتعالج بمياهها وطينها الكبريتي، وأن معظمهم خرج إلى الشارع ليقضي مساءه بالتجوال أو شراء الهدايا من المحلات المفتوحة أو الجلوس في المقاهي المنتشرة على جانبي الشارع، أو تناول العشاء في المطاعم الجيدة، والمتنوعة في درجاتها .

توجهت إلى يمين الفندق، منحدرة مع الشارع الذي يتلألأ بالأضواء، متجهة نحو (فيا روما)، ومن هناك توجهت نحو المطاعم المنتشرة على شاطئ البحر، لكنها ومنذ لحظة خروجها من الفندق، وانعطافها نحو اليمين استشعرت وكأن هناك من يتابعها، وثمة عينين تراقبانها من الخلف. حاولت

أن تتوقف عند واجهات بعض المحلات النسوية؛ لتنظر إلى الجهة التي جاءت منها فلم تجد أحداً يمكن أن تشك فيه، لأن معظم المتجولين كانوا من الروس، رجالا ونساء، إلى جانب بعض الطليان، لكنها رغم ذلك أحست أن هناك من يراقبها .

حين صارت في شارع المحاذي للبحر لم تذهب حتى نهايته، وإنما توقفت عند مطعم (دا أومبيرتو) المفتوح على البحر. جلست حول طاولة مواجهة للطريق. تصفحت القائمة، وحين جاءت عاملة المطعم، وكانت امرأة في الثلاثين، طلبت سمكاً من نوع (الدورادو)، وكأس نبيذ ابيض .

أخذت تنظر إلى البحر الذي بدا مظلماً، ومخيفاً، وبعيداً عن أية مشاعر رومانسية. أحست بنفسها وحيدة، خاوية داخليّاً، لا يمكنها على فكرة محددة، أو تكاد أن تكون فارغة من أية فكرة .

جاءت عاملة المطعم بصحن السلطة، وكأس النبيذ الأبيض، وصحن فيه بعض قطع الخبز. لا تدري من أين جاء كل هذا العطش المفاجئ، إذ أخذت كأس النبيذ وارتشفت منه رشفة كبيرة، وأخذت قطعة من الخبز زكي الرائحة، وأخذت قضمة منه، ثم لا إراديا أخذت كأس النبيذ لتأتي على ما بقي فيه. أشارت لفتاة المطعم رافعة الكأس الفارغة، ففهمت الأخرى بأنها تطلب كأساً آخر .

* * *

حين غادرت حواء صحراوي المطعم كانت راضية عن نفسها، ومسترخية بعض الشيء بتأثير كأسي النبيذ والطعام اللذيذ، على الرغم من أنها أحست بأن ثمة مبالغة في الأسعار، لكنها لم تأبه لذلك. أخذت تسير متجهة إلى الفندق. كان بعض الرجال ينظرون إليها وكأنها طريدة شاردة، لكنما لم يجرؤ أحد على التحرش بها. أسرعت الخطى كي تصل إلى شارع (كولونا) الذي يقع فيه فندقها، فهو مضيء ومزدحم بالمارة؛ مما يبعث الأمان في نفسها، لأنها حالما غادرتْ المطعم؛ خامرها الشعور أن هناك من يتبعها .

ما إنْ صارت أمام الفندق حتى اجتاحتها رغبة في أن تتناول شيئاً من المرطبات في المقهى القريب من الفندق .

كان المقهى مكتظاً تقريبا، ولم يبق سوى ثلاث طاولات خلفية بعيدة عن الشارع فارغة، فتوجهت لتجلس حول إحداها. حين التفت حولها فاجأها وجود الرجل الإيطالي الوسيم جالساً وحده على طاولة قريبة منها. لم يكن أمامه سوى فنجان قهوة صغير .

استغربت وجوده هنا وفي مثل هذا الوقت.. أتراه يسكن في فندق

قريب..؟ ولماذا هو وحده..؟ أين المرأة التي كانت معه هذا اليوم طوال الرحلة..؟ هل هو يتبعها أم ان الأمر مجرد مصادفة..؟ كيف لم تنتبه إلى وجوده حينما دخلت المقهى..؟ كانت الأسئلة تنبت في أعماقها بسرعة لا تستطيع أن تجاريها. (عليّ أن اكون هادئة) هكذا قررت مع نفسها .

كانت حواء صحراوي تحاول اصطناع شجاعة مفقودة، ولكي تخفي قلقها من رؤيته، الذي أخذ يزعزع ثقتها بنفسها، ويأكل من جرف صمودها ومقاومتها لرغبتها الدفينة بالتعرف إليه، والذهاب معه إلى أبعد ما يمكن أن تشطح بها خيالاتها الشبقية. كانت تعرف أنها ستنهار في لحظة ما، لكن متى.؟ هي لا تعرف الآن، وإنما تعرف بأن رغبتها ستشلها في لحظة ما .

ابتسم لها ابتسامة ودودة، وحرك رأسه تحية لها، فردت عليه بهز رأسها أيضا، ورسمت على وجهها ابتسامة محايدة لا توحي بشيء خاص. استغربتْ من نفسها كيف تتغير بسرعة، فهي خلال ثوان لم تعد مستاءة منه أو من نفسها، لكنها كانت تشعر برهبة الموقف ورهبة ما هي مقبلة عليه. كانت تحس وكأنها تؤدي دوراً في مشهد سبق وأن مرت به، وتعرف كيف انتهى هذا المشهد، لذا كانت تحس وكأنها تراقب نفسها، أو تراقب شخصاً آخر يتحرك، وكأن ما تراه ليس إلاّ شريطاً سينمائياً في فيلم مطاردات بطلته امرأة شبيهة بها بالضبط، لكنها ليست هي بالتأكيد .

مرت في لحظة احتجاج على نفسها وعلى خيالاتها. أرادت أن تنهض وتغادر المقهى تجنباً لما سيأتي، لكنها أحست بقوة غامضة وقاهرة تستبقيها، وتجذبها إلى التوغل في المشهد حتى نهايته المحتومة والمقررة سلفاً. سألت نفسها:

ماذا تريدين يا حواء..؟ ها أنت تعرضين نفسك بشكل مهين، لأنك تعرفين أن هذا الرجل يريد مضاجعتك، ويرى فيك مشروع عاهرة مثقفة، أو بالعكس، يفكر أن تدفعي له على مضاجعته لك.. وفي كلتا الحالتين أنت التي تدفعين بنفسك إلى الهاوية بإرادتك..؟ لا. لا. لا تقولي حباً، فأنت لا تعرفينه، كما أنه تعامل معك، حتى قبل أن يرى وجهك، كجسد يريد اختراقه من كل الجهات؛ لذا عليك القيام فورا ومغادرة المقهى أو البقاء وتقبل النتائج، التي بعدها ستشعرين بالإشمئزاز من نفسك ومن ضعفك أمام شهوتك.. ها ماذا تقولين..؟!

هكذا كانت تحدث نفسها بسرعة وبحماس وكأنها تقوم بمرافعة في قاعة محكمة، لكن القرار كان واضحا. شغلت نفسها بتصفح قائمة

المشروبات، بينما كانت تحس بوهج ساخن يلفح كل مسامات جسدها، وهج يأتي من جهة هذا الرجل الوسيم والغامض .

فجأة سمعت صوتاً رجالياً يقول لها بالإنكليزية :

- هل تسمحين بالجلوس معك حول هذه الطاولة..؟

فوجأت حينما رفعت رأسها. كان الرجل الإيطالي واقفا قربها. ارتبكت. لم تكن متوقعة هذه الحركة في بقعة الشطرنج التي كانت تجري في ذهنها. لم يكن أمامها أن ترفض، فهذا مكان عام، أو هكذا وجدت لنفسها التبرير؛ لكي تسمح له بمجالستها، على الرغم من أنها تعرف أنه جاء إليها مهاجماً ومقتحماً أسوار عزلتها المنيعة، التي بدأت تنهار مثل جبل من الثلج أمام موجة عالية وعاتية .

لم تجبه بصوتها، لكنها أبدت موافقتها بهزة من رأسها وكتفيها بأن الأمر لا يعنيها أو لا مانع لديها. جلس الرجل الايطالي الوسيم قبالتها، وأخذ ينظر إليها بشكل قوي وبتركيز، وهو يشكرها، وكأنه كان يمعن في إرباكها، ويتقصد تحطيم ثقتها بنفسها، وكأنه يستمتع بذلك .

كانت حواء صحراوي برغم بقائها جالسة في المقهى، وبرغم موافقتها على أن يجالسها، كانت تصارع نفسها، فهي لم تستسلم بعد، إذ لديها إرادة غامضة في أعمق أعماقها في إرباك المشهد بأكمله، وإعادة صياغة الأحداث المعهودة لمثل هكذا مشهد. أحست بنفسها وكأن موافقتها له بالجلوس معها هو إهانة لشخصيتها وأنوثتها التي تعتز بهما كثيراً. فجأة، وبحركة استغربت هي نفسها لحظتها على اتخاذها، قامت من مكانها، معتذرة. وغادرت المقهى. بينما استغرب الرجل الايطالي الوسيم تصرفها، فارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية، لكنه قرر اللحاق بها بعد لحظات..

* * *

في طريقها إلى الفندق كانت حواء صحراوي فخورة في أنها تحدت رغباتها وقاومت لحظات ضعفها، لكن هذه المشاعر لم تدم طويلاً، إذ بدأ الندم يتسرب شيئا فشيئاً إلى نفسها، فهي تعرف أنها ترغب في أعماقها في أن تكون مع هذا الرجل الوسيم، ولكي تهرب من صراعها النفسي فكرت بصديقتها إيفا بعلبكي، فهي لم تلتق بها طوال اليوم، لذا فكرت في قضاء بقية الأمسية معها .

حين وصلت حواء صحراوي اللوبي لم يكن أحد في مكتب الاستقبال، كانت موظفة الاستقبال تشرب عصيرا وتشاهد التلفزيون في غرفة قريبة من المكتب. نهضت موظفة الاستعلامات مقبلة عليها لتسلمها مفتاح الجناح. في

تلك اللحظة وجدت هناك من يقف إلى جانبها ويلقي بالتحية على الموظفة باللغة الايطالية. صُدمت حواء صحراوي وأحست بأنها تتنفس بصعوبة، ثمة تشنج في الجهة العليا اليسرى من صدرها، فقد كان الرجل الإيطالي الوسيم يقف إلى جانبها. ردت موظفة الاستقبال التحية مبتسمة، وهي تسلم المفتاح لحواء. نظر الرجل الإيطالي الوسيم إلى المفتاح، وعلق بصوت مرح :

- أوه.. ياله من رقم.. 333 رقم لا يحصل المرء عليه حتى في لعبة اللوتو ..

لم تعلق حواء صحراوي. أخذت المفتاح وتوجهت إلى اليمين حيث المصعد. ظلت واقفة في الممر تنتظر المصعد، وهي تسمع الرجل الإيطالي يتحدث ويمزح مع موظفة الاستعلامات. حين وصلت المصعد لم يكن غيرها في الممر، لكنها ما أن دخلت إلى كابينة المصعد حتى سمعت صوتاً واهنا، لكنه كان مسموعاً، ينادي بالإنكليزية: رجاء انتظر. ضغطت على الزر الذي يبقي الأبواب مفتوحة. فلمحت الرجل اللبناني العجوز وزوجته يدخلان إلى الكابينة. رفعت يدها عن الزر إلى أن استقر العجوزان داخل كابينة المصعد، وحالما كاد الباب أن ينغلق، امتدت يد لتوقف الإغلاق؛ فأحدث الباب ضجة وضوضاء عند تراجعها أتوماتيكياً. فوجئ الجميع بدخول الرجل الإيطالي الوسيم. ألقى على الجميع بمرح تحية المساء بالإيطالية، فرد العجوزان نفس الكلمة، التي كما يبدو تعلماها خلال تواجدهم في الفندق .

أحست حواء صحراوي بغضب من وقاحة هذا الرجل الذي يطاردها بلا هوادة، مع إعجاب خفي وغامض بجرأته وسرورها الغريب بهذه المطاردة. عند الطابق الثاني خرج العجوزان. أحست حواء صحراوي بإرتعاشة تسري في جسدها، وتخيلت لقطات سينمائية لرجال ونساء يمارسون الجنس في المصعد. بينما كانت هي تتخيل هذه المشاهد السريعة أحست بالرجل يقترب منها، لكن في لحظة ما توقف المصعد وانفتح الباب فمرقت مسرعة كأنها تلوذ بالفرار .

ركضت في الممر متجهة إلى جناحها إلذي يقع في أقصى الممر. انتبهت إلى أن باب المصعد لم ينغلق. حين وصلت إلى باب جناحها ووضعت المفتاح في قفله، أحست بالرجل يطبق عليها من الخلف،، وهو منتعظ، بحيث كانت تحس بعضوه بينما يحضنها بذراعه اليسرى ماسكا نهدها الأيسر، ويده اليمنى تمسك ما بين فخذيها. أرادت أن تصرخ. كانت يدها تحرك المفتاح في القفل، دفعت الباب فانفتح، لكنها فوجئت بأنها كانت وحدها ولا أحد معها. لم يكن هناك أي رجل. التفتت برعب. فوجدت

باب المصعد ما زال مفتوحاً ولا أحد هناك. ظلت للحظات واقفة عند باب جناحها من الداخل منتظرة أن يغلق المصعد أبوابه، لكن أبواب المصعد ظلت مفتوحة. بقيت على تلك الحال للحظات. أحستْ بشيء غريب وغامض يجري معها. كيف شعرت بوجود الرجل وثقله المحسوس وحركاته الداعرة معها، وكيف اختفى كل شيء وكأنه لم يكن..؟!

لا تدري حواء صحراوي من أين جاءتها تلك الشجاعة في أن تتوجه إلى المصعد لترى إن كان الرجل الإيطالي ما زال ينتظر في داخله أم لا. مشت بحذر في الممر متجهة نحو المصعد. حين صارت على مقربة من باب المصعد المفتوح أحست بالخوف من أن يقفز شيء ما في وجهها أو يهجم الرجل عليها، لكن الصمت المطبق في المصعد دفعها إلى الإقتراب أكثر بحيث في لحظة لمحت ما في المصعد. ذهلت حينما لم تجد أحداً داخله. مدت يداً مرتعشة إلى الأزرار فضغطت على الزر الصفر الذي يقود إلى الطابق الأرضي، فتحرك باب المصعد بضوضائه المعتادة منغلقا، وبدأ بالهبوط. عادت إلى جناحها مسرعة وكأنها تخاف من أن يهجم عليها أحد في هذا الممر. دخلت جناحها وأغلقت الباب بالمفتاح .

* * *

كان الوقت يقارب الحادية عشرة ليلاً. جلست حواء صحراوي في الصالون وهي في حالة مواجهة مع الذات. حين دخلت جناحها اتصلت بغرفة إيفا بعلبكي فلم يرد عليها أحد. فكرت أنها ربما قد خرجت مع صديقتيها اللبنانية والعراقية إلى المقاهي القريبة. أحست نفسها غريبة عن المكان، والجزيرة، والآخرين، والعالم، وأنها تنتظر المجهول، تنتظر اللاشيء، وكأن عمرها يتسرب عبر ثقب الزمن الرملي. أحست وكأنها ليستْ هي، لا تنتمي إلى أي مكان.. فهي لا تعمل.. تحمل شهادة أكاديمية عالية.. لكنها مجرد حرف أو كلمة تبجيل تلفظ أمام اسمها كجزء من الحفاوة والشهرة.. تزوجت زواجاً فاشلاً.. زواجاً ظلت أسراره محفوظة في صندوق أسود لم تفتحه هي أمام أي كان، بل هي نفسها تسعى إلى أن تواريه في أعماق بئر أسرارها العميقة والمظلمة .

نعم.. نعم... إنها تستذكر كل شيء الآن.. وهي هذه اللحظة بالذات.. لقد انتهت المراسيم.. أوصلوهما الأهل والأقرباء إلى جناحهما المخصص لهما في فندق (كورينثيا هوتيل) في منطقة ويست أند، وغادروا، ولم يبق أمامهما سوى أن يغلقا الباب خلفهما ويقوما بما يفترض أن يقوم به كل رجل ليلة عرسهما. صحيح أنها لم تتزوج زوجها قابيل الموسى عن حب، وإنما عن

طريق التعارف العائلي، لكنهما تعارفا لأشهر قبل الزواج، وبالتالي فهي تألف وجوده معها في هذه الليلة التي تحلم بها كل فتاة، فهي حد فاصل بين مرحلتين في الحياة. كانت لحظتها مرتبكة وخجلة، فليست لديها أية تجربة جنسية سوية، بل تجارب تكاد تكون مشوهة، من الاستمتاع الذاتي، إلى استخدام بعض الأشياء غير المؤذية لكن التي توفي بالغرض، لكنها شاهدت مجلات وأفلاما بطريقة سرية حول هذا الأمر، أي أن معلوماتها كلها نظرية، وهذا غريب بالنسبة لفتاة ولدت في بريطانيا ودرست فيها وعاشت عمرها في الغرب، لكن حالها كحال الكثير من الفتيات المسلمات اللاتي يقمن وزنا كبيرا للعادات والتقاليد .

تذكر جيدا أنها انتظرته. دخل غرفة الحمام ليغير ملابسه، بينما كانت هي قد هيأت نفسها، وارتدت ثوب النوم الخفيف، لكن ما حدث تلك الليلة كان كابوساً مرعبا.. لم يكن هذا الرجل الذي تعرفت عليه، والذي كان يفيض حيوية، وأحيانا كان يحاول أن يتجاوز في سلوكه معها، ويتحدث معها في التليفون بأشياء كانت تسعدها وتثيرها وتخدش حياءها في الوقت نفسه، لم يكن هذا هو نفسه. كان رخواً، وعصبيا في الوقت نفسه. اعتذر منها بأنه متعب وربما شرب كثيرا، فعذرته فربما هذا الأمر طبيعي يدخل ضمن الحالات النفسية التي ترافق مثل هذه الليلة. في نهار اليوم التالي حاول معها بيأس مرات ومرات.. وكلما كانت محاولته تبوء بالفشل كان يزداد عصبية وهياجاً، وفي محاولة من محاولاته اليائسة مد أصبعه ليولجه فيها. كان يهمه أن يلوث المنديل الأبيض بدم بكارتها. كتمت الأمر، لكن ما أغاظها هي أنها سمعته مصادفة وهو يتبجح أمام ابن عمه وبقية الأهل من الرجال ملمحاً إلى فحولته، ولم يكتف بذلك، بل صار يأتي مخموراً ليضاجعها على عجل، فقد كان يعاني من سرعة القذف ورخاوة الانتصاب، وكان هذا الأمر يقلقه، ويجعله عصبيا، ويعمق من عقدة الذنب تجاهها، لكنه بدلاً من أن يحسن معاملاتها، صار يشك في كل تصرفاتها، بل ويضيق حصاره عليها، وعلى حركتها وحريتها الشخصية، إلى أن طلب منها التحجب، وصارت لا تتحرك من دون خادمته أم هابيل .

كانت حياتها معه جحيماً لا يطاق. كان إنساناً مهزوزاً من الداخل، حقوداً، خاوياً بلا هدف أو رؤية أو أي تصور ذي قيمة للحياة، ضعيف الشخصية، لكنه يتقد بالغضب والشر، ولا يستطيع أن يواجه الشر الذي يتحكم بمشاعره وشخصيته .

كان يعيش في شك دائم، يشك بكل شيء، وفي الجميع، كان يشك

فيها ولا يتوانى عن التصريح بشكوكه في سلوكها وتحركاتها، لكنه كان أيضا يعاني من هذه الشكوك، بل كان يحتقر نفسه لأنه الوحيد الذي كان يعرف تفاهة شخصيته وقذارتها ووضاعتها الأخلاقية، إلا أن هذا الكم الهائل من الشكوك الذي يملأ حياته، وهذا الإزدراء للنفس، وهذا الحنين النادر إلى الخير، الذي ورثه من بعض التقاليد الدينية في رمضان،لم يكن من القوة الكافية بحيث تهزم رغبته الدائمة والعنيفة إلى الظهور والفخفخة الإجتماعية والأضواء.. لكنه برغم كل هذه المتناقضات كان يجد التبريرات لكن هذا التناقض وهذه المتضادات السلوكية، لكنها برغم كل تفهمها لمتناقضاته فـأنها لم تنتظر أن تكون حياتها الزوجية بهذا الشكل المأساوي .

مرة قرأت بأن أحد الفلاسفة الثوريين قال بأن الجميع يفسر العالم بينما المهم تغييره.. لكنها تعتقد أن تغيير الذات البشرية هو المهم.. يجب أن يتغير البشر قبل تغيير العالم ..

لقد مرت الشهور والسنوات على طلاقها منه.. لقد كان يضربها ويهينها، ويضاجعها كالحيوانات.. وأية حيوانات.. كان مثل العصفور الذي يضاجع عصفورته..، لا تستمر المضاجعة سوى ثوان. كانت تتعذب.، لذا بعد كل مضاجعة تذهب إلى الحمام لتغتسل، ولتنتهي من توتراتها بإصبعها.. وفوق كل التعاسة كان يريدها أن تنجب له أطفالاً.. لا.. لا.. لقد كان أفضل ما قامت به هو أخذها لحبوب منع الحمل سراً. كانت تعرف أن حياتها معه لن تستمر. ولا تدري كيف عرف بذلك.. ربما من خلال مديرة المنزل أم هابيل التي كانت عيونه في كل شيء، وربما هي التي فتشت أشياءها وخزاناتها بحيث عثرت على الحبوب مصادفة.. حين عرف زوجها قابيل الموسى ضربها بشدة وشتمها بأشد الكلمات بذاءة.. أرسلها إلى بيت أهلها، وبعد فترة وصلها إشعار ببدء إجراءات الطلاق.. ويا ليت الأمر انتهى عند هذا الأمر، فهذا الرجل حول حياتها إلى جحيم.. كان يكرهها، ويخاف منها، لأنها الوحيدة التي تعرف سر رجولته المزيفة، وخواء كل هذه العنجهيات التي كان يتظاهر بها أمام أهله وأبناء عمومته، سواء المقيمون في لندن وأميركا، أم القادمون إليها في صيف كل عام.. لذا فأنه أخذ يطاردها ليل نهار.. متتبعاً أي حركة لها وأية علاقة لها.. وكان جل ما يخشاه أن تتعرف إلى رجل ما، لأن ذلك يعني فضيحة له.. لا سيما إذا ما أثبت الرجل الذي تتعرف عليه أنه أكثر فحولة ورجولة منه في تعامله معها كامرأة.. وهو من أجل ذلك لم يتوان أن يقترف أية جريمة مهما كانت، وقد اقترف جريمة قتل صديقها العراقي اللاجئ السياسي هابيل

الياسري، وتهديده المستمر لها بشكل غير مباشر، ثم جريمة قتل الكاتب العراقي آدم التائه رغم انها غير متأكدة من ذلك.. فالجريمة غامضة جداً، لأن الجثة قد اختفت ولم يوجد لها أي أثر في بلاد معروفة بأمنها وأجهزة مخابراتها الدولية الشهيرة، إلى جانب صحافتها وإعلامها الذي تغذيه الفضائح والجرائم والأحداث الغريبة.. فكيف حدثت الجريمة، بينما لا يوجد أي أثر يشير إليها..؟

كانت تعرف أن عليها في هذا الطريق المظلم أن توقد شعلتها هي، أن تواجه يأسها بالتسامح.. أن تسامح نفسها على العيش في اليأس. أن تعيش حياتها لأن هذه هي الحياة الوحيدة التي هي ملكها.. لكن الزمن فصل بارد.. والحياة تكرار ممل.. صحيح أن حياتها آمنة، ومكتفية، بل إنها امرأة ثرية ولا تحتاج إلى العمل أو إلى التفكير بالحصول على المال كي تنفق على نفسها بسخاء، لكنها تعرف أيضاً بأن الحياة الآمنة خطرة جداً.. هي لم تعد قادرة على الثقة بالآخرين، وهذا ما ملأ حياتها بالمرارة، حتى انعكس وضعها النفسي بشكل جسدي وأثّر على وضعها الصحي فبدأت أوجاع ظهرها، التي من أجل علاجها جاءت إلى هذه الجزيرة الجميلة، لكن ها هي الآن تجلس وحيدة في جناح هذا الفندق النائي.، وهي تدرك جيداً بأنه لا أحد يستطيع إنقاذها مما هي فيه غير نفسها. لكنها ليست قديسة ولا عاهرة.. كما أنها ليست بطلة، بل غير متعطشة الى البطولة. إنها خاسرة في كل الأحوال والظروف.. إنها تحس بالمجهول يقبض على حياتها، مثلما يقبض النسر بمخالبه على فريسته.. لكن ماذا في مقدورها أن تفعل..؟

كانت حواء صحراوي تسترجع حياتها كأنها شريط سينمائي تجريبي، حيث لا منطق للسرد ولا إنسيابية للمونتاج.. عليها إذاً أن تحتفظ لنفسها بمسافة للتراجع.. مسافة نفسية لتمارس حريتها، فمن أجل أن تعيش سعيدة ليس بالضرورة أن تروي رغباتها، وإنما أن تعيش بحرية.. صحيح أن جسدها يتمرد عليها أحياناً، بل يومياً، وأنها لا تستطيع أن تنام مرتاحة في بعض الليالي، وتشعر بالإستفزاز الدائم، وتحس بأنها تثار من أية حركة جسدية، وأنها تدرك بأنها أُنهكت من مداعبة نفسها، وتخيل أشياء بدأت تفقد حرارتها، وكثافة متعتها، وأنها تحتاج إلى رجل يخترقها بقوة، رجل تحس بثقله على جسدها المثير... لكنها أيضاً تدرك أيضاً بأن الحب وحده الذي يرتقي بالمضاجعة من وضعها الحيواني إلى المستوى الإنساني والأخلاقي.. لأن المضاجعة حينها تكون تجسيداً للإرادة الحرة. لكن كيف يمكنها أن تقوم بذلك وأين..؟

لا تدري كيف جاءت صورة الرجل الإيطالي الوسيم في ذهنها، وكأنها نتيجة منطقية لمعادلة طويلة، أو قدرٌ يزحف بقدم حديدية مزلزلاً حياتها. انتبهت حواء صحراوي إلى أنها تركتْ كل تلك الأفكار والتداعيات التي مرت على ذهنها قبل قليل وكأنها لم تفكر فيها أصلاً، وصارت لا تستطيع أن تبعد صورة الرجل الوسيم عن مخيلتها. استرجعت تفاصيل ما جرى معها هذه الليلة، وشعورها بأن هناك من كان يراقبها.. أتراه كان يراقبها..؟ لكنها تذكر جيداً بأنها تلفتت مرات عدة فلم تجد له أثراً.. لكن كيف كان موجوداً في المقهى..؟ أكان الأمر مصادفة..؟ ولماذا لاحقها إلى الفندق، ودخل معها إلى المصعد..؟ وأين اختفى..؟ لقد تركته في المصعد لكن المصعد ظل مفتوح الباب، ولا أحد في داخله..؟ ثم أنها أحست به حينما التصق بها عند الباب من الوراء وراح يعصر نهدها ويداعب ما بين فخذيها..؟ لقد كانت تسمع فحيح أنفاسه قرب أذنيها..؟ لكن لماذا لم تصرخ حينها..؟ ولماذا لم تدافع عن نفسها..؟ أكانت خائفة فعلاً..؟ أم أنها كانت تريد أن يأخذها بالقوة..؟ أم ترى أن كل ما كان لم يكن سوى استحضارات لرغبة دفينة في أعماقها في أنْ يضاجعها هذا الرجل فعلاً، ولأنها لا تستطيع أن تقدم على خطوة نحوه فتركت لجهازها النفسي بأن يقوم بهذ المهمة باستحضاره..؟

كانت حواء صحراوي تشعر بسريان الرغبة في جسدها حينما بدأت تستذكر لحظات إلتصاقه بها من الخلف. أحست بأنها صارت رطبة.. ما الذي يجري معي..؟ سألت نفسها .

قامت من مكانها وتوجهت إلى الشرفة. أطلت من الشرفة على حوض السباحة، فرأت مجموعة من الروس، ثلاثة رجال وثلاث نساء، يجلسون حول طاولة كبيرة، وضعت عليها ثلاث قناني من المشربات لم تستطع ان تعرف نوعها، ومع الكؤوس والمزة، ويتحدثون بمرح واضح. وعلى الجانب الآخر رأت رجلاً وحيداً يجلس حول طاولة وأمامه قنينة شراب، وشمعة متقدة. أحست بنفسها ترجع إلى الوراء دون إرادة منها حينما تعرفت على الرجل الإيطالي الوسيم وهو يرتشف الشراب من كأسه، وينظر نحو شرفتها التي من المؤكد رآها وهي تقف فيها. انسحبت سريعا وتوجهت إلى غرفة نومها. جلست على السرير، واخذ تسترجع ما رأته تواً .

من المؤكد أنها لم ترَ عينيه وما كان يتقد فيهما في تلك اللحظة، لكنها تذكرت هذه النظرات التي اعتادتها منه كلما التقت نظراتهما. أحست بالخوف منه ومن نفسها. لكنها بدأت تشك في هذا الرجل، وأخذت تسأل نفسها: من هو هذا الرجل..؟ وماذا يريد منها؟ إذا كان الأمر يخص متعته

الجنسية فقد كان اليوم مع امرأة جميلة وناضجة أيضاً..؟ وإذا كان الأمر يكمن في حاجته إلى المال، وأن مثل هؤلاء الرجال يبحثون عن السائحات والغنيات، فقد كانت المرأة الأميركية التي معه اليوم، ذات وضع جيد، وكان هذا واضحا من طبيعة ملابسها، وحقيبتها الجلدية وساعتها.. فهي لم تكن متواضعة في ملابسها..؟ إذاً ما الذي يريده منها..؟ ولماذا يلاحقها هي بالذات..؟

لم تجد حواء صحراوي أية إجابة على هذه الأسئلة. ماذا عليها أن تفعل..؟ هل تذهب إليه بنفسها وتسأله عن سبب مطاردته لها..؟ لا.. أنها لا تجرؤ على أن تقدم على مثل هذه الخطوة، فماذا تفعل إذاً..؟ نهضت دون إرادة منها نحو الصالة أطفأت ضوءها ومشت بخفة نحو الشرفة وأطلت من هناك، فاستغربت حينما لم تجد أحداً هناك، بل لم تجد أية طاولة في الجهة الأخرى من حوض السباحة، ولكي تتأكد بأن ما رأته لم يكن وهماً، ألقت نظرة نحو طاولة الروس، فوجدتهم في جلستهم المرحة. رجعت إلى غرفتها. ولكي تتخلص من حالتها هذه أخذت سماعة التلفون لتتصل بصديقتها إيفا بعلبكي، إلا أن صديقتها لم ترد مرة أخرى .

استلقت على السرير. انتبهت إلى أن الوقت أمسى منتصف الحادية عشرة، لذلك قامت إلى الحمام لتغير ثيابها وتلبس ثوب النوم. عادت إلى السرير، استلقت عليه، وسحبت الشرشف لتغطي نفسها. مدت يدها إلى مخطوطة متاهة الأشباح لتواصل قراءتها، وانتبهت بأنها على وشك الانتهاء منها. ألقت بجميع هواجسها جانباً وبدأت القراء:

متاهة الأشباح

15

آدم.. وزمن القتلة

مرت السنوات على ذلك اللقاء الغريب، وعلى استلامي تلك الكراسة الغريبة والمعنونة (متاهة الشبح الحزين).. هل تصدق يا قارئي أنني بقيت في بيتنا لا أغادره إلا نادراً، وذلك حينما كنت أذهب سريعاً إلى شارع المتنبي وسوق السراي لأشتري الجديد من الكتب المستنسخة، وبكميات كبيرة، لأبقى أشهراً في البيت أجترها ليل نهار؟ لكن لا.. لا. لا. تظن أني كنتُ وحدي. لقد كنت أعيش حياتي مع الأشباح .

بعض الناس لا يؤمن بذلك.. لكني قرأت كثيرا عن هذا الموضوع في

كتب علم النفس.. صحيح أن بعض العلماء يرون في قصص رؤية الأشباح مجرد هلوسات من نوع رديء، غير أنها تتميز عن هلوسات المجانين، إلا أن بعضاً آخر من العلماء يؤمن بذلك، ويؤكد بأن ظهور الأشباح يمكن أن يكون حقيقة، مثل رؤية شخص حقيقي أمام عيني المرء.. بل وتختفي عن الأنظار إذا ما أغمض المرء أو حجب أو حول بصره، مثلما نفعل مع الأشياء المادية، وغالبا ما تظل حيثما كانت إذا ما عاد المرء إلى النظر إليها مرة أخرى.. ويذهب بعض العلماء إلى أن الأشباح غالباً ما يراها أكثر من شخص واحد، وحتى الحيوانات أحياناً تراها. وعلى الرغم من أنها مرئية بالمقام الأول، فأنها أحياناً تكون مسموعة وأحياناً ملموسة أيضاً، وتبدو غالباً تحاول أن تحقق غرضاً معيناً من ظهورها، ولكنها تظهر ويتزامن ظهورها مع أزمات في حياة من يظهرون له... نعم.. نعم.. لقد قرأت ذلك في كتاب أحد أشهر علماء البارسايكولوجيا في العالم .

لكني لم أكتف بالتواصل مع الأشباح فقط، وإنما كنت أتنقل من امرأة إلى أخرى، وأتعرف على العشرات من الرجال والشخصيات الرائعة.. لكن داخل الروايات.. كنت أعيش قصص عشق مدمرة مع بطلات الروايات.. لم أستطع أن أعشق في الواقع.. مررت بتجارب مع أم قابيل، وحواء الناصري.. وأم آدم الواسطي.. أبحرت في محيط ذاتي المظلم.. عشقت نساء كثيرات على الورق.. الكتب.. الروايات وحدها تساعدني على الحلم.. ربما أنت تبتسم الآن مني.. أبدو لك ساذجاً.. أتدري يا صديقي.. أنا أدون هنا أفكاري ومشاعري.. وأفكر في أفكاري وأتصور وقعها على الآخر.. أستمتع بهذه التصورات.. هل أنا معقد..؟ ربما.. لا.. ليس ربما.. وإنما من المؤكد أنني معقد.. بل أنا مشوش.. أجد ثمة تناقضا هائلا بين حياة الفكر.. والفكر في الحياة.. أنا مولع بدستويفسكي.. ودانتي.. هما على طرفي نقيض.. لكني بصراحة. أحب دستويفسكي أكثر.. أنا أتوجه لدانتي مثلما يتوجه الآثم للإعتراف.. أعتقد لا أمل لي في الخلاص.. ومن هنا فأنا أحب دسويفسكي لأنه يشفق ويحنو على المعذبين والخاطئين والآثمين والبؤساء.. هل تعرف هنري ميللر.. ذلك الكاتب الأميركي المشاكس.. هنري ميللر هذا قد سمى المسيح برجل الأحزان.. بينما سمى بوذا بأمير الإستنارة..! بل إنه كان يفضل الحكيم الهندي على القديس المسيحي وعلى الحواريين الأثني عشر .

أحيانا أتهور في الكشف عن مشاعري وأفكاري ومشاكساتي للمقدس فأبدوا للبعض فجاً، وقحاً، وقليل الأدب.. ربما يكون من الغرابة أنا أقول لك بأني رجل إجتماعي، لكنني في الوقت نفسه متوحد ومنعزل بامتياز..

أجد أن الإقامة بين الناس عذاب.. والعزلة هي الخلاص الحقيقي.. أو لأكن صادقاً معك.. العزلة هي جحيم مطفأ.. الجحيم أفضل مكان للكتابة.. الفردوس مكان العاجزين والطماعين والبطرانين.. الفردوس للعبيد والجبناء وللمتملقين والتجار الذين يقايضون النقود بالحسنات ..

الروايات خلاصي.. والروايات دماري.. الروايات حياتي الأخرى.. حياة الفكر والروح والمشاعر في مجتمع أقل ما يقال عنه إنه كابوس خانق.. لكن ليست كل رواية أصيلة حتى وأنْ كانت مثيرة وشيقة.. هناك روايات تستفزك وتثيرك لكنها في النهاية فارغة.. مثل قصة بوليسية لأرسين لوبين.. وهناك روايات تلقي بك في حوض سباحة مثلج الماء.. قد تبدو غير مثيرة لكنها تدفعك إلى ممارسة الحياة والتفكير، وتضيف لك.... لكن في النهاية كل الأشياء مكررة... الإختلاف في البهارات.. المواد نفسها.. لكن سر الطبخ في كمية البهارات ونوعها ..

لكن لماذا أتحدث إليك هكذا..؟

كانت سنوات الحصار مرعبة..، انتشرت الدعارة، والرعب، والموت المجاني للبشر، وانتشرت ظاهرة الانتحار، واستشرى الفساد، والحيلة، والإذلال والمهانة، ولم يبق سوى أن يتوجه الناس إلى السماء، ولا أدري لماذا يتوجه الناس إلى السماء..؟ المهم.. توجهوا إلى السماء داعين الخالق أن يبعث لهم بالخلاص حتى أن الناس تمنوا لو تأتي أية قوة شيطانية لتنقذهم من هذه اللعنة، وهذا الكابوس الخانق.. وتحققت هذه الأمنية.. جاء الغزاة المدججون بالسلاح ليدكوا النظام دكّا، ويحطموا تمثاله الرمز في ساحة الفردوس، حيث أخذ بعض الصبية يضربون رأسه بالنعال!..

اسمع ياصديقي.. أنا لا أؤمن بالماضي ولا بالمستقبل.. أؤمن بوجود حاضر أبدي.. الماضي صار ذكريات وخبرة، وصوراً وذكريات، تداخلت في لحظة الحاضر.. ليس هناك مستقبل.. هناك رؤية لما سيتشكل من لحظتنا الحاضرة أو نتمنى أن تصير لحظتنا الحاضرة على صورتها، نسميها المستقبل... الحاضر وحده هو الذي يوجد وينبض بالحياة، لذلك فأننا حينما نستعيد أحداثا عشناها في لحظة حاضر انتهت فإن هذه الإستعادات أو الذكريات تتوهج بالحركة وكأنها موجودة. أي نحن نستعيدها وهي تتحرك وليست ميتة.. ليست صورة فوتوغرافية.. فحتى الذكريات الماضية هي حاضر غائب.. هل تفهمني.. يبدو أنا معقد بما فيه الكفاية.. لكن دعنا من هذا .

* * *

عشت حياتي متنقلا بين الكتب، وزيارة الأشباح.. الغريب أن شبح

صديقي آدم الواسطي لم يزرني. كانت أم آدم تزورني بإستمرار، وكانت تبقى معي لأيام.. وسكنت غرفة أمي بعد وفاتها!

ذات ليلة سمعتُ طرقا على باب غرفتي.. استغربت.. لم يكن من عادة أم آدم أن تطرق الباب.. كنت أحس بوجودها هكذا دون أن تطرق الباب. كانت تعشقني.. ترى فيّ شيئا من آدم الواسطي أو زوجها الشاب الذي سقط في جبهة الحرب.. إذ لم أكن أعرف من هي بالضبط، هل هي أخت حواء الناصري أم هي زوجة أبي آدم الواسطي.. ولم يكن هذا الأمر يهمني كثيرا.. كانت تقضي معظم الوقت معي.. وأحيانا تنام إلى جانبي.. حاجتي للأنثى كنت أقضيها مع حواء الناصري التي كانت تزورني باستمرار، بل وكانت تقضي بعض الأيام عندي.. تقوم بغسل ملابسي وإعداد الطعام لي ولوالدي المرتعب من الموت لاسيما بعد رحيل أمي .

حين فتحت الباب رأيت أبي مرعوبا ويرتجف كمن ألقي في حوض ماء مثلج، على الرغم من أن الوقت كان ربيعاً.. لم أعرف ماذا أقول له، إلا أني أحسست لأول مرة بالشفقة نحوه، فسألته بقلق عما به، فقال لي بأن البيت مسكون بالأشباح، أو أن شبح أمي جاء ليأخذه معه. ظننتُ أنه مصاب بالحمى وهذا من هذيانات المحموم، فأخذته من يده التي أحسستها باردة جداً، وقدته إلى السرير ليجلس، فأخذ يكرر لي بصوته المرتجف :

- لقد جاء ملك الموت ليقبض على روحي ..

فقلت له محاولاً أن أخفف من رعبه :

- أنت واهم.. ربما أنت مريض.. وهذه مجرد تهيؤات ..

نظر إليّ للحظات بنظرات مليئة بالرعب، بالشك وكأنه يشك بوجودي أصلاً وقال :

- أقول لك إنني سمعت ذلك بأذني ..
- كيف..؟ ماذا سمعت..؟
- سمعت حركة في غرفتها.. سمعت أنين امرأة تبكي ..
- في غرفتها..؟
- نعم.. لم أكن أصدق أذني.. لقد كنت أحس بحركة في غرفتها.. باب غرفتها ينفتح وينغلق أحيانا.. بل أحس أنها موجودة معنا في البيت.. لكني الليلة سمعتها بشكل واضح ..

كنت قد خمنت بأن هذه الحركة في غرفة أمي هي لشبح أم آدم، وعادة لا تظهر الأشباح إلا إلى الأموات أمثالهم.. أو إلى البشر الذي يودون

رؤيتهم حقا.. وهذا يعني أن أبي إذا ما كان قد سمع حركة شبح أم آدم وأنينها وبكاءها فهذا يعني أن أجله قد اقترب .

كلما كانت الدقائق تمضي كانت في داخلي تتفجر ينابيع من الشفقة والرحمة نحو هذا الرجل الذي هو أبي.. أخذت كفه بين كفي وسألته أن كان يريد النوم في غرفتي.. إلا أني لاحظت أنه فوجئ بمعاملتي الطيبة معه، ورأيت نظراته تلين لأول مرة في حياتي.. ونظر إليّ نظرة حائرة، نظرة من الصعب وصفها، فهي كانت تعني المغفرة والتسامح، والأسف على السنوات التي قضيناها في جفاء وتوتر، وأبوة متأخرة ممزوجة بالأسف، وعرفان بالجميل على هذه اللحظات الحنونة لكن المتأخرة.. بل المتأخرة جداً.. لأن أبي قام وعلى شفتيه ابتسامة حزينة، وقال لي:

- لا أريد أن أزعجك يا ابني.. سأنزل لأنام في غرفتي ..

قمت معه بهدوء وأنا أقوده إلى غرفته. هناك ساعدته في الاستلقاء على سريره. كانت أول مرة في حياتي أدخل فيها إلى غرفته. انتبهت إلى وجود صورة قديمة لنا نحن الثلاثة: هو وأمي تقف إلى جانبه وهي تحملني وأنا صغير ربما في الثانية من عمري، وخلفنا يبدو ثمة منظر مرسوم على لوحة كبيرة لأشجار وغزلان تشرب الماء من نبع. أخذت أتأمل الصورة، فانتبهت إلى أنه كان ينظر إلي متأملاً وفي عينيه تسامح وحنان كبير. وحينما أردت أن أخرج مد يده دون أن يستطيع أن يقول شيئا، فتوقفت ناظراً إليه لأعرف ما يريد، فمد يده إليّ بحلقة علق عليها مفتاحان. وتمتم :

- هذه هي مفاتيح الخزانة الحديدية الموجودة هناك في الزاوية ..

فقلت له بتساؤل :

- ماذا سأفعل بها..؟ لماذ تعطيني إياها..؟

ابتسم ابتسامة منكسرة وقال :

- الأعمار بيد الله يا ولدي.. لكن كل شيء جائز.. لتكن هذه المفاتيح معك ..

أخذتها على استحياء، ولم أكن فعلاً أود أخذها لكني لم أشأ أن أدخل معه في نقاش وأتعبه بذلك. لم يكن لدينا كهرباء في تلك الأيام، وإنما كنا نضيء البيت بمصابيح نفطية نستخدم لها فتائل خاصة. أطفأت المصباح. وخرجت .

صباح اليوم التالي أعددت لي وله الفطور، ثم توجهت إلى غرفته لأدعوه كي يشاركني الفطور. طرقت الباب فلم يجب. فتحت الباب ودخلت.

فرأيت نظراته جامدة ومليئة بالرعب، وفمه مفتوحاً على صرخة صامتة. عرفت أنه قد فارق الحياة. كان ذلك بعد سنة ونصف من موت أمي تقريباً .

* * *

بعد موت أبي لم أستطع العيش في البيت؛ فقد بعته، وحصلت على مبلغ لا بأس به. كما كنت قد حصلت على مبلغ كبير كان في الخزانة التي سلمني مفتاحها ليلة موته، كذلك بعت المحل الذي كان قد أجره لآخرين.. أي صرت في وضع يتيح لي العيش بشكل جيد ولسنين قادمة .

حينما بدأ هجوم الأميركان على العراق، وزحفوا لإحتلاله، أمطروا البلاد بوابل هائل من الصواريخ، فمات عشرات الألوف من الناس الأبرياء، نعم عشرات الألوف من الأبرياء، ومثل هذا العدد من البيوت تهدمت على ساكنيها ودفنتهم تحتها، لكن مع الأسف تم نسيان هؤلاء بالكامل.. فمع احتفالات الأحزاب القادمة من إيران، وتنفس الناس الصعداء، ونشوتهم بأحلام وردية عن بلاد ستحقق العدالة لهم والكرامة والأمان لهم، تم نسيان من سقط ومات ودفن حياً... وقد رافق ذلك أعراض مرض خبيث بدأت أشعر به.. كنت قد عدت لأسكن في فندق رضوان.. وكأنه بيتي الثاني.. أو كأن بغداد ليس فيها أي فندق آخر سوى هذا..؟

أحسست بحمى، وأخذت أتعرق.. وكان ينتابني إرهاق وضعف وضيق مفاجئ في التنفس.. مع تغير في لون بشرتي التي أصابها شحوب غير طبيعي.. وعندما حولني الطبيب إلى المختبر لأخذ عينات من دمي، وظهرت نتيجة التحليل، أرسلني الطبيب مرة أخرى لأجراء فحوصات الدم.. ويبدو أنه أراد التأكد أكثر.. وكانت النتيجة مأساوية، إذ اتضّح وجود تكاثر غير طبيعي لكريات الدم البيضاء.. وهذا مؤشر على إصابتي بأحد أمراض سرطان الدم.. حينها سألني الطبيب عن وضعي المالي. حين أخبرته بأني في وضع جيد نصحني بالسفر إلى ألمانيا للعلاج.. واجتهد في إيجاد مستشفى خاص لعلاج هذه الأمراض.. وسافرت فعلاً .

صحيح أنا رأيت الموت وشاهدته بأم عيني، بل وأعيش مع الأشباح، لكني لا أريد أن أموت.. لذلك أعددت التقارير وتحركت جاهداً للسفر.. وحصلت على موافقات المستشفى عن طريق الدكتور. ذهبت إلى الأردن للحصول على التأشيرة.. ووصلت ألمانيا. وفي المحطة التقيت كاتبا عراقيا اسمه آدم التائه.. وهو الذي تحدثت عنه في البداية .

أتضح لي بأني مصاب بسرطان الدم الليمفاوي المزمن.. ويمكن علاجه

عن طريق تناول عقاقير كيمياوية يتم تناولها عن طريق الفم. وقد أحتار الأطباء الألمان لمعرفة ذلك.. وتوصلوا إلى استنتاج بتعرضي لإشعاعات ومواد كيماوية مؤذية، تسبب كل أشكال سرطان الدم الأربعة.. النتيجة: لا خلاص.. يمكن إيقاف انتشاره أو فعاليته ومحاربة شراسته، لكن لا يمكن علاجه نهائيا .

حين عدت إلى بغداد ثانية استأجرت شقة متواضعة في بيت قديم شبه متداع يطل على دجلة، على جانب من شارع أبي نؤاس ويلتف على زقاق في منطقة الأورفلي... وبعد عودتي كنت أحس بأني أقاوم الزمن.. أواجه الموت في كل لحظة.. ليس عبر الرعب الذي حول فرحة الخلاص من قبضة النظام السابق إلى كابوس مريع فحسب.. وإنما ذلك الإحساس الذي يدفعك للفرحة كلما استيقظت من نومك صباحاً لتعرف أنك ما زلت حيّاً.

الغريب أن الأشباح لم تعد تزورني كعادتها سابقاً. سوى حواء الناصري، التي عادت إلى مغتصبها ضابط الأمن قابيل، الذي صار مسؤولاً كبيراً في أحد الأحزاب الدينية العراقية القادمة من إيران، وتسنم منصباً رفيعاً في وزارة الداخلية..

كانت تخبرني بأنها تزوره أحيانا في مكتبه، وهناك يضاجعها على طاولته، كما دفعها لحظة اغتصابها في السجن، لكن هنا المكتب مختلف، فهو مكتب مهيب، وأثاثه فاخر جداً، ومليء بصور رجال الدين الشيعة، وآيات قرآنية.. وسجادة للصلاة مفروشة على الأرض في زاوية المكتب... كنا نضحك أحيانا على سخرية التاريخ هذه.. ونأسى على مصير هذه البلاد.. التي قال عنها مظفر النواب بأنه ليست هناك أرض سُقيت بالدم كما سُقيت هذه الأرض.. ولا حزن كحزن الناس فيها.. لكني هنا أخالفه في الجملة الثانية، فالناس هنا يستمتعون بهذا الموت، إذ ليس لديهم سوى مناجاة الموت وزيارة الأضرحة!

* * *

خلال هذه السنوات تعرفت على بعض الأشخاص، منهم من كان يبيع الكتب المستنسخة أيام الحصار في شارع المتنبي، ومنهم، من عاد من الجبل بعد إحتلال البلاد، منهم من كان منزوياً في صومعته، واستمر منزوياً في صومعته، ومنهم من كان شبحاً وعاد للحياة ..

الشبح الذي عاد إلى الحياة هو آدم المحروم، وهو من ألتقيه أكثر من آدم الخانقيني، الذي لا أراه إلا إذا نزل من مدينته المنزوية ليشتري الكتب من شارع المتنبي أيام الجمعة، فيصادف أن ألتقيه كل شهرين أو

ثلاثة .

آدم المحروم هو الذي ألح عليّ بالعمل وإيجاد أية وظيفة تخرجني من عزلتي التي فرضتها على نفسي. لاأعرف كيف في لحظة ضعف وضجر أقنعني، فتحدثت حينها مع حواء الناصري.. فأخبرت هي صاحبها ضابط الأمن في النظام السابق والقائد في حزب إسلامي حالياً والضابط البارز ذو الرتبة العالية جداً في وزارة الداخلية في هذه المرحلة، فاتصلت بي وقالت لي بأن أكتب سيرة حياة بسيطة، مع شهادتي وهوياتي، وأضعها في ملف، وأن أتوجه للهيئة التي أعمل فيها حاليا، لكن قبل ذلك يجب أن ألتقي أحد أعضاء مجلس الأمناء هناك..، عليّ أن أسلمه الملف، وهو سيقوم بالواجب. وفعلت ما قالت بالضبط، وبعد أيام صدر أمر إداري بتعيني في شعبة الصادر والوارد في إدارة تلك الهيئة ..

صديقتي حواء الناصري.. تحجبت بشكل غريب.. ليس كالحجاب الذي كان أيام الحصار نتيجة الفقر وغياب أدوات ومواد الزينة للمرأة.. وإنما الحجاب الجديد الغالي.. صارت عاهرة محجبة، بل وتطور عملها إلى أن تصبح قوادة مؤمنة..، تقود النساء والفتيات الفقيرات والمحرومات، إلى رجال الدين الجدد، هؤلاء الذين خرجوا من الكهوف ببدلات أوربية، لتقوم برعاية زواج المتعة المؤقت لساعات أو لأيام.. وقد استأجرتْ شقة كبيرة لهذا الغرض.. وصارت حواء الناصري تظهر على شاشات التلفزيونات المحلية، لكنها ظلت عشيقتي التي تعيش حياتها كامرأة معي.. تحدثني عن تفاصيل هؤلاء الرجال وما يقومون به، وما ينفقونه من أموال كبيرة.. ربما يمكن هنا أن أضيف بأن هذا الضابط أخذ يشاركها الأرباح!..

كثيرا ما كنا نضحك بأسى على بعض التفاصيل التي تحتاج لكاتب قدير بمستوى ميلان كونديرا كي يعيد صياغتها بمرح وسخرية.. ربما ستسألني لماذا لا أكتب أنا هذه القصص والتفاصيل.. وأقولها لك بصراحة.. أنا إنسان حزين وغير مرح.. ولا أستطيع الحديث عن هذه القصص إلا كمأساة أصابت هذه البلاد .

ذات يوم جاءتني حواء الناصري وهي في حالة غير طبيعية.. حالة من النشوة والعصبية وتوتر الأعصاب. حين سألتها عن السبب أخبرتني بأن صديقها الضابط كبير الرتبة في الداخلية طلب منها الترشيح لمجلس النواب، عن طريق الحزب الذي يرتبط هو به..! صُدمت من طلبه هذا، وحينما أخبرته بماضيها وواقعها، والمهنة التي تمارسها، والشقة التي تديرها بحمايته، أخبرها بأن معظم الأسماء التي ترى صاحباتها على شاشات التلفزيون هن

إما عشيقات سريات لأصحاب الشأن في قيادة هذه الأحزاب، وإما زوجات متعة، أو حتى زوجات عرفي ومسيار عند المذاهب الأخرى.. هناك أسماء محددة وقليلة جداً من اللاتي كن معروفات أيام معارضة النظام، وينتمين إلى عائلات معروفة.. لكنهن قليلات ونادرات.. لم تصدق ما سمعته.. فذكرها بإحداهن من اللاتي يظهرن كثيرا على شاشات التلفزيون وكانت عضواً في مجلس النواب السابق.. ذكرها بها.. ألم تكن هي التي كانت تراجع السجينات خلال فترة النظام السابق، وتأتي ممثلة للحكومة وهي تضع صورة رئيس البلاد آنذاك على صدرها.. هي اليوم الصوت الملعلع للحزب الإسلامي الحاكم.. وأقسمتْ لي حواء الناصري بأن ما قاله صحيح جداً.. فهذه المرأة كانت عضواً متقدما في حزب النظام السابق، وهي اليوم الصوت الأكثر صراخا للدفاع عن الحزب الإسلامي الحاكم..!. حين سألتها عن موقفها، وهل سترشح نفسها إلى مجلس النواب، نظرتْ إليّ وكأن سؤالي فاجأها.. ثم أجابتني بسؤال: ولماذا لا أترشح..؟ إذا كانت العاهرات الساقطات والعضوات البارزات في حزب النظام السابق صرن عضوات في مجلس النواب، فلماذا لا تفعل هي مثلهن.. على الأقل هي مومس فاضلة.. مناضلة تحولت إلى مومس.. لا.. هي لا تمنح نفسها إلا لمغتصبها الذي يمثل لديها سقوط أحلامها.. ولي الذي أمثل لها تاريخها الأجمل.. علاقتها بنا فقط..، علاقة مع الخير والشر، كما علقت هي عليها. ثم ضحكت عاليا.. وقالت معلقة بأن عملها سيتطور جداً، لأنها ستحول المجلس إلى ماخور.. والأعضاء إلى زبائن.. ستؤجر شققاً في المنطقة الخضراء لتجعلها مواخير للمسؤولين هناك.. سواء من السيدات أو السادة.. حينها ضحكنا كثيرا وكأننا شاهدنا وسمعنا تفاصيل موقف ساخر لعادل إمام من مسرحية الزعيم، واتفقنا بأن ما نعيشه هو زمن الفساد والدعارة السياسية التي تقام باسم الدين .

* * *

ملاحظة الكاتب آدم التائه بمثابة خاتمة..

لم أستطع أن أمضي طويلا في هذه الرواية، لأن الموت قاد آدم البغدادي من كفه إلى متاهته البيضاء، لا بسبب المرض الخبيث الذي كان يتعالج منه، وإنما لأن هناك شخصاً غريباً قدم نفسه إليه باسم آدم العراقي، وأنه من طرف الحاج قابيل الضابط ذي الرتبة الكبيرة، وطلب الحديث معه، فلم يكن منه سوى أن يسمح للزائر المريب بالدخول. لقد كان آدم التائه على عجلة من أمره، لأنه كان على موعد مع صديقه آدم المحروم.. لكن ماذا يفعل.. عليه أن يستمع لهذا الزائر ويمضي إلى موعده .

حينما توجه آدم البغدادي إلى المطبخ، وفتح الثلاجة وأخرج الدورق الزجاجي الذي كان فيه بعض عصير البرتقال، وهم بسكبه في القدح الذي كان أمامه، فجأة، أحس بوخزة في مؤخرة رأسه، وخزة صغيرة لكنها مؤلمة، لم تستمر سوى ثوان، أحس بعدها وكأنه يهوى في بئر مظلمة بلا قاع، لكنه كان خفيفاً خفة هائلة .

كان الشخص الغريب الذي أسمه آدم العراقي خلفه تماماً في المطبخ وفي يده مسدس كاتم للصوت. إنهار آدم البغدادي على وجهه، وسقط الدورق الزجاجي متهشماً على الأرض، وتدفق الدم على الأرض مشكلاً بقعة صغيرة عند الرأس، حيث تجمد بعد لحظات .

كان القاتل الغريب الذي اسمه آدم العراقي شاحباً. ثمة ابتسامة صفراء على وجهه. وضع المسدس في حزامه خلف ظهره وخرج من المطبخ إلى الغرفة. مسح الغرفة بنظرته، رفع رأسه إلى الأعلى، إلى الزاوية في السقف، لاحظ ذبابة في بيت عنكبوت. الذبابة تحاول الخلاص بينما قبضة العنكبوت الواهية محكمة. ابتسم، وخرج دون أن يغلق الباب، بينما ظل آدم البغدادي ملقى على أرضية المطبخ مستغرقا في سباته الأبدي .

* * *

دخل آدم التائه إلى المقهى القريب من شقته، لم ير صديقه آدم المحروم. خرج من المقهى فرأى سيارة إسعاف تقف أمام باب شقته، ورأى صديقه آدم المحروم يدخل مع الداخلين. أراد أن يتبعه، لكنه فجأة، انتبه لوجود شبح أم آدم، وشبح صديقه آدم الواسطي الذي لم يره منذ سنوات، بل ورأى شبح أم قابيل، والفتاة المراهقة التي انتحرت، وحتى شبح الرجل البدين الذي يرتدي الزيتوني. أشاروا إليه بأيدهم بالتحية. ظل للحظات حائراً أيتبع صديقه آدم المحروم ليرى ما جرى في شقته، أم يتبع الأشباح

الصديقة.. وأخيراً اتخذ قراره، وتوجه نحو ....

آدم البغـدادي: ما الذي يجري..؟ كيف تجرأ أن ينهي حياتي بهذه الطريقة القاسية..؟ أينسى إنني أنا الذي أوجدته..؟ أستطيع الآن أن ألغي كل هذه الرواية، وأشطبها، وأغير الأحداث كلها.. لقد تركته بحريته يكتب عني ما يشاء.. ويتخيل ما يشاء من الأحداث لي.. لكن هذه النهاية غير مقبولة.. لِمَ لم يخبرني من خلال الرواية عن القتلة من هم.. كي آخذ حذري في ما بعد..؟

لكن ما هذا الهراء..؟ ألست أنا الذي أدعه يكتب ما يكتب..؟ أم هناك من أوجدني أنا أيضا..؟ أأنا شخصية في رواية أم أنا الكاتب آدم البغدادي..

أحس أني في متاهة..

* * *

ألقت حواء صحراوي ملف المخطوطة من يدها بعد أن انتهت من القراءة.. ظلت حائرة من هذه النهاية الغريبة.. إلى أين توجه آدم البغدادي بعد مقتله..؟ ومن هو آدم البغدادي الآخر الذي علق على الرواية بكاملها..؟ هل توجه آدم البغدادي بطل الرواية نحو شقته والتحق بصديقه آدم المحروم.. أو التحق بالأشباح..؟ هل هذه النهاية نفسها تشير إلى نهاية آدم التائه المفتوحة..؟ كيف يمكنه توقع أحداث كارثية ستحصل في بلاده..؟ أسيكون الأمر هكذا أن أحسن أم اسوأ..؟ هل يعنى أن آدم التائه قُتل فعلاً كما قُتل بطله..؟ وتحول مثله إلى شبح..؟ ولماذا أعترض آدم البغدادي الآخر..؟ أليس هو نفسه بطل الرواية..؟ صرتُ لا أفهم شيئاً وكأنني في متاهة .

ظلت حواء صحراوي تسترجع تفاصيل هذه الرواية محاولة أن تمسك خيطاً، ولو وهمياً، يفسر لها ما يجري حولها.. ولم تفق من تأملاتها إلا على صوت رنين الهاتف. نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل. أخذت سماعة الهاتف فلم تسمع أحداً. أخذت تنادي الشخص على الطرف الآخر، لكن لا أحد يجيب. وضعت السماعة في موضعها. أحست بشيء من الرهبة. من تراه يكون هذا الذي يتصل بها في مثل هذا الوقت..؟ أتكون صديقتها إيفا ليسنج..؟ لا. لا. فقد تحدثت معها.. لكن من تراه يكون..؟ أتراها إيفا بعلبكي عادت من نزهتها فاتصلت بها..؟ لكن لماذا لم تتحدث معها إذا كانت هي..؟

هل هو الرسام العراقي آدم الغفاري..؟ لا.. لا.. هذا مستحيل فهو لا يعرف رقم هاتفها.. من تراه يكون.؟. وبينما هي في زحمة هذه التساؤلات رن جرس الهاتف مرة أخرى، فرفعت السماعة فجاء صوت المتكلم من الجهة الأخرى .

الفصل الخامس عشر: اعترافات السيدة حواء فاكهاني

حين رفعت حواء صحراوي سماعة الهاتف جاء صوت إيفا بعلبكي من الطرف الآخر. كان الصوت ثملاً، مرحاً، ممزوجاً بنبرة داعرة .

- مدام حواء.. هل أنتِ صاحية..؟ أرجو أن لا أكون قد أيقظتك من النوم..؟
- لا أبداً.. كنتُ أقرأ ..
- أين كنتِ..؟ بحثتُ عنك طوال اليوم فلم أجدك.. واتصلت بك مرات عدة على رقم غرفتك فلم يجبني أحد.. أين كنت..؟
- قضيت النهار كله تقريباً في رحلة إلى سواحل نابولي ..
- مذهل.. لقد قمنا نحن بذاك قبل يومين أيضا.. المهم.. أين أنت الآن..؟

قالت حواء صحراوي بصوت مرح :

- أنا في غرفتي.. ألم تتصلي بي في غرفتي..؟
- أوه.. نعم.. يبدو أني ثملة حقاً.. أين يمكن أن تكوني..؟ وأين يمكن قد اتصلت..؟ المهم.. إذا كانت لديك رغبة فلنلتقِ الآن ..
- الآن..؟
- نعم الآن.. وماذا في الأمر..؟ الليل في بدايته.. سنكون عند حوض السباحة ..
- سنكون..؟ ماذا يعني: سنكون..؟ ألست وحدك..؟
- لا.. معي صديقتاي.. مدام فاكهاني.. ومدام كربلائي.. تعالي.. نحن كنا في المرقص.. وسنواصل السهرة تحت.. حجزنا طاولة قرب حوض السباحة.. سننتظرك ..
- لكن ..

لم تنتظر إيفا بعلبكي جواب حواء صحراوي فقطعت الإتصال كي لا تمنحها فرصة الإعتذار. كانت حواء صحراوي في حالة نفسية مشوشة.

لقد تركت رواية (متاهة الأشباح) في نفسها تأثيراً كابوسياً، وانبثقت الأسئلة من أعماقها كما ينبثق الكمأ بعد المطر والرعد. أكان آدم التائه جاداً في أن يجعل من أبطاله أشباحاً..؟ أيكون من رأته في المطار شبحاً..؟ ما الذي أراد من وراء هذه الرواية التي تجري أحداثها في المستقبل

القريب.. أي تبدأ من نهاية الحرب العراقية الإيرانية في العام 1988 لتنتهي في العام 2010 ؟ أيرى هو مستقبل البلاد والمنطقة بهذا الشكل المرعب..؟ يا له من متشائم!

كانت منقبضة النفس، منبهرة من زحمة الأسئلة والمشاعر المتناقضة في أعماقها. كانت حائرة، تريد أن تنام ولا تستطيع النوم..، تستذكر وجوها مختلفة غير مترابطة وليس لأحدها علاقة بالآخر، دون أن تعرف سبباً وجيها لحضورها في ذهنها، لذلك وجدتْ في إتصال إيفا بلعبكي مخرجاً مناسباً للحالة التي هي فيها، لكنها كانت مترددة في الذهاب. أحست بعدم الرضا من موقف إيفا بلعبكي الحازم، وغير المناسب بإنهاء الاتصال دون أن تمنحها فرصة للكلام، لكنها كانت تدرك بأنها فعلت ذلك كي لا تمنحها فرصة للإعتذار، بل إنها كانت في أعمق أعماقها مرتاحة من ذلك، فهذا سيمنحها تبريراً أمام نفسها كي تذهب إليهن.

وهكذا فقد قررت أن تواصل بقية الليل معهن، تحدوها رغبة عارمة في التعرف على المرأتين الأخريين.

* * *

ارتدت حواء صحراوي ثوب سهرة أسود طويل، يتناسب مع مكان مفتوح مثل حوض السباحة في فندق وليس بالسهر في مطعم أو مرقص أو قاعة خاصة للإحتفالات. كانت تبدو أنيقة جداً في ثوب السهرة الذي يكشف عن نهدين كبيرين طريين وعن كتفين جميلتين. تأملت نفسها سريعاً في المرآة. رشت عطراً فرنسيا زكياً على صدرها ورقبتها وتحت أذنيها. أطفأت النور وخرجت .

حين أطلتْ على تلك المساحة المفتوحة من الفندق حيث حوض السباحة، وجدتْ هناك عدداً من الطاولات التي يجلس حولها نزلاء الفندق. بعضهم كان في ملابس السهرة، أما البعض الآخر فكان يرتدي ملابس خفيفة. كانت الطاولات لا تتعدى الست، يجلس حولها إيطاليون، وألمان ودنماركيون وروس. إلى جانب طاولة السيدات العربيات .

تلفتتْ حواء صحراوي باحثة عن إيفا بعلبكي، فانتبهت إليها وهي تؤشر لها من بعيد، على الجهة الأخرى من الحوض وهي جالسة مع صديقتيها حول طاولة تتوسطها قنينتان من النبيذ وعامرة بأنواع الفواكه ومستلزمات مائدة الشرب، فتوجهت نحوها .

قدمت إيفا بعلبكي بطريقة مرحة حواء صحراوي إلى صديقتيها، وعرفتهن ببعضهن لكنما دون تفاصيل. انتبهت حواء صحراوي لأول مرة إلى

المرأة اللبنانية التي كان اسمها حواء فاكهاني، حيث بدت ذات جمال خاص جداً، وخمنت أنها مكتظة بأشياء غامضة، وانفعالات مكتومة، بالرغم من سعيها إلى أن تكون مرحة ومجاملة، أما الأخرى فقد قُدمت لها بأنها المهندسة حواء كربلائي، وهي عراقية. وكانتا من ألمانيا أيضاً .

حين جلست حواء صحراوي خمنت، عبر مرحهن الواضح، واسترخائهن في الحديث والحركة، وضحكاتهن التي تعلو أحيانا بشكل ملفت بأنهن قد شربن ما يكفي من النبيذ؛ بحيث لا ينتبهن لأحد من الموجودين وكأنهن وحدهن يسهرن هناك .

كن يتحدثن عما جرى لهن خلال تلك الليلة. روت إيفا بعلبكي لها، من أجل أن تشركها في جوهن المرح، بأنهن كن في مطعم فاخر أول الأمر، ثم ذهبن إلى مقهى راق شهير في هذه الجزيرة، حيث شربن قنينة نبيذ إيطالي فاخر، على أنغام موسيقى وغناء مطرب بدين جداً جلس وراء البيانو وعزف ببراعة، وكان صوته دافئا وحنوناً بشكل مذهل. وبرغم أن بعض الرجال حاولوا التعرف عليهن هناك، إلا أن الجو كان مرتبكاً في المقهى، وكن متوترات قليلاً.. ثم ذهبن إلى حانة كبيرة كان فيها ساحة للرقص. وهناك شربن قنينتين من النبيذ ورقصن كذلك. في بداية الأمر رقصن ضمن الراقصين.. وكن يرقصن مع بعضهن، لكن في ساحة الرقص، اقترب ثلاثة رجال منهن، وأخذوا بمراقصتهن. وغمزن لبعضهن عن وسامة هؤلاء الرجال وجرأتهم، ومحاولتهم إغوائهن، حيث بادر أحدهم بدعوتهن إلى الفيلا التي إستأجرها، لكنهن ترددن في الذهاب معهم برغم إعجابهن الشديد بهم. فجأة التفتت إيفا بعلبكي نحو حواء صحراوي وسألتها بطريقة مباغتة وغير متوقعة :

- لو كنت معنا، أو في محلنا.. أكنت ذهبت مع أحدهم..؟

بوغتتْ حواء صحراوي بهذا السؤال، بل صُدمت بهذه الصراحة التي تصل إلى حد الوقاحة في نظرها، لاسيما وأنها لم تمض إلا فترة قصيرة جداً لتعارفهن، إلا أنها اعتبرتْ هذه الجرأة في طرح مثل هذا السؤال ناتجة عن قناني النبيذ التي شربنها .

ارتبكتْ حواء صحراوي قليلاً، وساد انتباه شديد من المرأتين الأخريين أيضا، بل شعرتا ببعض الإحراج من السؤال، لكن الفضول كان غالباً عليهما لمعرفة الجواب. صمتتْ حواء صحراوي للحظاتْ، كانتْ تفتش عن إجابة ملتوية تخرجها من هذا الموقف المحرج، فلو كانتْ قد جلست لفترة أطول معهن، وتعرفت بشكل أكثر عمقا بهاتين المرأتين، ولو كانت قد شربت

مثلهن هذه الكمية من النبيذ، لكانت أكثر استرخاء مما عليه الآن، لذا أجابت قائلة :

- لا أريد أن أكون بطلة وأدعي ما لا أقوى عليه.. لكني لو كنت بموقفكن، فربما تصرفت مثلما تصرفتن بالضبط..، أي في أعماقي أرغب في الذهاب مع أحدهم لكني أتردد، باحثة عن أي سبب كي أقنع نفسي بعدم القيام بذلك ..

ابتسمت النساء الثلاث لها بمودة، مع مسحة من الخيبة، وكأنما كان بودهن أن يسمعن إجابة مختلفة، إلا أن حواء فاكهاني علقت قائلة لها :

- جوابك دبلوماسي ..

لم تفهم حواء صحراوي هل كانت تلك الجملة مديحاً أم انتقاداً لها، إلا أنها لم تشغل نفسها كثيرا بالبحث وراء الكلمات، إذ شعرت بمودة نحو هاتين المرأتين، وودت أن تنغمر في جوهن المرح، إلا أن المرأة العراقية حواء كربلائي قالت بطريقة فيها نبرة خفيفة من الاحتجاج :

- أنا لم أرغب في الذهاب منذ البداية.. وحتى لو كنتما قد ذهبتما لما رافقتكما ..

ابتسمت لها إيفا بعلبكي وعلقت بمرح :

- ماذا..؟ هل تريدين القول بأنك وفية لزوجك..؟ أو تريدين أن تكوني وفية له.. برغم علمك أنه يخونك في أية فرصة تتاح له..؟

صُدمت حواء كربلائي من تعليق حواء بعلبكي الجريء والفاضح، لاسيما أمام حواء صحراوي، فأجابت وكأنها تدافع عن نفسها أو تبرر ما قالت :

- أنا أريد أن أكون وفية لنفسي ومشاعري.. وليس له.. أعرف أنه يخونني.. وقد تألمت كثيراً من ذلك، بل لقد فكرت في خيانته كعقاب له.. وحاولت ذلك.. لكنني اكتشفت أنني كنت أعاقب نفسي ولا أعاقبه هو.. أنا لا أستطيع أن أذهب مع أي شخص كان.. صحيح أن أمي ألمانية، وتربيتي ألمانية تقريبا.. ولا أجد مشكلة كبيرة مثل بقية النساء الشرقيات بالذهاب مع رجل آخر إذا رغبت في ذلك..، لكني اكتشفت أني لا أستطيع الذهاب مع رجل ما لمجرد اللذة.. قد يعجبني الرجل.. بل لقد كان رجل الليلة الذي راقصني وسيما جداً.. وقد إحتك بي طوال السهرة، وحاول إثارتي.. بل أثارني فعلاً.. وقد دعاني أن نخرج من المكان إلى الحديقة المجاورة.. لكني تماسكت.. لا أعرف لماذا، لم أرد لنفسي أن أكون في مثل هذا الموقف..، فالأمر ليس له علاقة بزوجي، وإنما بي.. أحسست بالتشنج.. بل تصلبت عضلات ساقيّ ..

أحست إيفا بعلبكي بأنها قد جرحتْ صديقتها حواء كربلائي، لأن صوت الأخرى وهي تتحدث كان مشبعاً بالحزن والغضب المكتوم، فأرادت أن تداري الموقف، لذا التفتتْ إلى حواء صحراوي، وأخذتْ توضح لها :

- مدام كربلائي.. مهندسة.. أمها ألمانية وأبوها عراقي من مدينة عراقية تُسمى كربلاء.. وبرغم أنها حتى السادسة عشرة من عمرها عاشت في العراق، إلا أنها تفكر بطريقة الألمان المنطقية، الباردة.. وبالمناسبة.. زوجها ألماني.. ومع أنه ملحد إلا أنه حينما أراد الزواج منها دخل في الإسلام.. طبعاً مسألة شكلية من أجل إرضاء والدها الذي كان قد أعلن بأن ابنته مسلمة ولا ينكحها إلا مسلم كما جاء في القرآن.. مثلما جرى معي .

تدخلت مدام فاكهاني بمرح لكي تكون في مركز الحديث، فقالت لحواء بعلبكي بنبرة أقرب إلى المزاح الضاحك :

- ماذا..؟. أتريدين أن تسردي قصة حياة مدام كربلائي كلها الآن..؟

ضحكتا، أما حواء الكربلائي وحواء صحراوي فابتسمتا. علقت إيفا بعلبكي بمرح :

- لا.. فقصة مدام كربلائي طويلة ..

ثم أخذت بمرح تقلد أغنية شائعة لفريد الأطرش :

- حكاية غرامي.. حكاية طويلة ....

ضحك الجميع، وعادوا إلى مرحهم. حينها أحست حواء صحراوي بأنها صارت أقرب إليهما، وأحست بأن هاتيك النساء لسن سوى نساء ضائعات، ومشوشات، وتائهات مثلها.. برغم أنهن يكابرن ويحاولن أن يبدين قوة عمياء يستعرنها من شخصيات وتصورات في أذهانهن، وليست نابعة من أعماقهن، إلا أن ملاحظة غامضة من إيفا بعلبكي ليست موجهة إلى واحدة منهن بالتحديد قادت النساء الأربع إلى الدخول في نقاش طويل، ومكاشفات لم يكن يتوقعنها، إذ عقبّت إيفا بعلبكي بجملة وكأنها عرّافة تطلق حكما قدريا، فقالت بحزن وبنبرة مستسلمة :

- الجسد يقول الحقيقة أكثر من اللغة.. البشر يكذبون.. يضعون الأقنعة.. يقولون شيئاً لكن أجسادهم تنطق بشيء آخر.. نحن نقمع رغباتنا.. نقمع غرائزنا الصريحة من أجل المجتمع.. من أجل شيء اسمه الأخلاق.. الإنسان تعيس، لأنه بين صراعين.. بين إرواء الغريزة والرغبة الملتهبة وبين الأخلاق والمجتمع والدين.. أنا أفور حاليا.. أشتعل.. بركاني يسيل.. لكني طاوعت قناعي.. أردت أن أبدو وكأني امرأة متزنة.. رزينة، ولست سهلة، لكني تمنيت لو لم أكن هكذا ..

صمتت النساء الباقيات. أحسسن وكأن إيفا بعلبكي كشفت عن حقيقة يعرفنها جميعاً.. وأن ما تقوله ليس جديداً، لكن ارتباطا بما جرى لهن في حلبة الرقص، فأن هذا الكلام كان مقصوداً.. وموجهاً إليهن.. وأنها تعاتبهن بشكل غامض على رفضهن الذهاب مع الرجال الثلاثة وقضاء الليل مستمتعات بأفراح الجسد .

أدركت حواء صحراوي أنها غير مشمولة بالحديث، لكنها مشمولة بالتعميم كامرأة وكإنسان، كما أنها لاحظت بأن كلام إيفا بعلبكي أخرس صديقتيها لأنه كان واضحاً بأنها وجهته إليهما، فأحستْ برغبة خفية بأن تدافع عنهما، فقالت بهدوء :

- جحيم الجسد وبراكينه لا تقود إلى جنة الملذات دائما يا إيفاً ..

فوجأت النساء الثلاث بتدخل حواء الصحراوي للرد، لاسيما إيفا بعلبكي نفسها، إذ أنها كانت تنتظر من صديقتيها أن تعلقا على كلامها، وبالتحديد العراقية حواء كربلائي التي تقرأ كثيراً والتي تحدثت عن عدم رغبتها بالذهاب مع الرجال الوسيمين، إلا أن إجابة حواء الصحراوي البليغة أثرت فيها وحفزتها على المشاكسة، فقالت :

- لولا الجحيم لما كان هناك ضرورة للجنة يا حواء.. طريق الجنة يمر عبر الجحيم.. الجنة هي المطاف الأخير.. لا يمكن الوصول إليها بسهولة.. حتى في الأديان.. عليك أن تمري بالجحيم ثم البرزخ ثم الفردوس.. لا أحد يمر بالجنة ليجتازها إلى الجحيم.. الجحيم هو الذي يهددنا.. نخافه.. خوفنا منه أضعاف طمعنا بالجنة ..

مرت لحظات صمت قليلة على الجميع. كن يفكرن بما قالته إيفا بعلبكي، بل حتى إيفا بعلبكي لم تتوقع أن تنطق بمثل تلك الجمل المحملة بالأفكار الغامضة والإستعارات الدينية، ولم تكن تعرف كيف انبثقت في ذهنها هذه الأفكار وسالت في جمل على شفتيها..؟

حواء صحراوي كانت مندهشة بإعجاب لما قالته صديقتها إيفا بعلبكي، ولم تكن تتصور بأنها مهمومة بالمصير البشري إلى هذه الدرجة، فقد كانت تعتقد، من خلال اعترافاتها السابقة لها في الشرفة، أنها امرأة مهووسة بالرجال، مهووسة بالجنس، لكنها كشفتْ الآن عن عمق ووضوح فكري يذكرها بكبار المفكرين.. بل هي لاتتذكر بالضبط أين قرأت مثل هذه الأفكار. لم يخرج حواء صحراوي من تداعياتها إلا صوت حواء فاكهاني التي سمعتها تقول وكأنها تريد أن تغير اتجاه النقاش :

- يا إلهي.. الضجر يرعبني ..

نظرت إيفا بعلبكي إليها وقالت مبتسمة :

- لماذا إذاً رفضت البقاء لفترة أطول في المرقص..؟ لاسيما بعدما أعلنا للرجال الوسيمين رفضنا الذهاب معهم.. أأنت نادمة على ذلك..؟

- لا أبداً.. لست نادمة.. لكني خفت منهم ..

- خفت منهم..؟ لماذا..؟

- لأنهم كانوا كما يبدو أذكياء.. وواثقين من أنفسهم جداً ..

فسألتها حواء صحراوي بهدوء وكأنها تريد أن تفهمها :

- وهل الأذكياء يخيفون..؟

ابتسمت حواء فاكهاني بحزن، لم تنظر إلى وجه حواء صحراوي، وإنما أطالت النظر إلى كأسها، وقالت :

- عادة ما يكون الأذكياء خبثاء.. أدعياء.. يرتدون الأقنعة دائماً.. لاسيما هؤلاء المثقفين منهم.. شخصيا لاأحب مصاحبة إلا من يجيد النكتة.. من يرى الحياة مثلي ..

- وكيف ترين الحياة..؟

سألتها حواء صحراوي بفضول، بينما كانت مدام بعلبكي راضية على هذا التواصل بين مدام فاكهاني ومدام صحراوي، لأن الأخيرة ضيفتها هي، أما حواء كربلائي فقد كانت مرتاحة لأنها لم تعد مركزا للحديث. وانتظر الجميع جواب مدام فاكهاني التي قالت بعد لحظات من الصمت وكأنها تستجمع أفكارها لتقول شيئاً مهماً :

- أرى أن الحياة لا تستحق أن يلهث الإنسان وراء أمجادها.. على الإنسان أن ينهل من متعها فقط.. فالعمر قصير.. والرجال دجالون.. وغامضون بشكل مخيف.. والإنسان نفسه لا يستطع معرفة نفسه على حقيقتها.. لأننا أحيانا نكوّن تصورات عن أنفسنا، إذا بنا نكتشف في مواقف معينة بأننا لسنا تلك الشخصية التي اعتقدنا أنها نحن.. نكتشف أننا شخصية أخرى.. وأن لدينا وجها آخر لم نتعرف عليه أبداً.. قد يكون هذا الوجه، وهذه الشخصية جيدة، وقد تكون سيئة وضعيفة ..

مرت لحظات صمت على الجميع. لم تشأ حواء صحراوي أن تواصل الأسئلة أو الرد والتعقيب كي لا يبدو الأمر وكأنه تحقيق أو استعراض ثقافي وتحدٍ شخصي.. لا سيما وأن مدام فاكهاني كانت تخفي توتراً عصبياً خفياً في نظراتها وحركاتها.. وقد فهمت ذلك عندما أخذت بسكب النبيذ في الكؤوس التي أمامها، إلا أن القنينة كانت فارغة لذا تناولت القنينة الثانية

بعصبية وواصلت سكب النبيذ في جميع الكؤوس، ثم رفعت كأسها فرفع الجميع كؤوسهم، وقالت :

- بصحة مدام صحراوي ..

ارتشفن نبيذهن. ولم يكن قد انتهين حينما رفعت مدام فاكهاني يدها مؤشرة للنادل الذي كان يحمل بعض المشروبات لطاولة قريبة منهم، بأن يجلب لهن قنينتين أخريتين. نظرت حواء كربلائي إليها باستغراب وكأنها تؤنبها على ذلك، فابتسمت لها بحزن وقالت :

- اليوم خمر وغداً أمر.. لا أعرف من قال ذلك.. فلنشرب الليلة حتى الثمالة.. فأنا أشعر بعطش للنبيذ، وبرغبة بأن أنسى.. أنسى كل شيء ..

مرت ثوان من الصمت. نظرت مدام فاكهاني إلى حواء صحراوي وهي تتقد رغبة في أن تكشف لها عن دواخلها، وأن ترفع القناع عن وجهها. هي نفسها لاتعرف سر هذه الرغبة. صديقتاها، إيفا بعلبكي وحواء الكربلائي تعرفان الكثير عنها، لكنها تحس بإنجذاب نحو حواء صحراوي، وترغب في أن تكون قريبة منها من خلال هذه المكاشفة، لاسيما وأنها هجست رغبة مدام صحراوي في التعرف عليها أكثر، لقد تلمست ذلك من خلال الأسئلة التي طرحتها عليها قبل قليل، فقالت موجهة كلامها نحو حواء صحراوي :

- مدام صحراوي.. ربما تستغربين الحالة التي أنا فيها.. أو ربما فوجئت بطريقة تفكيري.. هذا إنْ كنت أفكر أصلا.. لأني أكره التفكير كما قلت سابقاً ..

ارتبكتْ حواء صحراوي قليلاً من هذه الصراحة، وأحستْ أن مدام فاكهاني تخصها بشكل واضح ومثير بالاهتمام، وربما هذا سيزعج صديقتيها، كما شعرت وكأن مدام فاكهاني تود أن تقوم بإعتراف غامض ومثير، فقالت لتداري الموقف قليلاً، ولتمتص التوتر الذي خيم على الجميع :

- لا.. لا أستغرب.. فلكل منّا تجربته في الحياة.. ومعاناته.. الزمن هو الذئب الغادر الذي ينقض علينا ليدفعنا الى الهرب في اتجاهات ودروب ومضائق لم نفكر بها.. وربما ما قلته صحيح، بأننا نكتشف بأننا لسنا كما كنا نتوقع من أنفسنا، أو كما كنا نريد لأنفسنا.. فربما لدينا أوهامنا الكثيرة عن أنفسنا.. والزمن هو من يدفعنا لكي نكشف ونكتشف أنفسنا ..

ظلت إيفا بعلبكي وحواء كربلائي صامتتين، فقد كانتا تعرفان صديقتهما مدام فاكهاني التي لا يمكن إيقافها الآن، بينما نظرت مدام فاكهاني إلى حواء صحراوي بمودة وعلى وجهها ابتسامة حزينة متعاطفة، وقالت :

- أنت تتحدثين مثل شاعرة أو مثقفة.. وأعذريني إذا ما أسأت

القول حينما قلت عن المثقفين بأنهم شخصيات مقنّعة.. عموماً.. يجب أن تتحملي صراحتي الجارحة أحياناً.. أنا هكذا.. وحينما تعرفينني أكثر فسوف تتقبلين ذلك كجزء من شخصيتي.. المهم.. سأروي لك شيئاً عن نفسي، لتعرفي لماذا أنا افكر بهذه الطريقة ..

- إذا كان في ذلك إحراج لا داعيَ لذلك!

قالت حواء صحراوي ذلك وهي تنظر إلى البقية، وكأنها تريد أن تستشف موقفهن، إلا أنها لاحظت وكأنهن غير مباليات، أو كأن هذا مشهد يتكرر أمامهن، وسمعت مدام فاكهاني تجيبها :

- لا أبداً.. أنا ..

في هذه اللحظة وصل النادل وهو يحمل صينية عليها قنينتيّ نبيذ. سكت الجميع. وضع ما يحمله على الطاولة، وقدم محفظة جلدية فيها قائمة بالمشروبات، فأخذتها مدام فاكهاني من يده، وكتبت رقم غرفتها واسمها، ثم وقعت عليها، وأعادتها له. وحالما ابتعد؛ سكبت في كؤوس الجميع نبيذا جديداً. رفعت كأسها وقالت :

- نخب هذه الليلة المتميزة جداً.. نخب أرواحنا التائهة ..

وعلى خلاف الجميع عبّت النبيذ الذي في كأسها إلى آخره، بينما ارتشفت البقية قليلا منه. كان لهذه الكأس أثرها على مدام فاكهاني، إذ لمعتْ عيناها. صمتت لثوان وكأنها غير موجودة بينهن، ثم نظرت إلى حواء صحراوي وقالت :

- أنا متزوجة.. زوجي.. قـواد (عرص) ..

ندّتْ عن إيفا بعلبكي صرخة لا إرادية محاولة لإيقاف مدام فاكهاني من أن تسترسل في الكلام :

- حواء... لا داعيَ للفضائح.. اسكتي رجاء ..

نظرت مدام فاكهاني إليها بعينين تلمعان بشغف غريب وغامض، ابتسمت لها بمودة وقالت :

- سكوتي لن يغير من الموقف شيئا يا عزيزتي إيفا.. سواء سكت أم لا.. فزوجي قواد.. عرص.. وهو مستمر في القوادة والتعريص.. لستُ ثملة بعد.. أحس بشيء من الانتعاش لكني لست سكرانة.. ما أقوله ليس من تأثير النبيذ.. لكنه ربما ساعدني بأن أقول ما أقول ..

ثم التفتت إلى حواء صحراوي وقالت لها وكأنما تدلي بإعتراف أمام كاهن في كنيسة، فقالت بنبرة فيها نبرة شديدة من تأنيب الضمير، وارتعاشة حزينة وكأنها محاولة للتخلص من عبء نفسي ثقيل :

- ربما ستسألينني.. كيف تزوجت قواداً.. عرصاً؟ سأجيبك ببساطة.. لم أكن أعرف ذلك.. بالرغم من أنه حين تعرفت عليه كان يمارس هذه المهنة لكني كنت جاهلة، وغبية.. وساذجة.. لم أكتشف ذلك إلا بعد مرور سنتين ...

وجدت حواء صحراوي نفسها في موقف محرج، فهي بكل الشغف الذي في أعماقها لمعرفة هذه المرأة باهرة الجمال وغريبة السلوك، وجدت نفسها مرتبكة، لأنها أدركت بأن مدام بعلبكي وكربلائي تعرفان كل هذه التفاصيل، وهما لا ترغبان بأن ترويها في هذه الجلسة، لذلك قالت لها بنبرة فيها مودة وتعاطف واضح :

- لا تضغطي على نفسك كثيرا يا مدام فاكهاني.. ربما الجو غير مناسب الآن لمثل هذا الحديث... لنترك الأمر لمرات قادمة.. نحن نلتقي يوميا.. وسيكون هناك وقت لمثل هذا الحديث ..

ارتسمت علامات الارتياح على ملامح السيدتين بعلبكي وكربلائي لموقف حواء صحراوي، إلا أن مدام فاكهاني كانت وكأنها تتحدى نفسها، فقالت لها بنبرة فيها غضب مكتوم :

- إذا لم أتحدث الآن فربما لن تتاح لي الفرصة للحديث مرة أخرى... أحس بروحي مثقلة بالألم هذه الليلة ..

ابتسمت إيفا بعلبكي وعلقت قائلة :

- ما من كلمة تعرضت لسوء فهم مثلما تعرضت كلمة (الروح).. ليست روحك مثقلة يا عزيزتي، وإنما أنت حزينة.. والنبيذ يطلق الأشباح من القمقم الصدئ.. هذا بتأثير النبيذ ..

نظرت مدام فاكهاني إليها بتساؤل، وكأنها تستغرب قولها، ثم التفتت إلى حواء كربلائي، وكأنها تدعوها لمشاركتها الاستغراب، وقالت :

- هل سمعت ماذا تقول إيفا..؟ هل سمعت..؟

ولم تنتظر رد حواء كربلائي وإنما التفتت إلى حواء صحراوي وكأن الأثنتين غير موجودتين، وقالت :

- برغم ما يقال.. سواء كنت ثملة أم مثقلة الروح بالألم.. فسأروي لك ما يثقل على قلبي ..

سكتت إيفا بعلبكي ولم تشأ أن تتدخل لأنها تعرف بأن مدام فاكهاني ستتحدث سواء اعترضت هي أم لا، ولكي لا يتوتر جو الجلسة أكثر، حاولتْ أن تلهي نفسها بتناول بعض الطعام، بينما سكبت مدام فاكهاني

بعض النبيذ في كأسها وشربته مرة واحدة، ثم توجهت بكل حضورها الجسدي نحو حواء صحراوي واسترسلت في الحديث :

- جئت إلى ألمانيا منذ حوالي عشر سنوات مع أختي.. ولم يكن أمامنا سوى أن نطلب اللجوء السياسي.. بالرغم من أننا لا نفقه في السياسة شيئاً.. ربما أبالغ قليلاً... نعرف القليل القليل.. لأن كل لبناني هو سياسي منذ أن يكون في رحم أمه... ولم نكن نعرف ماذا نقول.. وأين نذهب.. وما هي الأقوال والحجج التي تلائم الألمان من أجل أن يقبلوك في بلدهم..، لكن ما أنقذنا هو أنه كان لأختي صديق لبناني، كانت تتواصل معه من بيروت.. وهو الذي استقبلنا في برلين.. ولقننا ما يجب أن نقوله في دائرة اللجوء التي أخذنا هو بنفسه إليها.. المهم.. بعد أن قدمنا طلب اللجوء.. وما تلا ذلك من تفاصيل استمرت لأشهر.. تم منحنا إقامة البقاء في ألمانيا.. لكن لم يعترفوا بنا كلاجئين سياسيين.. البعض اقترح علينا تبديل ديننا والدخول في المسيحية من أجل الحصول على اللجوء، بحجة أن ذلك سيكون حكمه بالموت والإعدام في الإسلام.... وبالتالي فإن هذا الخطر سيدفع بالجهات الألمانية الرسمية أن تتعاطف معنا وتمنحنا حق اللجوء.. وهناك محامون تابعون للكنائس يقومون بالدفاع عنك في مثل هذه الحالة.. والحقيقة كنا على إستعداد لإتخاذ مثل هذه الخطوة.. إلا أن صديق أختي، بالرغم من أنه من الزعران التعساء، اللصوص، وينتمي سراً إلى عصابة تسرق وتبيع المخدرات.. إلا أنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً كاشفاً عن تعصب ديني أعمى.. واصفاً الألمان بالكفار.. وهدد أختي بأنه سيتركها إذا ما قامت بمثل هذه الخطوة..... لذلك تراجعت أختي عن موقفها، فهي لا تستطيع أن تعيش من دون صديقها.. ولقد حاولت أن أقنعها بأنها تستطيع أن ترتبط بغيره، فهو ليس الرجل الوحيد في هذا العالم.. لكنها كانت ترفض الاستماع إليّ! . . وذات مرة ألححتُ عليها بشكل مبالغ فيه قليلاً، فغضبت وصارت تبكي واعترفتْ بأنها تعشقه.. ولا تستطيع أن تعيش مع رجل غيره، وحينما ألححت لمعرفة السبب قالت لي بأنه ينيكها بشكل رائع.. وهي لا تستطيع أن تستغني عن النيك..... هو وحده الذي تشتهيه.. وهو وحده الذي يعرف كيف يثيرها.... تصوري.. هكذا نحن النساء..!! . . ولم أفهمها في ذلك الوقت، إلى أن مررتُ أنا بنفس التجربة.... فحتى بعد أن عرفتُ بأن زوجي قواد لم أستطع تركه..!! . . لكن هذه المرة ليس لأنه ينام معي بشكل جيد..، وإنما لأني وجدت نفسي مشدودة إليه بأكثر من وثاق................ الغريب أن أختي تزوجتْ من صديقها عرفيا في مسجد للمسلمين في برلين وحسب

الشريعة الإسلامية،.. لكنها ارتضتْ على نفسها، وبالإتفاق معه، على أن يصادق هو امرأة ألمانية أكبر منه في السن.. ويتزوجها.. فقط ليحصل بعد خمس سنوات على الجنسية الألمانية.. على أن يطلق الألمانية بعد حصوله على الجنسية، وليتزوج أختي رسمياً وفق القانون الألماني.. وبذلك تحصل على الأقامة الرسمية وجواز سفر ألماني للتنقل ..

انتبهت إيفا بعلبكي وحواء كربلائي لحديث مدام فاكهاني، فبرغم صداقتهما إلا أنهما لا تعرفان هذه التفاصيل عن أختها، لذلك أخذتا تستمعان إليها، وهي تروي لحواء صحراوي تفاصيل حياتها، بينما كانت حواء صحراوي تحتضنها بعينيها وبنظرتها المليئة بالمودة والدفء والعرفان لما خصتها به من إهتمام وتشريف في الكشف عن أسرارها. من جهتها أحست حواء فاكهاني بالحيوية أكثر حينما انتبهت إلى تعاطف الجميع معها، وهن يحبّذن الاستماع إليها، فواصلت حديثها :

– طبعاً كانت أختي برغم موافقتها على هذه الخطة تشتعل غيرة.. هكذا عاشت سنواتها الخمس.. لكن الحقير زوجها، عندما حقق هدفه، وحصل على الجنسية الألمانية إستناداً إلى القوانين، راح يسوّف طلاقه من الألمانية، ويبتعد بشكل تدريجي عن أختي.. ويبدو أنه كان يخطط لأشياء لم تطرأ في ذهن أختي قط.. فقد رفض أول الأمر أن ينجبا أطفالاً بحجة أنه ينتظر حصوله على الجنسية الألمانية كي يضمن مستقبل أطفاله.. وقد وافقته أختي على مضض.. وعلى الرغم من رفضي لهذا الزواج، وهذه اللعبة القذرة بالزواج من الألمانية من البداية.. لكني لم أكن أصدق بأني سوف أكون في وضع أسوأ بكثير مما كانت فيه أختي.. إذ سأتزوج أنا قواداً ولا أستطيع الإنفصال عنه..! . . المهم.. بعد حصوله على الجنسية الألمانية أخذت أختي تلح عليه بطلاق زوجته الألمانية، لكنه كان يماطل.. حتى أنها غضبت منه ذات مرة فعيرته بأنه مريض نفسيا.. وإلا كيف يقبل أن ينام مع امرأة في سن أمه.. حينها أوجعها ضربا وأطلق عليها يمين الطلاق الشرعي الإسلامي.. انهارت أختي.. صارت كالمجنونة.. وحين انقطع عنها ولم يعد إليها، فقدت توازنها.. أخذتْ تفتش عنه في الكازينوهات، وأماكن اللهو.. وحتى مراقص الديسكو.. أحيانا كانت تقابله، فيرفض الحديث معها.. ويصرخ فيها أمام الآخرين بأنه طلقها شرعاً، وقانونيا ليس له علاقة بها.. ولم يكن أمام اختي سوى البكاء.. كانت تبكي وتتوسله وتجلس أمامه مقبلة يديه وقدميه طالبة الغفران.. لكنه كان يرفض ذلك بشدة.... ويبدو لي أنها جرحته عميقاً

حينما قالت له كأنه يضاجع أمه.. وحينما يئستْ من رجوعه إليها قررت الإنتقام منه.. لكن كيف..؟ لقد أخذت تنتقم منه بمضاجعة كل أصدقائه..!! . . لم تترك صديقا له دون أن تذهب إليه وتعرض نفسها عليه، وإذا ما رفض أحدهم النوم معها احتراما لعلاقته بزوجها، فأنها كانت تدفع له مالاً.. كانت تستقطع من مصاريف المعيشة التي تمنحها دائرة المساعدات الاجتماعية لتدفع ما تجمعه لمن يرفض مضاجعتها.. لكن الأمر خرج عن كونه انتقاماً، وإنما صار هوساً جنسياً، إذ صارتْ لا تتحمّل ألاّ يضاجعها أحدهم يوميّاً، حتى في أيام دورتها كانت تحتاط للأمر بطريقة ما وتمارس الجنس مع الرجال.. ولما صارت لا تستطيع أن تدفع لأي كان، وكانت تبحث مهووسة بالجنس.. فقد توجهت إلى دار للدعارة.. (بوف).. وعرضت نفسها على مديره.. فقبلها.. وأخذت تعمل هناك.... طبعاً لم تقل ذلك في البداية.. كانت مرتاحة.. نسيت طليقها.. وأخذت تحصل على المال أيضا.... لم اكن أراها إلا نادراً.. وحين سألتها عن عملها هناك قالت إنها نادلة تقوم بخدمة الزبائن، لكنها لا تنام معهم.... طبعاً في ما بعد عرفتُ زيف هذا الكلام.. المهم.. كانت تزورني في شقتي التي أستأجرتها على نفقة دائرة الأجانب.. إلى أن جاءتني ذات مرة وهي في حالة يأس كبيرة.. فشكت لي بأنها تعلقت بشخص ما..، لكنه لا يعرف بذلك.. وحينما طلبت منها أن تكاشفه أو تبين له ذلك بشكل غير مباشر، أخبرتني بأنها حاولت لكن بدون فائدة..... أحسستُ أنها صارت صموتة.. كتومة.. لا تتحدث عن أعماقها.. وحينما سألتها ذات مرة عن الرجل وتطور علاقتها معه.. صمتت.. لم تحدثني.. كانت كئيبة جداً.. ويبدو أنها في تلك الفترة قد بدأت بتعاطي المخدرات.... وذات مرة انهارت عندي في البيت.. وأخذت تبكي وتصرخ.. وأخذتْ تتحدث عن الموت كخلاص لها ولحياتها التعيسة.. كانت قد هوت إلى أعماق بئر اليأس المظلمة ..

صمتت مدام فاكهاني. فتحت حقيبتها. أخرجت علبة سجائر محفوظة في حقيبة جلدية فاخرة، وقدمتها للجميع، فلم تشاركها إحداهن سوى إيفا بعلبكي التي سحبت سيجارة.. أشعلت لنفسها ولإيفا.. نفثت نفساً عميقاً.. تعالت ضحكات من طاولة قريبة.. لكن لا أحد علق على ذلك فقد كان الجميع ينتظرها أن تستكمل تفاصيل هذه القصة الحزينة بالرغم من شعور بنهاية كارثية لهذه الحكاية..، لكنهن انتبهن أيضاً إلى أنها لحد الآن لم تتحدث عن نفسها.. نظرت هي إليهن.. ثم واصلت :

– ذات يوم اتصلت أختي بي، وطلبتْ أن نلتقي في مطعم لبناني معروف في برلين.. كانت تنتظرني هناك.. حين رأيتها شعرت بخوف شديد. كانت وكأنها هيكل عظمي.. وبالرغم من أنها طلبت صينية من المشويات، إلا أنها لم تأكل شيئاً تقريبا. فجأة، تقدم نحونا رجل أنيق، قد تجاوز الخمسين من العمر، كان يجلس مع أصدقاء له في زاوية أخرى من المطعم. نظر إلى أختي نظرة مليئة بالأسئلة الغامضة، ثم ألقى التحية باحترام. انتبهت إلى أن أختي ارتبكت، وقدمتني له بأنني أختها. الغريب أن الرجل لم يقدم نفسه، ألقى التحية بإحترام شديد وانسحب، لكن قبل أن أسألها عن هويته ومن أين تعرفه، شحب وجه أختي وأمسكت بذراعي وهي ترتجف، وأخذتْ تنظر بعينين مليئتين بالألم الممزوج بالحقد. كانت ترتعش بعصبية وتشنج.. انتبهت إلى الجهة التي كانت تنظر إليها فرأيت زوجها السابق ومعه امرأة لبنانية أخرى...... طبعا لم أذكر لكنّ أن طليقها إنفصل عن المرأة الألمانية، لكنه لم يرجع إلى أختي، ويقال إنه أراد الرجوع إليها، لكنها كانت قد انتقمت منه بطريقة خاطئة، ووصله أنها نامت مع أصدقائه، لذلك أحس بالإهانة وقطع كل خيط يشده إليها.. ورداً على إنتقامها منه بهذه الطريقة الداعرة، ذهب إلى لبنان وعاد بزوجة لبنانية....... وربما كانت المرأة التي قد دخلت معه إلى المطعم هي زوجته.... المهم.. تركتْ أختي المطعم وهي في حالة هستيريا.. ولم أستطع اللحاق بها، لأني انتظرت إلى أن أدفع الحساب، إلا أن عامل المطعم أخبرني بأن الحساب قد تم دفعه، وحين سألته عن الشخص الذي دفع، قال لي بأن السيد آدم هو الذي دفع.. وأشار إلى الشخص الذي سلم على أختي وعليّ قبل قليل.. حييته برأسي، ولم يكن أمامي الكثير من الوقت، إذ أردت اللحاق بأختي.... وحين صرت في الشارع لم أجدها.. كانت قد أستأجرت سيارة تاكسي وتركت المكان............ في اليوم التالي صحوت على رنين جرس باب الشقة.... ظننت أن أختي قد جاءت لتعتذر عما بدر منها ليلة أمس في المطعم.... حين فتحت الباب رأيت ثلاثة رجال، إثنان منهم كانا بملابس الشرطة الرسمية وآخر بملابس مدنية.. سألني أحدهم عن اسمي وهويتي، ولما تأكد من شخصيتي سألني عن أختي، ومتى رأيتها آخر مرة.. فأخبرته.. ثم طلب مني الذهاب معهم إلى المستشفى للتعرف على جثة أختي لأنها وُجدت منتحرة ليلة أمس، بتعاطيها كمية كبيرة من الحبوب المخدرة، فماتت إثر ذلك، وتم نقل الجثة إلى المستشفى ....

صمتتْ حواء فاكهاني للحظات. كانت تتنفس بصعوبة.. الصمت خيم عليهن جميعاً.. شعرن بالحزن، إلا أنها وكأنها استمدت قوة من جهة غير مرئية.. واصلت حديثها بنفس النبرة :

- في قسم التشريح رأيت الرجل الذي دفع حساب العشاء في المطعم.. كان وحده هناك. نهض وتقدم مني مواسياً... ولم يتركني خلال ذلك اليوم المشؤوم والأيام التي تلته، حتى أكملنا مراسيم الدفن.. وبالمناسبة.. تحمل هو كل مصاريف الدفن، من شراء التابوت وكلفة القبر وما شابه.. لم أكن أعرف ماذا كنت أفعل بدونه.. أحسست بميل خفي نحوه.. وطوال تلك الأيام، لم أعرف عنه شيئاً، سوى اسمه الذي ذكره لي عامل المطعم.. السيد آدم.. لكنه بعد الدفن قادني بسيارته إلى شقته.. لم أعترض.. كنت أثق به ثقة عمياء.. بل لم يكن لديّ أحد سواه.. وفي شقته الكبيرة الواسعة والتي تقع في أحد طوابق بناية قديمة جميلة المعمار تقع في شارع (أولان شتراسه) قدم نفسه لي بالكامل: آدم فاكهاني ...

تبادل الجميع نظرات الاستغراب والمفاجاة في ما بينهم. نظرت حواء فاكهاني إليهن، وأحست باستغرابهن، لذلك ابتسمت ابتسامة حزينة، وواصلت الحديث :

- أعرف إنكن متفاجئات.. نعم.. هذا الرجل الأنيق، السيد المهذب، كان مديراً لبيت اللهو والدعارة الذي كانت أختي تعمل فيه، لكني لم أعرف ذلك إلا بعد سنتين.. وهو الرجل الذي أحبته أختي ولم يبادلها الحب نفسه....... لكن لأكمل الحكاية... كنت في تلك الأيام مرتبكة جداً لإنتحار أختي، وكنت لا أعرف كيف أتصرف مع هذه الكارثة وتبعاتها..، لذلك تركته يفعل كل ما يراه مناسباً في تلك الأيام... أنا بطبعي إنسانة هشة وضعيفة من الداخل.. لا تنظرن إليّ وكأني قوية... هذه القوة التي ترونها عندي الآن متأتية من قوة المال الذي تحت تصرفي.. المال يمنح الإنسان القوة والثقة بالنفس.. وأحيانا الجرأة والوقاحة.... أنا بطبعي إنسانة مسالمة.. لا أريد من العالم سوى أن يتركني لحالي في سلام... لا أستطيع مواجهة الأشياء... أي احتكاك أو مواجهة بسيطة مع العالم الخارجي يعني الانتصار علي دونما جهد كبير.. لكن هذا لا يعني أنني إنسانة جبانة.. لا.... لم أكن أخاف من شيء.... لأني أساساً لم أكن أحس بشيء.... كنت بالنسبة لمن يراني وكأني منهمكة طوال الوقت بشيء ما...، لكن هذا الإنهماك الذي يبدو عليّ كان انهماكاً فارغاً ومزيفاً.... فلم أكن أنجز أي شيء في تلك

الأيام.... كنت بليدة وفاقدة القدرة على التفكير من هول الصدمة.. لذلك حينما اقترح عليّ آدم فاكهاني أن أنتقل للعيش في شقته، على أن يذهب هو ليسكن في الفندق المقابل للبناية بالضبط، لم أعلق أو أعترض على اقتراحه، ولم أعترض بأن لدي سكني.. بل أذكر أني لم أجب أصلاً.... فاعتبر هو ذلك موافقة مني........

كان الزمن بالنسبة لي شبه متوقف.... توقف عند ثلاث لحظات.... لحظة أرى فيها وجه أختي وهي ترى طليقها مع زوجته يدخلان المطعم.. ولحظة حينما فتحت الباب ورأيت أمامي الرجال الألمان الثلاثة.. وأخيراً لحظة رؤية جثمان أختي وهي علي سرير الألمنيوم البارد في قاعة المشرحة.. نعم.. كان الزمن متوقفاً بالنسبة لي برغم تعاقب الليل والنهار..... وخلال هذه الفترة كان آدم فاكهاني يبذل جهداً خارقاً وصبوراً من أجل أن يكون قربي دائما.. من أجل أن يأخذني بسيارته للتجول في برلين أو إلى النزهة حول بحيراتها الشهيرة.. أو إلى المطاعم الراقية... كنت كالممسوسة أو المسحورة.. أو كالسائرة في النوم.. كنت جسداً تتجلى فيه الفوضى الداخلية.. أتعرفن أن الألم هو معلمنا الكبير..؟... في حياتنا قد نمر بمعلمين كبار، ومخلصين.. لكننا لا نتعلم منهم شيئاً لأنهم ببساطة جاءوا في وقت مبكر بالنسبة لنا، ولفهمنا..ولنضجنا الروحي.... لذا لا نفهم هؤلاء المعلمين جيداً... مثل الحب الذي يمكن أن يمر بنا دون أن ننتبه إليه لأننا كنا مشغولين كنا نتوهمه حباً.... لكن الألم هو الوحيد الذي يجبرنا على الفهم.... والألم يمكن أن يفجر ينابيع الخير في أعماقنا.... وأحيانا كثيرة يفجر براكين الشر أيضاً.. على أية حال.. تعلمت من الألم بأنه لا شيء يستحق التألم من أجله.. أحسست أني أتحول.. أعود للحياة..... لكني كنت خلال هذه الفترة التي امتدت لثلاثة أشهر تقريباً قد تغيرت بشكل هائل... لم أعد تلك التي كنتها.. أحسست وكأني خرجت من شرنقتي...، لكني لم أكن أعرف بالضبط.. هل كنتُ نائمة فصحوت..؟ أو كنت يقظة فنمت..؟

نظرت حواء صحراوي إليها بحذر وسألت :

- ومتى تزوجته..؟ خلال هذه الفترة..؟

صمتت مدام فاكهاني. أخذت قنينة من النبيذ وسكبت للجميع. رفعت كأسها فرفعن الأخريات كؤوسهن، سألت مدام كريلائي مازحة، محاولة الخروج من الأجواء الجادة التي خيمت على الجلسة :

- بصحة من نشرب هذه الكأس..؟

لم تجرؤ أيّة واحدة منهن أن تقترح نخباً، لكن مدام فاكهاني فاجأتهن

بقولها :

- نخب شبح أختي ..
- شبح أختك..؟!

سألت حواء صحراوي باستغراب واضح، بينما تبادلت إيفا بعلبكي وحواء كربلائي نظرات مليئة بالألغاز، أما حواء فاكهاني فتلفتت إلى صديقتيها، ثم نظرت إلى حواء صحراوي قائلة :

- نعم.. شبح أختي.. مدام بعلبكي ومدام كربلائي تعرفان القصة.. فقد ظهر شبح أختي لي مرات في تلك الفترة.. كنت أحس أن هناك شيئاً ما أرادت أن تقوله لي.. إلا أن ظهورها أخذ يبتعد ويتلاشى حتى صار بالكاد يظهر لي.. ثم اختفى ولم يعد يظهر لي، لا سيما بعد زواجي من آدم فاكهاني.. لكنه عاود الظهور منذ فترة ..

صمتت، إلا أن حواء صحراوي سألت بفضول واضح :

- ولماذا اختفى..؟
- لا أدري.. اختفى دونما أي سبب.. مثلما ظهر إليّ دونما أي سبب ..
- هل تؤمنين بالأشباح والأرواح..؟
- نعم.. أنا أؤمن بها.. وأنت..؟

فوجئت حواء صحراوي بالسؤال، فصممت لثوان ثم قالت :

- الروح هي جوهر الكائن الإنساني.. والجسد هو الكيان المادي المعبر عن حضورها.. لكنني من الصعب استحضارها.. هي جوهر ..
- يعني لا تؤمنين باستحضارها..؟
- الروح لا تنتمي لسايكولوجيا الإنسان.. الروح ليست هي النفس.. ليس هناك تحليل روحي.. لكن هناك تحليل نفسي ..
- والأشباح..؟
- لا أدري.. أحيانا أحس وكأني أرى أشباحاً ..
- أليست الأرواح أشباحاً..؟
- لا أعتقد.. ربما نعم.. وربما لا.. لا أدري ..

تدخلت حواء كربلائي قائلة لتنهي هذا النقاش الذي يبعث الخوف في نفسها، فقالت :

- دعونا نشرب النخب أولاً.. ثم واصلن النقاش ..
- هذا صحيح .

علقت إيفا بعلبكي على كلام مدام كربلائي. رفعن كؤوسهن.،وأخذن

يرتشفن منها رشفات قليلة، باستثناء مدام فاكهاني التي شربت معظم النبيذ الذي كان في كأسها، ولم يبق منه إلا القليل، ثم صمتت، وكأنها كانت بعيدة عنهن. استمر صمتها للحظات. نظرت النساء الثلاث الباقيات إلى بعضهن باستغراب، حتى أن إيفا بعلبكي ظنتها سكرانة.. فجأة رفعت مدام فاكهاني رأسها وقالت موجهة كلامها إلى حواء صحراوي :

- ربما يراودك الفضول بأن تعرفي كيف تزوجته.. أليس كذلك..؟

لم تجب حواء صحراوي عليها، وإنما نظرت إليها بإرتباك ممزوج بالمودة. ابتسمت مدام فاكهاني لها وقالت :

- لم أكن حينها كما أنا الآن. كنتُ برغم صمتي وكتماني، وهشاشتي متقلبة، مزاجية.. لا أستطيع التركيز على شيء محدد.... بل كنت إذا ما تحدثت في شيء ما، كنت كثيرا ما لا أفكر بما أقوله أو أتحدث به.. لم أكن أستطيع التركيز.،. ولا يمكنني قول جملة مفيدة واحدة.. كنت منطوية على نفسي.. لا أحب التفكير.. أسعى للسهولة في كل شيء.. أكره الكتب.. والسياسة.. والأشياء الجادة في الحياة.. وما زلت.. بينما كان هو على عكسي تماماً.. كان يعرف تماماً ماذا يريد.. وماذا يفعل.. كان دائما يجد التبريرات لأفعاله.. يستنبط أفكاراً تبرر له كل ما يفعله.. ربما من الصعب على الإنسان أن يكون مقبولاً من الجميع.. وينال دعم الجميع.. لكنه كان قادراً على ذلك.. بل هو عبقري في التلون وتقمص الأدوار في المواقف المختلفة.. كان عنكباً بشريا هائلاً.. لذا وجدت نفسي حبيسة في بيته الرقيق.. لم أستطع إنقاذ نفسي.. لا أدري.. ربما لم أرغب في ذلك أصلاً..؟ لذلك وجدت نفسي أميل إليه بشغف.. أدمنته.. صار وجوده بالنسبة لي ضرورة.. وجدت فيه حماية لي.... وهكذا.. وفي ليلة ما كنا في المطعم، قدم لي خاتما رائعا.. وفاتحني بالزواج.. ولم أفكر لحظتها أبداً.. لأني مهووسة بالحلي.. والمجوهرات لحد الجنون.. وهكذا تزوجنا..... وكانت الأسابيع الأولى مليئة باللذة.. اكتشفت معنى اللذة والجسد معه.. كان يعرف كيف يوقظ جسدي.. هذا الجسد الذي بدا لي وكأنه تمساح أعمى.. يقفز قفزة هائلة أزاء أية حركة أو مس لجسده.. كان مروضا بارعاً للجسد.. كان يعرف نقاط ضعفي.. كان يدفعني إلى اللذة القصوى التي تدفعني للإنهيار الكلي، فتجعلني مستعدة إلى أن أتبعه إلى أية رغبة يشاء، أو أية غابة مظلمة يتوجه إليها دونما تردد............ إلى أن صحوت من نشوتي على حياتي الجديدة.. اكتشفت كم كنا مختلفين.... كان هو يفكر بعقله.،. بينما كنت أفكر بجسدي.. كان يميل إلى الزحمة وإلى الأماكن العامة التي تضج بالناس

والحركة، بينما كنت أميل إلى العزلة..... كان عالمه الليل، بينما عالمي هو النهار.......... إلى أن جاءت لحظة الهول العظيم.. حينما انتبهت ذات يوم، وبالمصادفة وحدها، إلى رسالة في جيب أحد معاطفه الشتوية.. رسالة وصلته من أحد المحامين معنونة باسمه.. لكني انتبهت إلى أنها كانت مرسلة على عنوان آخر.. استغربت حينها.. فهذه هي المرة الأولى التي أعرف فيها طبيعة عمله.. لأنني حين سألته حينها أخبرني بأن لديه مكتب للعقارات.. وأن لديه سلسلة من المقاهي.... لحظتها وكأن موجة عاتية من الوحل والقذارة تفجرت في وجهي.. سجلت العنوان على ورقة خاصة.. وفي اليوم التالي توجهت إلى تلك المنطقة.. على العنوان المحدد.. فوجدت المكان ليس أكثر من سلسلة من محلات (السكس شو) ومحلات بيع اللذة، محلات هي بيوت للدعارة العلنية الرسمية.. وكانت سيارته المرسيدس مركونة أمام الباب الرئيسي للمكان.. بالمناسبة.. كنت مدللته.. وكان قد اشترى لي سيارة (بي أم دبليو).. وهكذا بقيت في سيارتي التي صففتها على مبعدة من المكان.. إلى أن خرج بنفسه من الباب الرئيسي للمكان.. حيث أوصله بعض العاملين هناك.. وكانت هناك فتاة شقراء طويلة.. ذات جمال شيطاني.. قد خرجت معه.. أوصلته إلى باب السيارة.. قبلته قبلة خفيفة.. ثم رجعتْ داخلة إلى ذلك المكان .....

فجأة، ودون إرادة منها سألتها حواء صحراوي :

- وهل فاتحته بالأمر..؟

صمتت مدام فاكهاني للحظات بدت لهن ثقيلة جداً، ثم قالت :

- نعم.. فاتحته وأنا في حالة غضب بركاني.. إلا أنه كشف لي عن وجهه الحقيقي.. وعن قساوة لم أعرفها فيه أبداً.. بل إنه اعترف لي بأن هذه المحلات هي ملكه.... وأن لديه العشرات من المومسات اللاتي يعملن لديه.. وأن كل هذا الثراء.. وهذه الجواهر التي أشتريها أنا دون أن أنظر لأثمانها.. وكل هذا البذخ.. وكل هذا النعيم الذي أنا فيه.. ليس إلا من بركات هذا العمل الذي أستنكره.. ثم أكد لي بأنه يحبني، وإلا فهو محاط بالعشرات من الفتيات الجميلات.. لذا والآن قد عرفت.. عليّ أن أختار.. وهو يقبل بكل قراراتي... سواء أردتُ البقاء معه وأنا أعرف عمله كقواد، أم أن أنفصل عنه.. ولم أجد نفسي سوى بالقبول للعيش معه.. لحظتها فكرت بطريقة شيطانية بأني إذا ما قررت الإنفصال فسأخسر الكثير.. تصوري.. أنا في تلك اللحظة كنت أجري حسابات الربح والخسارة بعيداً عن أية كرامة أو كبرياء أو أية مشاعر.. لكني حينها أيضا طلبت منه الإجابة

على سؤال واحد: هل هو الرجل الذي أحبته اختي..؟ فأجابني بنعم.. لكنه برر عدم تجاوبه معها بأنه لم يكن يحبها لأنها كانت عاهرة.... وعاهرة رخيصة ومبتذلة.. وأنه حينما قابلني في المطعم معها.. أحبني من أول نظرة على الرغم من أنه محاط بعشرات النساء.. لذلك قرر أن يكون معي.. نعم أحبني من أول نظرة.. هل تصدقينني إذا ما قلت لك بأني فرحت جداً حينما قال لي ذلك.. وشعرت بشيء من الرضا الذي دغدغ غروري الأنثوي.... ولأنه كان يعرف تفاصيل قصة أختي.. وانتقامها من حبيبها بمضاجعة كل أصدقائه..، لذلك هددني بأني لو نظرت مجرد نظرة إلى رجل آخر لإثارة غيرته أو للانتقام منه، وليس التفكير أبعد من ذلك، فأنه سينحرني نحراً بالسكين مثل الشاة ودونما أية شفقة أو تردد..... هل تتصورين ذلك.. لقد عشت مرعوبة لسنوات من هذا التهديد.. ولم أجد وسيلة تجرحه للإنتقام منه سوى أن أمنح نفسي لغيره.. وأن أحطمه بخيانتي له.. لكني كلما أنوي ذلك، أتراجع خوفاً منه.. لكن هنا وبعيداً عنه أجد في نفسي الشجاعة للإنتقام منه.... وسأنتقم منه.. وسأبدأ من هنا.. من هذه الجزيرة ..

صمت الجميع للحظات. كانت هي تنظر إليهن، وتنتظر ردهن على ما قالته.. ابتسمت إيفا بعلبكي.. وقالت :

- إذاً لماذا ترددت في الذهاب مع الرجال الذين دعونا للسهر معه..؟
- ليست هناك مشكلة.. سنجد غيرهم الليلة ..

قالت ذلك وعادت إلى مرحها السابق وكأنما لم ترو هذه القصة الحزينة. أحست إيفا بعلبكي وحواء كربلائي وكأن عبئاً ثقيلاً إنزاح عن صدريهما، فقد عادتْ صديقتهما إلى مرحها وحيويتها.. إلا حواء صحراوي فقد أرعبها حديث مدام فاكهاني عن تهديد زوجها لها بالذبح، إذ تذكرت طليقها قابيل الموسى، وهوسه في الإنتقام منها ومن كل من يقترب منها .

في هذه اللحظة تعالت صيحات مرحة وصراخ باللغة الروسية من الطرف الآخر من حوض السباحة. التفت الجميع نحو جهة الصوت، فرأوا فتاة في البكيني تقفز في حوض السباحة بينما تعالى التصفيق والصفير من قبل أصدقائها، ثم نزع أحد الرجال قميصه وسرواله القصير وقفز خلفها، تبعته امرأة أخرى، بينما تعالت الضحكات المرحة من قبل معظم الجالسين حول طاولاتهم هناك .

أعادت إيفا بعلبكي الحياة للجلسة من خلال روايتها لبعض ما صادفها

عصر ذلك اليوم حينما دخلت لشراء عصير البطيخ الممزوج بالكحول والذي جربته عند مدام صحراوي.. وكيف أرادت أن تشتري قنينة واحدة، وإذا بها تخرج محملة بأربع قناني من أنواع مختلفة، وكمية من الحلويات المنتجة في الجزيرة، وأنواع خاصة من الصابون الممزوج بالليمون.. وروت كيف لاحقتها امرأة إيطالية، يبدو أنها سحاقية.. وعند ذاك تعالت النكات من الأخريات حول هذا الموضوع.، إلا أن مدام فاكهاني كانت أكثرهن إثارة، ويبدو أنها كانت، كما اعتقدن، مصممة على تنفيذ ما بذهنها، بالإنتقام من زوجها، من خلال الذهاب مع أحدهم.. ليس لأنها متوهجة بالرغبة الشبقة، وإنما تحدوها رغبة واحدة هي أن تمنح جسدها لرجل غريب كي يعبث به كما يشاء نكاية بزوجها القواد وانتقاماً لأختها.

لم تكن حواء فاكهاني وحدها ترغب بقضاء الليل مع رجل غريب، إذ أن إيفا بعلبكي وحواء كربلائي كن بنفس الحماس، فهن يعتقدن أن السياحة فرصة لتجديد الحب العائلي.. فالمرأة التي تلتذ مع آخرين، ترجع إلى زوجها محملة بعقدة ذنب وتقوم عندها بتعويضه.. من خلال منحه أجمل اللحظات ..

كانت حواء صحراوي الوحيدة التي تشعر ببعض الإرتباك. فجأة، قامت مدام فاكهاني عن كرسيها بطريقة احتفالية مرحة، ودعتهن لمواصلة السهرة خارج الفندق، إما بالذهاب إلى المطاعم والمقاهي المنتشرة على الساحل، وإما بالذهاب إلى المرقص الذي كن فيه قبل ساعات. نهضت إيفا بعلبكي ومدام كربلائي.. كانت حواء الوحيدة التي ما زالت جالسة.. أحست أنها تتصرف بغرابة.. لماذا تجلس بينما يريد الجميع الذهاب.. في تلك اللحظة نهضت هي أيضا، وهي تقول بثقة وبمودة واضحة :

- لقد تشرفت بمعرفتكن.. وأشكركن على هذه السهرة اللطيفة.. كما أتمنى لكن سهرة ممتعة ..

فوجأت النساء الثلاث بموقف حواء صحراوي، فقد كن يعتقدن بأنها ستذهب معهن، فسألتها إيفا بعلبكي مستغربة :

- ماذا ألا تأتين معنا..؟

- لا.. لقد كانت رحلة اليوم جميلة جداً.، لكنها كانت شاقة أيضا.. كما أن الساعة الآن قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل.. ربما مرة أخرى ..

نظرت حواء فاكهاني إليها بتركيز، وقالت وكأنما ترسل إليها رسالة سرية :

– كان بودي أن تكوني معنا.. لكنني لا أضغط عليك.. ربما أنت متعبة حقا.. لكننا سنلتقي غداً.. وقد تشرفت حقا بمعرفتك ..

صافحت حواء صحراوي النساء الثلاث متمنية لهن سهرة ممتعة مرة أخرى، وانسحبت بهدوء، وهي تستعرض من تبقى من الساهرين حول حوض السباحة، الذي كان يشع باللون اللازوري المترقرق والقادم من مصابيح في قاع المسبح.

الفصل السادس عشر: مأتم الأشباح

حين كانت حواء صحراوي في المصعد كانت تفكر بمدام فاكهاني وروايتها المثيرة عن نفسها، وقرارها الحازم بخيانة زوجها..، أحست بأنها لو كانت تعرفهن قبل هذه الليلة فربما ذهبت معهن.. أحست أنها تريد أن تغامر مثلها، ليس لتخون زوجها، فهي مطلقة وإنما لتخون نفسها، لا. الخيانة مفردة غير ملائمة، وإنما لتتحدى نفسها. هكذا كانت تحدث نفسها .

عندما وصل المصعد إلى طابقها، وخرجت من المصعد، كان الطابق أمامها من جميع ممراته مضيئاً، لكنها حين بدأت تتجه إلى جناحها الذي يقع في نهاية الممر في الجهة المقابلة للمصعد، بدأت أضواء الممرات تشحب، مهددة بالإنطفاء. أحست بقشعريرة تسري في جسدها، ومرت مشاهد مشابهة من أفلام رعب كانت قد شاهدتها سابقاً أمام عينها الداخلية. أخذت تسرع الخطو. كانت تحس وكأن هناك شخصاً غير مرئي يراقبها ويتتبع خطاها في الممر. انطفأت الإنارة في الممر الذي تمشي فيه، لكنها لم تنطفئ في الممر الجانبي الذي يبدأ من جناحها جانبياً. كان هناك شيء من الضوء ينير بجناحها آتياً من الممر الجانبي .

حين صارت حواء صحراوي على بعد أمتار قليلة من باب الجناح انطفأت الإنارة في الممر الجانبي للجناح أيضاً. فعمت الظلمة. لكنها كانت قد وصلت الباب ووضعت المفتاح في القفل. فجأة، أحست بجسد قوي، ضخم، لرجل طويل يطبق عليها من الخلف. أحد كفيه تمتد على نهديها وتقبض على فمها لإغلاقه، والأخر تجوس في جسدها اللدن. تدخل فتحت صدرها لتقبض على نهديها وتعصرهما، وبأصابع الكف تداعب حلمتيها، ثم تنسحب لتمتد إلى ما بين فخذيها وتداعبه بقوة. لم يكن بإمكانها أن تصرخ. استشعرت برغبة هذا الجسد القوي في أن يعجن جسدها كما يشاء، بل أحست أن كفاً امتدت إلى المفتاح لتديره، وتدفع بها إلى الجناح، ثم أغلق الباب .

انتبهت إلى أن الرجل الذي هجم عليها قادها إلى غرفة النوم في الظلمة، وألقى بها على السرير، ولم يتركها، وإنما ضغط بكل ثقل جسده عليها. أحست بأن عضوه بدأ ينتعظ، وأخذ يقرب وجهه لافحاً أذنيها بأنفاسه. كانت تفوح منه رائحة عطر مثير. فكرت بسرعة خارقة محللة الوضع الذي هي فيه وأفضل ردود الفعل لمواجهته، واستنتجت بأن المقاومة في مثل هكذا وضع سوف تنتهي إلى عنف ليست على استعداد لتقبله،

لتسترخي، حتى وإن أراد هذا الرجل الغامض أن يمارس معها، فليمارس ولينته هذا الكابوس الذي شلّها. كل هذه الأفكار والقرارات جرت خلال ثوان معدودة. أحست بنفسها وكأنها ليست هي، وأن ما يجري لها لا يجري معها، وإنما مع امرأة غيرها.. وأنها تحولت إلى روح، إلى عينين تنظران من الأعلى، من سقف الغرفة لما يجري على السرير. وبينما هي تفكر بذاتها هكذا، أحستْ بالرجل يرفع ثوبها من الأسفل إلى الأعلى، ثم يمد يده في سروالها من الأمام، ويسحبه إلى الأسفل. كانت هي طرية، مستعدة لأن يقوم الرجل بدخولها. كانت باردة المشاعر، وكأن الأمر لا يخصها، أو كأنه عقوبة يجب أن تنفذ، لكن فجأة، انسحب الرجل عنها. بل ابتعد عنها كليا. ظلت للحظات مستمرة على الوضع الذي هي فيه، منتظرة أي فعل آخر من الرجل. فكرت مع نفسها بأنه ربما ينزع سرواله أو ليتحرر من أي شيء يمكن أن يعيقه. مرت بضع دقائق دون أن يحدث أي شيء، حتى أحست وكأن الأمر ليس أكثر من كابوس، إلا أن هذا الإحساس تلاشى حينما سمعت صوت رجل يتحدث معها بإنكليزية جيدة لكنها بلكنة إيطالية قائلا :

- رتبي حالك.. وأجلسي أمامي.. أريد التحدث معك..؟

قبل أن تستدير أحست أنها تعرف هذه النبرة، وبسرعة خاطفة تذكرت الرجل الإيطالي الوسيم، بل إنها سبق لها وأن شعرت به يطبق عليها من الخلف عند الباب، لكن ذلك لم يكن سوى كابوس، بينما الان هي تسمع صوته، ويتحدث معها، برغم الظلام الموجود في الغرفة، وأحستْ بأن أي تصرف متهور منها لطلب النجدة غير المضمونة سيكون مخاطرة لا تعرف نتائجها، فهذا الرجل واثق من أمره جداً، وإلا لم يقدم على تصرفه المجنون هذا لو لم يكن قد أمن سلامته، لكن لماذا في الظلمة..؟ سألت نفسها. فجأة وكأن الرجل قد قرأ أفكارها، إذ قام نحو مصباح جانبي على الطاولة فضغط على زر فأضاء الغرفة بنور شاحب. لحظتها رأته هو، نعم، الرجل الإيطالي الوسيم نفسه، مرتديا بلوزاً فاخراً أصفر اللون وسروالاً أسود، وهو جالس على المقعد القريب من السرير، في مواجهتها، وإلى جانبه على الطاولة المجاورة، مسدس كاتم للصوت بماسورة طويلة. أحست برجفة تسري في جسدها، إذاً هو ليس بمغامر، ليس بكازانوفا الذي يسطو على مخادع النساء وإنما هو قاتل محترف، وإلا لماذا لم يضاجعها، علما أنها لم تتصدَ له مدافعة عن نفسها، بل على العكس كانت مستسلمة، كما أنه كان منتعظاً..؟ لا بد من وجود لغز ما.. فما هو يا تُرى..؟ وماذا يريد منها..؟

ولماذا يحمل مسدساً كاتماً للصوت..؟ ألإخافتها..؟ أم جاء لقتلها..؟ هيئته لا توحي بأنه قاتل..؟ ثم لماذا انسحب عنها ولم يكمل..؟ ظلت تنتقل بين هذه الأفكار بسرعة خارقة دون أن تستقر على تفسير محدد،لكنها كانت محبطة لأنه أنسحب عنها .

تأملته بسرعة كي تحدد مخاطر الوضع، فرأته هادئاً، ترتسم على وجهه بعض القسوة، وكأنه يفكر في شيء بعيد. نظر إليها وقال لها :

- هل تعرفينني..؟
- لا ..
- انظري إليّ جيداً ..

أخذت تحدق إليه بارتباك.. فقالت بارتباك :

- نعم.. أعتقد أني رأيتك في الباخرة العبارة.. وكنت معنا في الرحلة أيضاً ..
- إذاً لقد عرفتني ..
- نعم.. تذكرتك.. لكني لا أعرفك ..

نظر إليها باستغراب ممزوج بإعجاب وقال :

- أنت دقيقة جداً.. تذكرتني لكنك لم تعرفيني.. هذا دقيق جداً ..

سادت بينهما لحظات من الصمت، أرادت أن تعبر عن احتجاجها لدخوله جناحها، لكنها وجدت أن عليها أن تتدبر الأمر بشكل أفضل.. فالرجل لا يبدو عليه قاتلاً.. لكن ماذا يريد..؟ كانت تفكر مع نفسها، حينما سألها :

- هل سألت نفسك بأن لقائي معك في الأماكن التي تواجدنا فيها كان مجرد مصادفة.. قدر بين إثنين..؟
- لا أعرف.. أفترض أننا مصادفة التقينا في هذه الجزيرة.. أليس كذلك..؟
- لا.. ليس كذلك..؟
- ماذا تقصد..؟

استغربت حواء صحراوي من نفسها، فقد أخذت تهدأ شيئاً فشيئاً، وأحست برغبة في معرفة ما يدور حولها، إذ راودها إحساس غامض بأن ثمة شيئا له علاقة بزوجها، وبآدم التائه تشمه في كلامه.. وقبل أن يجيب سألته ثانية :

- من أنت..؟ وماذا تريد مني..؟ وكيف تجرأت أن تهاجمني هكذا..؟ من أنت..؟

قالت ذلك وهي تستقر بشكل أفضل في جلستها، وأرادت أن تقوم لإضاءة الغرفة من خلال المصباح الرئيسي فيها، إلا أنه أمسك بالمسدس في يده، وقال لها بحزم وبلهجة آمرة :

- أرجو أن تجلسي في هدوء.. ألاّ تقومي بأية حماقة تندمين عليها.. ما ضر لو تحدثنا هكذا على ضوء هذا المصباح.. أتحبين الأضواء إلى هذه الدرجة..؟

نظرت إليه حواء صحراوي بتوتر وقالت :

- من أنت حتى تهجم علي وتقتحم جناحي وتفرض عليّ الجلوس بهدوء..؟ أنا يمكن أن أصرخ طالبة النجدة وعندها يتم القبض عليك.. أتريد أن أقوم بذلك..؟

نظر الرجل الإيطالي الوسيم إليها وعلى وجهه ابتسامة ساخرة وقال متحدياً :

- أطلبي المساعدة.. وستكونين قد اقترفت الخطأ الأكبر في حياتك.. هل تريدين الصراخ..؟ إصرخي.. إن استطعت..؟ إطلبي المساعدة إن استطعت..؟

حاولت حواء أن تصرخ إلا أن فمها بقي مفتوحاً دونما صوت. أحست بأنها عاجزة حقاً عن القيام بأي شيء، فقالت باستسلام ونبرة فيها يأس واضح :

- من أنت..؟ وماذا تريد؟ أتريد مالاً..؟ قل لي.. سأساعدك ..

نظر إليها نظرات مليئة بالفضول والشفقة، وقال :

- لا أحتاج للمال.. لدي منه الآن.. أو سيكون لدي منه الكثير ..
- ماذا تريد إذاً..؟ ومن أنت..؟

نظر إليها بتركيز دون أن يرف له جفن، وقال بهدوء :

- أنا قاتلك ..
- ماذا..؟

صرخت حواء صحراوي بصوت عال دون إرادة منها، وأرادت أن تقفز خارج الغرفة. إلا أنه كان أسرع منها ووقف في طريقها عند فتحة الباب. أحست بالخطر، وبرعشة هزت أعمق أعماقها، فقد رأت قسوة الموت البارد تشع من عينيه. أدركت أن هذه اللحظات الغامضة تختصر كل حياتها، لكنها لم تفهم لماذا.. رجعت بخطوات مرتبكة إلى الوراء وجلست على حافة السرير بارتباك. جلس هو على المقعد المقابل. نظر إليها متأملاً جسدها المثير، ونهديها اللذين تمردا على الثوب فبرزا من حافته. كان وكأنه يصارع

نفسه في أن يضاجعها أم لا.. كانت هي تريد أن تكسب بعض الوقت لتفهم ما يجري لها.. ولماذا يريد هذا الرجل الإيطالي الوسيم قتلها..؟ ما هي جريمتها التي يعاقبها عليها..؟ هي لا تعرفه ولم تقابله سوى في هذه الجزيرة.. فلماذا يريد قتلها..؟. فجأة سألها :

- من المؤكد أن تسألي نفسك: من هو هذا الرجل..؟ ولماذا يريد قتلي..؟

أحست حواء صحراوي برجفة حينما قال جملة: أريد قتلك.. لم تجب على سؤاله.. لكنه واصل كلامه بهدوء شديد وكأنه في جلسة عائلية، قائلا :

- أنت لا تعرفينني.. ولم نتقابل سوى هنا في هذه الجزيرة.. لكنني أعرفك.. وكنت أنتظرك.. بل وجئت من بلد آخر لهذا الغرض.. وكان علي تنفيذ هذا الأمر أول وصولك.. لكني لم أنفذ ذلك.. هل تعرفين لماذا..؟

لم تستطع حواء صحراوي أن تجيب، كانت كلماته ترعبها، لكنها كانت تحاول أن تفهم شيئاً مما يقول وتفسره ما يقول، وكأنها كانت تشق السحب المعتمة في أعماقها لتصل إلى السماء الصافية، إلا أن الرجل الإيطالي الوسيم أدرك الحالة التي هي فيها، فلم ينتظر جوابها، بل واصل حديثه :

- لأني أحببتك.. لأول مرة طوال حياتي أتعاطف مع ضحيتي ..
- ضحيتك..؟

نطقت حواء صحراوي تلك الكلمة بصوت مبحوح، مخنوق، بالكاد يُسمع. نظر هو إليها وقال :

- نعم ضحيتي.. أنا القاتل المكلف بقتل إنسان ما.. وهذا الإنسان هو أنت.. أنا القاتل وأنت الضحية.. هذا الأمر لا يحتاج لتفسير طويل.. لكنك تريدين أن تعرفي لماذا أريد قتلك.. أليس كذلك..؟
- نعم ..

تمتمت حواء صحراوي بصوت مخنوق، فقال لها دون أن يعبأ بالحال التي هي فيها :

- لأن زوجك.. أو بالأحرى طليقك العربي يريد ذلك ..
- زوجي السابق..؟ قابيل الموسى..؟

قالت ذلك برعب. نظر هو إليها هازاً رأسه بالتأكيد، مواصلاً حديثه :

- نعم.. هو.. وقد التقيته مرات عديدة في لندن.. قبل أسبوع.. لقد كلف هو جهة ما للقيام بهذه المهمة.. وهؤلاء فاتحوني بإنجازها.. فقابلته.. فأنا قاتل محترف ..
- لكن لماذا..؟ لماذا يريد قتلي.. ألم يكتف بأن دمّر حياتي..؟

- زوجك إنسان مريض نفسياً ..
- إنه ليس زوجي.. إنه طليقي ..
- نعم.. طليقك.. على أي حال.. لقد قابلته في مانشتسر وليس في لندن.. إنه إنسان صفراوي.. لئيم.. فظ.. وتافه.. خمنت أنه يحقد عليك ويريد القضاء عليك لأنك عقدة حياته.. إنه ضعيف أمامك.. لحظتها لم أعرف لماذا هو ضعيف أمامك.. لكني منذ أن رأيتك في مطار نابولي راودني إحساس، بل لأقل معرفة غامضة بالسبب.. ولا أدري أن كنتُ متيقناً فعلاً من السبب.. لكن أسألك: أظن أنه لم يستطع أن يمتلكك كرجل.. كان عاجزاً أمامك.. وهذا ما أشعره بضآلته أمامك.. لأنه لم يستطع أن يمتلك جسدك.. أصحيح حدسي..؟

صمتت حواء صحراوي للحظات. وأحست بأن ثمة بارقة من الأمل لمعت من بين ثنايا كلام هذا القاتل، أولا من خلال أعترافه بحبه لها، وثانيا لإحتقاره وتشخيصه الدقيق لطليقها، ويمكنها أن تغير مصيرها الآن.. عليها أن تتحلى بالصبر قليلاً، فقالت بنبرة حزينة :

- نعم.. صحيح لحد ما.. فقد كان محبطا وعاجزا في ليلة الزفاف.. وأعرافنا تقتضي أن يكون هناك دم البكارة ..
- آها ..
- ولم يستطع برغم محاولاته ..
- وكيف تم الخروج من المأزق..؟
- اخترقني بأصبعه ..
- يا للتافه..!

أحست حواء صحراوي بنبرة الإشمئزاز في صوت القاتل، فأرادت أن تكسبه إلى جانبها من خلال إخباره بقصتها هي وليس ما سمعه هو منه عنها فقط، فقالت :

- لقد دمر حياتي.. حول حياتي إلى جحيم.. صرت أكره حياتي.. إنه يتبعني مثل ظلي.. بل إن ظلي يختفي في الليل وفي الظلمة.. بينما هو يلاحقني ليل نهار.. بل يلاحق كل من أعرفه أو أتعرف عليه.. ويؤذي بعضهم.. أنا مرهقة للغاية.. في أعماقي روح هرمة.. حتى أني صرت أتمنى الموت.. وها هو جاءني.. لكن ليس برغبتي بل برغبته هو.. وهذا ما يضايقني..

كان هو ينظر إليها بتمعن وكأنه يدرس كل نبرة وكل كلمة وكل تعبير على وجهها ليعرف صدقها من إدعائها. استمرت لحظات صمت بينهما.

فكرت حواء صحراوي بأنها لم تحدث فيه التأثير المطلوب فأرادت أن تواصل كلامها، إلا أنه بادرها قائلاً :

– اسمعيني أيتها السيدة.. أنا قاتل محترف.. لكني لستُ قاتلاً بطبعي.. أقصد أنني أتخذت هذا الأمر مهنة بعد أن أردت أن أصل إلى سر الحياة ولغز الموت.. لا تستغربي.. أعرف أنك حاصلة على شهادة عالية في الآداب.. لذلك قبلت هذا التكليف مباشرة.. لأنه كان لديّ يقين غامض بأن هذه المرة الأمر مختلف.. شخصياً.. عرفت الأديان كلها.. لكنها زادتني حيرة.. بل سهلت عليّ القتل.. لأن جميع الأديان تدعي امتلاك الحقيقة الكلية.. وبالتالي لا قيمة لأبناء الديانات الأخرى.. فهم حطب لجهنم.. وقرأت الكتب المقدسة للأديان الثلاثة فصادفت فيها كماً هائلاً من الهراء واللغو والتناقض التافه.. ولا أستطيع أن أفهم كيف أن مليارات البشر يؤمنون بها..؟.. أنا أجد أن الأديان صارت مهمتها إدارة الشر أكثر مما تسعى لتفجير ينابيع الخير في أعماق الإنسان كما تدعي.. حتى الخير في الأديان ليس إلا صفقة تجارية تنجي الناس من عذاب أليم.. وتبيعهم صكوك الغفران.. وتوعدهم بجنة الملذات.. بالنساء والغلمان.. ثم توجهت إلى التصوف فرأيت انه يدعو إلى إمحاء الذات.. إلى البلادة وعدم التفكير، وإطفاء الشهوات بحيث يتحول الجسد إلى آلة عفنه لعمليات التغوط والتبول.. هذا جنون مطبق.. ما الحياة إذن..؟ أنا ضميري أعمى.. بل هو أخرس.. وأطرش.. فهو لا يسمع شيئاً.. ضميري يوحي إليّ أحياناً بأن كل شيء مباح.. فهو لا يؤمن سوى بالعدم.. إنه مشدود إلى العدم.. إنه يستمد معنى الوجود من العدم.. ضميري يسخر من كل شيء اسمه الأخلاق.. لذا لا أرى في القتل جريمة.. إنما نقطة في نهاية سطر لحياة بشرية تافهة.. وطي صفحة لصراع تافه... لا تستغربي.. إذا ما قلت لك إنني أرحم ضحاياي.. لكن ذلك يكون بإيجاد أسهل الطرق وأسرعها للموت... ولم يحصل قط أن تعاملت مع ضحاياي بشكل عاطفي.. كما يحدث معي الآن.. معك.. لا أدري.. أعتقد ان النساء كائنات غامضة.. ليس كل النساء طبعاً.. فهناك نساء تسكنهن الشياطين.. إنهن كقطيع من ضباع نتنة تفتش عن الجثث العفنة كي يقمن ولائمهن الحقودة.. لكنك امرأة مختلفة ..

حين انتهى القاتل من حديثه عن نفسه شعرت حواء صحراوي بأنها ليست أمام مجرم، وإنما أمام شخصية مثقفة ومتفلسفة، شخصية تبدو وكأنها قد فرت من رواية لدستويفسكي أو كافكا أو بول أوستر.. وخطر في

ذهنها بعض شخصيات شكسبير الذي تعرفه جيداً. أحست بتعاطف غامض مع معاناته.. لكنها كانت مشوشة، إذ كيف سينتهي أمرها معه..؟. استغربتْ من هذا الهدوء والسلام الذي استقر فجأة في أعماقها، لكنها الآن تشعر برغبة في أن تخاطر بسؤال يلح عليها، لكن ربما سيستفزه، إلا أنها وجدت نفسها تنطق بالسؤال قبل أن تسيطر على نفسها وتصمت :

- ألا تشعر بأن روحك مثقلة بالخطايا..؟

نظر إليها وعلى وجهه ابتسامة حزينة، وقال لها بهدوء :

- أنا لا أؤمن بالروح ..
- ماذا..؟
- كما سمعتِ.. أنا لا أؤمن بالروح.. وأعتقد أن مشكلة الإنسان هي البحث عن إجابة للسؤال: من أنا..؟.. شخصيا.. ومن خلال قراءاتي في البحث عن إجابة لسؤال الروح.. وجدتُ أن الروح هي عالم العقل الباطن.. لكن سؤال الروح سؤال معقد.. فلو افترضنا وجود الروح كجوهر منفصل.. فهل هي تنمو كما الجسد.. بمعنى هي عند الأطفال روح طفلة.. وعند المراهقة هي روح مراهقة... وعند الهرم هي روح عجوز.. وعند الأحدب هي روح حدباء.. وعند الجميلة هي روح جميلة.. وعند النتن هي روح نتنة.. أي هل تأخذ المواصفات البايولوجية والأخلاقية للجسد الذي تسكنه..؟ ولو افترضنا أن الروح تصنف حسب الأنواع، فهل هناك روح حيوانية وروح نباتية مثلما الروح الإنسانية..؟ ولو دخلنا عالم الذرات، وعرفنا أن هناك حركة، وهناك أشياء تتحرك وتعيش وتفنى.. فهل هذا يعني بأن الذرة لديها روح.. وهل هي روح ذرية.. أو هي نحن أيضا.. لأننا نتشكل من ذرات..؟ .

كانت تنظر إليه مأخوذة غير مصدقة بأن هذا الذي يتحدث معها رجل قاتل جاء للقضاء عليها مقابل مال استلمه من طليقها..؟ كيف لهذا العقل المتقد، والفكر الشقي أن يكون قاتلاً..؟ كيف لرجل بهذه الوسامة أن يكون قاتلاً..؟ أحست برغبة في أن تقترب منه، فقالت له :

- الأنا.. هي النفس الواعية ..

لأول مرة أحست أنه نظر إليها بمودة، بعيداً عن خشونته التي كانت جزءا من قناع القاتل، وقال لها مبتسماً :

- هذه طروحات فرويد.. لقد كان ينظر إلى الأعماق اللاشعورية بارتياب شديد.. لقد كان ينظر إلى الكائن.. إلى النفس البشرية وكأنها بركان يطلق لهباً وسائلاً نارياً، الذي هو إثارات ورغبات غامضة وفوارة.. أتدرين

أن فرويد نفسه كان تعيساً في حياته الزوجية.. كما أنه لم يكن مرتاحاً من الناحية الجنسية.. مثلك أو مثل زوجك..؟ أتدرين أنني درستك جيداً..؟ لقد زودني زوجك بعشرات الصور لك.. أخذها لك دون علمك في أوقات وأماكن وأزمان مختلفة ..

- ماذا..؟

- نعم.. بالمناسبة.. لقد درست شخصيتك كثيرا.. بل ودرست أيضاً شخصية طليقك ..

- وماذا وجدت..؟

- زوجك مريض جداً.. ثمة دودة تقرض تفاحة قلبه المتعفنة.. وثمة بكتريا قاتلة تتغلغل في أعماق كبريائه الجريحة.. إنه إنسان مهزوز وضعيف الشخصية برغم الملايين التي يملكها.. والخطر يأتي عادة من الضعفاء.. بل بالتحديد من الأضعف منك وليس من الأقوى منك ..

ابتسمت له هي أيضا لأول مرة برغم الوضع الذي هي فيه، قائلة بنبرة فيها شيء من الحفاوة :

- إنك تتحدث بحكمة.. تمزج خبرة الكتب مع خبرة الحياة ..

ابتسم بحزن وقال :

- الحكمة.. الحكمة.. أنا لا أؤمن بالحكمة.. الحكمة امرأة مستهترة.. مزاجية.. لا يعجبها أي شيء.. دائما تجد عدم الكمال والنقص في الأشياء وفي كل الأفعال.. دائما تفترض شيئاً آخر.. الحكمة تحب الأقوياء.. تلتذ بقسوتهم عليها.. تلهث وراء الأقوياء الشرسين كأنها كلبة شبقة ..

انتبهت إلى أنهما صارا يتحدثان وكأنهما أصدقاء، لكنها برغم ذلك لا تعرف كيف سينتهي كل هذا الوضع، فأرادت أن تخطو خطوة لتجس أبعاد الوضع الذي هي فيه.. فقالت له :

- هل بالإمكان أن ننير الغرفة أكثر ..؟

- لا ..

- لماذا..؟

- لأنك في هذا الضوء الشاحب قليلاً تبدين وكأنك امرأة ليست من هذا الزمان.. إنك بالنسبة لي الجمال متجسداً.. أتدرين لماذا أراك رمزاً للجمال..؟

- أتمنى أن أعرف قبل أن تقتلني ..

ابتسم لها ابتسامة حزينة، دون أن ينفي عن نفسه بأنه لا يريد قتلها، وإنما أخذ يوضح فكرته، قائلاً :

- لأن الجمال.. أو الشيء الجميل هو الذي يثيرنا دون إرادتنا.. دون أن تكون لدينا مصلحة أو منفعة أو فائدة فيه او معه.. ودون قصدية واضحة.. هو ذلك الشيء الذي يمنحنا اللذة والسعادة الداخلية.. وأنت بالنسبة لي هكذا.. فأنا على العكس.. يفترض أن أقتلك.. بل إن مصلحتي في أن أقتلك.. وقد اتفقت على أجر كبير.. مليون دولار.. لكنك برغم كل هذا منحتني سعادة ولذة من خلال رؤيتك وحضورك ..

لم تثر حواء صحراوي كلامه عن جمالها وتأثيرها عليه، بقدر ما أثارها ذلك الرقم الكبير الذي ذكره كأجر لعملية قتلها.. وهو مبلغ لا يمكن التراجع عنه.. فأحست برجفة تسري في جسدها.. وشحب لونها، وأحست بوخزة في قلبها.. وخزة أثارت مخاوفها، وشعرت بعرق بارد أخذ يغطي جبينها، وندت عنها جملة قالتها بنبرة يائسة:

- مليون دولار لقتلي.. ياويلي.. إذاً موتي محتم..!

صمت هو للحظات. أحنى رأسه. ظل محدقا إلى الأسفل وكأنه يفكر بشيء ما، ثم رفع رأسه وقال لها :

- طليقك رجل قاتل.. ليس قاتلاً مثلي.. إنما هو حيوان قذر.. لزج.. دنيء.. وقميء.. وإذا لم أقتلك سيقتلني.. أعرف ذلك.. سيرسل إلي من يقوم بتصفيتي كما أرسلني لتصفيتك.. بل ربما هو أرسل بعضهم خلفي ليتأكد من تنفيذي للإتفاق.. ربما.. محتمل من شخص حقود.. وبيده سلطة ومال مثل طليقك.. بالمناسبة.. هو ليس قوياً.. على العكس هو عاجز عن إبداء أية إرادة حرة.... في أعماقه إحساس هائل بعدم الثقة.. يربكه الشخص القوي والواثق من نفسه.. بل ويمتلئ غيرة عندما يصادف ذلك... لذلك يبدي رجولة فارغة.. يكشف عن غضب وحقد في تصرفاته ونبرة صوته وحركاته، فيصبح عنيفاً وخطراً ..

كانت حواء صحراوي تفكر في كلامه الذي أعدم كل آمالها بالخلاص، فقالت بنبرة مستسلمة :

- أعرف ذلك ..

- لذلك قتل عشيقك العراقي.. الطالب الجامعي.. وكذلك المسكين العراقي الآخر عشيق صديقتك الممثلة الإنكليزية ..

ارتعبتْ حواء صحراوي حين سمعت ذلك، فقالت بنبرة مليئة بالدهشة :

- الكاتب آدم التائه..؟ قبل أيام..؟

- نعم ..

- هل قتلته أنت..؟
- لا.. لكني أعرف المجموعة التي قتلته.. وكان هو معهم ..
- والجثة..؟
- الجثة تم نقلها في فجر اليوم نفسه.. بعد الجريمة بفترة قصيرة جداً.. أول الأمر تم قتله وغادروا.. لكنهم أرادوا عملاً متقناً جداً.. عادوا بثلاث سيارات.. قامت المجموعة بنقل الجثة إلى مجازر تابعة لأحد رجال المافيا من أوروبا الشرقية.. وقد وضعت في مجمدة.. وسيتم تقطيعها شيئا فشيئا ..

أحست حواء صحراوي بأنها على وشك الإنهيار.. فانتبه هو إلى ذلك فقام مسرعا ليجلس إلى جانبها، ويحضنها.. أحست هي بأن جسدها صار وكأنه خرقة.. وراودتها لحظة عدمية بنهاية كل شيء .

كان الليل نديا.. وصوت أمواج الشاطئ التي تتلاطم بهدوء على الساحل تأتي من النافذة المفتوحة، وأصداء موسيقى تأتي من مكان بعيد.. في تلك الغرفة الشاحبة الضوء استسلمت حواء صحراوي لموتها الغريب.. كانت بين ذراعي قاتلها الذي أخذ يقبل شفتيها بحرارة، ويده الأخرى تنزع عنها الثوب من الكتفين ليهبط إلى نهديها.. كانت تشعر بكثافة الحياة في هذه اللحظات.. لا سيما حينما أحستْ به يدخل فيها.. يدخل إلى أعمق أعماقها بعنف وإيقاع ساحر، بينما إحدى كفيه لم تترك المسدس الكاتم للصوت. هيمن على الغرفة صمت مطبق لايشقه سوى إيقاع إيلاجه فيها.. صوت مثير.. متكرر.. هادئ.. وكأنه إيقاع خطوات القدر تأتي من بعيد .

الفصـل السـابـع عشـر: أشباح في متاهة

فجر ذلك اليوم، حين جاء العامل الذي عليه تنظيف حوض السباحة، وترتيب الطاولات، وتحضير المناشف للذين سيستلقون تحت الشمس، وجد جثة امرأةٍ ترتدي فستاناً اسود وهي طافية ومنكبة على وجهها على سطح الماء. صرخ مولولاُ ومناديا الطباخين الذين عليهم إعداد وجبة الفطور لنزلاء الفندق، والذين قاموا بدورهم بمناداة الموظف الخفير من إدارة الفندق، والذي قام هو بدوره بالإتصال بإدارة الفندق العليا وبالجهات الرسمية .

* * *

في جزيرة إسكايا، وفي (فيا فونديرا 2)، وفي منطقة (لاكو أمينو) تقع مستشفى (آنا ريزولي)،. وفي إحدى قاعاتها السفلى، حيث مشرحة المستشفى كانت ترقد هناك أربع جثث لنساء سائحات على مصاطب حجرية من المرمر، وقد تم نقل الجثث فجر ذلك اليوم بعد أن انحرفتْ سيارة تاكسي كانت تقلهن إلى (سانت أنجلو) وسقطت من مرتفع عال جداً نحو الوادي المطل على البحر .

لم ينج أحد من الحادث سوى سائق التاكسي الذي أصيب بجروح خطيرة، ويرقد الآن في العناية المركزة .

في تلك القاعة الباردة فتحت حواء صحراوي عينيها فوجدت نفسها أنها ما زالت في ثوب السهرة الأسود. أحست أنها كانت في كابوس مريع.. لكنها ارتاحت حينما تذكرت بأن كل ما كان من رؤيتها للرجل الإيطالي الوسيم لم يكن سوى رؤية كابوسية.. ربما كانت نتيجة لرغبتها فيه. لكنها استغربت وجودها في هذه القاعة الباردة.. ماذا جرى لها..؟ هل هي في قسم العلاج بالطين البركاني..؟

حانت التفاتة منها فهالها المنظر، إذ وجدت صديقاتها الثلاث وهن مستلقيات على المصاطب المرمرية مثلها أيضا. فجأة فتحت النساء الثلاث عيونهن. استغربن وجود حواء صحراوي معهن، فسألتها إيفا بعلبكي وهي في حالة الإستلقاء:

- ماذا تفعلين هنا يا مدام صحراوي..؟ هل مت مثلنا أيضا..؟
- مت..؟ لا.. ماذا تقولين..؟ ما معنا مت مثلنا..؟ أأنت في كامل قواك..؟ أنت تتكلمين معي فكيف أنت ميتة..؟

أجابتها إيفا بعلبكي :

- نحن ميتات يا عزيزتي مدام صحراوي.. نحن أشباح ..

- أشباح..؟
- نعم يا عزيزتي.. كلنا أشباح ..

صعقت حواء صحراوي من كلام إيفا بعلبكي. أدارتْ رأسها. كانت إيفا بعلبكي تنظر إليها مبتسمة، بينما ظلت مدام فاكهاني ومدام كربلائي صامتتين وترميان سقف القاعة بنظرات باردة.. فجأة، دخل القاعة فتى في بداية العشرينات من عمره، إلا أنه يبدو للناظر إليه وكأنه يكبر عمره بسنوات .

كان الفتى شاحب الوجه، ناحل الجسد، كث الشعر، طويل القامة، يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أحمرَ، يرتدي فوقهما قميصاً طويلاً أزرق اللون يصل إلى ركبتيه. كانت تنبعث منه رائحة كريهة، نتنة، رائحة الجثث المتفسخة، ورائحة الأدوية المعقمة .

حين لمحت حواء صحراوي الفتى وهو يقترب منها جلست على سريرها المرمري ومدت ساقيها لتتدليا من جانب السرير. اقترب الفتى منها ووقف أمامها. سألته :

- من أنت..؟
- آدم الحارس..؟
- ماذا تحرس..؟
- مشرحة بغداد ..
- مشرحة بغداد.. لماذا مشرحة بغداد..؟
- لأنها مشرحة العالم كله ..
- هل أعرفك..؟
- لا أعرف..؟
- أين أنا..؟
- في المشرحة ..
- هل أنا في بغداد..؟
- لا ..
- أين أنا اذاً..؟
- في اللامكان ..
- أين..؟
- في اللازمان ..

وبشكل آلي مد يده إليها ليساعدها على الوقوف. أخذت كفه وسارت معه بقدمين لا تطآن الأرض. حين وصلت إلى باب القاعة التفتت إلى صديقاتها فلم تجدهن.. كانت القاعة فارغةً.

مشت حواء صحراوي مع آدم حارس المشرحة في ممر طويل طويل.. على جانبيه قاعات ينطلق منها ضباب أبيض يغطي الممر.. صارا يمشيان في الضباب.. إلى أن اختفيا في أعماقه البيضاء .

* * *

في المركز الرئيسي لشرطة نابولي كان إثنان من المحققين يقابلون الرسام العراقي آدم الغفاري، ويسألونه عن السيدة حواء صحراوي، بعد أن وجدوا اسمه ورقم تلفونه مكتوباً على الجهة الخلفية من التخطيط. لم يتخلص من أسئلتهم بسهولة، إذ أخذوا يسألونه عن تفاصيل خاصة بحياته في إيطاليا ونشاطه السياسي فيها .

لم يطلق المحققون سراح الرسام آدم الغفاري، وكانوا يريدون التأكد أكثر، بالذهاب معه إلى المطعم الذي التقى فيه مع الضحية حواء صحراوي.. أحس آدم الغفاري أنه دخل متاهة مرعبة .

لم ينقذه من اتهاماتهم المبطنة له بقتلها إلا حينما أخبرهم بأنها أثناء جلوسها معه كانت تتبادل النظرات مع رجل إيطالي وسيم.. وحينما سألوه عن الكيفية التي عرف فيها أنه إيطالي، أخبرهم بأنه سمعه يتحدث مع النادل بإيطالية طليقة، وبلهجة أهالي روما، حينها طلب المحققون منه أن يرسم تخطيطاً للرجل الإيطالي. وبعد عشر دقائق كان التخطيط بين أياديهم. كان الأمر مفاجأة لهم، فقد عرفوه مباشرة، فهو من المطلوبين في قضايا أخرى، واسمه الحقيقي آدم دي ميتشي، فأخذوا يرسلون البرقيات والشفرات إلى جميع أنحاء إيطاليا، إلى الفنادق، والمطارات، ومحطات القطار، والموانيء .

المحققون كانوا يريدون التأكد أكثر، بالذهاب مع آدم الغفاري إلى المطعم الذي التقى فيه مع الضحية حواء صحراوي، وبينما هم يستعدون للذهاب إلى هناك، وصلت برقية بالعثور على جثة قتيل في أحد فنادق نابولي، مع إشارة بأن صورته تتطابق مع صورة آدم دي ميتشي التي وزعتها شرطة نابولي، إلا أنه يحمل جوازاً أميركيا واسمه آدم أوستر. كما وصلهم كتاب من المترجم المحلّف الذي أكد بأن ما مكتوب ليس سوى كلمتين غير مفهومتين هما:

متاهة الأشباح.

انتهت

بدأت كتابة الرواية في 21/03/2013

برلين – كولن – باريس – جزيرة أسكيا – (نابولي) إيطاليا – برلين

انتهت في برلين 2/9/2013

انتهى